أنبياء التوراة

والنبوءات التوراتية

http://www.al-maktabeh.com

تأليف : م . ريجسكي

ترجمة : الدكتور آحو يوسف

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مدخل

سيدور الحديث في هذا الكتاب حول أنبياء التوراة ، أي حول الناس الذين جرى تدوين نبوءاتهم في التوراة ، وبشكل رئيس ضمن جزئها الأول ، المسمى « العهد القديم » لكن هذا « العهد القديم » ظهر بمثابة كتاب مقدس للديانة اليهودية القديمة ، ولذا فإنه من الملائم تذكير القارىء ببعض المعطيات العامة عن تلك الديانة ، وقبل كل شيء عن التوراة ، وهي المصدر الأساسي للمعطيات المشار إليها .

إن العهد القديم ، كما هو معروف ، يشكل الأساس الإيماني للديانتين اليهودية والمسيحية ، ففي كتاب « أصول الدين المسيحي المفصلة » المعتمد من قبل الكنيسة الأرثوذكسية بمثابة أحد المناهج التدريسية الأساسية في المدارس الدينية (وقد قام بتأليفه مطران موسكو فيلاريت (دروزدوف) في أواسط القرن الماضي)، نجد المؤلف يتساءل : « ما الذي يسمى بالكتاب المقدس ؟» ثم يجيب كالآتي : « إنه الكتب المكتوبة من قبل الروح الإلهية ، عبر أناس الرب المقدسين ، الذين يسمون بالأنبياء والرسل . عادة ، تسمى هذه الكتب بالتوراة ». أما القمّص ن. مالينوفسكي في الكتاب الدراسي « اللاهوت العقائدي الأرثوذكسي »، الخاص بالأكاديميات الدينية ، فيستكمل التعريف السابق هكذا : « بالتالي ، فإن

الكتب التي تسمى بالتوراة ليست أعمالا أدبية بشرية عادية ، كما أنها لا تماثل الآثار الدينية للشعوب غير المسيحية ، بل هي كتب مقدسة أو روحية ـ إلهية ، إنها كلمة الرب ذاتها ».

مثل هذا التقويم للتوراة يبقى قائما حتى الآن ، دون تغيير ، لدى جميع الكنائس المسيحية وفي الديانة اليهودية أيضا .

في الواقع تشكل التوراة ، بالتحديد ، « عملا أدبيا بشريا ». وإذا نظرنا إليها على هذا النحو ، فيجب أن نتفق مع إ. كريفيليوف (وهو مؤلف عدد من الدراسات حول التوراة) حين يعتبر أن هذا العمل الأدبي يمكن تقويمه بوصفه « ظاهرة هامة في تاريخ الثقافة ، تستحق الدراسة باهتمام وعناية ».(1)

وكما يشير المستشرق السوفيتي إ. دياكونوف : « إن فهمنا للأدبيات العبرية القديمة « التوراتية » سيكون فهما أفضل إذا نحن ـ مرة وإلى الأبد ـ تخلينا عن تقويمها (بالمعنى الإيجابي أو السلبي) على أنها « كتاب » خصوصي فريد (إما أنه كُتب بوحي إلهي وإما انه مكتوب خصيصاً لتخبيل جماهير الشعب) ونظرنا إليه كما هو أي بوصفه واحدا من آداب الشرق القديم ، شبيها بها من حيث الطراز ، ولا يزيد عنها أو ينقص في صفته الدينية ، كما لا يزيد عنها أو ينقص ـ بشكل عام ـ من حيث الرجعية أو التقدمية ».(2)

ليست التوراة عملا واحد متكاملا ، بل مجموعة مؤلفات مختلفة ، ينوف تعدادها عن ستة عشر وتسمى مجازيا « الكتب » وتتباين بشكل بالغ ، إن كان من حيث الحجم أم من حيث زمن التدوين أم من حيث اللون الأدبي والأسلوب ، فهي تعود لمؤلفين مختلفين .

في التوراة المسيحية يجري التمييز بين العهد القديم والعهد الجديد ، وكل « كتاب » في التوراة يحمل تسميته الخاصة به . مثلا : التكوين ، كتاب النبي إرميا ، المزامير ، انجيل متى ، إلخ . في الطبعات المعاصرة من التوراة يتم تقسيم

---

(1) إ. أ. كريفليوف . التوراة ـ تحليل تاريخي نقدي . موسكو ١٩٨٢ ، ص١٤ .

(2) إ. م. دياكونوف . شعر ونثر الشرق القديم . موسكو ١٩٧٣ ، ص٥٤٧ .

http://www.al-maktabeh.com

الكتب إلى إصحاحات وإلى « أعداد » تمثل مقاطع قصيرة من النص .

http://www.al-maktabeh.com

لقد جرى إدخال هذا التقسيم في وقت غير بعيد نسبيا : التقسيم إلى إصحاحات في القرن الثالث عشر وإلى أعداد في وقت لاحق ، على يد الطباع الباريسي روبرت ستيفان ، عام ١٥٥١ .

إن الإصحاحات والأعداد مرقمة ، ومن الدارج ، عند إيراد أي مقتطف من التوراة ، الإشارة ليس إلى رقم الصفحة ، كما هي العادة ، بل إلى تسمية الكتاب (مقتطعة) ورقم الإصحاح والعدد ، مثل : (تك ١٧ : ٢٤)، أي التكوين ، إصحاح ١٧ ، عدد ٢٤ . على أية حال ، هكذا يجري عادة إيراد المقتطفات من المصادر القديمة الأخرى مثل ملاحم هوميروس أو مؤلفات شيشرون ، وهي طريقة مؤاتية من حيث كونها تضمن العثور بسهولة على المقطع المطلوب في النص أيا كانت طبعة الكتاب ، وبغض النظر عن كمية الصفحات فيه .

لقد أمسى العهد القديم كتابا مقدسا في الديانة اليهودية القديمة ، بينما اصبح العهد الجديد كتاباً مقدساً في المسيحية لكن ، بما أن المسيحية ـ كما هو معروف ـ قد تكونت (إلى حد كبير) على أساس اليهودية ، فإن اتباعها وجرياً على التقاليد كانوا يعتبرون العهد القديم كتاباً مقدساً ايضاً ، وحتى الآن تعتبر كافة الكنائس المسيحية التوراة بعهديها القديم والجديد كتاباً مقدساً ، في حين تعترف اليهودية فقط بالعهد القديم .

تقليديا يجري تقسيم الكتب في العهد القديم إلى ثلاث فئات : الشريعة (في اليهودية تورا : تعليم ، شريعة) والأنبياء (نابييم) والأسفار (كتوبيم).

تدخل ضمن الشريعة (الـ « تورا » بالعبرية) أول خمس كتب ، وهي ما يعرف بناموس موسى او خماسية (بنتاتيك)(*) موسى . في باب الانبياء يندرج ستة عشر كتاباً يفترض أن مؤلفيها ستة عشر من الانبياء القدامى ، ضمن هذا الباب أيضا يندرج ما يسمى بالكتب التاريخية (وهي كتب القضاة وكتب الملوك وعددها أربعة وكتابا أخبار الأيام وكتاب عزرا وكتاب نحميا). أما

(*) بنتاتيك (Pentateuch): الكتاب ذو الأسفار الخمسة . ـ المترجم ـ

بقية كتب العهد القديم فتأتي في باب الأسفار وهي ذات مضمون متنوع .

من الهام أن نأخذ بالاعتبار كون جميع المؤلفات التي دخلت ضمن قوام العهد القديم قد كتبت باللغة العبرية ، باستثناء بعض المقاطع القليلة التي كتبت بالآرامية وهي لغة شقيقة للعبرية . أما كتب العهد الجديد فقد وصلت إلينا باللغة اليونانية .

سنورد هنا تسميات مختلف الكتب الداخلة في قوام التوراة (وفقا لتسلسل إدراجها في الطبعات المسيحية من التوراة) :

العهد القديم : التكوين ، الخروج ، اللاويين ، الأعداد ، التثنية ، كتاب يشوع بن نون ، كتاب القضاة ، راعوث ، كتاب الملوك الأول ، كتاب الملوك الثاني ، كتاب الملوك الثالث ، كتاب الملوك الرابع ، كتاب أخبار الأيام الأول ، كتاب أخبار الأيام الثاني ، كتاب عزرا ، كتاب نحميا ، استير ، كتاب أيوب ، المزامير ، كتاب أمثال سليمان ، كتاب الجامعة ، كتاب نشيد الانشاد ، كتاب النبي إشعيا ، كتاب النبي إرميا ، كتاب النبي حزقيال ، كتاب النبي دانيال ، ثم كتب الأنبياء الاثني عشر الذين يسمون الصغار (وبعضها يتضمن صفحتين أو ثلاث ، بل حتى بضعة أسطر): هوشع ، يوئيل ، عاموس ، عوبديا ، يونان ، ميخا ، نحوم ، حبقوق ، صفنيا ، حجي ، زكريا ملاخي .

يجب الانتباه إلى أن جزء من هذه التسميات مقتبس من الترجمة القديمة للتوراة إلى اللغة اليونانية وهي الترجمة المسماة بـ « سيبتاوغينتا » أي « السبعينية » . في التوراة اليهودية تختلف تسمية بعض الكتب وكذلك موضعها . فالكتب الخمسة الأولى تسمى هكذا : في البدء ، وهذه أسماء ، ودعا ، وكلم ، هذا هو الكلام . إن هذه التسميات نشأت على أساس الكلمات الأولى من كل كتاب ، وتلك عادة الكثير من شعوب الشرق القديم ، وخصوصا في بلاد الرافدين . كذلك فإن كتابي الملوك الأول والثاني يسميان في التوراة اليهودية بكتابي صموئيل الأول والثاني ، وبالتالي فإن الكتابين الثالث والرابع يصبحان الأول والثاني ملوك ، أما كتابا « التكرار » الأول والثاني فيسميان بكتابي أخبار الأيام الأول والثاني ، وكتاب دانيال (الذي ينسب في التوراة المسيحية إلى فئة الكتب النبوية) يدرج ضمن الأسفار في التوراة اليهودية . في الأدبيات العلمية الخاصة يجري اعتماد التسميات المقتبسة من

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الترجمة اليونانية بالنسبة للكتب الخمسة الأولى من التوراة ، والمعروفة أيضا بـ « بنتاتيك » (خماسية) موسى . أما بالنسبة لما تبقى من كتب فتعتمد تسميات الأصل أي التوراة العبرية .

إن كتب العهد القديم المعددة أعلاه تعتبر كتب شريعة وكتبا روحية إلهية ، **كما في الدين اليهودي كذلك لدى كل الكنائس المسيحية ، لكن هنالك إلى جانب هذه الكتب عدد آخر من المؤلفات و« الكتب » التي لا يعتبرها اللاهوتيون اليهود أسفاراً مقدسة على الاطلاق ولا يدرجونها ضمن التوراة بينما تدرجها بعض الكنائس المسيحية إما بمثابة نصوص روحية إلهية (الكنيسة الكاثوليكية) وإما بمثابة نصوص « مفيدة روحياً » ولكن ليست « روحية إلهية » (الكنيسة الأرثوذكسية للروم)، في حين أنها تغيب كلياً عن طبعات التوراة البروتستانتية . ونقصد بذلك الكتب التالية :**

كتاب المكابيين الأول ، كتال المكابيين الثاني ، كتاب طوبيا ، كتاب يهوديت ، كتاب حكمة سليمان ، كتاب يشوع بن سيراخ ، كتاب باروك ، كتابا عزرا الثاني والثالث . لقد ظهرت هذه الكتب في وقت متأخر نسبيا (القرن الثالث ، القرن الأول قبل الميلاد) وأكثرها مكتوب باللغة اليونانية من قبل مؤلفين يهود عاشوا خارج فلسطين . وقد تم إدخالها في نص الترجمة السبعينية ، ومن هناك انتقلت إلى التوراة المسيحية. إضافة إلى ذلك فقد دخل في الترجمة السبعينية أيضا عدد من النصوص التي لا توجد في التوراة اليهودية ، والتي تشكل نوعا من التكملة لكتب الشريعة اليهودية : رسالة إرميا ، تحطيم بال سوسنة والشيخان ، تنين بابل ، صلاة عزريا ، تسبيح الفتيان الثلاثة (النصوص الخمسة الأخيرة هي إضافة على كتاب دانيال)، وغيرها .

العهد الجديد ، يدخل في قوام العهد الجديد ٢٧ كتابا ، تلي وفق الترتيب التالي : انجيل متى ، انجيل مرقس ، انجيل لوقا ، انجيل يوحنا (انجيل : من اليونانية وتعني البشارة) . بعد الأناجيل يلي مؤلف صغير هو أعمال الرسل ، ومن ثم رسائل الرسل وعددها ٢١ بينها ٧ تسمى بالكنيسة لأنها موجهة من أحد الرسل (يعقوب ، بطرس ، يوحنا ، يهوذا) إلى كل الكنائس المسيحية ، بينما الـ ١٤ المتبقية تسمى رسائل بولس الرسول وهي موجهة إلى كنيسة ما محددة دون غيرها

(رسالة إلى الرومانيين ، مثلا)، أو إلى شخص معين (مثلا رسالة إلى تيموثاوس). الكتاب الأخير الذي ينتهي، به العهد الجديد يسمى رؤيا يوحنا أو أبكاليبسيس .

كما أسلفنا أعلاه فإن الكنيسة المسيحية واللاهوتيين اليهود يرون في التوراة نتاجا للرؤيا الالهية . وفي الوقت ذاته يعلم اللاهوتيون أن كل كتاب في السفر المقدس قد جرى كشفه من قبل الاله لشخص محدد ، مختار لدى الله أي لنبي أو رسول قام بتدوين الكتاب المعني . وهكذا فإن التقليد الديني يسمي تحديدا « مولفي » الكتب جميها تقريبا ويحدد زمن تأليفها . فمثلا يؤكد تعليم اللاهوتيين أن مؤلف الكتب الخمسة الأولى في العهد القديم هو النبي القديم موسى ، الذي يزعمون أنه عاش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأن مؤلف كتاب الجامعة ونشيد الانشاد هو الملك سليمان (شخصية تاريخية ، حكم في القرن العاشر قبل الميلاد)، إلخ .

أما في الواقع فإن المسائل المتعلقة بمؤلفي وتواريخ أكثرية كتب التوراة لا زالت بعيدة عن الحل . لكنه يمكن بشكل عام اعتبار أن العلم قد أثبت كون النصوص القديمة التي دخلت ضمن العهد القديم تعود إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد ، في حين يعود أكثر تلك النصوص حداثة إلى القرن الثاني قبل الميلاد . أما بالنسبة للعهد الجديد فقد جرى تأليفه في وقت متأخر ، خلال القرنين الأول والثاني بعد الميلاد . هكذا نجد في المحصلة أن التوراة كانت تتشكل على مدى ١٥٠٠ عاماً .

وعلينا أن نضع في الاعتبار واقعة مهمة أخرى : كل المؤلفات الداخلة ضمن التوراة تعرضت لاحقا للمعالجة والتحرير مرات عديدة . فمع مرور الزمن كانت تجري تغيرات جوهرية في ديانة اسرائيل القديمة ، حيث كانت تتوطد أكثر فأكثر عبادة إله واحد هو يهوه ، مما جعل أنصار هذا الإله من بين اللاهوتيين القدامى لا يفوتون أية امكانية لاستخدام الآثار التاريخية لشعبهم ومختلف الآثار الدينية من أجل خدمة الهدف المذكور ، فيعرضونها للتحوير المناسب وفق روح المذهب الذي انتصر .

ولكن ولحسن حظ العلم الحديث ، فإن هؤلاء المحررين الأتقياء كانوا عادة

http://www.al-maktabeh.com

لا يصححون المصادر القديمة ، بل يكتفون فقط بحشر مقدمات وخاتمات موجزة ضمن نصوص السرد الأصلي لهذه الحوادث التاريخية أو تلك . على أنهم كانوا أحيانا يضيفون على السرد الفعلي وقائع مختلفة غير موجودة في المصدر ، ولكن كان يجب أن تكون موجودة (من وجهة نظر المحرر !). وكان هؤلاء يستقون الوقائع المذكورة من تقاليد الفلكلور أو ببساطة يخترعونها . لكن نقد التوراة يتمكن عادة (ودون صعوبة تذكر !) من فرز هذه الترسبات المتأخرة . فهي قابلة للتمييز بسهولة ، من حيث المضمون ومن حيث الأسلوب في آن واحد . بعد ذلك يحصل الباحث على مصدر تاريخي حقيقي ، يتضمن معلومات قيمة حول تاريخ اسرائيل القديمة وديانتها .

وقد تعاظمت قيمة هذه المعلومات ، نظرا لأنه في كثير من الأحوال تسنى تدقيقها واستكمالها بواسطة مواد خارجية ، مثل الآثار الكتابية للشعوب القديمة الأخرى ومعطيات الحفريات الأثرية ، إلخ . إن نقد التوراة حصل بالنتيجة على مستند أكثر صلابة لأجل استنتاجاته .

منذ الزمن القديم بدأ الناس يترجمون التوراة إلى لغات الشعوب الأخرى . هكذا جرت ترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وهي الترجمة التي حصلت فيما بعد على تسمية « السبعينية » حيث اشتغل عليها وفقا للحكاية ٧٠ مترجما . إن مترجمي « السبعينية » ـ آخذين بعين الاعتبار تلك التغيرات التي طرأت على التصورات الدينية لدى المؤمنين ـ قد حادوا عن النص الأصلي بعض الشيء : مثلا ، في كل الأماكن التي يرد فيها عبر النص الأصلي (العبري) اسم الإله القومي العبراني « يهوه »، استبدل هذا الاسم بتسمية « الرب » (أو السيد)، وهذا كان من شأنه أن يضفي على الإله طابعا أكثر شمولية . لاحقا وبعد أن راحت تظهر ترجمات كثيرة للتوراة بنتيجة انتشار المسيحية ، تمّ الابقاء على هذا الاستبدال في كل الترجمات . هكذا كان أيضا شأن مترجمي التوراة إلى اللغة السلافية القديمة واللغة الروسية . وعند ايراد النصوص التوراتية سوف نعتمد كقاعدة ، على « الترجمة السينودسية » رغم احتوائها على عدد غير قليل من الأماكن ذات الترجمة غير الدقيقة . لكننا في الحالات التي يرد فيها اسم « يهوه » في النص الأصلي و« الرب » في النص المترجم سوف نبقي على

اسم العلم للاله العبراني « يهوه »، وهو أمر درجت عليه العادة في الأدبيات العلمية .*.

إن للتوراة كما نرى ، تاريخا طويلا ومعقدا ، سنشير إلى بعض من حوادثه أثناء العرض اللاحق ، وهذا التاريخ ارتبط وتشابك على نحو وثيق مع تاريخ الشعب العبراني وديانته .

في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد ، كان الأجداد القدامى للعبرانيين (وهم ينتمون إلى تجمع أكبر هو القبائل السامية الغربية)، مازالوا عبارة عن رعاة رحل . إنهم كانوا يجولون مع قطعانهم في البادية ما بين سورية وشبه الجزيرة العربية والسهول الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من فلسطين ، أي في المنطقة التي كانت آنذاك تسمى كنعان . إن سفر التكوين في التوراة ، الذي حفظ في طيه الروايات الأسطورية عمن يسمون بالآباء الأولين : ابراهيم واسحق ويعقوب ، يصورهم بمثابة شيوخ بدو نموذجيين ، كآباء لعوائل بطريركية كبيرة ، تترحل باستمرار من مكان إلى آخر بحثا عن المراعي وموارد المياه لأجل قطعانها .

إن تاريخ العبرانيين قبل القرن الثالث عشر مضاء في المصادر اضاءة ضعيفة جداً وضبابية . فالعبرانيون القدامى قد مروا بمرحلة النظام القبلي العشائري ، وشكلوا منذ القدم الغابر اتحاد إسرائيل القبلي الذي وحد عدة قبائل منهم ولدينا كل الأسس للاعتقاد بأن ديانتهم قد مرت عبر نفس مراحل التطور التي مرت بها ديانة الشعوب القديمة الأخرى . وحتى على المستويات الأكثر تأخرا من ديانة العبرانيين يمكن أن نجد فيها رواسب لأشكال بدائية من عبادة الحيوانات والقوى الطبيعية العفوية وعبادة الأجداد وكذلك السحر وغيره . إن هذه الديانة كانت دون شك ديانة اشراك في ذلك الزمان ، قائمة على تعدد الألهة . لكن الها واحد فيها بدأ يتميز عن غيره منذ وقت مبكر نسبيا ، وهو الاله يهوه الذي أصبح بالنسبة لجميع القبائل العبرانية القديمة موضوعا لتبجيلها المشترك وراعيا لها . ومن المحتمل أن تكون الأسطورة حول « العهد » الذي قام بين يهوه والأجداد القدامى للعبرانيين ، مثل ابراهيم وغيره ، قد نشأت منذ القدم الغابر .

(*) أما نحن فسنأخذ النصوص المعنية من الترجمة العربية للكتاب المقدس ولكننا سنعيد اسم « يهوه » إلى مكانه . حيثما ورد اسم « الرب » أو « السيد » أو « رب الجنود ». ـ المترجم ـ

http://www.al-maktabeh.com

ففي كتاب التكوين يروى أن يهوه ظهر لابراهيم وكلمه قائلا : « وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً . لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا . . . » (تك ١٧ : ٧ — ٨). وبمثابة علامة على هذا العهد ، يأمر يهوه ابراهيم : « . . . فتختنون في لحم غزلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم » (تك ١٧ : ١١).

كما أن كتاب التكوين ذاته ينبئنا أنه في إحدى سنوات القحط المريع ، وجدت عائلة الجد يعقوب ملاذا لها ولقطعانها في مصر وحطت رحالها هناك لزمن طويل (٤٠٠ عام حسب التوراة ـ تك ١٥ : ١٣)، وأنها تكاثرت لتصبح شعبا كاملاً ، أحاله فرعون مصر إلى العبودية « فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم . . . وتنهد بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا . . . فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب » (خر ١ : ١١ — ٢ : ٢٣ — ٢٤)

حين يتذكر الإله هذا الميثاق ، يهرع إلى مساعدة شعبه ليخرجهم من الأسر المصري ، فيوكل تنفيذ هذه المهمة إلى النبي موسى وهذا الأخير يحقق المعجزات العظيمة بمعونة الإله مما يدفع فرعون الهلع في نهاية المطاف إلى الموافقة على اخلاء سبيل العبرانيين . هكذا يجري « خروجهم » من مصر ولكنهم ـ بعد ذلك ـ يضطرون إلى التطواف في الصحراء ٤٠ عاما عقابا لهم على خطاياهم . وفقط بعد ذلك وتحت قيادة يشوع بن نون تلميذ موسى يندفعون إلى احتلال « أرض الميعاد » أي بلاد كنعان ، وبعد احتلالها يستقرون هناك .

من الممكن أن يكون هنالك بذرة تاريخية في أساس الرواية التوراتية حول إقامة العبرانيين في مصر و« خروجهم » منها . فالمعروف من المصادر المصرية أن مجموعات صغيرة من البدو الساميين كانت بين حين وآخر تحصل من السلطات المصرية على السماح بالسكن في دلتا النيل . لقد وصل إلينا مثلا تقرير أحد ضباط الحدود المصريين إلى مسؤوليه ، حيث يعلمهم بأنه سمح « لقبائل شاسو من إدوم »

(٣) إ. ا. ستوتشيفسكي . رعمسيس الثاني وخيريخور . من تاريخ مصر القديمة . موسكو ١٩٨٤ ، ص١١٥ ، ١١٨ .

http://www.al-maktabeh.com

بالمرور إلى عمق الدلتا ، لأجل الابقاء على حياتهم وحياة قطعانهم ». كان المصريون يطلقون اسم « شاسو » بالذات على سكان الصحراء السورية ، في حين أن إدوم هو تسمية منطقة في جنوب فلسطين وتسمية شعبها[3] . ولكنه لا يوجد في المصادر المصرية أية معطيات حول إقامة اسرائيل في مصر ، كشعب كامل ، أو حول « خروج » جماعي للاسرائيليين من هناك تحت قيادة موسى الذي هو أيضا يمثل شخصية أسطورية على الأغلب . ولكن كهان وأنبياء يهوه خلال الأزمنة اللاحقة وضمن سياق تمجيدهم لإلهم ، ما كانوا ليفوتوا فرصة دون أن يذكروا مستمعيهم بأن عليهم أن يشكروا يهوه الذي أخرج شعبهم من العبودية المصرية .

ولكن هنالك مصدر مصري آخر هو « مسلة اسرائيل » الشهيرة ، حيث يجري الحديث حول الانتصارات التي أحرزها الفرعون مرنبتاخ على عدد كبير من الشعوب ، في السنة الخامسة من توليه للحكم . إن تسمية المسلة مرتبطة بأنه يجري فيها (للمرة الأولى والوحيدة في النصوص المصرية) ذكر مصطلح « اسرائيل » كرمز لشعب يعيش في فلسطين خلال العام الخامس من حكم مرنبتاخ في مصر ، أي حوالي عام ١٢٤٣ قبل الميلاد . فقد ورد في النقش الموجود على المسلة ، مثلا ، أن « كنعان قد احتلت . . . واسرائيل قد اكتسحت لم يبق منها بذرة »، وهذا ما يمكن اعتباره برهانا على أن القبائل الاسرائيلية ، في فترة حكم مرنبتاخ، كانت موجودة في فلسطين .[4]

أما التوراة ذاتها فتشهد على أن الاسرائيليين قد لاقوا مقاومة قوية أثناء احتلال فلسطين ، وذلك من جانب السكان المحليين ، أي القبائل الكنعانية وكذلك الشعوب الصغيرة التي كانت تقطن في جوارهم ، مثل موآب وعمون وإدوم وماديان وغيرهم . لقد كان هؤلاء أيضا ساميين ، مثل الاسرائيليين القدامى ، ويتكلمون نفس اللغة التي يتكلمها الاسرائيليون .

تمكن الاسرائيليون من احتلال الجزء الأكبر من فلسطين . على أن قسما من

---

(٤) المرجع السابق ، ص١٠٩ .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

قبائل المحلية قد أزيح إلى المناطق الجبلية وأبيد قسم آخر ، في حين بقي بعض كنعانيين ولفترة طويلة يعيشون في أماكنهم الأصلية .

في مرحلة احتلالها لكنعان كانت اسرائيل عبارة عن اتحاد قبائل « أسباط » كان عددها بموجب الرواية التوراتية ١٢ ، ولكن في الواقع ربما كان أكثر . بعد حتلال فلسطين تقاسمت القبائل العبرانية أراضيها فيما بينها ، فحط الرحال في لجزء الجنوبي من فلسطين عدد من القبائل بينها « يهوذا » وشغلت القبائل الأخرى لجزأين الأوسط والشمالي من البلاد .

في الفترات الأولى من وجودهم في فلسطين استمر الاسرائيليون على شغلهم لأساسي في تربية المواشي ولكنهم مع الزمن انتقلوا إلى نمط الحياة الحضري واكتسبوا من السكان الكنعانيين المحليين مهارات زراعة الأرض وبدأوا بزراعة العنب والزيتون ، علاوة على زراعة الحبوب . وبالتدريج كانت تتطور لديهم الحرف : صناعة الفخار والنسيج ومعالجة النحاس والبرونز . في المرحلة الأولى لم يكن الاسرائيليون يجيدون معالجة الحديد .

في آن واحد ، تقريبا ، مع القبائل العبرانية اجتاحت سورية وفلسطين قبائل ، حصلت في المصادر المصرية على تسمية « شعوب البحر » وهي قبائل غير سامية قطنت سابقا جزر بحر إيجة وشاطىء آسيا الصغرى ، وعلى ما يبدو فقد كان بينها أيضا أجداد اليونانيين . والتوراة تطلق على هؤلاء إسم: « الفلسطينيون » (بيليشتيم بالعبرية) ومن هنا نشأت لاحقا تسمية فلسطين . احتل الفلسطينيون ، هؤلاء ، الشاطىء البحري من فلسطين وأقاموا عليه عددا من المدن الكبيرة : غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت . كما أنهم جلبوا معهم فن صهر الحديد ومعالجته ، فكانت لديهم أدوات حديدية وسلاح حديدي ، مما منحهم أفضلية كبيرة على الاسرائيليين . لقد بقيت في التوراة ذكرى عن ذلك الزمن : « ولم يوجد صانع في كل أرض اسرائيل لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفا أو رمحا . بل كان ينزل كل اسرائيل إلى الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله . . . وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب . . » (اصم ١٣-١٩-٢٢).

وكان الفلسطينيون يطمحون إلى اخضاع كل فلسطين وقد تمكنوا فعلا من

http://www.al-maktabeh.com

اخضاع عدد من القبائل الاسرائيلية ، حيث ساعد على ذلك بدرجة غير قليلة تشتت تلك القبائل . فقد كانت أمور القبائل الاسرائيلية تصل فيما بينها حتى إلى القتال (قض ١٢). ولكن أحيانا كانت القبائل تتحد لأجل صد العدو الخارجي ، فتنتخب لنفسها زعيما مشتركا كان يحمل لقب « القاضي » . في بعض الأحوال كان القاضي يحتفظ بسلطته حتى بعد انتهاء الأعمال العسكرية فينشغل بشكل رئيس في بحث النزاعات . أما فيما تبقى من الفترات الزمنية فقد كانت القابائل الاسرائيلية تعيش حياة مستقلة في ظروف النظام العشائري ، وكان تسيير الشؤون العامة يجري من قبل شيوخ القبائل وأحياناً الاجتماع العام لكل أعضاء القبيلة .

ولكن بالتدريج كانت تتطور القوى المنتجة وتنتشر الحرف وخصوصا التجارة كما ظهرت العبودية وبرز التفاوت المادي مما اشترط تحولات اجتماعية راحت بدورها تهيء الأرضية لنشوء الدولة . وقد عجل في ذلك النشوء أيضا ضرورة صد الهجمات التي كانت تقوم بها الشعوب المجاورة ، وبخاصة الفلسطينيون .

تكونت أول دولة عبرية قديمة في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد . ففي أثناء الحرب مع الفلسطينيين اختارت القبائل الاسرائيلية ملكا مشتركا لها هو الملك شاؤول من قبيلة بنيامين . لقد تمكن شاؤول من احراز عدة انتصارات على الفلسطينيين ، لكنه لقي حتفه في إحدى المعارك هو وأبناؤه الثلاثة . فكان خليفة شاؤول هو داؤود ابن يسّى من قبيلة يهوذا .

تابع داؤود الحرب ضد الفلسطينيين وأحرز نجاحات كبيرة . فقد ترتب على الفلسطينيين اخلاء المدن الاسرائيلية التي احتلوها . ولم يكتف داؤود بتوحيد القبائل العبرية المتواجدة في فلسطين تحت قيادته ، بل وقهر عددا من الشعوب الصغيرة المجاورة : إدوم وموآب وعمون ، كما أجبر آراميي دمشق على دفع الجزية له واقتطع من قبيلة اليبوسيين الكنعانية مدينتها الرئيسية أورشليم ، الواقعة على جبل صهيون ، فجعل من هذه المدينة عاصمة دولته وكذلك مركزا رئيسيا للعبادة . فقد تم نقل « خيمة العهد » (المقدس الرئيسي في عبادة يهوه) إلى أورشليم وتلك خيمة كان يوجد فيها « تابوت العهد » وهو صندوق ذو شكل متطاول كان يقال أن فيه بالذات يسكن يهوه بشكل دائم .

على أن داؤود بعد أن أصبح ملكا تكشف عن الكثير من السمات السلبية

http://www.almaktabeh.com

التي تميز المستبدين الشرقيين فقد اختلط لديه الورع بالنفاق ، كما أظهر قسوة وغدرا حتى إزاء أقرب الناس إليه .

http://www.al-maktabeh.com

ورغم ذلك فإن التقليد اللاهوتي اللاحق قد رفع داؤود إلى مكانة محبوب يهوه ومرتبة القديس ، باعتباره انسانا عظيم الجهال ، وبالاضافة إلى ذلك شاعرا عمل على تأليف المزامير وأدائها ، فقد درجت العادة على تسمية داؤود مؤلفاً لمجموعة من المزامير التي تم تأليفها بعده بزمن طويل وهي أناشيد تمجد يهوه . هذا بالرغم من عدم وجود أي أساس لذلك . فبعض المزامير يعود بلا شك إلى القرن السادس لا بل حتى الثاني قبل الميلاد .

بعد موت داؤود تولى الملك ابنه سليمان ، وأزاح حدود دولته إلى أبعد ما كانت عليه جنوبا ، فأخضع لنفسه مناطق عند خليج العرب على البحر الأحمر وعقد تحالفا مع مصر وتزوج من ابنة الملك المصري . كما شارك سليمان في الجولات التجارية البحرية للملوك الفينيقيين ، وعلى زمنه تمّ تشييد معبد فخم للإله يهوه من قبل العمارين الفينيقيين وأشيد إلى جانب المعبد قصر لا يقل فخامة عنه لأجل الملك ذاته . ووفقا لشهادة التوراة كان حريم سليمان يتكون من ٦٠٠ زوجة و٣٠٠ عشيقة . وكان هذا الملك فضلا عن ذلك محبا كبيرا للخيول التي كان شراؤها هي الأخرى يكلف الكثير . لقد تضخم بشكل مفرط جهاز الدولة وتزايدت فصائل الجنود المأجورين ، وكل ذلك كان يقع عبئا ثقيلا على أكتاف جماهير الشعب . لكن التقليد اللاحق صور سليمان أيضا كملك ذي حكمة عظيمة وعدل كبير ، وأيضا كشاعر عظيم حيث تنسب إليه دون أي أساس كما في حالة داؤود عدة كتب من قوام العهد القديم (كتاب الأمثال ، كتاب الجامعة ، نشيد الانشاد) .

إن فترة داؤود وسليمان أصبحت فيما بعد تذكر بوصفها « العصر الذهبي » لشعب اسرائيل . أما في الأزمنة اللاحقة الصعبة بالنسبة لاسرائيل فكان أنبياء يهوه يناشدون مواطنيهم عدم فقد الايمان والأمل بربهم ، واخترعوا فكرة « الممسوح »

(رسول الله)* ، الذي أوكل إليه الإله رسالة عظيمة هي انقاذ شعبه وإعادته إلى الحياة السعيدة ، كما في أيام داؤود وسليمان . هذا مع العلم أن الأنبياء كانوا يتنبأون بأن « الممسوح » سيكون « قضيبا من جذع يسّي » (إشعيا ١ - ١١)، أي حفيدا بعيدا من أحفاد داؤود الملك . ومن المعروف أن كتاب الانجيل قد عزوا يسوع الناصري (المخلص المسيحي ، الذي رأى فيه المسيحيون الأوائل الرسول الذي ظهر أخيرا إلى نسب من أصل داؤود (مت ١ — ٦ ، لو ٣ — ٣١).

في أواسط القرن العشر قبل الميلاد ، بعد موت سليمان بقليل تفككت الدولة العبرية الواحدة إلى مملكتين : يهوذا (المملكة الجنوبية) واسرائيل (المملكة الشمالية ، التي تفيد الأساطير بأه قد دخل ضمنها عشر قبائل).

في القرن العاشر قبل الميلاد كان وجود دولة عبرية واحدة وانقسامها إلى مملكتين وكذلك الوجود المستقل لعدد من الدول الصغيرة في فلسطين وسوريا (إدوم وموآب وعمون ومملكة دمشق و ـ المملكتان ـ المدينتان الفينيقيتان صور وصيدا)كل ذلك كان مشروطا إلى حد كبير بكون الجيران الأكثر جبروتا في الجنوب والشرق (مصر والدولة الحثية وبابل وآشور) يعانون حالة انحطاط وغير مستعدين لحروب احتلال .

ولكن منذ بداية القرن التاسع راحت تقوى الامبراطورية الآشورية وبدأ ملوكها يقومون بفتوحات عسكرية إلى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط فقد تم إخضاع عدد من الدول الصغيرة في سوريا الشمالية واعترفت تلك الدول بسلطة آشور ، كما جرى تحطيم مملكة دمشق ، وتوجب على المملكة العبرانية الشمالية دفع الجزية للملوك الآشوريين ، ولكنها استمرت في الوجود لفترة . وتميزت سياسة آشور بعدوانية خاصة ونزوع احتلالي خاص منذ أواسط القرن الثامن . ففي عام 744 قبل الميلاد ، هاجم الملك الآشوري تغلاتبلاصر الثالث دولة بابل المجاورة

(*) منشأ كلمة « شيحا » العبرية (أي الممسوح) يرتبط بطقس يسمى « المسح »، كان الاسرائيليين القدامى يمارسونه عادةً عند تتويج الملك على عرشه أو عند رسم شخص ما في منصب الكاهن الاول ، إلخ . وفي أثناء هذا الطقس كان يتم صب القليل من زيت الزيتون على راس « الممسوح »، الذي كان ، بعد ذلك ، يعتبر شخصاً مقدساً لا يمس . (١صم٢٦: ١٠).

ملاحظة من المترجم : هنا ولاحقاً نستخدم كلمة « ممسوح » بدل « مسيح » لتمييز الظاهرة التوراتية القديمة عن صفة السيد المسيح يسوع بن مريم ، كما تكونت في الاناجيل .

http://www.al-maktabeh.com

وأخضعها . وفي بداية القرن السابع قامت بابل بمحاولة فاشلة للانفصال عن آشور ، ولكن الملك سنحاريب دخل هذه الدولة ونهبها ، فاحتل عاصمتها مدينة بابل العظيمة وهدمها كليا . ومع أنه على عهد الملك الآشوري التالي أسرحدون بدأ ترميم المدينة القديمة لكن دولة بابل فقدت استقلالها لمدة قرن كامل تقريبا .

وفي العقود الأخيرة من القرن الثامن قبل الميلاد قام الملوك الأشوريون بعدد من الفتوحات الجديدة في سوريا وفلسطين ، وكانوا خلال فتوحاتهم يأسرون وينقلون شعوبا بأكملها سبايا .

وفي عام 722 قبل الميلاد تقرر مصير الدولة العبرانية الشمالية . فقد احتلها الملك الآشوري سرغون وسبا كل سكانها تقريبا إلى شمال ما بين النهرين حيث انحل هؤلاء على ما يبدو بلا أثر بين الشعوب الأخرى . أما المملكة الجنوبية يهوذا فقد تجنبت الاحتلال من خلال دفع جزية كبيرة وباهظة للآشوريين .

في نهاية القرن السابع تغير الوضع العام في الشرق الأوسط بشكل حاد . ففي عام 625 قبل الميلاد قامت بابل بانتفاضة ضد السلطة الأشورية، وعقدت تحالفاً هذه المرة مع دولة ميديا الايرنيـة التي كانت آنذاك تتعاظم قوتها وكانت تدفع الجزية للملوك الآشوريـيـن . وانهارت الدولة الآشورية ، تحت ضربات الحلفاء وأصبحت بابل إثر ذلك الدولة الأكثر جبروتا في الشرق الأوسط، فراحت تطمح بدورها هي الأخرى إلى اخضاع مناطق سوريا وفلسطين ، بما فيها المملكة العبرانية يهوذا نفسها بين مطرقة وسندان .

في عام 609 أفادت مصر من ضعف آشور فدخلت إلى فلسطين . ووقف يوشيا ملك يهوذا ضد المصريين لكنه دحر وتم قتله بأمر من الفرعون نخاو ونصب أحد أذناب المصريين ملكا على يهوذا . ثم احتلت الحاميات المصرية مدن سوريا الشمالية ، ولكن في عام 605 اندفع إلى هناك جيش بابل أيضا . وحصلت معركة حاسمة منيت فيها الجيوش المصرية بالهزيمة ، بينما دفع الملك البابلي نبوخذ نصر بعد اخضاع سوريا ، جيوشه نحو الجنوب ، إلى فلسطين . وخلال عامي 597 و586 قام نبوخذ نصر بهجمتين جائحتين ضد يهوذا . وفي عام 586 تم احتلال وهدم أورشليم ، وكذلك حرق معبد يهوه الذي بني في زمن الملك سليمان ، كما سبي جزء بالغ من سكان يهوذا إلى بابل ، بمن في ذلك وجهاء العامة المدنيون

والكهنوت والتجار والحرفيون المهرة . « ولكن بعض الشعب الفقراء الذين لم يكن لهم شيء تركهم نبوزرادان رئيس الشرط في أرض يهوذا وأعطاهم كروما وحقولا في ذلك اليوم (إر ٣٩ — ١٠). كان للمحتلين مصلحة في عدم خلاء الأرض بحيث يبقى أناس تؤخذ منهم الجزية .

إن فترة الأسر البابلي ، كما يسمونها في الأدبيات ، استمرت ما يقارب نصف قرن . وفي تلك الأثناء ، في أواسط القرن السادس قبل الميلاد ، كانت تتشكل في إيران دولة قوية ، دخلت في قوامها القبائل الفارسية والميدية ، وفي عام 550 قبل الميلاد أصبح الفارسي كورش الثاني من عشيرة الأخمينيين المعروفة ملكاً لهذه الدولة . في السنوات اللاحقة قام كورش بعدد من الحملات العسكرية ضد الدول المجاورة ، واحتل بابل عام 539 . وفي العام التالي (538 قبل الميلاد) أصدر كورش أمراً خاصاً يسمح لمواطني يهوذا الموجودين في الأسر البابلي بالعودة إلى الوطن .

هنا سنقطع استعراضنا الموجز للتاريخ المبكر للعبرانيين ، لكي نتابعه في وقت آخر ، بينما سننتقل الآن لتناول ديانتهم .

كما تدل معطيات التوراة ومعطيات الدراسات الأثرية (الأركيولوجية)، كانت القبائل الكنعانية الساميّة وشعوب فلسطين وفينيقيا وسوريا على مستوى مرتفع نسبياً من التطور الاقتصادي والاجتماعي ، منذ الألف الثانية قبل الميلاد . فقد كانت لديهم مدن كبيرة ، وفقاً لمقاييس ذلك الزمن ، كذلك مراكز مهنية ، وكانوا يشتركون في التجارة على نحو نشيط . كانت تلك عبارة عن ممالك ـ مدن ، ذهبت فيها بعيداً عمليات التمايز الطبقي المادي والاجتماعي وقامت سلطة ملكية ، كما جرت تحولات موافقة لذلك في مجال الدين . فمن بين جمهرة غامضة المعالم ، تضم كل الأرواح والآلهة المحلية الصغيرة المسماة بالبعليم (مفردها بعل ـ « سيد » هذه الوهاد أو تلك ، هذه الغابات أو تلك)، من بين جمهرة كهذه برزت معابد (بنتيونات) لآلهة جبارين يديرون مختلف جوانب الواقع ، وهؤلاء الآلهة ، بدورهم ، يترأسهم إله علوي هو ملك الآلهة الأخرى . في ذلك الحين كان الآلهة العظام هؤلاء قد حصلوا على أسماء علم خاصة بهم ، هي في غالبها مشتقة من أسماء عامة : بعل من « سيد »، « صاحب » و مولك من كلمة « ملك » السامية

http://www.almaktabeh.com

وتعني الملك .

في عشريناتِ وثلاثينات هذا القرن قام علماء الآثار باكتشاف هام في سوريا الشمالية ، حين وجدوا ـ أثناء حفريات في تل رأس شمرا المترامي ـ آثاراً لدولة أوغاريت الكنعانية القديمة التي قامت منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد والتي تم تدميرها في نهاية القرن ذاته من قبل « شعوب البحر ». فقد تم العثور على « مكتبة » كاملة هي عبارة عن بضع مئات من الألواح الطينية التي تحمل تسجيلات مختلفة بحرف مسماري وبلهجة قديمة من لهجات اللغة الكنعانية ، القريبة من العبرية . لكن الجزء الأكبر منها يحمل تسجيلاً لأساطير وروايات أسطورية حول مآثر وموت وانبعاث الإله بعل وحول الفارس والحكيم دانيلو وابنه أكخات اللذين تجاسروا على الوقوف ضد الربة المهيبة عناة وغير ذلك . لقد قام العلماء فوراً بفك رموز هذه التسجيلات وقراءتها وطبعها (ولكن ليس كلها)، مما جعل معارفنا عن أديان الساميين القدامى أكثر كمالاً .

كان يترأس المعبد (البنتيون) الكنعاني في أوغاريت الإله « إيل ». وكما لدى العبرانيين كانت هذه الكلمة تعني « إله »، لكنها أصبحت اسم علم . كانت لدى « إيل » زوجة هي الإلهة « عاشيرا » أو « عاشيرات »(*) وأخ هو الإله « داغون »(**) راعي المواسم ، الذي أصبح فيما بعد إلهاً رئيساً لدى الفلسطينيين وهم أحد « شعوب البحر » التي سكنت أرض الكنعانيين .

لكن إحدى الشخصيات الهامة والأكثر نشاطاً في المعبد (البنتيون) الأوغاريتي كان الإله « بعل » ابن « داغون ». فهو يبدو في النصوص الأوغاريتية بصفة إله الرعد وإله الحرب وفي الوقت ذاته بمثابة واهب المطر والمحاصيل . وكثيراً ما يرد ذكره مرتبطاً بالإلهة « عناة » العدوانية جداً والتي كانت أيضاً راعية الخصب(٥). إن عبادة هذه الإلهة ، مثلها مثل عبادة إلهة أخرى في المعبد (البنتيون)

(٥) أ. رانوفيتش . موجز تاريخ الديانة العبرانية القديمة ، موسكو ١٩٢٧ ، ص١٧١ — ١٧٢ . وكذلك
Albright W. F. From the stonage to christianity. Doublday, 1957, P. 233.

(*) هكذا وردت التسمية بالصيغة الروسية . ولم نجد ما يعادلها سوى عشتروت في الترجمة العربية للتوراة (جمعها : عشتر) ـ المترجم ـ

(**) في الترجمة العربية للتوراة : داجون . ـ المترجم ـ

المذكور ، وهي عشتروت ، كانت تحمل طابع الطقوسية التهتكية وارتبطت بممارسة البغاء المقدّس .

تلكم هي الآلهة التي كان الكنعانيون يعبدونها في أوغاريت وفي فلسطين ، والتي أصبحت ـ بناءً على مجمل ما نعرفه ـ آلهةً للاسرائيليين بعد أن وجدوا أنفسهم على هذه الأراضي ، وذلك بالاضافة إلى الإله القديم يهوه ، رب البحار والجبال . فحين استقر المحتلون في بلاد كنعان وانتقلوا نهائياً من تربية المواشي في الترحال إلى التحضر والعمل بالزراعة ، كان يجب ـ بداهةً ـ أن تبدو عبادات الآلهة الكنعانية للعبرانيين جذابة بشكل خاص ، باعتبار أن تلك الآلهة كانت ـ على الأرجح ـ راعيةً للزراعة وكانت عباداتها هي عبادات الخصب . وكان الثور رمزاً لقوة الطبيعة المنتجة لدى الكثير من الشعوب القديمة ، فقد كشفت الحفريات الأثرية في فلسطين عن وجود تماثيل صغيرة طقوسية للثور في الطبقات القديمة من الأرض . كما كانت تُنصَب في الحقول أعمدة حجرية وخشبية على شكل « القضيب »، أي العضو التناسلي للرجل ، أو أن تماثيل صغيرة للقضيب كانت تطمر في التربة ، وهذا ما كان من شأنه أن يزيد ـ حسب الاعتقاد ـ من خصوبتها . ولأجل الغاية ذاتها كان يمارس البغاء المقدس ضمن عبادة عشتروت ، حيث كان كاهنات وكهنة هذه العبادة الذين ينعتون بالقديسين (الكلمة السامية « قادشيم ») يعرضون أنفسهم لقاء نقود كانت تعود إلى معبد الإلهة المذكورة . وغالباً ما كانت رموز عشتروت (القضيب الخشبي المدكوك في الأرض أو جذع الشجرة المزيّن) تقف إلى جانب تمثال بعل أو مذبحه : « اهدم مذبح البعل الذي لأبيك واقطع السارية التي عنده » (قض ٦—٢٥).

وهكذا ، لم يكن بوسع الاسرائيليين ، بعد أن وُجدوا في فلسطين إلا أن يشعروا بالتأثير ليس فقط من جهة اقتصاد الكنعانيين الذي كان أكثر تطوراً ، بل وكذلك من جهة ثقافتهم وديانتهم . وكان من الممكن تماماً الجمع في الوعي الديني للعبرانيين بين الايمان بديانة يهوه وبين الايمان ببعل وبالبعليم الصغار ، وبعشتروت والعشتر الصغيرات والاعتقاد بضرورة تبجيلهم وبناء « المعابد » والمذابح لهم وتقديم الضحايا على المرتفعات وفي السواري . في الآن ذاته ، بدأ يتم نقل السمات المميزة لبعل ولطقوس بعل إلى الإله يهوه وعبادته ، فبدأ العبرانيون يرون

http://www.al-maktabeh.com

في يهوه ، كما في بعل الأوغاريتي ، ليس فقط الإله المحارب ، الهائج ، الرعدي ، بل وكذلك واهب الأمطار والمحاصيل .

http://www.al-maktabeh.com

في الأسطورة التوراتية حول النبي إيليا ، نجد أن يهوه بالذات دون غيره يجلب القحط حين يغضب ومن ثم يرسل المطر إلى الحقول الجافة ، عندما يرأف (١مل ١٧–١ ، ١٨–١). ورغم ذلك ، فإن الكثيرين في اسرائيل كانوا يفضلون أن يطلبوا محاصيل القمح والشعير والعنب والزيتون ليس من يهوه ، بل من بعل ، حيث نجد النبي هوشع ، في القرن الثامن ، يلوم شعبه على ذلك لوماً مريراً .

فيما بعد راح العبرانيون يرون يهوه على شكل « الثور »، رمز الخصب ، ويقدمون له فروض الاعتبار التي تترتب على ذلك .

إن التوراة تنبئنا بأنه ، بعد موت سليمان ، افترقت « الأسباط » الاسرائيلية العشرة عن يهوذا ، فشكلت دولة مستقلة هي المملكة الشمالية ، حيث قرر ملكهايربعام هكذا : « إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت يهوه في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم رحبعام ملك يهوذا ويقتلوني ويرجعوا إلى رحبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عجليْ ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم . هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحداً في بيت غيل وجعل الآخر في دان . وكان هذا الأمر خطيّة . وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان »(١مل ١٢ — ٢٧ — ٣٠)و« العجلان » اللذان يدور عنهما الحديث في هذه الرواية كانا ، بلاشك ، تمثيلاً للإله يهوه ، إذْ ما كان ليدور في خلد الملك يربعام أن يقدم لأتباعه إلهاً آخر ، والشعب لم يعتبر ـ حسب ما يبدو ـ تبجيل « العجلين » خيانةً ليهوه .

في البداية كان المؤمن يقدم الأضحيات بنفسه ، لكن فيما بعد أصبح ذلك حقاً استثنائياً للكهنة وواجباً عليهم . ولم يكن كهنة اسرائيل يشكلون آنذاك اتحاداً منظّماً وفئة توراتية مغلقة ، فقد حدث هذا في وقت لاحق . لكن رغم ذلك ، كان الاسرائيليون يفضلون أن يستخدموا بمثابة كهنة ـ على الأرجح ـ ممثلي اللاويين ، إحدى القبائل العبرانية التي تنحدر من لاوي الابن الأسطوري ليعقوب ، وكان

يعتبر أن يهوه يقبل التضحية برغبة أكبر إذا قام بتقريب الأضحية كاهن من اللاويين . عادة كانت الأضحية تكون عبارة عن حيوان ما : نعجة أو معزة أو جدي أو « عجل »، وأحياناً طحيناً أو خمراً أو زيتاً . لقد انعكست في طقوس تقريب الضحايا ـ بلا شك ـ أكثر التصورات قدماً حول الآلهة والأرواح التي تحتاج إلى غذاء ، والتي إذا حصلت عليه من خلال أضحية بوسعها إبدال غضبها إلى رحمة . إن رواسب هذه التصورات بقيت لدى الاسرائيليين ، متمثلة بتعابير توراتية مثل : « وقائد يهوه » و « قربان يهوه » و « خبز يهوه » (لا ٨ ، لا١٧ ، لا٢١ ، لا٦١)أو مثل : « وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقةً وقود رائحة سرور ليهوه » (لا ١ — ٩).وحين ينهي مؤلف الأسطورة التوراتية حول الطوفان العالمي روايته ، يقول لنا : « وبنى نوح مذبحاً ليهوه . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح . فتنسّم يهوه رائحة الرضا . وقال يهوه في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان . . . »(تك ٨ — ٢٠ — ٢١).كان لحم الحيوان المذبوح غالباً ما يحرق على المذبح ، ليس كله ، بل جزء منه : الدم والكليتان ودهن الأحشاء ، بينما كان الجزء المتبقي يؤخذ من قبل المضحّي أو الكاهن .

في كتاب الملوك الأول (صموئيل الأول) يذكر معبد قديم جداً ليهوه في مدينة شيلوه . وقد وجد هذا المعبد في زمن « القضاة » وكان يعتبر مقدساً لعموم اسرائيل ، إذ كان يضم الموضوع الرئيسي في عبادة يهوه وهو « تابوت العهد »، وكان يديره الكاهن عالي وأبناؤه . لكن أبناء عالي كانوا يؤدون واجباتهم الكهنوتية على نحو سيء . فالمؤلف التوراتي يكتب عنهم مندداً : « وكانوا بنو عالي بني بليعال . لم يعرفوا يهوه ولا حقّ الكهنة من الشعب . كلما ذبح رجل ذبيحة يجيء غلام الكاهن عند طبخ اللحم ومنشال ذو ثلاثة أسنان بيده فيضرب في المرحضة أو المرجل أو المقلى أو القدر . كل ما يصعد به المنشل يأخذه الكاهن لنفسه . هكذا كانوا يفعلون بجميع اسرائيل الآتين إلى هناك في شيلوه . . . . فكانت خطية الغلمان عظيمة جداً أمام يهوه . لأن الناس استهانوا تقدمة يهوه . . . . كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع » (١صم ، ١—٢—١٢ —١٤—١٧—٢٢)

http://www.al-maktabeh.com

إن كلمات : « استهانوا تقدمة يهوه » تتمتع هنا بمعنى محدد تماماً ، فالمضحّون قد يتركون مذبح يهوه وينتقلون إلى مذبح بعل أو مذبح إله آخر ويذبحون هناك ذبيحتهم . ويتكشف لنا من كتاب القضاة أن بعل كان له في ذلك الزمان أتباع لا يقلون عن أتباع يهوه بين الاسرائيليين ، وكان على كهنة هذا الأخير أن ينظروا إلى كهنة بعل والآلهة « الوثنية » الأخرى بوصفهم منافسين خطرين يتوجب مصارعتهم على المداخيل وعلى النفوذ بين الشعب . وقد كان لأنبياء يهوه أيضاً مشاركتهم الفعالة جداً في ذلك الصراع (قض ٦–٢٣–٣٢)

http://www.al-maktabeh.com
www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أنبياء اسرائيل القدامى

الأنبياء ـ القضاة : دبورا وصموئيل . « زمر » الأنبياء . أنبياء « الملوك » وأنبياء « الشعب ».

منذ الأزمنة الغابرة ، كان الانسان يطمح إلى معرفة المستقبل ، معرفةً ليس بداعي الفضول الفارغ ، بل بهدف عملي تماماً هو التأثير على هذا المستقبل ، باعتبار أن سعادة الانسان تتوقف على ذلك . فالناس البدائيون لم يكونوا جبريين ، بل كانوا يعتبرون أنه يمكن تغيير المستقبل ، بمجرد معرفة كيفية وزمن حدوث ما يمكن أن يمس الانسان المعني أو عائلته أو قبيلته . لذلك كان واجب « رؤية » المستقبل والتنبؤ به بين أهم واجبات المشعوذين القدامى والشامانات والكهان ، ذلك لأنه كان يسود الاعتقاد أن العلاقة الوثيقة التي تربط هؤلاء بالأرواح والمعونة التي يتلقونها من هذه الأخيرة تمنحانهم مثل هذه المقدرة . لقد كان المشعوذون الأفارقة والشامانات(*) السيبريون يستدعون المطر ويعالجون المرضى ، وفي الوقت ذاته يستقرئون المستقبل ، وهم كانوا بمثابة الأنبياء البدائيين .

(*) شامان : لدى شعوب الشمال الاقصى هو المشعوذ والمطبب والقائم بطقوس العبادة في الديانة البدائية . ـ المترجم ـ

مع مرور الزمن ظهرت لدى البشر فكرة الآلهة التي تحدد سلفاً مصائر الناس ، كأشخاص متفرقين وكقبائل وشعوب كاملة . لكن ، حتى بعد ذلك ، لم يفقد الانسان ايمانه التفاؤلي بإمكانية التأثير على المستقبل . لقد أقنع الانسان نفسه بأنه حتى إذا كان الاله قد قرر للانسان مصيراً سيئاً ـ بسبب خطاياه الخاصة أو خطايا أجداده أو أقربائه ـ فإنه رغم ذلك توجد امكانية لتجنُّب الكارثة : يمكن استعطاف واسترحام الاله بصلاة وأضحية وتوبة ، وهو بدوره سيغير قراره ويبدل الغضب إلى رحمة ويبعد الشقاء عن الانسان وأقربائه . ويعني ذلك أنه مع تزايد الأهمية التي تنطوي عليها المعرفة المسبقة للمستقبل المحدد سلفاً ولنوايا الاله ، كانت تزداد أهمية الدور الذي كان الناس يعزونه للبصّارين والأنبياء .

فما هي حقيقة هؤلاء المتنبئين القدامى بالمستقبل ؟

منذ الزمن الموغل في القدم ، ابتكر الانسان طرائق يمكنها ـ حسب اعتقاده ـ أن تؤثر على عالم ما فوق الطبيعة . وكان يجب أن تبدو معرفة تلك الطرائق ضرورية وإلزامية مثل معرفة الطرائق الانتاجية في مجال صيد الحيوانات البرية . وفقاً لشهادة علماء الأثنوغرافيا ، كانت طقوس السحر لدى سكان استراليا الأصليين تعتبر أمراً يتمكن منه كل عضو في القبيلة ، وهذا ما يتلاءم تماماً مع المساواة بين أعضاء المجتمع التي كانت تميز المشاعية البدائية .

لقد اخترع الانسان البدائي مختلف الأساليب للتأثير على عالم ما فوق الطبيعة . وكان الزمن يمر ، فتراكم لدى الناس « معارف » وهمية عن ما فوق الطبيعة ، بالتوازي مع تراكم معارفهم الحقيقية حول الطبيعة وحول أنفسهم ، ضمن سياق نشاطهم الاقتصادي والعملي . وكانت ممارستهم لطقوس المعتقدات الدينية تزداد تعقيداً وتنوعاً ، وكان يجب حتماً أن تظهر في تلك الأثناء الحاجة إلى

http://www.al-maktabeh.com

تدريب اجتماعي مسبق للأشخاص الذين يمتلكون « المعارف » الوهمية المذكورة ويجيدون القيام بالأفعال السحرية الضرورية لمصلحة أبناء قومهم . من الواضح أنه كان يتوجب على هؤلاء الأشخاص أن يتميزوا بمعطيات جسدية وروحية معينة . وأخيراً جاء الزمن الذي ظهر فيه فعلاً مثل هؤلاء الناس ، أي المشعوذون والشامانات المحترفون ، الذين أصبح أداء الوظائف الدينية بالنسبة لهم شغلاً رئيسياً وواجباً أساسياً .

لكن بروز هذه الفئة من الناس ، أي الخدم المحترفين للعبادة الدينية القديمة ، ارتبط ليس فقط بتعقيد الايديولوجيا الدينية والممارسة الدينية ، بل ارتبط تاريخياً مع بداية تفسخ النظام القبلي . هكذا كان الأمر مع ظهور الشامانية كشكل للإيديولوجيا والعبادة الدينيتين لدى شعوب سيبريا ، كما يشير إلى ذلك بحق الباحث السوفيتي أ. أنيسيموف الذي درس الشامانية لدى تلك الشعوب[٦] « خلال عملية تفسخ العلاقات القبلية البدائية في العائلة ونمو التمايز المادي والاجتماعي ، يبتعد القائمون بالمناصب الاجتماعية السابقة أكثر فأكثر عن الجمهور الباقي من أبناء قومهم ، فيشكلون ـ بالاشتراك مع العوائل الثرية القريبة منهم ـ نخبة القوم . وكما القائمون بالمناصب الاجتماعية الأخرى في القبيلة ، فإن القائم بطقوس العبادة القبلية تحوّل من أحد أبناء القوم إلى خادم للطقوس حصراً . وهذه الأفضلية تحولت لاحقاً إلى حق استثنائي يملكه هو كشيء مرتبط بالمكانة التي يشغلها[٧] .

---

(٦) أ. ف. أنيسيموف . ديانة الإيفنل . موسكو ـ لينينغراد . ١٩٥٨ ، ص١٥٠ .

(٧) المرجع السابق . ص٢٢٤ .

مكتبة المهتدين لدراسة الإسلام ومقارنة الأديان

http://www.almaktabeh.com

كانت المكانة الاستثنائية التي يشغلها الشامان تجد تفسيرها فيما يعزى إليه من قرابة خاصة إلى الأرواح ، وبالدرجة الأولى أرواح العائلة ، أي أرواح الأجداد التي تستطيع ـ من خلاله إسداء المساعدة ، أياً كانت ، لأبناء القوم وتجنبهم الكوارث المختلفة وتحذيرهم من المخاطر وحمايتهم من الأعداء . وكان الاعتقاد السائد هو أن الأرواح تختار لهذا الهدف الشخص الذي يرضيها والذي يصبح شاماناً ، فالأرواح تسكن جسد الشامان عندما يكون ذلك ضرورياً لها أو له وتفعل من خلاله وتتكلم بلسانه . ولذلك يبدي الشامان مقدرات فوق طبيعية ؛ فهو يستطيع ، مثلاً ، أن يشفي مرضى لا أمل فيهم ، طارداً منهم الأرواح الشريرة التي سكنتهم وسبّبت المرض ، كما بوسعه حتى أن يستدعي من عالم الأرواح روحاً طارت إلى هناك من جسد ميت وأن يعيدها إلى الجسد ، أي أن يبعث الميت . وبمقدور الشامان أن يعثر على ما ضاع ويرى ما هو مخفي وأن يستقرىء المستقبل ويتنبأ به[٨] .

عادة كان يستدل على دخول الأرواح في جسد الشامان بعدد من الأعراض : يقع الشامان في حالة النشوة المفرطة والنوبة العصبية ، فيتلوى ويرتعش ويحرك أعضاءه على نحو وحشي ويقفز ، وأحياناً يكيل الضربات لنفسه . وليس مستغرباً أن أحد المؤشرات على كون الانسان « مصطفىً » من قبل الأرواح كان مقدرته المسبقة على ولوج تلك الحالة المرضية التي تسمى « الهستيريا العصبية » أو « الصرعة النفسية ». كتب ن. أليكسييف عن الشامانات الياقوتيين أن « تحليل المواد المتوفرة حول ظهور الشامانات يبين أن الناس المرضى عصبياً كانوا كثيراً

---

(٨) ن. أ. اليكسييف . المعتقدات الدينية التقليدية لدى الياقوتيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . نوفوسيبيرسك . ١٩٧٥ ، ص١٢٨ — ١٢٩ .

http://www.al-maktabeh.com

ما يصبحون شامانات لدى الياقوتيين . ومن المحتمل أن المرض لدى بعض الشامانات كان وراثياً[٩] » . كذلك أشار الباحثون إلى حالات الهستيريا الجماعية ، عندما يستدعي حدوث النوبة لدى شخص نوبات فورية لدى الآخرين .

عادةً كان المشعوذ ـ الشامان ، أثناء طقس العبادة ، يطمح أيضاً في إيصال نفسه والموجودين في مكان العبادة إلى حالة الهياج الانجذابي على نحو اصطناعي ، وكان يتم تحقيق ذلك بطرق مختلفة . كتب إ. تايلور يقول إن المشعوذ الباتاغوني « كان يبدأ « الشغل » من قرع الطبول وبرم الخشخيشة حتى تحدث له نوبة صرع حقيقية ، أو وهمية . . . وفي الهند الجنوبية وسيلان يوصل من يسمّون بـ « الراقصين الشيطانيين » أنفسهم إلى النوبة لكي يدخلوا في حالة الوحي ، الضرورية لأجل معالجة المرضى .

على نفس الشاكلة ، تحدث نوبة من الانتشاء الجنوني لكهنة قبيلة بودو ، وذلك في غمرة الرقصات المحمومة على أنغام الموسيقى وغناء الناس المحيطين ، تلك النوبة التي يهبط أثناءها « الاله » على الكاهن ويشرع في التنبؤ من خلاله[١٠] » . في نفس الوقت ، يشير تايلور إياه إلى أن « الظاهرات المرضية المتعلقة بالتنبؤ تستحدث دوماً لأجل أهداف معروفة . وعادة يذهب المشعوذون المحلّفون إلى حد المبالغة ، لا بل التصنُّع العادي . في الأحوال الأكثر فرادة ، يمكن للوسيط أن يوله بفكرة كون الروح (التي سيطرت عليه) تتكلم من خلاله بالفعل ، ولهاً قوياً لدرجة تجعله ليس فقط يسمي الروح بالاسم ويتكلم وفقاً لأسلوبه ، بل ويغير صوته تماشياً مع طابع الروح » . ثم يتابع تايلور في هذا الصدد : « لو أتينا بأحد

---

(٩) المرجع السابق .

(١٠) إ. تايلور . الثقافة البدائية . موسكو . ١٩٣٩ ، ص٣٥٧ .

http://www.al-maktabeh.com

ساكني جزر المحيط الهادي إلى معبد أبولو في دلفي وجعلناه يرى التلوي المرتعش للكاهنة بيثيا ويسمع صرخاتها المحمومة ، لما طلب منا هذا الشخص تفسيراً لأي من هذه الطقوس ، فهي جد شبيهة بإفرازات فلسفته الوحشية المألوفة[11] ». ويمكننا أن نضيف هنا أن ساكن الجزر هذا لما استغرب أيضاً لو جعلوه يشاهد سلوك الأنبياء الاسرائيليين القدامى .

ما يكتبه تايلور عن « المشعوذين المحلّفين » الباتاغونيين والافريقيين يتأكد أيضاً من خلال المادة الأثنوغرافية الغنية والمتنوعة حول شامانات الشعوب السيبيرية .

يقول أنيسيموف : « بين شامانات الإيفنل(*) هنالك ، إضافة إلى الأشخاص العصبيين والهستيريين عدد كبير من الناس الرصينين جداً ، باردي الأعصاب ، ذوي الارادة القوية والمزاج التشاؤمي على الأغلب . بالنسبة لهكذا شامانات تصبح الشامانية مجرد شكل طقوسي ووسيلة للحصول على المنافع المادية والاجتماعية المعنية . وخلافاً للطراز الأول (الذي يتكون من أنبياء قبليين هم ـ في أغب الأحوال ـ شامانات صغار وقليلو التأثير في الحياة الاجتماعية)، يتميز الطراز الثاني (المكّون من شامانات خبيثين ومتسلطين ذوي خيال رصين)، إضافة إلى ذلك ، بامتلاكه لمخزون كبير من المعارف الايجابية والثقافية الرفيعة . . . إن الشامانات من هذا الطراز كانوا يمارسون نبوءاتهم آخذين بالحسبان كل معارفهم ، بحيث يكون الخطأ أقل ما يمكن ، لكي يحافظوا على هيبتهم . وهم حين كانوا

---

(١١) المرجع السابق ، ص٣٥٩ .

(*) Evenk ـ شعب يعيش في سيبيريا ـ المترجم .

http://www.al-maktabeh.com

يغلّفون ممارستهم بشكل مبهم شاماني ، كانوا قادرين على إسداء توجيهات عملية بحتة إلى أبناء قومهم ، مما كان يساعد ، بدوره ، على توطيد هيبتهم ومكانتهم الاجتماعية . وهم كانوا ، في ممارستهم الشامانية ، يجمعون ، بمهارة ، بين البهلوانية الحذقة والشعوذة السحرية والصوفية ومعرفة نفسية أبناء قومهم والإحاطة بالتجربة الانتاجية الايجابية[١٢] ».

لقد اخترع المشعوذ ـ الشامان نظاماً طقوسياً معقداً وخصّ نفسه بالثياب والحاجيات الخاصة المرتبطة بـ « مهنته »، والتي يزوّد كل عنصر منها بمغزى صوفي وقوة مبهمة . فلدى الإيفنك ، مثلاً ، كان المرشح لدور الشامان ، بعد مروره بمرحلة أولية من التدريب والتجربة ، يحصل من الشامان الأكبر سناً على شملة وصدرية خاصتين وعلى غطاء للرأس وعكاز خاصّين أيضاً وعلى دف الشامان مع مدقّة ، إلخ[١٣] .

إن المكانة الاجتماعية الخاصة لشامان القبيلة كان ـ بالطبع ـ يشترطها إيمان أبناء قومه بأنه على مقدراته ما فوق الطبيعية يتوقف مصيرهم بالذات ؛ لأنه هو بالذات المصطفى من قبل أرواح الأجداد لكي يحمي قبيلتهم[١٤] . لكن الشامان لم يفقد مكانته الاجتماعية العالية ، حتى في طور متأخر ، في ظروف انحلال النظام المشاعي البدائي ، عندما كانت عملية التمازج والتدامج بين مختلف القبائل تؤدي إلى تكوّن اتحادات قبلية أكبر . يكتب أنيسيموف أن ثمة هنالك شخصيتين مميزتين كانتا تقفان في مركز الحياة الاجتماعية لدى قبائل سيبيريا : القائد العسكري

---

(١٢) أ. ف. انيسيموف . ديانة الإيفنك ، ص٢٣٢–٢٣٣ .

(١٣) المرجع السابق ، ص١٥١ .

(١٤) المرجع السابق ، ص٢١٠ .

والشامان . فالشامان كان يمارس على المرشح لمرتبة القائد العسكري طقوس الرسامة ، و « فقط في حالة الرضى الواضح من قبل الشامان على المرشح ، كان هذا الأخير يستطيع أن يأمل في النجاح وفي أن يرسمه الشامان لمنصب القائد العسكري[١٥] ».

على أية حال ، حتى بعد تثبيت القائد في منصبه كان يتوجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار موقف الشامان ، ذلك لأنه قبل كل مشروع يزمع القائد العسكري القيام به كان من المهم بالنسبة له الاطلاع على إرادة الأرواح والحصول على تأييدهم ، وهذه ـ مرة أخرى ـ صلاحيات الشامان . وهكذا ، كان الشامان ، في الكثير من الأحوال ، يقوم بدور العرّاف والنبي .

لقد كان لدى كل شعوب العهد القديم ، كما لدى آلهة العهد القديم جميعاً ، أنبياؤها . ففي القرن السادس قبل الميلاد ، وفي معرض ندائه إلى ملوك إدوم وعمون وموآب ، كان نبي يهوه اليهوذي[*] إرميا يدعو : « فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرّافيكم وحالميكم وعائقيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل . لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب . . . »(إر ٢٧ — ٩ — ١٠). طبعاً ، كان إرميا ، الذي يتبع يهوه ، يعتبر أنبياء الآلهة الأخرى أنبياء كذابين .

تستخدم التوراة للنبي ، عادة ، التسمية العبرية « نابي » (جمعها « نابيم »). وهذه الكلمة يكمن ترجمتها بأشكال مختلفة : « المنبىء » أو « الذي

---

(١٥) المرجع السابق ، ص٢٢٧ .

(*) هنا ولاحقاً نستخدم صفة « يهوذي » نسبة إلى مملكة يهوذا أو قبيلة يهوذا ، للتمييز عن صفة « يهودي » ذات المغزى الديني والتي ستظهر متأخرة ، عند الحديث عن اكتمال نضوج ديانة يهوه . ـ المترجم ـ

http://www.al-maktabeh.com

ناداه الإله »، ولكن يجب الاعتقاد أن هذه التسمية قد ظهرت لدى العبرانيين في وقت متأخر نسبياً ، بعد وصولهم إلى أرض كنعان . في كتاب صموئيل الأول بقيت ملاحظة مثيرة للفضول : « سابقاً في اسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله . هلمّ نذهب إلى الرائي . لأن النبي اليوم كان يدعى سابقاً الرائي »(١صم ٩ــ ٩) في عدد من الأحوال تسمي التوراة النبيّ بكلمة عبرية أخرى هي « حوزي ». إن لكلمتي « روئي » (الرائي) و « حوزي » نفس المعنى تقريباً ، وهو « البصّار ». كان الناس يعتبرون أن « روئي » (الرائي) يرى الكثير مما ليس في مقدور الناس العاديين البسطاء رؤيته . فهو ـ مثلاً ـ يستطيع أن يرى أين يقع الشيء الضائع أو المسروق ، لكنه يستطيع أيضاً استشراف المستقبل لأن الاله (يهوه أو بعل أو عشتروت أو غيرهم) يكشف له ذلك المستقبل .

وفقاً للنصوص التوراتية (كتاب القضاة وكتب الملوك) كان الكثير من كل أصناف الـ « رو ئي » هؤلاء معتكفين في فلسطين : الأنبياء والبصارين والمطببين . وكان بينهم ليس فقط أنبياء يهوه ، بل وأنبياء الآلهة الأخرى . لا بل من المحتمل أن عدد أنبياء بعل كان اكثر من عدد انبياء يهوه ، لكن مؤلفي التوراة ، حين يصفون معجزات ومآثر هؤلاء ، يسمون بالاسم قلة قليلة منهم ، واذا سمّوا فيسمون أنبياء يهوه فقط ، والسبب مفهوم . لقد أبدى دارس التوراة ، الأمريكي مورتون سميث ، ملاحظة صائبة بقوله : « ليس « العهد القديم » أكثر من مكتبة طقوسية كانت تهدف إلى تمجيد رجال الديانة المشهورين من كهنة وأنبياء وملوك ، كانوا يرعون عبادة يهوه . من المحتمل أنه كانت توجد أدبيات مماثلة تمجد الإلهة عشتروت ومعجزات أنبياء بعل واجتهاد أنبياء الآلهة عناة والورع الذي كشف عنه الملك منسّى والملكة إيزابل اللذان ساعدا على ازدهار هذه العبادات

« الوثنية » بالذات . لكن هذا الأمر يمكن الحكم عليه فقط بالمقارنة [١٦] ».

لم يكن أنبياء مرحلة القضاة رجالاً فقط ، بل كان بينهم نساءٌ أيضاً (القرن الثالث عشر ـ القرن الحادي عشر قبل الميلاد). وفي إحدى هاته النسوة ، على الأقل ، يمكن أن نرى شخصية تاريخية واقعية ، ونعني دبورة (دبورة بالعبرية يعني النحلة). كانت هيبة دبورة ، كنبية ، كبيرة لدرجة أنها كانت « قاضياً » معترفاً بها : « وكان بنو اسرائيل يصعدون إليها للقضاء »(قض ٤ـ٥). ولكن الشهرة الحقيقية جلبها لدبورة ذلك الدور الذي قامت به في إحدي الحروب الدورية التي كان الاسرائيليون يخوضونها ضد جيرانهم في تحالف المدن الكنعانية . كان يقود جيش الكنعانيين سيسرا ، الذي كان لديه « تسع مئة مركبة من حديد وهو ضايق بني اسرائيل بشدة عشرين سنة »(قض ٤ـ ٢ـ ٣)،مستفيداً من تبعثر القبائل الاسرائيلية . إن دبورلم تكتف بإطلاق نداء لتوحيد القبائل المذكورة ،بل وعيّنت ـ باسم يهوه ـ قائداً عسكرياً مشتركاً هو باراق بن أبينوعم : « ألم يأمر يهوه إله اسرائيل . اذهب وازحف إلى جبل تابور وخذ معك عشرة آلاف رجل من بني نفتالي ومن بني زبولون . فاجذب إليك إلى نهر قيشون سيسرا رئيس جيش يابين بمركباته وجمهوره وادفعه ليدك »، لكن باراق كشف عن جبن وتردد ، وأخيراً وضع شرطاً أمام دبورة : « ان ذهبت معي أذهب . وان لم تذهبي معي فلا أذهب ». فذهبت دبورة مع باراق وعضدته : « فقالت دبورة لباراق قم . لأن هذا هو اليوم الذي دفع فيه يهوه سيسرا ليدك . ألم يخرج يهوه قدامك »(قض ٤ـ٦ـ١٤)

حدث ذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ومن المحتمل أنه كان التجلي الأول للتضامن بين القبائل الاسرائيلية تحت راية يهوه (لكنه كان تضامناً مؤقتاً

(١٦) Smith M. Palestinian Parties and Politics thath Shaped the Old Testament. N. Y., 1971, P. 19.

http://www.al-maktabeh.com

وجزئياً). في الوقت ذاته انعكس الدور المتزايد الذي كان الأنبياء يقومون به في الحياة السياسية للقبائل الاسرائيلية . وليس صدفةً أنه تخليداً لذكرى هذا الحدث تم تأليف « نشيد دبورة » الذي يشكل ، ربما ، أقدم نص بين نصوص التوراة التي وصلت إلينا .

إن قدم هذا النشيد لا يدعو إلى الشك . ومن غير المرجح أن يكون من تأليف دبورة نفسها ، كما تؤكد بدايته : « فترنمت دبورة وباراق بن ابينوعم في ذلك اليوم قائلين »(قض ٥ — ١).ولكن مؤشرات كثيرة تدل على أن هذه القصيدة تم تأليفها تحت تأثير مباشر من شعور النصر . فالشاعر يتحدث عن أشياء يفترض أنها معروفة للجميع ، متوجهاً إلى معاصريه ، وهم الشخوص الفاعلة فيما جرى والشاهدة عليه . إن قوة التعابير أثناء مديح القبائل التي شاركت في الحرب ، كما في اللعنات الموجهة إلى اللذين تملصوا من المشاركة ، تدل على شخص كان هو بالذات ـ ربما ـ مشاركا في الحرب . يوجد في القصيدة عدد من التفاصيل القديمة جداً : التصور الوارد عن يهوه ما يزال مرتبطاً بالماضي البدوي لاسرائيل . فيهوه يخرج من صحراء الجنوب إلى المعركة لنصرة شعبه : « يا يهوه بخروجك من سعير بصعودك من صحراء إدوم الأرض ارتعدت ». فالصحراء مسكنه الحقيقي وبلاد كنعان لم تصبح بعد « أرضاً مقدسة »، وأثناء المعركة يتلقى الاسرائيليون المعونة من الكواكب ومن تيار نهر قيشون : « من السموات حاربوا الكواكب من حبكها حاربت سيسرا . نهر قيشون جرفهم . . . ». إن هذا المديح للكواكب والنهر ليس فقط صوراً شعرية مجردة ، بل يؤدي بنا إلى القدم الغابر ، إلى عبادة قوى الطبيعة في الزمن القديم ، وقد كانت منتشرة لدى الكثير من الشعوب .

لا شك في أن النبية دبورة كانت شخصية فريدة . ولكن الجمهور الأساسي

من الأنبياء الذين كانوا يجولون في فلسطين ، فرادى أو جماعات ، ويتصرفون كأنهم مخبولون ، كان يستدعي ـ على الأرجح ـ شعور الازدراء ، لا بل السخرية من جانب الناس ، فالبعض فقط من الأنبياء كان يعلو فوق المستوى العام . وأحد هذا البعض كان النبي صموئيل الذي عاش في نهاية فترة القضاة ، عند أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد .

يشير المصدر التوراتي إلى عدد من التفاصيل حول حياة هذا النبي ، فأمه حنة لم يكن لها أولاد زمناً طويلاً ، حتى حجّت إلى معبد شيلوه وقطعت على نفسها نذراً : إذا رزقت بطفل فسوف تهبه ليهوه . وبعد ذلك فإن « يهوه ذكرها . وكان في مدار السنة أن حنة حبلت وولدت ابنا ودعت اسمه صموئيل (بالعبرية « سمع الاله » ـ المؤلف) قائلةً لأني من يهوه سألته »(١صم ١—١٩—٢٠)وتنفيذاً للنذر أعطي صموئيل منذ نعومة أظفاره لخدمة المعبد : « جميع أيام حياته هو عارية ليهوه »(١صم ١—٢٨)كان صموئيل في معبد يهوه يقوم بواجبات كاهن . وبعد موت الكاهن الأول عالي وابنيه اختاره يهوه ، فأصبح الكاهن الأول لمعبد شيلوه ونبياً عظيماً في الوقت ذاته . « وكبر صموئيل وكان يهوه معه ولم يدع شيئاً من كلامه يسقط إلى الأرض . وعرف جميع اسرائيل من دان إلى بئر سبع أنه قد أؤتمن صموئيل نبياً .(١صم ٣—١٩—٢٠).

في تلك السنوات كان الاسرائيليون يخوضون حرباً قاسية ضد الفلسطينيين وأصيبوا فيها بعدد من الهزائم . وبعد كسبهم إحدى المعارك تمكن الفلسطينيون حتى من احتلال شيلوه واختطاف « تابوت العهد »، لكن ذلك لم يسفر عن خير بالنسبة لهم . فقد أدخل الفلسطينيون التابوت إلى معبد داجون و «اقاموه بقرب داجون . وبكر الأشدوديون في الغد وإذا بداجون ساقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت يهوه . فأخذوا داجون وأقاموه في مكانه . وبكروا صباحاً في الغد وإذا

http://www.al-maktabeh.com

بداجون ساقط على وجهه أمام تابوت يهوه ورأس داجون ويداه مقطوعة على العتبة . بقي بدن السمكة فقط »(١صم ٥-١-٤). وبعد أن انتقم يهوه من تمثال داجون على هذا النحو ، جلب على الفلسطينيين مرضاً ، مما جعلهم بعد ذلك يضطرون للاعتراف بجبروت يهوه ، « لأن يده قد قست علينا وعلى داجون إلهنا ». وتحمّل الفلسطينيون سبعة أشهر يد يهوه الثقيلة ، ولكن صبرهم نفذ أخيراً : « فدعا الفلسطينيون الكهنة والعرافين قائلين ماذا نعمل بتابوت يهوه . أخبرونا بماذا نرسله إلى مكانه ». عندئذ نصح الكهنة والعرافون الفلسطينيين بتقديم « قربان إثم » ليهوه مع هدايا ثمينة وبارسال التابوت إلى الاسرائيليين ، وهذا ما حصل .

لقد شارك صموئيل أيضاً في الحرب ضد الفلسطينيين في دور الكاهن والنبي والمعاضد . وحين حل زمن السلم أعلن صموئيل قاضياً لعموم اسرائيل ، كما كان أمر دبورة في حينها . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل أيام حياته . وكان يذهب من سنة إلى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . . . . وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لاسرائيل » (١صم٧-١٥-١٦-٨-١). لكن أبناء صموئيل لم يكونوا على قدر مقام أبيهم : « ولم يسلك ابناه في طريقه بل مالا وراء المكسب وأخذا رشوة وعوّجا القضاء » وعندئذ : « فاجتمع كل شيوخ اسرائيل وجاؤوا إلى صموئيل إلى الرامة وقالوا له هوذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك . فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر في عينيّ صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكاً يقضي لنا » (١صم ٨-٣-٦). ربما كان صموئيل يفضّل عدم إفلات السلطة من بين يديه وأيدي أبنائه ، لكنه لم يكن لديه خيار . فنفوذ شيوخ القبائل والنخبة القبلية كان

عظيماً في ذلك الوقت وصموئيل وافق على منح الاسرائيليين ملكاً .وكان هذا الملك هو شاول .

إن قصة تتويج شاول تستحق اهتماماً خاصاً ، حيث بقيت في نصها تفاصيل تصوّر لنا ، بلا شك ، اللوحة التاريخية الحقيقية ودور الأنبياء في فترة القضاة .

حين ضلّت اتن قيس والد شاول ، وهو فلاح غني من قبيلة بنيامين ، أرسل قيس ابنه برفقة عبد للبحث عن الأتن . وقد جاب شاول المنطقة كلها بلا نتيجة ، وعندما لم يجد الأتن همّ بالعودة إلى البيت . لكن العبد الذي معه أقنعه بالعدول عن ذلك ونصحه : « هوذا رجل الله في هذه المدينة والرجل مكرم . كل ما يقوله يصير . لنذهب الآن إلى هناك لعلّه يخبرنا عن طريقنا التي نسلك فيها ». ولكن شاول يتردد : « هوذا نذهب فماذا نقدم للرجل . لأن الخبز قد نفذ من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا »، فيذكّر العبد شاول بأن لديه ربع شاقل فضة يستطيع أن يهديه للعرّاف . في هذا الحين كان يهوه قبل ذلك بيوم قد دلّ صموئيل على شاول كمرشح لمنصب الملك : « غداً في مثل الآن ارسل إليك رجلاً من أرض بنيامين . فامسحه رئيساً لشعبي اسرائيل فيخلص شعبي من يد الفلسطينيين . . ». هكذا ، استقبل صموئيل شاول الفتي بترحاب وفي اليوم التالي : « أخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبّله وقال أليس لأن يهوه قد مسحك على ميراثه رئيساً »، ثم هدأ صموئيل شاول بخصوص الإتن ، حيث أن النبي كان على علم أن الاتن قد وجدت . بعد ذلك ، يقدم صموئيل نصيحة لشاول : « يكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون . فيحل عليك روح يهوه فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر ». ونفذ شاول كل توجيهات النبي . فالتقى « الزمرة »، وهي مجموعة أنبياء في المكان المحدد ، « فحلّ عليه روح الله فتنبأ في وسطهم »، مما أثار كبير دهشة لدى من عرفه وعرف أباه : « ولما رآه جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله كيف يتنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس . أشاول أيضاً بين الأنبياء . فأجاب رجل من هناك وقال ومن هو أبوهم . ولذلك ذهب مثلاً : أشاول أيضاً بين الأنبياء » (١ صم ١٠).

http://www.al-maktabeh.com

في حكاية صموئيل وشاول سنصادف مرة أخرى « زمرة » الأنبياء . فبعد مضيّ سنوات على تولي شاول للملك ، كان يخدم في بلاطه شاب اسمه داؤود الذي قام بعدة مآثر ، خلال مشاركته في المعارك ضد الفلسطينيين ، مما استدعى حسد الملك وحقده . وقرر الملك قتل داؤود : « فأرسل شاول رسلاً لأخذ داؤود ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وصموئيل واقف رئيساً عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضاً . ثم يرسل شاول رسلاً لأخذ داؤود مرتين وتكون النتيجة ذاتها . وأخيراً يتجه هو نفسه إلى الرامة ولكن « كان عليه أيضاً روح الله » فراح هو أيضاً يتنبأ : « فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وانطرح عرياناً ذلك النهار كله وكل الليل » (١ صم ١٩).

ربما كان شاول يريد موت داؤود ، ليس فقط بدافع الحسد تجاه المجد العسكري لهذا الأخير وشهرته . ذلك أن صموئيل الذي مسح شاول ملكاً ، غيّر موقفه منه بشكل حاد ، لأن شاول ، بعد أن أصبح ملكاً ، لم ينفذ توجيهات صموئيل عدة مرات ، تلك التوجيهات التي كانت ، بالطبع ، تصدر باسم يهوه : « هكذا يقول يهوه رب الجنود ». ففي مثل هذه الصيغة طالب صموئيل ـ مثلاً ـ شاول أن يعلن الحرب على شعب عماليق المجاور : « هكذا يقول يهوه . . . اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة . طفلاً ورضيعاً . بقراً وغنماً . جملاً وحماراً ». لقد نفذ شاول إرادة يهوه ، لكنه ترك جزءاً من المواشي لأجل تقريب القرابين ليهوه ، كما أشفق على أجاج ملك العمالقة ، فأدان صموئيل بحدة سلوك الملك : « هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة والاصغاء أفضل من شحم الكباش . . . لأنك رفضت كلام يهوه رفضك من الملك » (١ صم ١٥). في مرة أخرى لم ينتظر الملك مجيء صموئيل وقام هو بتقريب الذبيحة قبل المعركة . فكان رد فعل النبي أكثر حدة : « وأما الآن فمملكتك لا تقوم . قد انتخب يهوه لنفسه رجلاً حسب قلبه وأمره يهوه أن يترأس على شعبه . لأنك لم تحفظ ما أمرك به يهوه » (١ صم ١٣). إذاً لقد اتخذ النبي موقف المعارضة من أول ملك للدولة الاسرائيلية ، وهو ـ إذا صدقنا الرواية التوراتية ـ لم يكتف فقط بالتهديد . لقد تبين أن صموئيل الذي كان ـ بالطبع ـ ينفذ إرادة يهوه ، قد انتقى خليفة شاول ، وهو داؤود المذكور سابقاً ابن يسّى من قبيلة يهوذا : « فقال يهوه

لصموئيل . . . . املأ قرنك دهناً وتعال أرسلك إلى يسّى البيتلحي لأني قد رأيت لي في بيته ملكاً ». ويجيء صموئيل إلى بيت يسّى ومسح هناك داؤود ملكاً (١ صم ١٦).

لكنه تعين على داؤود مقاساة الكثير من الأهوال قبل أن يصبح ملكاً ، بعيد موت شاول وأبنائه في معركة ضد الفلسطينيين . وكان صموئيل في ذلك الحين قد مات . وعلى ما يبدو ، فلم يوجد خليفة كفؤ له بين الأنبياء .

لقد تم تسجيل الرواية التوراتية حول قضاة اسرائيل والنبي صموئيل وحكم الملوك الاسرائيليين الأوائل في وقت متأخر عن وقوع تلك الأحداث التي تدور الرواية حولها . ويعتبر أكثرية الباحثين أن التسجيلات الأولى للتقليد الشفهي المتوارث والتشذيب الأول للنصوص قد جرت في القرنين التاسع والثامن ، ومنذ القرن السابع قبل الميلاد كانت هذه النصوص تتعرض للتعديل الجدي وفق الروحية المميزة لكهنة يهوه الأورشليميين الذين توطد نفوذهم .

ولكن ـ كما سبق وأشرنا ـ فإن المفسرين الأرثوذكسيين(*) لتاريخ الشعب العبري لم يكونوا يصلّحون المصادر الأكثر قدماً ، بالمرة تقريباً . وكان تدخّل المحررين اللاحقين ، تحديداً ، في وصف حكاية صموئيل وشاول وداؤود متواضعاً بشكل خاص . لذلك ، تسمح بعض المقاطع في هذه الحكاية بتكوين تصور حقيقي ـ مثلاً ـ عن دور أنبياء اسرائيل في تلك الأزمنة الغابرة .

إننا نستخلص أن الأنبياء (أو « الرؤاة » كما كانوا آنذاك يسمونهم) كانوا قد تميزوا على شكل شريحة اجتماعية خاصة ، كما لدى الشعوب الأخرى في مرحلة الانتقال من النظام العشائري ـ القبلي إلى المجتمع الطبقي . كان أنبياء الشريحة المذكورة رؤاة محترفين وبصّارين ومشعوذين يقومون بالتطبيب على طريقة الشامان . وكان الشعب يقصدهم بمختلف الدوافع : كان هنالك إيمان بأن هؤلاء يمكنهم إسداء نصيحة وإيجاد شيء (أو حيوان) ضائع أو مسروق وإشفاء مريض ، بل حتى بعث ميت ، والقيام بالمعجزات ، عموماً ، باعتبار أنهم أناس غير عاديين ،

(*) باليونانية Orthodoxos ـ الشخص المتمسك دوماً بعقيدة أو مذهب ما ، دون أن يحيد عنها . وسنعتمد هذا المغزى لاحقاً ، بما يتميز عن الصفة المرتبطة بالكنيسة المسيحية الأرثوذكسية . ـ المترجم ـ

http://www.al-maktabeh.com

بل مختارون من قبل الاله . عندما « يحل روح الله » على النبي ، فإنه ـ كما شرح صموئيل للشاب شاول ـ يصبح « رجلاً آخر » ويعطيه الله « قلباً آخر » فيصبح قادراً على التنبؤ والرؤيا واستشراف المستقبل .

إن الذين كانوا يصبحون أنبياء كانوا ينحدرون من شرائح اجتماعية مختلفة ، ولكن أغلبهم كانوا ـ على الأرجح ـ من عامة الشعب . هذا الأمر ، بالإضافة إلى سلوكهم الغريب أثناء الـ « شغل » (عندما يهتاجون بسبب الموسيقى الوحشية لآلتهم الموسيقية ، فيصلون إلى حالة النشوة ويخلعون ثيابهم ويصرخون ويقفزون ويكيلون الضربات لأنفسهم)، كان يستدعي لدى الناس موقفاً فيه بعض الازدراء تجاههم ، ولم يكن نادراً أن يصبحوا مادة للسخرية . فسكان جبعة ، جيران شاول ، « جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله »، حين رأوه « يتنبأ مع الأنبياء »، راحوا يسألون بدهشة : « أشاول أيضاً من الأنبياء . . . ومن هو أبوهم ». ولم يكن معنى ذلك أبداً : كيف يتواجد رجل دنيوي كهذا وسط أناس ورعين كهؤلاء ؟ بل على العكس من ذلك : كيف وجد ابن شخص محترم مثل قيس ، شاب من عائلة جيدة ، في مجتمع رديء ؟ لقد كان البعض حتى يعتبر الأنبياء أناساً مجنونين ويتخذ منهم الموقف المطابق لذلك : « لماذا جاء هذا المجنون إليك » (2 مل ٩–١١).

لكن الاسرائيلي العادي الذي كان يتعامل دائماً مع النبي (وفي بعض الأحوال ، يحصل منه بالفعل على نصائح معقولة ومساعدة أثناء المرض)، كان ينظر إلى هذا النبي ـ على الأرجح ـ بتوقير غيبي ، فيرى فيه « رجل الله » القادر أن يساعد في المحنة والقادر أيضاً ـ إذا أثير غضبه ـ استدعاء الكوارث أو إنزال اللعنة . لقد حفظت لنا التوراة رد فعل كهذا تجاه النبي « الوثني » بلعام : « لأني عرفت أن الذي تباركه مبارك والذي تلعنه ملعون » (عد ٢٢–٦).

لم يكن الأنبياء ، بحال ، يتميزون بالنزاهة الزائدة . فشاول لم يتجرأ أن يتجه إلى صموئيل طلباً للنصيحة بخصوص الإتن الضائعة ، دون أن يكون لديه ما يدفعه لـ « رجل الله ». وكان الناس في أيام الأعياد وأيام بزوغ الهلال وأيام السبوت يأتون إلى الأنبياء بالتقدمات فيجلبون لهم باكورة مواسم الحقول والبساتين (٢ مل٤–٢٣–٤٢). ولم يكن الأنبياء ، بحال ، يعيشون حياة زهد ، بل كان

http://www.al-maktabeh.com

لديهم زوجات وأولاد ، باعتبار أن « المهنة » كانت توفر لهم نوعاً من مستلزمات العيش . ويبدو أن تأثير الأنبياء على جماهير الشعب كان بالغاً ، خصوصاً حين كان يوجد بينهم شخصية كبيرة ، قادرة على توحيدهم بشكل ما . لقد كان صموئيل شخصية من هذا الصنف بلا شك ، وربما صح الأمر كذلك على شخصيتين شبه اسطوريتين من زمن لاحق ، هما إيليا واليشع .

من الواضح أنه قبل صموئيل أيضاً كان أنبياء اسرائيل يتميزون بعادة الاتحاد في زمر والقيام بطقوس جماعية ، كما كان حال أنبياء بعل الكنعانيين وغيرهم . فأثناء مثل هذا « الشغل » الجماعي كان الهياج يصبح معدياً لدرجة أنه كان يمكن أن يؤثر على الانسان حتى رغماً عن ارادته ، كما حدث ـ إذا صدّقنا الرواية التوراتية ـ لرسل شاول الذين ذهبوا للقبض على داؤود ، وكما حدث للملك نفسه (١ صم١٩ — ٢٠).

يبدو أن « الزمر » أي جماعات الأنبياء ، في زمن صموئيل ، كانت قد بدأت تتمتع ببنية محددة ، حيث وقف على رأس الزمرة شخص « يترأسهم » هو صموئيل (١ صم١٩ — ٢٠). كما يبدو أن صموئيل الذي حاول بداية تثبيت سلطته بوصفه « قاضياً لاسرائيل »، طامحاً في نقلها وراثياً إلى أبنائه ، كان يعتمد في ذلك ليس فقط على هيبته الشخصية ، بل وعلى مساندة « زمر » الأنبياء . ويمكن على هذا الأساس أيضاً أن نفسر سلوكه اللاحق الذي لم يكن مستقلاً فحسب ، بل ومثيراً ، فيما يتعلق بالملك شاول .

ويظهر أن صموئيل مات دون أن يترك بدلاً عن نفسه « رئيساً » جديراً يتزعم الأنبياء ؛ فأصبح داؤود ملكاً ، وقد توطدت السلطة الملكية على زمنه وزمن سليمان ، لدرجة أنه أصبح بوسعها عدم التخوف من نفوذ « حزب » الأنبياء . هكذا ،نجد داؤود يعيّن الكهنة بنفسه(٢ صم٨ — ١٧ ، ٢٠ — ٢٥ — ٢٦) ويؤدي بنفسه الوظائف الكهنوتية ، أي يقوم بتقديم الأضحيات ، وهذا ما أبعد صموئيل بسببه الملك شاول عن العرش : « . . . وأصعد داود محرقات أمام يهوه وذبائح سلامة . ولما انتهى داود من اصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم يهوه رب الجنود » (٢ صم٦ — ١٧ — ١٨).أما عن سليمان فيروى أنه « طرد . . . أبياثار عن أن يكون كاهناً ليهوه »، أبياثار الذي بقي سنوات طويلة في زمن داؤود

http://www.al-maktabeh.com

كاهناً أول لدى « تابوت العهد » بالذات في معبد يهوه المركزي (١ مل ٢-٢٦-٢٧).

http://www.al-maktabeh.com

في عهد الملوك تغير الوضع بالنسبة للأنبياء كما تغيّر دورهم . فعلى زمن داؤود ظهر لدى البلاط الملكي أنبياء للبلاط « من ضمن الملاكات »، كانوا في الوقت ذاته مستشارين للملك ومشاركين نشطين في كل دسائس البلاط وانقلاباته . هكذا ، نجد أن النبي جاد ، الذي ربما كان من تلاميذ صموئيل ، يسدي النصائح لداؤود منذ أن كان الأخير يختبىء عن أنظار شاول في أراضي ملك موآب . فالنبي يصر على عودة داؤود إلى يهوذا . وحين أصبح داؤود ملكاً ، بقي جاد لديه في منصب « رائي الملك »(٢ أي ٢٩-٢٥).وهنالك ثمة نبي آخر هو ناثان ، كان مربياً لسليمان ابن الملك ، وحين أزمع أدونيا الابن الآخر للملك على القيام بانقلاب لاحتلال العرش الملكي دون انتظار أن يموت داؤود الشيخ ، فإن ناثان بالذات هو الذي أعلم بالمؤامرة الملكة بثشبع أم سليمان ، فتمكنت هذه بدورها من اقناع داؤود بأن يأمر فوراً بمسح سليمان ملكاً (١ مل١-٨وبعده). وبقي ناثان يلعب دوراً هاماً لدى بلاط سليمان أيضاً .

لكن نبياً آخر هو أخيا من شيلوه ، فعلى العكس ، أصبح شريكاً في مؤامرة ضد الملك في آخر عهد سليمان ، وهي مؤامرة تزعمها أحد المقربين من سليمان يربعام ، الذي يدينه المؤلف التوراتي كعبد تجرأ أن يرفع يده على الملك (١ مل ١١ - ٢٦).فعندما التقى أخيا يربعام في الحقل ، قبض « على الرداء الجديد الذي عليه ومزقه اثنتي عشرة قطعة . وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع . لأنه هكذا قال يهوه اله اسرائيل هاأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط . . . لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت الاهة الصيدونيين ولكموش إله الموآبيين ولكوم إله بني عمون » (١ مل ١١-٢٩-٣٣).

في الواقع كان ذلك هو مخطط انقسام المملكة العبرية الواحدة ، وهذا الانقسام - كما نعرف - قد حدث فعلاً بعد موت سليمان بوقت قصير ، حيث أن يربعام بالذات أصبح ملكاً على المملكة الشمالية ، وواضح أن النبي أخيا الشيلوني قد أدى في ذلك دوراً لا يستهان به .

يبدو أن تمايزاً معيناً قد حدث في أوساط أنبياء يهوه ، إذْ أصبح جزء منهم

مقرباً من البلاط الملكي ، فكانوا يأكلون على مائدة الملك (١ مل١٨ — ١٩ ، أي يحصلون من الملوك على أعطيات معينة ، ويحاولون ـ بالطبع ـ أن لا يدخلوا في صدام معهم ومع حاشيتهم ومع وجهاء البلاط ، بل يساندون سياستهم ، ويتنبأون بما يرضيَ من يقدم لهم الزاد ويدفع المال . فيما بعد سوف يقول ميخا عن هؤلاء الأنبياء بسخط بالغ (وهو أيضاً من أنبياء يهوه ، لكن من الحزب المناهض) أنهم « يعرّفون بالفضة وهم يتوكلون على يهوه » (مي٣ — ١١).

كانت الخلافات بين الأنبياء ظاهرة عادية في كل الأزمنة . ولكن في تلك المرحلة المبكرة كان الخطر المشترك الجدي بالنسبة لهم جميعاً هو منافستهم من قبل أنبياء الآلهة الأخرى ، وبالدرجة الأولى من قبل أنبياء بعل .

النبي إيليا واليشع :

يمكن أن نستخلص من المصدر التوراتي أنه ، في زمن الملك آخاب (850—869)، كان يوجد في مملكة اسرائيل ، إضافة إلى أنبياء يهوه ، « أنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السواري أربع المئة الذين يأكلون على مائدة ايزابل » (١ مل١٨ — ١٩). ايزابل زوجة آخاب كانت فينيقية الأصل وابنة اثبعل (ايتوبعل) ملك صيدا ، ولما كانت من أتباع الالهين بعل وعشتروت ، أصبحت حامية لعبادتها في مملكة اسرائيل أيضاً . ففي السامرة (المدينة الجديدة التي بناها الملك عمري أبو آخاب وأصبحت عاصمة للمملكة الشمالية)، في عهد الملك آخاب ، تم تشييد معبد فخم لبعل وكثير من المذابح للالهين بعل وعشتروت في الحدائق (الغابات) المقدسة (السواري)، وكان يخدمها كهنة بعل وأنبياؤه . بالطبع ، يمكننا عدم الثقة بالرقمين الواردين («450» و «400»)، فهما تقريبيان ، على الأرجح ، ولكن يمكن تصديق شكاوى المؤلفين التوراتيين المتكررة كثيراً بصدد أن عبادة الألهة الكنعانيين (وليس فقط الكنعانيين) قد حصلت على انتشار واسع ـ منذ عهد سليمان حتى القرن السابع وبعده ـ كما في مملكة اسرائيل كذلك في مملكة يهوذا . فهذه الشكاوى تؤكدها المواد الأركيولوجية : في طبقات مرحلة ما بين القرنين العاشر والسابع وجدت تماثيل عدة لإلهة الخصب وتصويرات تمثل العجل والثعبان .

http://www.al-maktabeh.com

إن محرري النصوص التوراتية اللاحقين ، وهم أتباع مخلصون ليهوه ، فسروا ميل الملك سليمان إلى العبادات « الوثنية » ـ وهي واقعة مزعجة من وجهة نظر المحررين ـ بتأثير زوجاته الأجنبيات العديدات : « فذهب سليمان وراء عشتروت إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وعمل سليمان الشرّ في عينيّ يهوه . . . بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين . . . ولمولك رجس بني عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن » (١ مل ١١-٥ ـ ٨). حتى أن المؤلف التوراتي يعزو إلى الملكة ايزابل محاولة القضاء التام على أنبياء يهوه .

لا يمكن بالطبع أن ننفي كلياً دور زوجات الملوك الأجنبيات ، إذ يمكن عدم الشك في أن الملكات القادمات كنّ يجلبن معهن من الوطن حاشيات بأكملها ، بمن فيها كهنة الآلهة التي يتبعونها في بلدهم . ولم يكن هؤلاء الناس يتخلون عن العبادات التي تعودوها ولم يكونوا ينسون آلهة وطنهم ، حتى لو قدّموا فروض التبجيل للاله المحلي يهوه . على العموم ، كانت الزيجات المختلطة بين الاسرائيليين وممثلي الشعوب الأخرى أمراً عادياً تماماً في الزمن القديم . فمؤلفو ومحررو كتاب القضاة يكتبون حول ذلك باعتباره أمراً معروفاً للجميع : « فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء واعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم » (قض ٣ــ ٥).وفقاً للأسطورة القديمة كانت راعوث ، جدة داؤود البعيدة ، موآبية ، وكان بين نساء هذا الملك الورع عدة أجنبيات ، وكان ابنه المحبوب أبشالوم من معكة بنت ملك جشور (٢صم ٣ــ ٢)، وأما ابن سليمان رحبعام الذي تولى الملك بعده فكانت أمه عمونية (١ مل ١٤ــ ٢١).

في ظل علاقات القرابة الوثيقة على هذا النحو مع ممثلي الشعوب المجاورة ، ما كان بمقدور الاسرائيليين أن يحسوا بمشاعر عدائية تجاه عبادات هؤلاء ، خصوصاً وأن الاسرائيلي العادي ما كان ليعتقد بحال أن إلهه القبلي هو الحقيقي والآلهة الأخرى مزيفة وأن دينه فقط هو الحقيقي والأديان الغريبة كاذبة . فأثناء مباحثاته الدبلوماسية مع ملك موآب نجد أحد القضاة (يفتاح) يقنع محدثه بأن يعدل عن خططه لاحتلال جزءمن أرض اسرائيل ، فيقدم حجة « مقنعة » بقوله :

http://www.al-maktabeh.com

« والآن يهوه إله اسرائيل قد طرد الأموريين من امام شعبه اسرائيل . أفأنت تمتلكه . أليس ما يملك إياه كموش إلهك تمتلك . وجميع الذين طردهم يهوه إلهنا من أمامنا فإياهم نمتلك » (قض١١ — ٢٣ — ٢٤). هناك الإله يهوه وهناك الآلهة الأخرى وآلهة الشعوب الأخرى ، وكان بود الاسرائيلي - طبعاً - أن يؤمن بكون يهوه أقوى من غيره ، إذ يعرف الجميع كيف فعل مع داغون الفلسطينيين مرضاً مقرفاً .

أما فيما يتعلق بالآلهة الكنعانية العامة مثل بعل وعشتروت وغيرهما ، فلم يكن الاسرائيليون يعتبرونها غريبة قط ، وكانوا ينظرون إليها - حتى في مرحلة الملوك - بإجلال لا يقل عن إجلالهم ليهوه . فالملك شاول ، الذي أطلق على أحد أبنائه اسماً على شرف يهوه « يوناثان »، مما يعني « يهوه أعطى »، سمى ابنه الآخر « اشبعل » على شرف الاله بعل .

لكن ، إلى جانب تأثير الزوجات ، كان لدى ملوك يهوذا واسرائيل مهمة أخرى تدفعهم إلى ابداء رعاية إزاء آلهة الشعوب الأخرى . فابتداء من زمن سليمان توطدت الروابط التجارية والسياسية والثقافية بين العبرانيين وجيرانهم : مصر وفينيقيا وآشور وبابل ، وكان من المهم بالنسبة لمصلحة العمل الدبلوماسي والتجارة على حد سواء ، ليس فقط عدم التصلب الزائد تجاه العبادات الأجنبية ، بل على العكس إبداء وقف الاحترام ازاءها واكتساب بعض الشيء من طقوس وعادات تلك العبادات . وكما أشرنا سابقاً ، فإن معبد يهوه ، الذي بناه سليمان في أورشليم ، قد شيده العمّارون الفينيقيون الذين أرسلهم حيرام ملك صور الصديقة . وبموجب وصف هذا المعبد كما صانته التوراة (١ مل٧ — ٦)، فإنه كان نسخة طبق الأصل عن المعابد الفينيقية ، وقد تأكد ذلك أيضاً من خلال الحفريات الأثرية (الأركيولوجية) كما أن « بيت بعل » الذي بني كمعبد لبعل في أورشليم إلى جانب معبد يهوه وكذلك معبد بعل في السامرة ، الذي بناه آخاب ، كان يجب أن يكون لهما نفس الشكل .

وتنبىء التوراة أن أحاز ملك يهوذا (القرن الثامن)، عندما خرج إلى دمشق للقاء الملك الآشوري ، « رأى المذبح الذي في دمشق . وأرسل الملك آحاز إلى أوريا الكاهن شبه المذبح وشكله حسب كل صناعته . فبنى أوريا الكاهن مذبحاً

http://www.al-maktabeh.com

حسب كل ما أرسل الملك آحاز من دمشق . . . » (٢ملوك ١٦: ١٠—١١).

بعد ذلك يروي النص أن أحاز أقدم ، بعد عودته إلى الوطن ، على إعادة بناء كبيرة في معبد يهوه وأدخل تعديلات على الطقوس وأنه فعل ذلك « من أجل ملك آشور » (٢مل ١٦: ١٨).

مع ذلك وجدت في اسرائيل فئة من الناس ، كان موقفهم من الاله يهوه وعبادته يحمل طابع الغيرة الزائدة ، وهؤلاء هم الأنبياء الذين تسميهم التوراة « بني الأنبياء » وتسميهم الأدبيات العلمية « أنبياء الشعب » فشرف الأكل « على مائدة الملك » لم يكن متاحاً لكل الأنبياء ، بل كان كثيرون منهم يعيشون كما في الماضي في قرى ومدن يهوذا واسرائيل . كان هؤلاء ينحدرون من أعماق عامة الشعب ويعيشون حياة صعبة ، بل بائسة أحياناً . وقد حفظت لنا التوراة ذكرى عن عائلة واحد من « بني الأنبياء » اضطرت أن تستدين من المرابي ولم تتمكن من سداد الدين ؛ فجاء المرابي إلى هذه العائلة ليأخذ الأطفال عبيداً (٢مل ٤: ١)

ويمكن أن نستخلص من التوراة أيضاً أن « بني الأنبياء » في بعض المناطق ، مثل المراكز الدينية القديمة بيت إيل وشيلوه واريحا وجلجال ، كانوا ـ في فترة ما بين القرنين الحادي عشر والتاسع ـ يتحدون في أخويات خاصة تضم كل منها بضع عشرات وأحياناً بضع مئات ، وكان هؤلاء يعيشون معاً ويتغذون سويةً ، لا بل كانوا يجوعون كالآخرين حين كان يحل الجوع بالبلد . وكانت مثل هذه الأخويات تلتف عادة حول نبي ما ، أشهر من سواه ، يعلن رئيساً للاخوية . وقد أبلغتنا التوراة اسم نبيّين من هذا النوع هما إيليا وإليشع ، وهي تسرد عدة مشاهد مميزة من الحياة الصعبة لتلك الأخوية التي كان يترأسها إليشع . إليكم أحد تلك المشاهد : « وكان جوع في الأرض وكان بنو الأنبياء جلوساً أمامه . فقال لغلامه ضع القدر الكبيرة واسلق سليقة لبني الأنبياء . وخرج واحد إلى الحقل يلتقط بقولاً فوجد يقطيناً برياً فالتقط منه قثاءً برياً ملء ثوبه وأتى وقطّعه في قدر السليقة . . . وفيما هم يأكلون من السليقة صرخوا وقالوا في القدر موت يا رجل الله .ولم يستطيعوا أن يأكلوا . فقال هاتوا دقيقاً . فألقاه في القدر وقال صب للقوم فيأكلوا . فكأنه لم يكن شيء رديء في القدر . وجاء رجل من بعل شليشة وأحضر لرجل الله خبز باكورة عشرين رغيفاً من شعير وسويقاً في جرابه . فقال اعط

الشعب ليأكلوا . فقال خادمه ماذا . هل أجعل هذا أمام مئة رجل . فقال اعط الشعب فيأكلوا لأنه هكذا قال يهوه يأكلون ويفضل عنهم . فجعل أمامهم فأكلوا وفضل عنهم حسب قول يهوه »(٢مل ٤٤–٣٨–٤).

أما المقطع الثاني الذي سنورده فلا يقل عن سابقه إثارة للفضول : « وقال بنو الأنبياء لإليشع هوذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك ضيق علينا . فلنذهب إلى الأردن ونأخذ من هناك خشبة ونعمل لأنفسنا هناك موضعاً لنقيم فيه . فقال اذهبوا . . . فانطلق معهم ولما وصلوا إلى الأردن قطعوا خشباً . وإذ كان واحد يقطع خشبة وقع الحديد في الماء . فصرخ وقال آه يا سيدي لأنه عارية . فقال رجل الله أين سقط . فأراه الموضع فقطع عوداً وألقاه هناك فطفا الحديد » (٢ مل ٦: ١–٦).

إذا أهملنا في هذين المقطعين المعجزات بخصوص « يأكلون ويفضل عنهم » أو « فطفا الحديد »، سوف ينهض أمامنا مشهدان حياتيان يرسمان المناخ السائد آنذاك في أخويات « بني الأنبياء » وكذلك موقف هؤلاء من رئيسهم الذي يقودهم . ويمكن أن لا يساورنا الشك أنه ضمن هذه الأوساط بالذات كان يتم تأليف ونشر الخرافات حول المعجزات التي كان « النبي العظيم » حول « صدوق » اليهودي والقديسين المسيحيين والمسلمين ؟

وفقاً للتوراة عاش إيليا وإليشع في نفس الوقت ، تقريباً ، الذي كان يجلس فيه على عرش اسرائيل الملك آخاب ، الذي خلفه بعد موته أخزيا (نهاية القرن العاشر ـ النصف الأول من القرن التاسع) قد سمح أن تستبدل عبادة يهوه بعبادة بعل كلياً ، وذلك تحت تأثير زوجته الفينيقية إيزابل التي كانت نصيرة متعصبة للإله بعل . فقد تم تهديم كل مذابح يهوه وقتل كهنة هذا الاله وأنبيائه . ونجا فقط إيليا التشبي من مستوطني جلعاد لآخاب حيّ هو يهوه(*) إله اسرائيل الذي وقفت أمامه أنه لا يكون طلّ ولا مطر في هذه السنين إلا عند قولي » (١ مل١ :١٧). ويتنبأ

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

(*) « حيٌّ هو يهوه » صيغة قسم .

النص حول ماضي هذا النبي فقط كونه ينحدر من تشبة في جلعاد ، وهي المقاطعة الشرقية الأقصى في المملكة الشمالية . ثم تقول لنا التوراة شيئاً حول مظهر إيليا الخارجي : « رجل أشعر متنطق بمنطقه من جلد على حقويه »(٢مل ١ : ٨) - عدا ذلك كان إيليا يلبس رداء جلد ويحمل في يده عكازاً (وكلا هذين الشيئين من المستلزمات المميزة للمشعوذين لدى شعوب سيبيريا).

كان ينتظر إيليا نفس المصير الذي ينتظر الكثيرين من أنبياء يهوه ، ألا وهو أن يقتل وفقاً لأوامر إيزابل . لكن يهوه يأمر نبيّه بالاختفاء ، وذلك بقصد الحفاظ عليه : « انطلق من هنا واتجه نحو الشرق واختبىء عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن . فتشرب من النهر وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق وعمل حسب كلام يهوه وذهب فأقام عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن . وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً ويخبز ولحم مساءً وكان يشرب من النهر » (١ مل١٧ : ٣-٦). وبعد فترة جف مجرى كريث ، فأصدر يهوه أمراً جديداً لإيليا : « قم اذهب إلى صرفة التي لصيدون وأقم هناك . هوذا قد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك »، فاتجه إيليا إلى مدينة صرفة ، وعندما التقى عند بوابة المدينة تلك المرأة طلب منها كسرة خبز ، لكنه تبين أن المرأة نفسها وابنها يقفان على حافة الموت جوعاً . هكذا ، تجيب المرأة الصرفية على طلب إيليا قائلة : « ليست عندي كعكة ولكن ملء كفّ من الدقيق في الكوار وقليل من الزيت في الكوز وهأنذا أقش عودين لآتي وأعمله لي ولابني لنأكله ثم نموت ». لكن إيليا قام بمعجزة : « كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص ، حسب قول يهوه الذي تكلم به عن يد إيليا ». وهنا قام إيليا بمعجزة أكبر : أقام من الموت ابن المرأة الصرفية الذي مات بسبب المرض : « فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى يهوه . . . فيسمع يهوه لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش . . . فقالت المرأة لإيليا هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام يهوه في فمك حق » (١ مل ١٧). لاشك أن مؤلف النص التوراتي يوجه الكلمات الأخيرة إلى قرائه : كان يفترض بالمعجزات التي صنعها إيليا أن تؤكد على أنه نبي حقيقي ليهوه ونبي عظيم حقاً .

انقضت ثلاثة أعوام من الجفاف المريع ، حتى أن يهوه أمر إيليا مرة : « اذهب وتراءى لآخاب فاعطي مطراً على وجه الأرض » ويعود إيليا إلى

اسرائيل ، فيلتقي عوبديا « الذي على البيت » أي على قصر آخاب ، فيخبره عوبديا أنه عندما كانت ايزابل تقطع أنبياء يهوه ، أخذ هو عوبديا ـ باعتباره يخشى يهوه جداً ـ مئة نبي وخبأهم « خمسين خمسين رجلاً في مغارة وعالهم بخبز وماء »، وقد جرى البحث عن إيليا في كل مكان لقتله و« لا توجد أمة ولا مملكة لم يرسل سيدي إليها ليفتش عليك وكانوا يقولون أنه لا يوجد وكان يستحلف المملكة والأمة انهم لم يجدوك . . . » (١ مل ١٨: ١—١٠).

ورغم ذلك يذهب إيليا للقاء آخاب . « ولما رأى آخاب إيليا قال له آخاب أانت هو مكدّر إسرائيل . فقال لم أكدّر اسرائيل بل انت وبيت ابيك بترككم وصايا يهوه وبسيرك وراء البعليم . فالآن ارسل واجمع كل اسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السواري أربع المئة الذين يأكلون على مائدة إيزابل ». فينفّذ آخاب أمر إيليا : « فأرسل آخاب إلى جميع بني اسرائيل وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين . إن كان يهوه هو الله فاتبعوه وان كان البعل فاتبعوه . فلم يجبه الشعب بكلمة . ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبياً ليهوه وحدي وأنبياء أربع مئة وخمسون رجلاً . فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب لا يضعوا ناراً وأنا أقرّب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع ناراً . ثم تدعون باسم آلهتكم وانا ادعو باسم يهوه . والاله الذي يجيب النار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا الكلام حسن ». إن المؤلف التوراتي يصف بسخرية غير خافية سلوك كهنة بعل ، الذين أعدوا ثورهم « ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عمل . وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال ادعوا بصوت عال لأنه إله . لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيتنبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ ».

بعد ذاك يقبل على العمل إيليا ، فيعيد تشييد مذبح يهوه المهدم ويحفر حوله قناة « تسع كيلتين من البزر » ويضع على المذبح فوق الحطب لحم العجل المجزأ إلى قطع ويقول : « املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب . ثم قال ثنوا

http://www.al-maktabeh.com

فثنوا وقال ثلثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً ماء ». وفيما بعد تبين أن هذا الاجراء غير العادي بصدد الماء كان يهدف إلى البرهان بجلاء على تفوق يهوه على بعل . فبعد انجاز ذلك يتوجه إيليا برجاء حار إلى يهوه : « استجبني يا يهوه استجبني ليعلم هذا الشعب أنك أنت يهوه الاله وأنك أنت حوّلت قلوبهم رجوعاً . فسقطت نار يهوه وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا يهوه هو الله يهوه هو الله . فقال لهم إيليا امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك » (١ مل ١٨). بعد أن يقوم إيليا بهذه « المأثرة » يأمر عبده الذي يرافقه . « اصعد قل لآخاب اشدد وانزل لئلا يمنعك المطر ». وبعدئذ اسودت السماء من الغيم والريح وهطل مطر عظيم . « فركب آخاب ومضى إلى يزرعيل . وكانت يد يهوه على إيليا فشد حقويه وركض أمام آخاب حتى تجيء إلى يزرعيل » (١مل ١٨ : ٤٤-٤٦).

وعندما رأى آخاب الملكة ايزابل كل ما جرى على جبل الكرمل وكيف أن إيليا « قتل جميع الأنبياء بالسيف »، أرسلت الملكة الحانقة « رسولاً إلى إيليا تقول هكذا تفعل الآلهة وهكذا تزيد ان لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت غداً ». فيضطر إيليا مجدداً للهروب ، إلى يهوذا هذه المرة ويختبىء في جبل حوريب ، حيث يتوجه إلى يهوه بتوسل مرير حول مصيره : « غرت غيرة ليهوه اله الجنود لأن بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها . فقال له يهوه اذهب راجعاً في طريقك إلى برية دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكاً على آرام وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على اسرائيل وامسح اليشع بن شافاط من آبل محولة نبياً عوضاً عنك » (١مل ١٩). ويتبين من النص التوراتي أن إيليا لم ينفذ فقط المهمة الأخيرة بين المهمات الثلاث ، أي فيما يخص مسح إليشع .

وتعزو التوراة إلى إيليا وقفة صارخة جداً ضد آخاب . فقد أعجب آخاب بكرم لرجل إسرائيلي يدعى نابوت ، فاقترح عليه آخاب أن يبيع الكرم ، لكن نابوت رفض بحزم : « حاشا لي من قبل يهوه أن أعطيك ميراث آبائي »، فقص

آخاب خيبته على ايزابل ، فتدخلت الملكة المستبدة الظالمة في هذا الأمر على نحو حاسم . « ثم كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بخاتمة وأرسلت الرسائل إلى الشيوخ والأشراف الذين في مدينته الساكنين مع نابوت »، وتضمنت تلك الرسائل أمراً بجعل شهود زور ضد نابوت ، ليشهدوا عليه بأنه جدف على الله وعلى الملك ، ففعل الشيوخ والأشراف ذلك وحكم على نابوت بالرجم « فمات ». هكذا ورث آخاب الكرم ، « فكان كلام يهوه إلى إيليا التشبي قائلاً قم انزل للقاء آخاب . . . هوذا هو في كرم نابوت الذي نزل إليه ليرثه . وكلمه قائلاً هكذا قال يهوه هل قتلت وورثت أيضاً . ثم كلمه قائلاً هكذا قال يهوه في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً . فقال آخاب لإيليا هل وجدتني يا عدوي . فقال وجدتك لأنك قد بعت نفسك لعمل الشر في عيني يهوه »، وبعد ذلك يتنبأ إيليا لآخاب ، نيابةً عن يهوه ، بأن الاله سوف يبيد بيت آخاب لأنه جعل « اسرائيل يخطىء »، ولسوف يعاقبه يهوه كما عاقب على آثام مماثلة من قبل بيت يربعام وبيت بعشا (وهما ملكان ثم خلعهما بالقوة عبر انقلابين ضمن البلاط). ثم يضيف إيليا ما يقوله يهوه عن إيزابل « الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل ». وبعد سماع هذا التهديد فإن آخاب « شق ثيابه وجعل مسحاً على صدره وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت ». عندها ينبىء يهوه نبيّه إيليا قائلاً : « هل رأيت كيف اتّضع آخاب أمامي . فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته ».

بعد ذلك تلي الحكاية حول كيف أن آخاب تحالف مع يهوشافاط ملك يهوذا لشنّ حملة على ملك سوريا بنهدد ، لكن الملكين قررا أن يطّلعا أولاً على « كلام يهوه »، أي أن يسألا الأنبياء . « فجمع ملك اسرائيل الأنبياء نحو أربعة مئة رجل وقال لهم . أأذهب إلى راموت جلعاد للقتال أم أمتنع »، فأجابه الأنبياء عن لسان يهوه : « اصعد فيدفعها يهوه ليد الملك ». وكان الملكان في هذه الأثناء « جالسين كل واحد على كرسيه لابسين ثيابهما في ساحة عند مدخل باب السامرة وجميع الأنبياء يتنبأون أمامهما ». لا بل أن أحد الأنبياء مثّل ما يشبه الآية : « وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرني حديد وقال هكذا قال يهوه بهذه تنطح الآراميين حتى يفنوا ». لكنه يتبين أن أحد أنبياء يهوه لم تتم دعوته إلى هذا « الشغل » الجماعي ،

http://www.al-maktabeh.com

فشرح آخاب ليهوشافاط : « يوجد بعد رجل واحد لسؤال يهوه به ولكني أبغضه لأنه لا يتنبأ عليّ خيراً بل شراً وهو ميخا بن يملة ». ويقترح يهوشافاط دعوة ميخا ، رغم ذلك ، فتنبأ ميخا « شراً » بالفعل : الأنبياء الذين يتنبأون بالنصر يكذبون ، فالاسرائيليون سيهزمون وسيقتل آخاب في المعركة . « قد رأيت يهوه جالساً على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره . فقال يهوه من يغوي آخاب فيصعد ويسقط في راموت جلعاد . فقال هذا هكذا وقال ذاك هكذا . ثم خرج الروح ووقف أمام يهوه وقال أنا أغويه . وقال له يهوه بماذا . فقال أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه . فقال إنك تغويه وتقتدر . فاخرج وافعل هكذا . والآن هوذا قد جعل يهوه روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء ويهوه تكلم عليك بشر ». يمكننا فقط أن نتخيل كم كان عظيماً سخط الأنبياء الآخرين على ميخا ، حتى أن صدقيا ذاته « ضرب ميخا على الفك »، ولكن آخاب الحانق اكتفى بالقول : « ضعــوا هذا (أي ميخا . المؤلف) في السجن وأطعموه خبز الضيق وماء الضيق حتى آتي بسلام ». ولكن نبوءة ميخا بالذات هي التي تحققت ، حيث أصيب آخاب أثناء المعركة بجرح قاتل ، ورغم ذلك فإنه « أوقف . . . في مركبته مقابل آرام ومات عند المساء وجرى دم الجرح إلى حضن المركبة ». بعد خسارة المعركة ، جلبت جثة المللك آخاب إلى السامرة فدفن ، « وغسلت المركبة في بركة السامرة فلحست الكلاب دمه . . . حسب كلام يهوه الذي تكلم به » (١مل ٢٢).

بعد موت آخاب تولى العرش ابنه أخزيا الذي ، مثلما آخاب ، « عمل الشر في عيني يهوه ». فمثلاً ، عندما مرض « أرسل رسلاً وقال لهم اذهبوا اسألوا بعل زبون إله عقرون إن كنت أبرأ من هذاالمرض »، وعرف إيليا ذلك من ملاك يهوه الذي ظهر له وقال : قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم أليس لأنه لا يوجد إله في اسرائيل تذهبون لتسألوا بعل زبون إله عقرون . فلذلك هكذاقال يهوه أن السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتاً تموت ». ونفذ إيليا المهمة التي كلفه بها الملاك ، فعاد الرسل ونقلوا كلام إيليا إلى الملاك ، فيرسل أخزيا الغاضب خمسين جندياً ليقبضوا على هذا النبي الشرير ويجلبوه ، لكن إيليا ، الذي كان في ذلك الحين يختبىء على قمة الجبل أنزل ناراً من السماء على الجنود فحرقهم

http://www.al-maktabeh.com

جميعاً ، وأصاب المصير ذاته الخمسين الثانية التي أرسلها أخزيا . في نهاية المطاف نزل إيليا ، مع ذلك ، من الجبل وظهر أمام الملك بصحبة الملاك ، وكرر لأخزيا تلك الكلمات التي قالها سابقاً لرسل الملك ، ومات أخزيا « حسب كلام يهوه الذي تكلم به إيليا . وملك يهورام عوضاً عنه . . . » (٢مل١).

في هذه اللحظة كان إيليا لم يعد موجوداً على وجه المعمورة ، فأثناء تجواله في مختلف المدن برفقة النبي إليشع ، وصل إلى أريحا ، وخرجت كثرة من « بني الأنبياء » في مدينتي بيت إيل واريحا للقائه واقترب إيليا من الأردن وأخذ « رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما في اليبس »، « وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء » - ولم ير إليشع بعد ذلك إيليا . وهنا تنتهي الحكاية حول إيليا (٢مل ٢: ١-١١) .

وتخبرنا التوراة عن إليشع تلميذ إيليا مزيداً من التفاصيل . فأبوه شافاط كان فلاحاً ثرياً من قرية آبل محلة على ضفة الأردن . وحين رآه إيليا أول مرة كان إليشع يحرث أرض أبيه : « اثنا عشر فدان بقر قدامه وهو مع الثاني عشر فمر ايليا فيه وطرح رداءه عليه . فترك البقر وركض . . . ومضى وراء إيليا وكان يخدمه » (١مل ١٩: ١٩-٢١) ، لكن من غير الواضح فيما كانت تتجلى خدمة إليشع لإيليا . إنه كان وحده الذي رافق إيليا إلى ذلك الجبل الذي منه تم إصعاد الأخير إلى السماء على مركبة نارية ، وحين جرى ذلك « رفع رداء إيليا الذي سقط عنه ورجع ووقف على شاطىء الأردن »، حيث بقي على الشاطىء الآخر « بنو الأنبياء » من أريحا ، الذين رافقوا إيليا . فكرر إليشع معجزة إيليا : « فأخذوا رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو يهوه إله إيليا ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر إليشع . ولما رآه بنو الأنبياء الذين في أريحا قبالته قالوا قد استقرت روح إيليا على إليشع . فجاؤوا للقائه وسجدوا له الأرض . وقالوا هوذا مع عبيدك خمسون رجلاً ذوو بأس فدعهم يذهبون ويفتشون على سيدك لئلا يكون قد حمله روح يهوه وطرحه على أحد الجبال أو في أحد الأودية . فقال : لا ترسلوا ». ومع ذلك ألح « بنو الأنبياء » وأرسلوا خمسين رجلاً للبحث عن إيليا ، لكنهم عادوا بلا جدوى . وفي طريق العودة راح أهل أريحا يشكون لإليشع النوعية السيئة للماء

http://www.al-maktabeh.com

الذي يستخدمونه وكذلك قحط التربة . فذهب إليشع « إلى نبع الماء وطرح فيه الملح وقال هكذا قال يهوه قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضاً موت ولا جدب . فبرئت المياه إلى هذا اليوم ». وبعد انجاز هذه المعجزة سار إليشع في الطريق المؤدية إلى بيت إيل ، « وفيما هو صاعد في الطريق إذ بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له اصعد يا أقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم يهوه . فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولداً » (في وقت لاحق ، كانت قسوة يهوه ونبيّه المتجلية تجاه الأطفال الصغار تصيب بالصدمة حتى رجال اللاهوت اليهود ، فبذل هؤلاء جهودهم لتغيير مغزى ما هو مكتوب ، فاقترحوا أن يقرأ « كفار » بدل « صبيان »).

أما إليشع التوراتي فيتابع تحقيق المعجزات العظيمة ، مكرراً بدقة تامة - تقريباً - معجزات إيليا ، حيث جعل وعاء الزيت لا ينضب في بيت الأرملة الفقيرة كما بعث الطفل الميت ، فانتشرت شهرته كمطبب ذي مقدرة سحرية إلى البلدان الغربية . وسمع عنه نعمان (رئيس جيش الملك الأرامي)، الذي كان يعاني من مرض رهيب عضال هو البرص ، فقرر أن يجرب حظّه لدى النبي الاسرائيلي وجاء برسالة من الملك الآرامي وبهدايا ثمينة إلى إليشع ، لكن هذا رفض الهدايا كلياً وأمر نعمان أن يغوص في مياه الأردن سبع مرات . ووقعت المعجزة : « حسب قول رجل الله فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر ». إن نعمان - بعد هذا - لم يؤمن بقوة النبي الاسرائيلي وحسب ، بل وقرر أن يعبد يهوه فقط بعد تلك اللحظة ، ولذا توجه إلى إليشع بطلب : « أما يعطى لعبدك حمل بغلين من التراب لأنه لا يقرب بعد عبدك محرقة ولا ذبيحة لآلهة أخرى بل ليهوه . . . فقال له (إليشع . المؤلف) امض بسلام ». فإذا ، كان نعمان يؤمن بأن قوة يهوه (كقوة أي إله آخر) تتجلى فقط على الأرض « الأم » لهذا الاله ، ولذلك فإنه من المهم أن يوجد في سوريا ولو قليل من تراب اسرائيل ، « حمل بغلين » على الأقل .

بالمناسبة ، لقد حدثت في أثناء ذلك معجزة أخرى . فبعد أن ابتعد نعمان عن بيت إليشع ، خطر في بال عبده جيحزي : « هوذا سيدي قد امتنع عن أن يأخذ من يد نعمان الآرامي هذا ما أحضره . . . إني أجري وراءه وآخذ منه

http://www.al-maktabeh.com

شيئاً ». وفعل جيحزي ما فكر به ، فأخذ وزنتي فضة من نعمان وخبأهما عنده في البيت ، لكن ذاك لم يخف عن الرائي ، فحصلت معجزة : قال إليشع « فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد »، فتغطى جيحزي بالبرص فوراً ، « فخرج من أمامه أبرص كالثلج » (٢مل ٥).

إن إليشع ، في دور الرائي و« البصّار » كان يسدي نصائح قيّمة لملك اسرائيل يهورام ، فيخبره ـ مثلاً ـ بالخطط العسكرية السرية للملك الأرامي بنهدد . وعندما بدأ بنهدد يستجوب المقربين إليه ، بدافع الشك بوجود جاسوس بينهم : « أما تخبرونني من منا هو لملك اسرائيل »، يجيبه أحد الخدم : « ليس كذا يا سيدي الملك . ولكن إليشع النبي الذي في اسرائيل يخبر ملك اسرائيل بالأمور التي تتكلم بها في مخدع مضجعك » (٢مل ٦).

ليس واضحاً متى أصبح إليشع رئيساً لتلك « الأخوية » من « بني الأنبياء » التي سبق الحديث عنها . ولكن إذا صدقنا معطيات التوراة ، يتبين أن نفوذ إليشع ، بعد « صعود » إيليا ، قد انتشر ليشمل أنبياء بيت إيل وأريحا وربما مدن أخرى في اسرائيل . وحتى الملوك كانوا يتوجهون إليه بالرجاء لكي « يسأل يهوه ». وفي إحدى الحالات توجه إليه بهذا الطلب ثلاثة ملوك في آن واحد : ملك اسرائيل وملك يهوذا وملك إدوم ، الذين تحالفوا لأجل الحرب ضد موآب . فأجاب إليشع يهورام ملك اسرائيل : « ما لي ولك . اذهب إلى أنبياء أبيك وإلى أنبياء أمك »، أي إلى أنبياء بعل الذين كان يرعاهم المتوفى آخاب وزوجته إيزابل التي كانت على قيد الحياة لازالت . « لولا أني رافع وجه يهوشافاط ملك يهوذا لما كنت أنظر إليك ولا أراك ». بعد هذا الصدّ الشديد للملك ، وافق إليشع على أن يسأل يهوه ، مع العلم أنه استخدم الموسيقى لأجل بلوغ النشوة ، وهذه طريقة شائعة لدى شامانات سيبيريا والأنبياء العبرانيين القدامى : « والآن فاتوني بعوّاد . ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد يهوه ». فتنبأ يهوه عبر إليشع بانتصار الحلفاء التام ، لابل أشار بتعريض موآب « الوثنية » للتحريم الشنيع : « فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمون جميع عيون الماء وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة ». ونفذ الملكان هذا الأمر القاسي ، فتمت محاصرة « قير حارسة » مدينة موآب الرئيسية والتي تحصن فيها ميش ملك موآب

http://www.al-maktabeh.com

عندئذ، قرر ميش الاقدام على اجراء استثنائي ، بقصد الحصول على المساعدة الأمثل من إلهه كموش ، فقدم ابنه ضحية : « فأخذ ابنه البكر الذي كان ملك عوضاً عنه وأصعده محرقة على السور . فكان غيظ عظيم على اسرائيل . فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم » (٢مل ٣).

يبدو أن الاسرائيليين ، بعد رؤيتهم لمشهد تقدمة ابن الملك على سور المدينة ، شعروا ليس بالغيظ (ما الداعي ؟)، بل بالخوف من غيظ الاله الغريب عنهم ، مما جعلهم يفضلون الانصراف من موآب ، قبل أن ينعكس هذا الغيظ عليهم .

وانتهى كل هذا الأمر بأن شارك إليشع في مؤامرة أدت ليس فقط إلى خلع الملك يهورام وموته ، بل وإلى الابادة التامة لنسل آخاب وإيزابل .

هذا الأمر يرد في التوراة ، دون أن تموهه أية معجزات . فإليشع يرسل سراً أحد « بني الأنبياء » إلى رئيس جيش اسرائيل ياهو : « فانظر هناك ياهو . . . وادخل به إلى مخدع داخل مخدع ثم خذ قنينة الدهن وصب على راسه وقل هكذا قال يهوه قد مسحتك ملكاً على اسرائيل . ثم افتح الباب واهرب ولا تنتظر ». إن « ابن الأنبياء »، أثناء تنفيذه لوصية إليشع ، جعل الرئيس ياهو يفهم جيداً ما الذي ينتظره منه يهوه : « فتضرب بيت آخاب سيدك وانتقم لدماء عبيدي الأنبياء دماء جميع عبيد يهوه من يد ايزابل . . . وتأكل الكلاب ايزابل في حقل يزرعيل وليس من يدفنها » (٢مل ٩: ١–١٠). وحين سأل رؤساء الجيش الآخرون ياهو : « لماذا جاء هذا المجنون إليك »؛ روى لهم ما جرى وما قيل له في المخدع ، فأبدى هؤلاء تأييدهم لياهو ونجحت المؤامرة : في البداية قتل ياهو الملك يهورام ، ثم تم بأمر منه قتل أبناء آخاب السبعين الباقين في السامرة ، وجلبت رؤوسهم إليه في سلال ، « فاعلموا الآن . . . قد فعل يهوه ما تكلم به عن يد عبده إيليا . وأخيراً : « قتل جميع الذين بقوا لآخاب في السامرة حتى أفناه حسب كلام يهوه الذي كلم به إيليا ». لكن « غيرة » ياهو على يهوه لم تقف عند هذا الحد ، اذ تتلو رواية حول إحدى مآثر ياهو الرامية إلى تمجيد يهوه . فعند وصوله إلى السامرة « جمع ياهو كل الشعب وقال لهم . إن آخاب قد عبد البعل قليلاً وأما ياهو فانه يعبده كثيراً . والآن فادعوا إلي جميع أنبياء البعل وكل عابديه وكهنته . لا يفقد

أحد لأن لي ذبيحة عظيمة للبعل . كل من فقد لا يعيش . وقد فعل ياهو بمكر لكي يفني عبدة البعل . . . وأرسل ياهو في كل اسرائيل فأتى جميع عبدة البعل . . . ودخلوا بيت البعل فامتلأ بيت البعل من جانب إلى جانب . . . ولما انتهوا من تقريب المحرقة قال ياهو للسعاة والثوالث ادخلوا اضربوهم . لا يخرج أحد . فضربوهم بحد السيف . . . وساروا إلى مدينة البعل وأخرجوا تماثيل بيت البعل وأحرقوها وكسروا تمثال البعل وهدموا بيت البعل وجعلوه مزبلة إلى اليوم . واستأصل ياهو البعل من اسرائيل ». كما أن ياهو قضى على ايزابل زوجة آخاب . « وقال يهوه لياهو . من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم في عينيّ وحسب كل ما بقلبي فعلت ببيت آخاب فأبناؤك إلى الجيل الرابع يجلسون على كرسي اسرائيل »(٢مل ٩–١٠).

لاشك أن المؤلف التوراتي قد ضمّن « قلب » الاله ما كان لديه من موقف خاص إزاء « مآثر » ياهو . لقد استحسن يهوه فعل الغدر والقسوة اللذين أبداهما ملك اسرائيل في القضاء على عبدة وأنصار الاله المنافس بعل ، حيث قال يهوه أن ذلك « مستقيم » في عينيه . أما في الواقع ، فإن مؤلف التوراة هو الذي اعتبر ذلك « مستقيماً »، حين كتب ذلك (بعد ثلاثة قرون) في مملكة يهوذا ، عندما قام كهنة وأنبياء يهوه ، المستندين إلى معونة الملك يوشيا ، باجراء « عملية » مماثلة بحق العبادات « الوثنية »، فأظهروا قسوة مشابهة إزاء منافسيهم من كهنة وأنبياء العبادات الأخرى ، فأصبح التعصب الديني دوغمة رسمية في دين يهوه . لكن الحديث حول ذلك سيرد فيما بعد .

إن المؤلف التوراتي ، بعد أن يعطي تقويماً عالياً ـ على لسان يهوه الاله ـ لذلك « الورع » الذي كشف عنه ياهو في إبادته لعبدة بعل ، اضطر أن يضيف متحسراً : « لكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة يهوه اله اسرائيل من كل قلبه . لم يحد عن خطايا يربعام الذي جعل اسرائيل يخطىء »، أي عن العجلين الذهبيين اللذين في بيت إيل ودان . لقد تم إبادة تماثيل بعل ، لكنه يتبين أن الصنمين الذهبيين اللذين يمثلان يهوه على هيئة « عجل » في معبدي بيت إيل ودان باقيان ، وهما ـ كما في السابق ـ موضوع عبادة ، إذ كان الناس يقربون التقدمات أمامهما ويقبلونهما .

http://www.al-maktabeh.com

أما النبي إليشع فقد دفن حتى ياهو ، الممسوح من قبله ، وابن ياهو يهوآحاز الذي ورث العرش بعد موت أبيه ، ثم مات حين تولى الملك حفيد ياهو (الجيل الثاني) يهوآش . لكن إليشع بقي يصنع المعجزات حتى بعد موته . فعندما رموا في قبره بالصدفة جثة اسرائيلي ميت ، فإنه « لما نزل الرجل ومسّ عظام إليشع عاش وقام على رجليه » (٢مل ١٣-٢١).

يكرر المؤلف التوراتي في نفس التعبير المقدس : « عمل الشر في عينيّ يهوه » و« لم يحد عن خطايا يربعام الذي جعل اسرائيل يخطىء » أثناء الحديث عن ابني ياهو كليهما ، وبنفس الصيغة يتحدث المؤلف عن سلوك شعب اسرائيل في عهد هذين الملكين : « لم يحيدوا عن خطايا بيت يربعام الذي جعل اسرائيل يخطىء بل ساروا بها ووقفت السارية أيضاً في السامرة » (٢مل ١٣: ٦).

استمر الصراع بين يهوه وبعل ، ليس فقط في مملكة اسرائيل ، بل وفي يهوذا أيضاً ، حيث حدث أيضاً انقلاب في البلاط خلال السنوات التي استولى فيها ياهو على السلطة في اسرائيل . فقد جاء أخزيا ملك يهوذا ليحل ضيفاً في السامرة مع إخوته ، بالذات عندما قضى ياهو على « بيت آخاب » وكان أخزيا أيضاً من هذا « البيت » إذ أن أمه عثليا كانت ابنة آخاب ، وهذا كاف لأن يقتل ياهو أخزيا واخوته : « وقتلوهم عند بئر بيت عقد اثنين وأربعين رجلاً ولم يبق منهم أحد » (٢مل ١٠-١٤) أما أم أخزيا عثليا ، عندما رأت « أن ابنها قد مات قامت فأبادت جميع النسل الملكي » وراحت تدير الحكم بنفسها . وكما كان الأمر بالنسبة لايزابل في اسرائيل ، كانت عثليا نصيرة غيورة لبعل ، فترأس المؤامرة ضدها الكاهن الأول في معبد أورشليم ، يهوياداع ، الذي تمكن من إخفاء يوآش ، أحد أبناء أخزيا ، في المعبد ، وعمره سنة . وعندما بلغ يوآش السابعة ، فإن يهوياداع « أخذ رؤساء مئات الجلادين والسعاة وأدخلهم إليه إلى بيت يهوه وقطع معهم عهداً واستخلفهم في بيت يهوه وأراهم ابن الملك » . بعدئذ ، وفي اليوم المحدد « أخرج ابن الملك ووضع عليه التاج وأعطاه الشهادة فملّكوه ومسحوه وصفقوا وقالوا ليحي الملك . ولما سمعت عثليا صوت السعادة والشعب دخلت إلي الشعب إلى بيت يهوه ونظرت واذا الملك واقف على المنبر حسب العادة والرؤساء ونافخوا الأبواق بجانب الملك وكل شعب الأرض يفرحون . . . وصرخت خيانة خيانة » ، لكن الوقت كان متأخراً ، فقد

اقتيدت عثليا ، وفق أوامر يهوياداع ، إلى بيت الملك وقتلت هناك . « وقطع يهوياداع عهداً بين يهوه وبين الملك والشعب ليكونوا شعباً ليهوه . . . ودخل جميع شعب الأرض إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماماً ». من الطبيعي أن الذي كان يحكم في عهد الملك - الطفل كان يهوياداع نفسه ، فقد انتصر كهنة يهوه على كهنة بعل . « وعمل يهوآش ما هو مستقيم في عينيّ يهوه كل أيامه التي فيها علمه يهوياداع الكاهن . إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لايزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات ». ولاشك أن كهنة يهوه قد استفادوا من هذا الانقلاب ، فما كان يذهب إلى « بيت بعل » من تقدمات في السابق كان يجب الآن أن يأتي فقط إلى « بيت يهوه ».

إن دوافع العداء بين كهنة يهوه في يهوذا وكهنة العبادات الأخرى تبدو هنا واضحة بما فيه الكفاية : لقد كان عداءً بين متنافسين وصراعاً على المداخيل وعلى النفوذ بين جماهير الشعب والحكام . أما دور الأنبياء في ذلك فان تقويمه أصعب .

لقد أفردت التوراة لاثنين من أنبياء يهوه - إيليا وإليشع - حيزاً يكاد يزيد عن الحيز المكرس لعشرة ملوك . لكننا ، ومن أول نظرة ، يمكن أن نلاحظ أن الرواية حول هذين النبيين - حتى اذا أسقطنا منها المعجزات - تتضمن الكثير من السخافات والتناقضات . لنذكر هنا البعض منها فقط : ليس وارداً ، من وجهة نظر الواقع التاريخي أن يستطيع ملك المملكة الاسرائيلية الصغيرة منع كل الملوك والشعوب من استقبال إيليا لديهم ، . . . من غير المعقول أن يقوم الملك آخاب ، الذي يعرف عن إيليا مواقفه التمردية ، بتنفيذ طيّع لأوامر هذا النبي ، فيدعو إلى جبل الكرمل « كل اسرائيل » وأنبياء بعل الأربع مئة وخمسين وأنبياء السواري الأربع مئة ، ويسمح بتلك التصفية الرهيبة لأنبياء بعل (الذي كان الملك وزوجته يريان فيه الاله الحقيقي). ثم أن المؤلف التوراتي يؤكد أن إيزابل رأت من الضروري إخطار إيليا عبر رسول خاص أنها تنوي قتله « في نحو هذا الوقت غداً ». لماذا ؟ ماهو السبب ؟

هنالك تناقض واضح بين تأكيد إيليا ثلاث مرات (مرة « أمام الشعب » على جبل الكرمل ومرتين في شكواه للاله على جبل حوريب) أنه الوحيد الذي بقي من أنبياء يهوه ، حيث قتل الآخرون جميعاً (١مل ١٨ : ٢٢-١٩ : ١٠-١٤)

http://www.al-maktabeh.com

وبين اجتماع حوالي أربعمئة من أنبياء يهوه ، بعد فترة ، حين قرر آخاب أن يسأل ارادة يهوه قبل الحملة العسكرية ، مع العلم أن أحد هؤلاء ، ميخا ، كان معارضاً للملك . ويعتبر المؤلف ايزابل مذنبة في تصفية أنبياء يهوه ، لكن ايليا نفسه ، حين يشتكي للاله ، يتهم بذلك شعب اسرائيل اتهاماً مباشراً : « قد غرت غيرة ليهوه اله الجنود لأن بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها » (١مل ١٩: ١٠). ولكننا أصبحنا نعرف أنه لم يكن هناك تصفية جماعية لأنبياء يهوه وأن آخاب كان يتشاور معهم برغبة ، كي يعرف ارادة يهوه قبيل الحملة التي نوى القيام بها ضد موآب ، حيث شارك في الاجتماع « نحو أربعمئة » من أنبياء يهوه (١مل ٢٢).

في أحد المقاطع يؤكد لنا المؤلف أن يهوه ذاته أمر النبي أن يمسح حزائيل ملكاً على سوريا وياهو ملكاً على اسرائيل وإليشع نبياً (١مل١٩: ١٥-١٦). ولكننا نجد في مقاطع أخرى أن ايليا لم ينفذ اثنين من أوامر يهوه . فإليشع هو الذي مسح حزائيل ملكاً (موقف غير معقول اطلاقاً : ما غاية نبي اسرائيلي من مسح آرامي « وثني » ملكاً في سوريا ؟) بينما مسح ياهو ملكاً أحد « بني الأنبياء » بتكليف من اليشع .

ثمة هنالك كثير من التناقضات وعدم الانسجام في الرواية حول إليشع ايضاً . مثلاً ، بعد اشارة الاصحاح الخامس (٢مل) إلى ان خادم إليشع جيحزي أصيب بالبرص .

إلى الأبد ، ينبئنا أحد الاصحاحات التالية بأنه جالس يتحدث مع ملك اسرائيل ، وكأن شيئاً لم يكن : « وكلم الملك جيحزي غلام رجل الله قائلاً : قصّ علي جميع العظائم التي فعلها إليشع ». وبعد أن ينزل إليشع ، بمعجزة ، العمى على جيش السوريين (مما أدى إلى أنه « لم تعد أيضاً جيوش آرام تدخل إلى أرض اسرائيل »)، يخبرنا الاصحاح التالي بأن السوريين لم يدخلوا اسرائيل وحسب ، بل وحاصروا عاصمتها السامرة .

مما يبدو واضحاً للعيان أن المعجزات التي تنسب لإليشع هي نسخ عن المعجزات التي قام بها إيليا وكأنها كانت توصف وفقاً لنمط ما محدد .

منذ زمن والآراء بين العلماء دارسي التوراة مختلفة حول المصداقية التاريخية

لهذين النبيين . فالبعض يعتبر أنه لم يوجد في الواقع أي منهما قط ، بل أنهما عبارة عن شخصيتين أسطوريتين ، بل ميثولوجيتين . هكذا ، كتب إ. فرانك ـ كامينيتسكي يقول : « إن تحليل السمات الخيالية التي تنسب على التوازي لإيليا وإليشع يؤدي إلى الاستنتاج بأن أساس الصورة الأصلية للبطلين يتضمن التصورات الميثولوجية حول الاله الذي يبدو تجسيداً للماء ويوضع من جهة أخرى ، في صلة وثيقة مع النار السماوية » . حسب رأي هذا الباحث ، كان إيليا في البداية يعبد بصفته إله الرعد ، المطابق ليهوه ، واعتبر فيما بعد نبياً ومؤسساً أسطورياً لمذبح يهوه على جبل الكرمل ، وبعد ذلك اعتبر شخصية تاريخية : معاصر آخاب ونصير غيور لعبادة الاله الواحد[١٧] . ويكتب ن. رومبانتسيف في مقالته « النبي إيليا » أن « إيليا هو إله الرعد الكنعاني إله الماء والزراعة ، الذي جرى لاحقاً إضفاء صفة تاريخية عليه وتحويله إلى شخصية تاريخية وهمية[١٨] » .

هنالك باحثون آخرون يميلون إلى الاعتقاد بأن إيليا وإليشع ـ أو أحدهما على الأقل ـ قد وجدوا كشخصين تاريخيين ، لكن ما تكتبه عنهما التوراة هو ـ بدرجة كبيرة ـ ثمرة لخيال تلاميذهما وأتباعهما من وسط « بني أنبياء يهوه »، الذين كانوا يرسمون هالة المناضل الحازم والعنيف من أجل قضية يهوه حول معلميهم وينشرونها لتمجيد هذين الشخصين .

إن الحكايات مؤلفة في أوقات مختلفة ومن قبل أشخاص مختلفين ، ربما كانوا لم يسمع بعضهم ببعض قط ، مما يفسر جيداً عدم الانسجام وكذلك التناقضات في السرد التوراتي .

يمكننا أن لا نشك في أن الكتّاب التوراتيين ، مؤلفي كتاب الملوك ، قد استخدموا المواد الأسطورية القديمة عثلية مصدر لروايتهم ، ولكنهم ـ بلاشك أيضاً ـ كانوا يلجأون إلى مصدر آخر هو التواريخ القديمة والمذكرات التي وصلت

---

(١٧) إ. غ. فرانك ـ كامنييتسكي . الأنبياء صانعو المعجزات . لينينغراد ١٩٢٣ ، ص٧٢ .

(١٨) ن. ف. رومبانتسيف . نقد الديانة اليهودية ، موسكو ١٩٦٤ ، ص٢٥٣ .

http://www.al-maktabeh.com

إليهم وكانت تتضمن وقائع حقيقية من تاريخ شعبهم . والمؤلفون ، الذين عاشوا في وقت متأخر عن الحوادث الوصوفة بثلاثة قرون ، لم يقوموا بمجرد توحيد تلك المصادر المختلفة ، بل شذّبوها وفقاً لروحية الصياغة الرسمية لعبادة يهوه ، التي كانت آنذاك قد انتصرت وأعلنت التعصب تجاه الأديان الأخرى بمثابة دوغمة ووصية من « وصايا يهوه ».

خلال الرواية التوراتية حول الملوك القدامى لاسرائيل ويهوذا ، وحول الأنبياء الأوائل ، نحس دائماً بيد دخيلة هي يد المؤلف أو المحرر الأرثوذكسي . لا بل أن هذا الشخص كشف عن هويته ـ كما يقال ـ بصراحة ، في أحد الأماكن . فبعد أن يروي لنا عن سلوك يربعام « الآثم » من وجهة نظره ، حيث أن يربعام لم يكتف بإقامة العجلين الذهبيين في دان وبيت إيل وببناء مذابح على المرتفعات وبإلزام كهنة بخدمتها ، بل وكان يقرّب التقدمات بنفسه على مذابح بيت إيل ، بعد هذه الرواية ، يدفع المؤلف إلى مسرح الحدث « رجل الله » الذي لا يسميه ، والذي يتوجه إلى المذبح قائلاً : « يا مذبح يا مذبح هكذا يقول يهوه هوذا سيولد لبيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتحرق عليك عظام الناس ». إن المحرر المتأخر زمناً لم يكتف بمجرد تقويل « رجل الله » (الذي اخترعه) « نبوءةً » تحققت بعد ذلك بأربعة قرون على زمن يوشيا ملك يهوذا ، بل وصور لنا هذا النبي عارفاً لاسم الملك (١مل ١٣–٢). كما إنه شيء من صنع يد المحرر ، طبعاً ، تلك التعليقات المحشوة في الكثير من أماكن النص السردي ، والتي تمجد أولئك الملوك الذين كانوا يعملون « ما هو مستقيم في عينيّ يهوه » فيبيدون معابد وعبدة بعل ، أو ـ على العكس ـ تدين أولئك الملوك الذين يعملون « الشر في عينيّ يهوه »، كما كان حال آخاب . وبصدد هذا الأخير ، عمد ذلك المؤلف أو المحرر إلى تمزيق نسيج القصّ لكي يقول عن الملك بحقد خاص : « ولم يكن كأخاب الذي باع نفسه لعمل الشر في عينيّ يهوه الذي أغوته إيزابل امرأته . ورجس جداً بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الأموريون الذين طردهم يهوه من أمام بني اسرائيل » (١مل ٢١–٢٥–٢٦). لكن كما قلنا سابقاً ، فإن هؤلاء المؤلفين المتأخرين ـ لحسن الحظ ـ ما كانوا ، كقاعدة ، يتدخلون لتصحيح المصدر الأصلي ، بل يكتفون فقط

بإضافة بعض الوقائع التي لم يكن التقليد يتضمنها ، ولكنها ـ من وجهة نظر المؤلف المتأخر ـ ضرورية من أجل التقديم الأمثل للعبر الدينية التي يمكن استخلاصها من تاريخ اسرائيل القديمة .

في طريقة عرض تلك العبر يوجد دائماً خطان ، أحدهما هو خط التاريخ السياسي والمدني ، بينما الآخر هو خط التاريخ الديني . الأول ينقل وقائع فعلية مدونة في التواريخ والثاني ينقل صدى التقليد الشفهي . إن حكاية إيليا وإليشع ليست ، بطبيعة الحال ، تاريخاً ، بل هي فلكلور ذلك أن الصراع بين عبادة يهوه وعبادة بعل معكوس في التوراة على نحو مبسّط جداً وبعيد عن الواقع التاريخي الحقيقي .

إنه لأمر شبيه بالواقع التاريخي أن يكون آخاب ـ ربما تحت تأثير الفينيقية إيزابل ـ قد أحاط بالرعاية عبادة بعل ، لكنه لم يتوقف في الوقت ذاته عن تبجيل يهوه ، والشاهد على ذلك يمكن أن نجده في كون آخاب قد منح عدداً من أولاده أسماء تتضمن إسم الاله يهوه : أخزيا ، يهورام ، عثليا . ويبدو أن المواقف الدينية لمواطنيه كانت مماثلة ، فهؤلاء الناس ، الاسرائيليون في غالبيتهم ، كانوا « يعرجون بين الفرقتين » على حد تعبير إيليا (الذي قام بتقويله إياه المحرر التوراتي ، طبعاً)، ويعني هذا التعبير أن الناس ما كانوا يجدون لزاماً عليهم تبجيل إله واحد ، يهوه أو بعل ، بل كانوا يعتقدون بضرورة إيلاء الاهتمام اللازم للآلهة المحلية الأخرى التي اعتادوا عليها . في أحد الأماكن يقوم المؤلف باجبار يهوه على الاعتراف لإيليا بأنه لم يبق من المخلصين له في اسرائيل إلا القليل جداً : « وقد أبقيت في اسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله » (١مل١٩–١٨) من غير المعروف مصدر هذا الرقم ، ولكنه قد يكون عكس الوضع الحقيقي للأشياء : أنصار يهوه وحده ، الذين يعتبرون من غير الجائز تبجيل الآلهة الأخرى ، كانوا فعلاً قلائل في اسرائيل تلك الأيام ، وعلى الأرجح كانوا يتألفون من « أخويات » أنبياء يهوه ومن كهنة المذابح المحلية ليهوه .

كان هؤلاء الناس « الغيورون ليهوه » كما كانوا يسمون أنفسهم (١مل ١٩–١٠ . يؤمنون مخلصين بأن إلههم أيضاً غيور على مجده (« أنا يهوه إلهك إله غيور » حز ٢٠–٥) ولا يريد تقاسم هذا المجد مع آلهة آخرين . أما الموقف

http://www.al-maktabeh.com

المعتدل ، لا بل موقف الرعاية ، الذي كان الملوك وحاشيتهم يبدونه إزاء العبادات الأخرى فكان هؤلاء ينظرون إليه بمثابة خيانه ليهوه ، لا بد وأن ينتقم الإله من القائمين بها ، وربما كانوا يعتبرون أنفسهم ملزمين بالاشتراك في هذا الانتقام قدر طاقتهم . عدا عن ذلك ، يجب أن لا ننسى أن أكثرية « بني الأنبياء » وأنبياء يهوه كانوا ينحدرون من أصول شعبية (لنتذكر هنا تعبير الازدراء الذي أطلقه معارف شاول : « ومن هو أبوهم »). فهؤلاء الأنبياء الذين كانوا يعيشون في فقر وجوع مع سواد الشعب ، كان يجب أن يشعروا بالنفور إزاء نخبة العاصمة ، برئاسة الملك ، وهي تعيش في رخاء ونعيم ، وكذلك إزاء الأنبياء الذين سلّموا بخيانة إلههم وراحوا يتنبأون بما يرضي الملوك الخاطئين .

إن النفور ، الذي نما على أرضية اقتصادية ـ اجتماعية واشتد بسبب صبغته الدينية ، يشكل تفسيراً كافياً لحقيقة أن أنبياء يهوه قد شاركوا ـ في عدد من الأحوال ـ مشاركة فعالة في المؤامرات والانقلابات المضادة للحكومة . والسبب في فقدان عشرة أسباط على عهد رحبعام كان بالطبع هو وطأة الجزية وفروض الطاعة ، التي كانت نيراً ثقيلاً على كاهل جماهير الشعب في سنوات ملك سليمان ورحبعام . لكن أخيا نبي يهوه الشيلوني ، عند مباركته ليربعام على « رفع يده » على ملكه ، شرح له إرادة الاله في شق عشرة أسباط من نسل داؤود بدوافع دينية : « لأنهم تركزني وسجدوا لعشتروت إلهة الصيدونيين ولكموش إله الموآبيين وللملكوم إله بني عمون » (١مل ١١).

لنلاحظ هنا أن أخيا كان نبياً في معبد يهوه القديم في شيلوه ، الذي أصابه التلف بعد أن بني معبد يهوه المركزي في أورشليم ، وأن إيليا وإليشع اللذين لعبا ـ بموجب التوراة ـ دوراً هاماً في إبادة « بيت آخاب » كانا أيضاً نبيّين ريفيّين !

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الأنبياء الكتاب
ومشكلة تبرير يهوه

« ما كان بوسع الاله الواحد أن يظهر قط بمعزل عن الملك الواحد ، . . . فوحدة الاله ، الذي يضبط الظواهر الكثيرة في الطبيعة ويوحد قوى الطبيعة المتصارعة فيما بينها ، ليست سوى انعكاس لوحدانية المستبد الشرقي ، الذي يوحد ـ ظاهرياً أو فعلياً ـ بين الناس ذوي المصالح المتعادية المتصادمة[19] ». هذا ما كتبه فريدريش إنغلس بقصد الاشارة إلى أن الوعي الجماهيري الشعبي يضفي سمات التسلط الشمولي والجبروت الكلي والدراية بكل شيء على الملك الأرضي الذي يتخذ صورة مثالية ، ونفس تلك السمات يتم نقلها لتصف الملك السماوي ، ولكن بشكل أكثر تضخيماً، بصورة المطلق . إن التصورات الدينية المبهمة التي نشأت على نحو تلقائي في وعي الشعب ، كانت تحصل لاحقاً على صياغة لاهوتية ملائمة . وكان ذلك من مهام الكهنة والأنبياء ومن شابههم ، حيث كان الاله العلوي الأوحد يكتسب لديهم خواص الأبدية والوجود الكلي والدراية الشاملة

(١٩) ك. ماركس ، ف. إنغلس . المؤلفات ، المجلد ٢٧ ، ص٥٦ .

والجبروت الكلي . فهو الاله الذي خلق العالم كله ويديره بحكم صنعته . هذا ، ولقد توطد نظام الاستبداد الشرقي في مصر وبلاد الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وهنالك ثمة نشيد مكرس للاله المصري آمون يعود إلى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد ، حيث يوجد مديح للاله المذكور بوصفه « مؤسس كل الأشياء . . . الوحيد . . . أبو الآلهة ، صانع البشر ، خالق الحيوانات ، خالق النباتات المثمرة . . . أنت نبست بكلمة فحصلت كل الآلهة على وجودها . . . يا صانع كل البشر ، مهما كان عددهم ، يا من وهبهم الحياة وميّزهم بلون البشرة . . . الكل نائمون وأنت لا تنام ، صانعاً ما هو مفيد لأجل خليقتك[٢٠] » .

ولم يكن الوعي الديني للمصريين القدامى يرتبك من جراء وجود جماعة كبيرة من الآلهة الأخرى (المصرية وغير المصرية) في ظل وجود آمون « الأوحد والوحيد » . لقد وصل إلينا نص اتفاقية السلام التي تم عقدها في عام 1280 قبل الميلاد ، بين فرعون مصر رمسيس الثاني والملك الحتي حاتوسيل ، وهي تنتهي بالكلمات التالية : « فيما يخص الكلام الذي على هذا اللوح الفضي ، إذا كان أحد ما لن يطبقه ، فإن ألف إله من بلاد الحثيين وكذلك ألف إله من بلاد مصر سوف يبيدونه ويحرمونه من بيته وأرضه وأتباعه[٢١] » . فإذاً لدى المصريين ألف إله ولدى الحثيين ألف إله ! والتصور الجديد عن الاله يتشابك ، في ديانة مصر القديمة ، على نحو عجيب مع المعتقدات التقليدية القديمة ، فقد كانت الفكرة المجردة حول الاله الشمولي (الخالق الأوحد والمدبر الأوحد للكون)، تتعايش سلمياً مع

---

(٢٠) انظر : ب. ا. تورايف . تاريخ الشرق القديم لينينغراد ١٩٣٥ المجلد ١ ص٣٢٨–٣٢٩ .

(٢١) مختارات من تاريخ الشرق القديم موسكو ١٩٨٠ الجزء الاول ص٨٢ .

http://www.al-maktabeh.com

معتقدات بدائية إلى أقصى حد ، كانت تعود بجذورها إلى الماضي البدائي ، أي مع عبادة الحيوانات والآلهة ذات الرؤوس الوحشية .

لكنه أمر ذو دلالة أن يكون النشيد الذي أوردنا بعض مقاطعه يصور الإله آمون ، ليس فقط بوصفه كلي الجبروت ، بل ايضاً بوصفه مليك الحق ، « المصغي إلى الفقير المعوز . . . مخلّص الوجل من المتغطرس ». وفي أناشيد أخرى يبدو آمون بمثابة « حامي الساكتين ومنقذ الفقراء ، ملبي نداء الفقير[٢٢] »، وبمثابة « وزير المحرومين ، الذي لا يقبل تقدمات الطالح[٢٣] » إلخ . إن إله كل الكون يبدو ، أيضاً ، الملاذ الأخير للشخص الفرد وحاميه في ضعفه . إنه رحيم وعادل لايقبل رشوات من « الطالح ». ومثل هذا التصور عن الاله في نشيد للكهان كان يتوجب عليه ـ دونما شك ـ أن يتكون ، هو أيضاً ، في الوعي الشعبي أولاً ، وذلك حين ظهرت أسباب نشوئه في الوجود الاجتماعي .

كقاعدة ، لم تكن مصالح إنسان المجتمع البدائي تدخل في تناقض مع مصالح سائر أعضاء المجتمع . لكن هذا الوضع تغير جوهرياً مع نشوء المجتمع الطبقي ، الذي انقسم إلى طبقات ذات مصالح اقتصادية متناحرة . ففي أحد قطبيه تميزت أقلية اجتماعية ضئيلة وضعت يدها على السلطة واستخدمتها لأجل استغلال الجمهور الأساسي من الشعب والعيش على حسابه حياة طفيلية . هكذا تكونت الدولة ، بما لها من أدوات قمع ، وباعتبارها جهازاً يساعد الطبقات الظالمة على ضمان طاعة المظلومين . لكن من الهام ألا ننسى حقيقة أنه كان على الدولة في

---

(٢٢) غ. فرانكفورت ، غ. أ. فرانكفورت ، ج. ويلسون ، ت. جاكبسون . على أعتاب الفلسفة . موسكو ١٩٨٤ ص١١٥ .

(٢٣) المرجع السابق ص٩٣ .

المجتمع الطبقي القيام أيضاً بعدد من المهام الشعبية العامة ، الضرورية . يقول إنغلس عن المجتمع الطبقي أنه المجتمع المنقسم « إلى متناقضات متناحرة ، هو عاجز عن التخلص منها . ولكي لا تبتلع هذه المتناقضات ـ أي الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتناقضة ـ بعضها بعضاً وكذلك المجتمع ككل عبر صراع لا نتيجة له ، أصبح من الضروري وجود قوة تقف فوق المجتمع ـ حسب ما يبدو ـ وتخفف الصدام ، فتبقيه ضمن حدود « النظام ». هذه القوة التي تنشأ من لدن المجتمع ، ولكن تضع نفسها فوقه ، فتفترب أكثر فأكثر عن المجتمع إياه ، هي الدولة[٢٤] ».

كان ضمان أمن الفرد في عصر المجتمع القبلي هو القبيلة ، التي يجب أن تحمي أعضاءها الضعفاء ، المغبونين ، في حين أن وظيفة حماية الفرد انتقلت إلى الدولة ، بشكل حتمي ، في ظروف المجتمع الطبقي ، حيث اختلط ممثلو مختلف القبائل وحيث راحت تضعف وتتمزق العلاقات القبلية وكذلك أيضاً التقاليد القبلية والالتزام بحماية بني القوم . طبيعي أن الدولة في المجتمع الطبقي الناشىء كانت ، قبل كل شيء ، دولة الطبقة المهيمنة اقتصادياً . ولكن هذه الطبقة بالذات كان لها مصلحة في أن تنظر الجماهير الشعبية الواسعة إلى الدولة على أنها قوة فوق المصالح الأنانية لأشخاص محددين وطبقات معينة ، وهذا فضلاً عن ميلها إلى (وقدرتها على) الوقوف إلى جانب الضعيف والمظلوم وحمايته من قسر القوي . لأجل ذلك كان من الحري بالطبقة المسيطرة أن تضحي أحياناً بمصالح بعض ممثليها ، عندما كانت تقضي بذلك مصالح الطبقة ككل . وليس صدفة وجود عدد

(٢٤) ك. ماركس ، ف. انغلس ، المؤلفات المجلد ٢١ ص١٧٠ .

http://www.al-maktabeh.com

من المواد التي تحمي المديونين الفقراء من جشع وقساوة المرابين في شريعة حمورابي الشهيرة ، وهي من أقدم الشرائع ، وكذلك المواد التي تحمي صغار التجار من غش التجار الكبار والجنود العاديين من تجاوزات وظلم قادتهم .

ضمن هذه الظروف ، تتكون هالة خاصة حول الأشخاص الذين تتجسد فيهم فكرة الدولة بالذات ، أي الحكام والملوك . كلما كان الظلم والقسر يزدادان في المجتمع ، وكلما كان تحمّل المستغلين من قبل المستغلين أكبر ، كلما كانت أقوى رغبة المظلومين في الايمان بأن وضعهم ليس ميؤوساً منه بالمرة ، وبأن لديهم من يحميهم ، وأنه ـ رغم كون الأغنياء والظالمين المتنفذين يفعلون الشر ويظلمون ـ توجد قوة ضابطة عليا ، فوقهم ، قادرة على ترويضهم ومعاقبتهم ، وتلك القوة هي الملك الجبار العادل . كان المظلومون ينتظرون من الملك. تحقيق تطلعاتهم التي هي ، في الواقع ، تلك التطلعات التي لم تحققها الدولة . أما ممثلو السلطة العليا فكانوا ، من ناحيتهم ، يطمحون إلى توطيد هذه التصورات الوهمية لدى الشعوب . ففي مقدمة وخاتمة شريعة حمورابي المذكورة ، يتم تصوير الملك على أنه « أمير رؤوف » وأن الآلهة « نادته لخير الشعب . . . لكي يجعل العدالة تشع في البلد ، لكي يفني المجرمين والأشرار ، لكي لا يجور القوي على الضعيف ، . . . لكي ينصف اليتيم والأرملة . . . »، إلخ . في الوقت ذاته يؤكد حمورابي أنه أصدر هذه الشريعة بأمر الاله شمش ، « القاضي العظيم للسماوات والأرض[٢٥] ». وهذا يظهر شمش ، إله الشمس والضوء البابلي في دور الاله الطيب ، إله العدالة والانصاف . في مصر الفرعونية ـ كما رأينا ـ كان كهنة آمون يعزون هذه الصفات

(٢٥) مختارات من تاريخ الشرق القديم الجزء الأول ص١٥٢ ، ١٧٤ .

إلى إلههم هم . إن فكرة الاله الشمولية ، التي نشأت في الوعي الشعبي وتم انضاجها وتطويرها من قبل اللاهوتيين والفلاسفة القدامى ، ارتبطت بصفات الوجود الكلي والجبروت الكلي وكذلك الدراية الشاملة والحكمة والعدل والطيبة الكلية ، وكلما كانت هذه الفكرة تقترب من المثال ، كلما كانت تكشف عن تناقضها الداخلي . جوهر التناقض في هذه الفكرة صاغه ، بالشكل الكلاسيكي ، الفيلسوف اليوناني العظيم أبيقور (270 – 341قبل الميلاد): إذا كان الاله كلي الجبروت وكلي الخير فلماذا يوجد الشر في العالم ؟ « إما أن الاله يريد القضاء على الشر ولا يستطيع وإما أنه يستطيع ولكن لا يريد ، إما أنه لا يستطيع ولا يريد . فإذا كان يريد ولا يستطيع فهو عاجز ، مما لا يتناسب مع الاله . وإذا كان يستطيع ولا يريد ، فإنه شرير ، وهذا أيضاً غريب عن الرب . وإذا كان لا يستطيع ولا يريد ، فإنه عاجز وشرير ، وهذا شبح وليس إلهاً . إذا كان يريد ويستطيع ، وهذا هو الأمر الوحيد الذي يليق بإله ، فمن أين الشر إذاً ؟ أو لماذا لا يلغيه الإله[٢٦] » .

قبل أبيقور بألف عام ونيف فكّر في هذه المشكلة مفكر آخر من بابل القديمة ، إلا أنه عالجها من جانب أضيق ، لكن أقرب إلى الواقع الاجتماعي المحيط بالانسان : إذا كانت الآلهة خيّرة وعادلة ، فلماذا الظلم يسود العالم ولماذا تسمح الآلهة بآلام الأبرياء ؟ وقد ألّف هذا البابلي عملاً شعرياً وصل إلينا بأكمله تقريباً مكتوباً بحروف مسمارية على عدة ألواح طينية . في هذا العمل يرسم لنا المؤلف إنساناً يشكو مصيره إلى الاله بالذات ، فيؤكد بطل القصيدة أنه قضى كل حياته كما يليق بالانسان التقي الورع ، ولكن مصائب جسيمة وأمراضاً رهيبة

---

(٢٦) انظر : Epicurea. Ed. H. Usener. Lipsial. 1887 (Lactantius. Deira Dei). 13, 19

http://www.al-maktabeh.com

حلت به : « لقد ناديت على إلهي ، لكنه لم يكشف لي وجهه . . . ». بهذا يكون الاله قد تصرف مع هذا التقي كما لو أنه « كان مهملاً للآلهة ». لماذا يتصرف الاله معه هكذا ؟ حتى أن المؤلف لا يحاول الاجابة على هذا السؤال ، فالقصيدة تنتهي بتشاؤم : « نوايا الاله شيء كاظلام ، فمن يستطيع إدراكه ؟ كيف يمكن لنا نحن البشر أن نفهم الطريق الالهي ؟. . . »[27]. ورغم كل شيء ، فان الأسئلة لوحدها ، التي طرحها أبيقور وقبله ذلك البابلي القديم ، كانت تتضمن ، من حيث الجوهر ، اتهاماً للآلهة التي تجلب الشر للناس . أما رجال اللاهوت القدامى فكان لابد حتماً أن تبرز أمامهم مهمة إيجاد تبريرات ما للآلهة . هذا هو مضمون مشكلة « التبرير[*] » ذائعة الصيت .

مفهوم أن هذه المشكلة لم تكن موجودة في المراحل الأولى من تطور الدين . فقد كان الناس أنئذ يؤمنون بكثرة كثيرة من الآلهة والأرواح ، أي بكائنات خاصة ، فوق طبيعية ، تمتاز عن البشر من حيث الخواص والمقدرات وتزيد عنهم جبروتاً ، لكنها ليست كلية القدرة أو كلية الدراية ، وهي بعيدة عن الكمال من كافة النواحي ، بما في ذلك من الناحية الأخلاقية . لقد كان الناس ينسبون إلى هذه الأرواح ليس فقط سحنة حيوانية أو انسانية ، بل وسلوكاً مطابقاً لذلك . وكانوا يحاولوهن تفسير تصرفات الآلهة كما يفسرون تصرفات البشر . هكذا ، كان اليونانيون القدامى (في زمن هوميروس وحتى هيرودت) يؤمنون بقدرة الآلهة على جلب الشر للناس ، مثلاً ، بسبب حسدها من انسان سعيد جداً أو بدافع روح التنافس أو بسبب الرغبة في الانتقام ، فيما لو أن الانسان أهان الاله ، ولو عن غير قصد . لذلك فإنه عمل لا معنى له أن يقوم المرء بتبرير زيوس الذي يتم تصويره لدى هوميروس ، لأن تصرفاته ، مثل تصرفات أي مستبد يعيش على الأرض ، نابعة عن الشهوات والنزوات في أكثر الأحوال . بهذا الصدد يقول الباحث ن.

(٢٧) توraيف . مرجع سابق المجلد١ ص١٤١–١٤٢ .

(*) « تبرير الإله » باليونانية « theodik » وعنها نقلتها اللغات الاخرى بما فيها الروسية كمصطلح من كلمة واحدة : ثيوديكية او ثيوديسية . ـ المترجم ـ

http://www.al-maktabeh.com

يارخو : « إن إلهة الإلياذة معنيون أقل ما يمكن بمراقبة تطبيق العدالة على الأرض ومعاقبة من يخرقها ، وذلك ـ بالدرجة الأولى ـ لأن تلك الآلهة ليست من حملة العدالة أصلاً[٢٨] » . ويمكن سحب ما قيل على أي إله في أية ديانة خلال المرحلة المبكرة من تطورها ، بما في ذلك على الاله العبراني القديم يهوه فلنتذكر سلوكه في الأساطير التوراتية القديمة التي تدور حول « خطيئة » البشر الأوائل أو حول « حشر بابل » .

وإذا كانت الأجزاء الأخيرة والصياغة النهائية للإلياذة تعود ـ على ما يبدو ـ إلى ما بين القرنين الثامن والسادس ، فإننا نستفيد منها بأن. زيوس ـ كما يتبين ـ نصير للعدالة ويعاقب الذين يصدرون في المحاكم أحكاماً غير عادلة (XVI, 384). أما لدى الشاعر هيسيودوس الذي عاش على تخوم القرنين الثامن والسابع ، فإن التأكيد على عدالة الآلهة بشكل عام وعدالة زيوس خصوصاً ، يتخذ طابع التبرير الحقيقي . ففي « الأعمال والأيام »، تصبح ديكيه[*] ، ابنة زيوس الحبيبة ، تجسيداً للعدالة ومدافعة عن المظلومين إنها دائماً قرب والدها و« تخبره عن زيف البشر[٢٩] ».

وما من ديانة قديمة أخرى ـ ربما ـ اجتهد فيها الفكر اللاهوتي ، بمنتهى التوتر ، ليحل مسألة تبرير الاله ، كما كان الأمر في الديانة اليهودية القديمة . فقد أخذ أنبياء يهوه على عاتقهم حماية وتبرير إلههم ، لكنهم ـ منذ القرن الثامن ـ كانوا أنبياء من طراز جديد ، ليسوا مثل إيليا وإليشع ؛ وفي الأدبيات العلمية يطلق عليهم أحياناً تسمية الأنبياء الكتاب .

وتسمية الأنبياء الكتّاب في الأدبيات العلمية الحديثة ليست صدفية . ذلك أن بعض الأنبياء بدأ في فترة ما بين القرنين الثامن والسادس بتسجيل نبوءاته ، فضلاً عن اعلانها على الملأ . فيما بعد تم إدخال جزء من تلك النبوءات المسجّلة

---

(٢٨) ف. ن. يارخو . الذنب والمسؤولية في ملحمة هوميروس « فيستنيك دريفنيي إيستوريي » عام ٦٢ . العدد الثاني ص٢٠ .

(٢٩) غيسيودس الاعمال والايام الابيات ٢٢٥—٢٢٧ .

(*) باللاتينية « Vaticinium ex eventu »

http://www.al-maktabeh.com

في قانون العهد القديم تحت اسم أسفار الأنبياء وهنالك ـ ضمن النبوءات ذاتها ـ ثمة شهادات واضحة على أن الأنبياء كانوا يدونون نبوءاتهم ، علماً بأن المؤلفين يؤكدون عادة أن الاله ذاته هو الذي أمرهم بالكتابة . هكذا كتب النبي اشعيا يقول : « وقال لي يهوه خذ لنفسك لوحاً كبيراً واكتب عليه بقلم انسان » (١اش ٨-١). وفي مكان آخر يأمر الاله إشعيا « تعال الآن اكتب هذا عندهم على لوح وارسمه في سفر ليكون لزمن آت للأبد إلى الدهور » (١اش٣٠-٨). وعن إرميا تنبئنا التوراة أنه كان لديه تلميذ اسمه باروك يقوم أيضاً بمهام السكرتير : « . . . هذه الكلمة صارت إلى ارميا من قبل يهوه قائلة . خذ لنفسك درج سفر واكتب فيه كل الكلام الذي كلمتك به . . . فدعا ارميا باروخ بن نيريا فكتب باروخ عن فم ارميا كل كلام يهوه الذي كلمه به » (ار ٣٦: ١-٤).

يمكن الاعتقاد بأن بعض النبوءات المدونة لم تعلن على الملأ (مثلما لم تلفظ بعض خطابات شيشرون !)، بل كانت منذ البداية شيئاً بشبه النشرة ، المكتوبة لأغراض دعائية محددة . يبدو أنه في تلك الأيام كان عدد كبير من المداخلات المدونة يدور بين الأيدي ، وأن معظمها كان مجهول المؤلف ، حيث كان يجري جمعها ونقلها على لفافات خاصة (غالباً دون الاشارة إلى المؤلف). وأحياناً كانوا ـ بقصد توفير الورق ، حين كان الورق ثميناً ـ لا يتركون فواصل بين تسجيلات المداخلات التي تعود لمؤلفين مختلفين . لذلك كان بوسع النسّاخ المتأخرين أن ينسبوا مداخلات أحد الأنبياء إلى نبي آخر ، وردت نبوءاته فوق . وقد حصل أن جميع الكتب النبوية تقريباً ـ في العهد القديم تتضمن مداخلات من أزمنة مختلفة لمؤلفين مختلفين ، مجهولين بمعظمهم ، رغم أن تسمية كل كتاب تتضمن اسم نبي واحد .

لاشك أن الكتب النبوية التي دخلت ضمن قانون العهد القديم تشكل مجرد جزء زهيد من أدبيات ذلك النوع ، التي كانت تؤلف في تلك القرون في مملكتي يهوذا واسرائيل وربما كان الذين يدونون نبوءاتهم ليسوا هم فقط أنبياء يهوه ، بل وكذلك أنبياء بعل المنافسون لهم . ثم إن أحزاباً متنافسة كانت بارزة الوضوح ، كما نعلم ، بين أنبياء يهوه بالذات . ففي كتاب النبي إرميا يتم اقتطاف عدة عبارات من رسالة نبي آخر هو شمعيا . كان شمعيا مثل إرميا يتنبأ باسم يهوه ،

لكن بما يناقض قول إرميا (٣٢-٢٣: ٢٩). فلم تحفظ نبوءات شمعيا ، بل وصلتنا نبوءات إرميا التي تقتطف منها .

إن محرري التوراة المتأخرين ، الذين جمعوا قائمة الكتابات المقدسة ، بذلوا جهدهم لكي يختاروا من مجمل الأدبيات النبوية فقط تلك النبوءات التي كان مضمونها وأفكارها تنسجم على أكمل وجه مع المشروع الديني الذي كان قد تكرس عندئذ . ثم اعتبرت تلك المؤلفات وحدها نبوءات حقيقية وكتابات مقدسة . أما البقية فقد طواها النسيان ، وهي إن لم تتعرض للاتلاف فقد توقف نسخها ، إذ لم يكن يجري حفظها واختفت مع الزمن . على كل لم يتم انذاك إبداء إجلال كبير حتى تجاه تلك النبوءات التي تم اصطفاؤهابوصفها نبوءات « حقيقية ». فالمحررون والنسّاخ المتأخرون كانوا يحشرون في مؤلفات نبي قديم ما- بلا استحياء يذكر- مقاطع يرونها مناسبة من تأليف مؤلف آخر عاش بعد ذلك النبي بزمن طويل .

بين الطرائق المألوفة أيضاً كان هنالك تأليف ما يدعى بـ « نبوءات حول الماضي(*) » أي « التنبؤ » بأشياء سبق لها أن حصلت في الواقع . كان مثل تلك المؤلفات « يصدر » عادة تحت اسم نبي ما من أنبياء الماضي المشهورين ، وكانت المؤلفات تتكون عادة من جزأين : في الجزء الأول يتم توصيف حوادث سابقة وكأن النبي القديم تنبأ بها ، وهي بالتالي حوادث معروفة جيداً ومفهومة من قبل مؤلفها الحقيقي ومن قبل معاصريه أيضاً ، أما في الجزء الثاني فيتم وصف أشياء كان المؤلف يعتبر من الضروري التنبؤ بها ، وفقاً للمهام التي يضعها نصب عينيه . بعد قراء الجزء الأول كان يفترض أن يمتلأ القارىء إيماناً بمصداقية التنبؤ بشكل عام : اذا كان الكثير مما تنبأ به النبي القديم قد تحقق ، يجب أن يتحقق كل ما تبقى ، وهذا بدهي .

إن التحليل العلمي لكتب الأنبياء في العهد القديم قد سمح ، في عدد من الأحوال ، ليس فقط بتمييز أجزائها التي تعود إلى أزمنة مختلفة ومؤلفين مختلفين ،

---

*: dikeباليونانية العدالة

*باللاتينية« vaticinum ex eventu »

http://www.al-maktabeh.com

لا بل وبتحديد الزمن الحقيقي لكتابتها ، بدرجة كافية من الدقة . وسوف نبين لاحقاً كيف يتم ذلك من خلال دراسة بعض الاصحاحات في كتاب إشعيا ، كمثال .

http://www.al-maktabeh.com

كان الأنبياء ـ الكتّاب يختلفون عن أسلافهم أمثال إيليا وإليشع في كثير من المناحي . فهذان يظهران أمامنا بمثابة شامانين ـ ساحرين نموذجيّين ومشعوذين كبيرين . وإذا صدقنا التوراة فإن الأنبياء ـ الكتّاب ما بين القرنين الثامن والسادس ، كانوا أيضاً يشفون المرضى و« يقومون بالمعجزات » ويأتون بـ « آيات » في بعض الأحوال ، ولكنها ـ على العموم ـ تبدو غير أسطورية إطلاقاً . ويمكن القول أن هؤلاء الأنبياء كانوا ، جميعهم تقريباً ،شخصيات تاريخيه حقيقية .إنهم ليسوا صانعي معجزات ، بل هم مبشرون دينيون ولكنهم ـ بأكملهم تقريباً ـ شخصيات سياسية ناشطة ، وهذا مهم بشكل خاص . ان قوتهم الرئيسية ليست في المعجزات ولا في الآيات ، بل في كلامهم الباهر ، الحافل بالصور ؛في مقدرتهم على الاقناع . فخطاب هؤلاء الأنبياء مرتبط وثيق الارتباط بظروف الحياةالاجتماعية والسياسية لشعبهم وهم أناس زمانهم .

وعندما كانوا يتنبأون ، كانوا يتنبأون بالمستقبل القريب ، كانوا يتنبأون لأجل معاصريهم وليس لأجل الأجيال القادمة ، كما ينسب ذلك إليهم اللاهوتيون الذين يفسرون تلك النبوءات . لقد كان هؤلاء الأنبياء يعيشون مشاكل يومهم .

يقول إ. دياكونوف : « تبدو أحاديث « الأنبياء » للقارىء المعاصر غامضةً في مجازيتها الغنية ومنّمقة ، لا بل وغيبية أحياناً ، لكن سامعيها الأوائل كانوا يتقبلونها على نحو آخر تماماً . فكل خطبة نبوية تم الافصاح عنها بسبب شؤون الساعة على الصعيد السياسي وكانت تتضمن تلميحات مباشرة ـ وفجّة غالباً ـ إلى الناس والأحداث المعنية . والآن ، حين نملك بين أيدينا المصادر العديدة المصرية والآشورية والبابلية التي عاصرت تلك الخطب ، نستطيع ـ في كثير من الأحيان ـ أن نشير إلى الحدث المعني وإلى تاريخه الدقيق وإلى الوضع السياسي الذي كان قائماً في الشرق الأوسط يومها ، والذي « يلمّح إليه النبي » (هذا يصح تقريباً على كل

حالة كانت النبوءة فيها تتعلق بأحداث تجري بين الدول[٣٠]).

كان الأنبياء الكتّاب يهدفون من وراء خطبهم ومؤلفاتهم إلى غايات محددة تماماً : الدعاية لفكرة دينية ما أو تقويم أخلاق المجتمع أو توجيه السياسة الخارجية لدولتهم ، وكان يصدف أن يهدف النبي إلى مواساة وتصبير شعبه الذي اعتراه القنوط في ساعة المحنة وأصابه اليأس ، والذي كان يحتاج إلى توطيد إيمانه (الذي اهتز) بالاله . ولأجل هذا الهدف ، الهام جداً في حينه ، كان النبي يعتبر ـ على ما يبدو ـ أنه يجوز (وليس إثماً) استخدام هيبة يهوه ذاته والتأكيد للسامعين والقراء أنه شخصياً قد رأى وسمع الاله ، الذي أمره أن يتحدث باسمه ، لا بل أن يهوه نفسه يتكلم بلسان النبي .

من الطبيعي أن يصعب علينا ، في كل حالة على حدة ، أن نحدد كيف كان الموقف الشخصي للنبي إزاء نبوءاته ، وهل كان يؤمن هو نفسه بأن ما قاله قد كشفه له الاله . فمن المحتمل جداً أن بعض هؤلاء الأنبياء كان (مثلما كان أسلافه القدامى من الشامانات) يملك خاصية الوقوع في حالة النشوة ، حيث كان يتهيأ لهم في تلك الحالة (أو في المنام) أنهم يرون الاله والملائكة ويسمعون أحاديث هؤلاء . . . ولكن من المحتمل ، بقدر لا يقل عن ذلك ، أن روايات الأنبياء عن التهيؤات والرؤى المنقولة ـ في المنام وفي اليقظة ـ ككلام مباشر للاله باسم ضمير المتكلم ، قد أصبحت لاحقاً مجرد صيغة أدبية وطريقة خطابية ، أضفى التقليد الديني عليها صفة القدسية .

كما سبق القول ، كان الأنبياء الكتّاب ، ما بين القرنين الثامن والسادس ، لاهوتيين ومبشّرين دينيين قبل كل شيء . وقد مارسوا ، في ديانة يهوه القديمة ، دوراً بالغ الأهمية يرتبط بتلك التغيرات الاجتماعية التي جرت لدى شعبهم .

إذا كان يمكن تعريف مرحلة « القضاة » لدى العبرانيين القدامى على أنها فترة انتقالية من النظام القبلي إلى المجتمع الطبقي ، فإن ظهور الدولة لديهم في عهد

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

(٣٠) إ. م. دياكونوف . شعر ونثر الشرق القديم ص٥٤٩ .

http://www.al-maktabeh.com

داؤود وسليمان وخلفائهما قد دشن حقيقة تاريخية هامة هي ولادة المجتمع الطبقي الاستغلالي مع كل ما يميزه : انقسام الناس إلى مستغلين ومستغلين ، أغنياء وفقراء ، ظالمين ومظلومين ، والتناقضات الطبقية والصراع الطبقي . إن مثل هذه التغيرات الجذرية في الوجود الاجتماعي لم يكن بوسعها ألا تنعكس على الوعي الديني .

هكذا ، بدأ يجري للاله العبراني يهوه نفس ما سبق وجرى للاله المصري آمون والاله البابلي مردوك أو الاله الآشوري آشور . لقد أصبح الملوك « الأوحدون » هم الذين يحكمون في المملكتين العبريتين ، ومع الزمن راح العبرانيون يرون في إلههم يهوه ـ كما كان حال المصريين مع آمون ـ ذلك الملك السماوي « الوحيد » والأوحد ؛ رغم أن وحدانية يهوه بالنسبة للاسرائيليين كانت ـ كما أصبحنا نعرف ـ نسبية بدرجة لا تقل عنها في حالة آمون المصري . لقد تحدثنا سابقاً حول أن العبرانيين في ذلك الزمان كانوا ـ إضافة إلى يهوه ـ يعبدون بعل (والبعليم) وعشترون (والعشتر) وبقية الآلهة الكنعانية ، كما كانوا يعترفون بوجود آلهة خاصة لدى الشعوب الأخرى . ولكن صورة يهوه نفسه بدأت ـ ضمن الظروف التاريخية الناشئة ـ تكتسب سمات جديدة ، بالتدريج ، فتتميز عن الطابع القديم للاله القبلي . وقد سبق الذكر أية سمات كانت تلك : الشمولية والكمال الأخلاقي . فقد بدأ الناس يرون في يهوه خالق السماء والأرض والنبات والحيوان وكذلك البشر ، خالق ومدبر كل ما هو موجود ، كما كان المصريون ينظرون إلى آمون . كان الاسرائيليون يوماً ما يؤمنون مخلصين بأن يهوه ، رغم أنه أقوى بكثير من داجون الفلسطيني أو كموش الموآبي ، لكن سلطته وقوته يتجليان على أرضه ، في بلاد كنعان ، أما على الأراضي الغريبة فسلطة الآلهة الغريبة هي القائمة ، وعلى الاسرائيلي ، إذا وجد هناك ، أن يعبدها هي . لكن في الظروف التاريخية الجديدة ، ومع مرور الزمن ، بدأ الاسرائيلي يؤمن بأن يهوه إله ليس فقط لفلسطين وأن جبروته يمتد ليشمل الشعوب الأخرى ، وليس الشعب العبراني وحده .

في الوقت نفسه ، كان أنبياء يهوه يعلّمون أن إلههم ، رغم كونه يرعى الشعوب الأخرى ، فإن اسرائيل بالنسبة له شعب « مختار » كما في السابق . وكان هؤلاء الأنبياء لا يكلّون من الترداد على مسامع سامعيهم : كم هي كثيرة الفضائل

الناس يريدون أن يروا في يهوه ما كانوا يفتقدونه كثيراً في الحكام الأرضيين وما كان يلزم جداً للانسان الذي يعاني من القهر والقسر والظلم ، أي العدالة والطيبة إزاء المغبونين والتعساء .

عاموس - نبي بين الرعاة من تقوع

خلال القرنين الثامن والسابع طرأت على وضع الدولتين العبريتين ، الصغيرتين ، صعوبات متميزة ، حيث نشأ موقف خارجي بالغ الخطورة بالنسبة لهما . فحتى أواسط القرن الثامن كانت اسرائيل ويهوذا تخوضان الحرب ضد الدول المجاورة في سوريا وفلسطين (وهما أيضاً دول صغيرة : إدوم وموآب وعمون ودمشق)، وذلك بنجاح متفاوت . وفي عهد الملك يربعام الثاني (746—786)، خرجت اسرائيل منتصرة من الحرب مع أقرب جيرانها الشماليين ، أي مع دولة دمشق ، لكنها وجدت نفسها ، بعد ذلك ، وجهاً لوجه أمام امبراطورية آشور الجبارة ، التي كانت قد احتلت منطقة شمال سوريا وراحت تتحرك نحو الجنوب بلا كوابح . واضطر ملوك اسرائيل كغيرهم للاعتراف بسلطة آشور ودفع جزية كبيرة ، وكل هذا كان يعود عبئاً ثقيلاً على كاهل الجماهير الكادحة . كان حاضر يهوذا واسرائيل حرجاً ومستقبلهما ينذر بالهلاك ولم يكن بوسع سكان المملكتين الا يفهموا ذلك . إن قلوب هؤلاء الناس كانت ملأى بالخوف واليأس ، وكان لابد في هذه الظروف من تعاظم الشعور الديني . من جانب من كان يمكن أن يأتي الخلاص ؟ فقط من جانب الاله ، من جانب يهوه ، الاله ـ الراعي ، الذي أبرم « عهداً » مع اسرائيل في يوم من الأيام ، ولذا عليه أن ينصر شعبه . لكن هل سينصره حقاً ؟ وهل لديه ما يكفي من القوة ؟ وماذا لو أن آلهة الآشوريين أو المصريين أو البابليين أقوى من يهوه ويستحقون التبجيل أكثر منه ؟

يبدو أن أفكاراً كثيرة كهذه كانت تخطر في بال الناس . على أية حال ، كانت الآلهة الغريبة والعبادات الغريبة ، في ذلك الزمن ، تدخل إلى فلسطين من بلاد الرافدين ، بالدرجة الرئيسية : عبادة عشتار ، « ملكة السماء » لدى الآشوريين

http://www.al-maktabeh.com

التي غمر بها يهوه أجدادهم ، منذ الأزمنة الغابرة ، وكيف خلّصهم من العبودية في مصر وكيف ساعدهم على احتلال كنعان ، إلخ . . . لكن اسرائيل ما انفكت تخون إلهها وهي تخونه الآن أيضاً ، فتتعبد لآلهة أخرى ولا تنفذ وصاياه وتصنع عاراً وشراً ، ولأجل ذلك فإن يهوه منصف في أنه عاقبها ويعاقبها ، لأن اسرائيل لم تترك سلوكها القبيح . هكذا ، كان الأنبياء يهددون اسرائيل بعقوبات رهيبة ، فيتنبأون بسوء المحاصيل وبهجوم الجراد وبالجوع والأوبئة ، ولكن ـ في لغالب ـ كانوا يتنبأون بهجوم الشعوب الأجنبية ، التي تنفذ دور « سوط يهوه » ولذلك ستهاجم اسرائيل وستدّمر وتنهب البلاد وتسبي السكان . ولكن النبوءة كانت تنتهي عادة ، بخاتمة معزّية : إذا عدل الشعب « المختار » عن سلوكه وتاب عن خطاياه ، فإن يهوه من جانبه سيظهر الرأفة من جديد ، وهو ـ بشخصه أو عبر رسول خاص ، « ممسوح » ـ سوف يعيد شعبه (أو « بقيته المختارة ») إلى الوطن ، وعندئذ سيقيم الاله على هذه الأرض مملكةً للسلام والحقيقة . وسوف تزدهر اسرائيل تحت قيادة ملك سيكون « ممسوحاً » من قبل الاله وسليلاً لداؤود . وعندئذ سيسود العبرانيون على أعدائهم وسيغنمون ثروات الذين ينهبونهم الآن . هكذا كان يعلّم الأنبياء .

ثمة هنالك أيضاً سمة أضيفت إلى فكرة الاله في الوعي الديني لاسرائيل ، حيث أصبحوا يرون في يهوه ليس فقط الاله الرهيب القاسي والغيور على مجده ، بل وإله العدالة والخير في الآن ذاته .

لنتذكر الآن المشهد الذي مررنا عليه في السيرة التوراتية لحياة النبي إيليا ، ونعني قصة كرم نابوث ، حيث يظهر يهوه في دور غير اعتيادي بالنسبة لاله الصحراء والرعد ، إله الحرب ، يهوه رب الجنود غلاله يقدم اتهاماً ضد الملك الاسرائيلي آخاب : « هل قتلت وورثت أيضاً »، ويطلق حكماً قاسياً على الملك وعلى الملكة إيزابل ، وينفّذه أيضاً . في هذا المشهد ، يعاقب يهوه الملك بعدالة على الغبن الذي ألحقه بانسان بسيط ، فهو قاض علوي ، عادل وصريح ، يعاقب فاعل الشر ، بغض النظر عن وضعه في المجتمع . وكما آمون لدى المصريين القدامى ، أصبح يهوه لدى الاسرائيليين « وزير الفقراء ». لقد استوضحنا في السابق أسباب نشوء مثل هذه الفكرة في الوعي الديني لجماهير الشعب . كان

والبابليين ، الإلهة المحاربة العظيمة وعبادة « جنود السماء »، أي نجوم السماء ، برئاسة إله الشمس . معروف أن الإله الآشووري آشور كان يعتبر أيضاً إلى الشمس وكانوا يقدمون له الخيول والمركبات ، وفي يهوذا كان هذا الطقس يمارس حتى في القرن السابع (٢مل٢١: ٥، ٢٣: ٥، ١١).

كان يتوجب على أتباع يهوه وأنبيائه أن يدافعوا بنشاط عن إلههم وعن دينهم . لكن هذه المهمة ـ ضمن الوضع الناشىء في القرن الثامن ـ كانت صعبة خصوصاً بسبب الجمع في صورة يهوه بين السمتين القومية والشمولية ، هذا الجمع الذي طرح مشكلة تبرير يهوه على نحو معقد جذاً : إذا كان يهوه كلي الجبروت وسلطته تشمل الشعوب جميعاً واسرائيل هي شعبه « المختار والمحبوب »، فكيف تفسّر مصائب « الشعب المختار » والهزائم التي لحقت به من « الوثنيين » في السابق ؟ وهل سينقذ يهوه شعبه في المستقبل من الخطر المخيف الذي أحاق به ؟ كل هذه الأسئلة كانت تشغل أذهان الجميع ، ومن الطبيعي أن الأنبياء أول من كان يجب أن يطرحها ، باعتبار أن الناس كانوا يسألونهم ويطلبون منهم أن « يسألوا » يهوه عن نواياه .

ماذا كان بوسع الأنبياء أن يجيبوا ؟

كانوا يجيبون بأشكال مختلفة ، طبعاً ، حيث كان البعض متعصباً في إيمانه بأن يهوه لن يخرق عهده مع اسرائيل بأي حال ولن يترك شعبه ليدنسه الوثنيون (وكان هؤلاء يتنبأون عن لسان يهوه ، بالسلام والرخاء ، بل وحتى ، بالنصر على الأعداء)، أما البعض الآخر فكان يتنبأ بنفس الأمور ولكن لاطماع خاصة ، آملين أن يدفع « الزبائن » بشكل أفضل لقاء النبوءة الطيبة . ونبي ذلك العصر ، ميخا ، يذكر بحنق مثل هؤلاء الأنبياء الذين يضللون الشعب ، فهم « ينهشون بأسنانهم وينادون سلام . والذي لا يجعل في أفواههم شيئاً يفتحون عليه حرباً » (مي٣: ٥).

ولكن كان هنالك أنبياء يتصورون بوضوح الحتمية ا[illegible]رثة المحدقة . كان هؤلاء يفهمون أن اسرائيل الصغيرة سوف [illegible] احتلالها حتماً من قبل امبراطورية آشور الجبارة ، وعندئذ يجب أن يجري ما جرى للشعوب الأخرى التي حلت بها هذه المصيبة ، مصيبة النهب والأسر والعبودية والسبي والموت . لقد اعتبر

http://www.al-maktabeh.com

هؤلاء الأنبياء أنفسهم ملزمين بعدم إخفاء الحقيقة المرّة عن شعبهم ؛ تلك الحقيقة التي كانوا يؤمنون ـ ربما ! ـ أن يهوه كشفها لهم لينقلوها للشعب . ولكن كيف كان بوسعهم أن يشرحوا لمستمعيهم (أو لقرائهم) سلوك الاله ، الذي ينوي أن يفعل بشعبه ما سوف يفعله ؟ كيف لهم أن يبرروا يهوه الذي ينقض عهده مع اسرائيل ؟ ربما كان النبي عاموس واحداً من أوائل من حاول القيام بهذه المهمة .

كتاب عاموس أقدم الكتب النبوية ضمن العهد القديم . ولا توجد أسس جدية للشك في الحقيقة التاريخية لوجود شخصية عاموس ، فالكتاب الذي يحمل اسمه يبدأ بعبارة « أقوال عاموس الذي كان بين الرعاة من تقوع التي رآها عن اسرائيل في أيام عزيا ملك يهوذا وفي أيام يربعام بن يوآش ملك اسرائيل قبل الزلزلة بسنتين (عا١: ١) لقد حكم الملك الاسرائيلي يربعام بن يوآش من عام 783 حتى عام 743 قبل الميلاد . وعلى ما يبدو فإن نبوءة عاموس تعود إلى السنوات الأخيرة من عهد يربعام . أصبح عاموس نبياً محترفاً ، ولكن ليس دفعة واحدة ، لا بل أنه أعلن بذاته ذات مرة : « لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي بل أنا راع وجاني جمّيز . فأخذني يهوه من وراء الضأن وقال لي يهوه اذهب تنبأ لشعبي اسرائيل » (٧ — ١٤ — ١٥).وكان عاموس ينحدر من يهوذا ، من قرية تقوع الصغيرة جنوب بيت لحم . فيما بعد أصبح عاموس ـ نبياً محترفاً وأجاد الطرائق اللازمة لذلك (« الرؤى » واستخدام العظات) وأيضاً أسلوب التعبير الذي يستخدمه ممثلو الاتحاد النبوي . لقد تمتع عاموس بأفق سياسي واسع إلى حد كاف (وذلك أيضاً لم يكن بالشيء النادر في أوساط الأنبياء)، فقد كان يعرف الحوادث التي تجري بعيداً خارج حدود فلسطين ، في دمشق ، مثلاً ، أو فينيقيا أو آشور .

كان عهد يربعام الثاني عهد رخاء نسبي في مملكة اسرائيل ، فهذا الملك ـ كما سبق الحديث ـ قام بعدد من الحروب الناجحة ضد الشعوب المجاورة ، لا بل وسّع حدود دولته ، كما انتصر على آرامي دمشق . وكان يسود في البلاد هدوء نسبي ، إذ كانت الحروب الناجحة تقترن بنهب المدحورين . لكن الغنائم أغنت ، بالطبع ، الوجهاء من نخبة المجتمع ، ليس إلا . ولربما كان قلة أولئك الذين فكروا آنذاك : إذا كانت آشور لم تعق الملك الاسرائيلي من الهجوم على دمشق ، ففقط لأنها تخطط لابتلاع المملكتين الاسرائيلية واليهوذية في القريب العاجل ومعهما

الدول الصغيرة المجاورة . كان عاموس من بين تلك القلة ، وكان يتنبأ في مختلف مناطق اسرائيل ويهوذا .

في إحدى المرات ، بينما كان عاموس يتكلم في بيت إيل ، في المذبح الرئيس للمملكة الشمالية (والذي كان يعتبر أيضاً مقدس الملك («بيت الملك» ٧–١٣)، نطق بتهديدات مريعة ضد اسرائيل ، عن لسان يهوه : لم يعد يهوه يريد أن يغفر لشعبه ، فقد آن أوان العقاب على الخطايا والجرائم .

ويبدو أن خطاب عاموس تضمن اتهامات معينة بحق الملك والنخبة الحاكمة ، فوشى به الكاهن الأول لمعبد بيت إيل إلى يربعام فوراً : « قد فتن عليك عاموس في وسط بيت اسرائيل . لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . لأنه هكذا قال عاموس . يموت يربعام بالسيف ويسبى اسرائيل عن أرضه . فقال أمصيا لعاموس أيها الرائي اذهب اهرب إلى أرض يهوذا وكل هناك خبزاً وهناك تنبأ » (١٧ : ١٠ ـ ١٢).

لا ندري كيف كان مصير النبي لاحقاً ، كما لا نعرف من ومتى وفي ظل أية ظروف سجّل نبوءاته . فكتاب عاموس يحمل بوضوح آثار تعديلات وإضافات متأخرة . ويعتبر أكثر الباحثين أن الإضافات المتأخرة موجودة في أماكن مثل الكلمة حول إدوم ، حيث يهدد النبي هذا الشعب (القريب من شعب اسرائيل) بعقاب يهوه : « من أجل ذنوب أدوم الثلثة والأربعة لا أرجع عنه لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد » (١ : ١١ ـ ١٣)فعلى الأرجح ، هذا تلميح إلى حوادث وقعت لاحقاً ، حين اتخذ أهل أدوم سلوك « كراهية الاخوة » فعلاً إزاء يهوذا ، وذلك عندما قام ملك بابل الجديدة نبوخذ نصر بحملته على المملكة (586 قبل الميلاد) ونهبها فيما بعد . كذلك لاشك في وجود إضافة متأخرة في المكان الذي وردت فيه ـ بعد التهديدات ليهوذا واسرائيل ـ العبارة : « اعبروا إلى كلنة وانظروا واذهبوا من هناك إلى حماة العظيمة ثم انزلوا إلى جت الفلسطينيين . أهي أفضل من هذه الممالك أم تخمهم أوسع من تخمكم » (٦ : ٢).هنا تلميح واضح إلى المصير المحزن الذي لحق بالممالك المذكورة ، حيث تم احتلالها ونهبها من قبل الأشوريين ، ولكن في وقت لاحق : كلنة عام 738 قبل الميلا] وحماة عام 720 قبل الميلاد وجت عام 711 قبل

http://www.al-maktabeh.com

الميلاد (حماة وجث ، بعد سقوط السامرة). واضح أن هذا التلميح كان سيبدو غير مفهوم إطلاقاً بالنسبة لمستمعي عاموس المعاصرين له . أيضاً يعتبر بعض الباحثين أن النبوءة حول يهوذا (٢ : ٤ ـ ٥) ليست من تأليف النبي نفسه .

لكن الجزء الأساسي من كتاب عاموس يمكن أن ينسب فعلاً إلى نبي بهذا الاسم عاش في عهد الملك الاسرائيلي يربعام الثاني ابن يوآش ، أي في أواسط القرن الثامن قبل الميلاد .

الخط الأساسي لخطاب عاموس هو : غضب يهوه على « الشعب المختار » بلغ حدوداً قصوى وقد قرر الاله معاقبة اسرائيل بشكل مريع جداً وفي أقرب وقت . يعلن يهوه على لسان نبيه : « قد أتت النهاية على شعبي اسرائيل . لا أعود أصفح له بعد »(٢ : ٨)، ويكشف يهوه للنبي أسباب غضبه لأن : « يهوه لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء ».

ويرسم النبي صوراً قاتمة للكارثة المحدقة التي سينزلها يهوه على اسرائيل : « ضيق حتى في كل ناحية من الأرض »(٣: ١١)، فالعدو قادم من جانب حماة ، من الشمال ـ وهذا تلميح واضح إلى الامبراطورية الأشورية ـ وسيتم احتلال المدن الاسرائيلية ونهب القصور والمقادس وهدمها (٣: ١١، ٥: ٥، ٧: ٩)وستفقدالبلاد سكانها ، حيث سيقتل كثيرون بالسيف والأخرون سيؤخذون سبايا : « ويسبى اسرائيل عن أرضه »، حيث سيهجّرون إلى ما وراء دمشق (٥: ٢٧).

كما هو معروف ، سرعان ما حلّت فعلاً بمملكة اسرائيل المصائب التي تنبأ بها عاموس . ففي عام 722 احتل الملك الآشوري سرغون الثاني اسرائيل ونهبها وسبى قسماً هاماً من سكانها إلى شمال ما بين الرافدين . ولكن لا داعي لأن نرى في استقراءات النبي لا « نبوءة » حول الماضي ولا رؤيا حلت « من فوق ». فواضح أن مؤلف النبوءات لم يكن بحاجة لأن يعرف أسراره من يهوه ذاته كي يدرك أن خطر الاحتلال يهدد اسرائيل . هذا ، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار أن الجزء الأساسي من نبوءات عاموس يعود إلى السنوات الأخيرة من حكم يربعام الثاني ، أي في أواخر أربعينات القرن الثامن ، حين اعتلى العرش في آشور العدواني تغلاتبلاصر الثالث وبدأ حملاته باتجاه الجنوب ، مع ما رافقها من تهجير شعوب كاملة . وكان وضع الدول الصغيرة في سوريا وفلسطين ـ من حيث الجوهر ـ وضعاً لا رجاء فيه .

لكن أمام هذا النبي بالذات كانت تقف مهمة مزدوجة : ليس فقط فتح أعين الشعب على مستقبله المحزن ، بل وتبرير يهوه إلهه ، أي مشكلة التبرير . كيف كان يمكن أن تشرح للاسرائيلي أو لليهوذي المؤمن سلوك يهوه ، المستعد أن يترك شعبه لتسلط الوثنيين وللتهجير والموت ؟ فقد كانت اسرائيل ـ تتعبد ليهوه وتقرّب له التقدمات وتزور مقادسه وتسجد لتماثيله في دان وبيت إيل ! وعاموس يأخذ على عاتقه ـ ربما لأول مرة بين الأنبياء ـ حل هذه المهمة المعقدة ، مهمة تبرير الاله أمام شعب اسرائيل .

كيف حلّ عاموس هذه المهمة ؟

عند عاموس يحتفظ يهوه بالكثير من سمات اسرائيل القومي . فمكان الاقامة والعبادة الأثير لديه هو جبل صهيون ومدينة أورشليم ، ومن هناك سوف يرسل يهوه العقوبات إلى من أذنب أمامه : « يهوه يزمجر من صهيون ويعطي صوته من أورشليم . . . » . وعاموس يذكّر دوماً بالفضائل العظيمة التي أنعم بها يهوه في الماضي على اسرائيل : « أبدت من أمامهم الأموري . . . أصعدتكم من أرض مصر وسرت بكم . . . لترثوا أرض العموري . وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذرين » (٢ : ٩–١١) .

كما أن اسرائيل ، بالنسبة ليهوه ، لازالت الشعب « المختار » الذي أبرم معه عهداً خاصاً . ولكن ، رغم ذلك يعزو عاموس ليهوه قولاً ذا مغزى : « ألستم لي كبني الكوشيين يا بني اسرائيل يقول يهوه . ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير » . إذاً : لا تظنن اسرائيل بحال من الأحوال أن يهوه منشغل بها فقط .

كانت تلك سمة جديدة في طابع يهوه . فكان يتوجب على الناس القدامى (ليس فقط الاسرائيليين) أن يتصوروا كيف أن الاله القومي قادر ليس على أن يحمي شعبه وحسب ، بل وأن يتراجع عن ذلك في ساعة الخطر ويسمح للعدو بالانتصار على هذا الشعب ، فيما لو غضب منه لسبب ما . ففي تسجيلات الملك الموآبي ميش ، يتم شرح الأسباب التي دعت إلى هزيمة موآب على يد الملك الاسرائيلي عمري ، بالذات على هذا النحو : « لأن كموش غضب على شعبه » . كان الاسرائيليون يفكرون على نحو مشابه : بوسع يهوه ـ إذا تم إغضابه ـ أن يلحق

http://www.al-maktabeh.com

بشعبه أية كارثة ، بما في ذلك هجوم الغرباء . لكن الاسرائيليين ما كانوا ليفكروا آنذاك بأن يهوه يحدد المصائر ويقدم الرعاية ليس فقط لشعبه ، بل ولكل شعوب العالم الأخرى ، بمن فيها الوثنيين الذين لا يعترفون بيهوه إلهاً لهم ، والذين لم يبرموا معه أي عهد . أما في الظروف التاريخية الجديدة ، فقد أصبح الاسرائيليون قادرين على الايمان بشمولية إلههم ، وهذا بالذات ما بنى عليه عاموس موضوعيه في تبرير يهوه أمام شعب اسرائيل .

إله عاموس هو إله على كل الكون ، خالق ومدبر العالم . فهو الذي خلق النجوم في السماء والجبال على الأرض والذي يخلق الليل والنهار ويصنع الرياح ، وعنه تصدر الزلازل ، حين تطمو الأرض مثل ماء النهر (٤ : ١٣، ٥ ،٨، ٩ ...) ولكنه أيضاً يتحكم بمصائر البشر ويتابع بانتباه سلوك الشعوب لأن سمته الرئيسية هي العدل والإنصاف ، وتطلّبه الرئيسي من البشر هو صنع الخير وليس الشر . لذلك فإن يهوه سيعاقب بقسوة الشعوب التي أبدت القسوة والغدر ، ليس فقط إزاء اسرائيل ، بل وإزاء بعضها البعض . وهو - أي يهوه - يطلق على لسان النبي أحكامه على أدوم وعمون وصور(١ : ٣-١٥)، لكنه يهدد أيضاً بمعاقبة موآب على نحو صارم « لأنهم أحرقوا عظام ملك ادوم كلساً »(٢ : ١). إن يهوه يعاقب الشر في كل العالم ، حتى عندما يمارسه شعب « وثني » تجاه شعب « وثني » آخر ، لأنه قبل كل شيء إله العدل . وهذا ما يحدد موقفه من اسرائيل .

فاسرائيل فعلاً « شعب يهوه المختار »، لكن عاموس يضمّن هذا المفهوم معنىً جديداً . كان الاسرائيليون يؤمنون سابقاً بأنه إذا كان يهوه يرعى شعبه فتفسير ذلك بسيطة جداً : اسرائيل شعب يهوه ويهوه إله اسرائيل ، مثلما كموش إله موآب ، إلخ . الاله مرتبط بشعبه عبر روابط الدم وهذا التصور مميز لجميع الديانات في عصر المجتمع القبلي ، وقد استمر لدى العبرانيين بأشكال رواسبية حتى أزمنة متأخرة . ويشهد على ذلك ، مثلاً ، انتشار الأسماء المتضمنة لاسم الاله : أخياهو (يهوه أخي)، أبياهو (يهوه أبي) إلخ . وبحكم ذلك الارتباط ، يتوجب على الشعب أن يكون مخلصاً لاهه ، فلا يتعبد لآلهة غريبة ولا يقرب التقدمات ، وما شابه . كما أن المتوقّع من الاله هو نفس موقف الاخلاص تجاه شعبه. ولم تكن مسائل الأخلاق والعدل تلعب أي دور في ذلك .

عند عاموس نلمس شيئاً آخر يختلف ، حيث يتبين أن كون يهوه يعتبر اسرائيل شعبه ليس بالأمر الذي يسمح لاسرائيل أن ينتظر من الاله أية افضليات خاصة وتساهلات . على العكس من ذلك بعلن يهوه على لسان نبيه : إياكم عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك اعاقبكم على جميع ذنوبكم . (٢ : ٣) اذاً لأن اسرائيل وحدها مصطفاة من قبل يهوه دون الشعوب الأخرى لذلك بالذات يبدي الاله نحوها تطلباً شديداً بشكل خاص . علماً أنه حين يغتاظ يهوه — عند عاموس — من تجاوزات اسرائيل فهو كما يتبين لنا ! يخص بغيظه بشكل رئيس وأساسي التجاوزات الاجتماعية — الأخلاقية : الظلم في العلاقات الاجتماعية والموقف غير الشريف والقاسي من جهة نخبة اسرائيل إزاء عامة الشعب ، أي موقف الأغنياء من الفقراء وموقف الأقوياء من الضعفاء والأيتام .

إن عاموس يرسم لنا بغضب وتهكم صور نقباء أول الأمم ، هؤلاء الأغنياء وقليلي الحياء والمتاجرين والمرابين الذين لارحمة فيهم « المضطجعين على أسِرَّة من العاج والمتمددين على فرشهم والآكلين خرافاً من الغنم وعجولاً من وسط الصيرة الهاذرين مع صوت الرباب المخترعين لأنفسهم آلات الغناء كداود ، الشاربين من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان ولا يغتمّون على انسحاق يوسف » « المتهمين المساكين . . . قائلين متى يمضي رأس الشهر لنبيع قمحاً والسبت لنعرض حنطة لنصغِّر الإيفة ونكبِّر الناقل ونعوِّج موازين الغش لنشتري الضعفاء بفضة والبائس بنعلين ونبيع نفاية القمح . . . قد أقسم يهوه بفخر يعقوب اني لن أنسى الى الأبد جميع أعمالهم » (٦: ٤–٦، ٨: ٤–٧) . وأما نساء هؤلاء الأغنياء « بقرات باشان » فلسن أفضل من ازواجهن بشيء فهن أيضاً يقسرن الفقراء ويظلمن المحرومين ويبادين أزواجهن هات لنشرب (٤ : ١) كل هذا شر عظيم ومخالفة في عيني يهوه .

ويذكِّر عاموس بأن يهوه كان قد حذَّر اسرائيل مراراً من عدم رضاه ، فقد أرسل القحط والجوع وأفلت القَمَص على الكروم والبساتين وأنزل الطاعون والحروب والهدم . كل تلك كانت أعراض غضب يهوه لكن الاسرائيليين لم يغيروا من سلوكهم (٤: ٦–١١) مع العلم أن أنبياء يهوه كانوا قد حذروهم من أن يهوه لن يصبر للأبد لكنهم كانوا يقولون للأنبياء لاتتنبؤوا (٢ : ١٢) ذلك لأنهم

http://www.al-maktabeh.com

« في الباب يبغضون المنذر ويكرهون المتكلم بالصدق » (٥: ١٠) ألم يكن عاموس يقصد نفسه أيضاً حين كتب هذه الكلمات ؟

أما خاطئو اسرائيل هؤلاء فيقولون : لايقترب الشر ولا يأتي بيننا(١٠:٩)

وباسم الاله ينهال النبي على الذين يتخيلون أنه يمكن التملص بتقديم القرابين والتعبد : ويتمددون على ثياب مرهونة بجانب كل مذبح ويشربون خمر المغرَّمين في بيت آلهتهم (٨: ٢) انه يراهم كيف يذهبون برغبة الى مختلف المعابد والمقادس ويقربون الضحايا الكثيرة ، لكن كل ذلك رياء خالص : هلم الى بيت إيل وأذنبوا الى الجلجال وأكثروا الذنوب وأحضروا كل صباح ذبائحكم وكل ثلثة أيام عشوركم وأوقدوا من الخمير تقدمة شكر ونادوا بنوافل وسمِّعوا لأنكم هكذا أحببتم يا بني اسرائيل (٤: ٤-٥) لكن يهوه لايُشترى فهو يعلن بحزم على لسان النبي : بغضت كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم اني اذا قدمتم لي محرقاتكم لا أرتضي وذبائح السلامة من مسمناًتكم لا ألتفت اليها أبعد عني ضجة اغانيك ونغمة ربابك لا أسمع (٥: ٢١-٢٣) إن يهوه يريد شيئاً آخر اسرائيل : العدل والطيبة ازاء القريب : وليجرِ الحق كالمياه والبِّر كنهر دائم ، ابغضوا الشر وأحبوا الخير وثبتوا الحق في الباب لعل يهوه اله الجنود يترأف على بقية يوسف (٥: ٢٤، ١٥) .

إن القارىء أو المستمع المعاصر قد يكتشف فوراً نقطة ضعف في حجج النبي : لماذا كان يتوجب على كل شعب اسرائيل أن يعاني بسبب جرائم وآثام عدد قليل من الأغنياء والوجهاء غير الشرفاء ؟ لكن المشكلة تكمن في أن التفكير الديني في الطور المبكر من التطور الاجتماعي امتاز بهذه الفكرة بالذات فكرة المسؤولية الجماعية لكل أعضاء التجمع البشري المعني (العائلة القبيلة الشعب بأكمله) وهي فكرة تعود بجذورها الى أعماق النظام القبلي أي نفس الفكرة التي قام عليها في القديم التزام الثأر الدموي . فالشعب ككل كان يتحمل مسؤولية جماعية أمام الاله على خطايا قسم من أعضائه . إن فكرة المسؤولية الفردية أمام الاله قد نشأت في الديانة اليهودية في زمن متأخر نسبياً .

اذاً فقد أعلن عاموس باسم يهوه حكماً قاسياً على اسرائيل : « قد أتت النهاية على شعبي اسرائيل لا أعود أصفح له بعد » (٨: ٢) ولكن يتبين من المقاطع

الأخرى في كتاب عاموس أن الاله قد قرر رغم ذلك ألا يبيد نهائياً كل شعبه فهو كأنما يشق أمام هذا الشعب طريقاً للخلاص : لأنه هكذا قال يهوه لبيت اسرائيل اطلبوني فتحيوا ولا تطلبوا بيت ايل والى الجلجال لا تذهبوا والى بئر سبع لا تعبروا لأن الجلجال تسبى سبياً وبيت ايل تصير عدماً اطلبوا يهوه فتحيوا لئلا يقتحم بيت يوسف كنار تحرق ولا يكون من يطفئها من بيت ايل . (٥: ٤-٦) « اطلبوا الخير لا الشر تحيوا فعلى هذا يكون يهوه اله الجنود معكم كما قلتم » (٥: ١٤) في نهاية كتاب عاموس تكتسب هذه الفكرة نضوجاً أكثر كمالاً حين يقول يهوه عن اسرائيل على لسان نبيِّه : وأبيدها عن وجه الأرض غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماماً. . . . . . بالسيف يموت كل خاطئي شعبي القائلين لا يقترب الشر ولا يأتي بيننا . ويَعد يهوه أن الاسرائيليين سيُغربَلون بين الأمم « كما يُغربل في الغربال وحبة لا تقع الى الأرض » لكنه سيأتي يوم ويعيد يهوه اسرائيل من الأسر وسوف تبنى المدن الخاوية ومن جديد سيكون لديهم كروم وبساتين «ولن يُقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم قال يهوه الهك » . كما أن يهوه يَعِد هنا بأن يقيم مظلة داود الساقطةأي نسل داؤود ، كأيام الدهر لكي يرثوا بقية ادوم وجميع الأمم الذين دعي اسمي عيهم . (٩: ٨-١٥) .

إن الكثير من الباحثين يشكك في كون عاموس مؤلف الفقرات التي تنفتح فيها أمام اسرائيل آفاق الخلاص والازدهار بعد كل المصائب . فبعض دارسي التوراة يعتبر مثلاً من غير الممكن أن يهدد عاموس فقط جزءً من الشعب ويَعد الآخرين بالازدهار حتى ولو في المستقبل غير المحدد باعتبار أن ذلك كان من شأنه برأي هؤلاء الباحثين أن يخفف من تأثير التهديدات[٣١] هذا التعليل غير بنّاء كما هو واضح فاحدى الخصوصيات الهامة جداً في الدين هي بالذات كونه يعطي للانسان أملاً حتى ولو كان وهمياً الى أقصى حد بأن المستقبل افضل . في آخر المطاف كان هدف المداخلات النبوية ليس إيصال المستمعين أو القراء الى فقدان الأمل النهائي أو اليأس أو النفور بواسطة التهديدات المريعة بل اعادتهم الى يهوه

---

(٣١) انظر : Kapelrud A. Central ideas in Amos. Oslo, 1961, p. 53–58.

http://www.al-maktabeh.com

ولأجل ذلك بالذات كان من المهم الابقاء على بارقة امل وكان الأنبياء يأخذون ذلك بالحسبان على الدوام وكذلك كان يفعل عاموس ففي الرؤيا الواردة ضمن الاصحاح السابع ، يكشف يهوه للنبي الكوارث الرهيبة التي أعدها لإسرائيل ولكن اليكم كيف يتنازل يهوه لتوسلات عاموس الذي يطلب الرأفة : « فقلت أيها السيد يهوه كفـ كيف يقوم يعقوب فانه صغير فندم يهوه على هذا فهو أيضاً لا يكون قال يهوه الاله ».

لا توجد أسس لأن نرى في عاموس أول مبشر في اسرائيل بالوحدانية الشمولية والأخلاقية النقية والسامية ، كما يفعل ذلك الكثير من العلماء هذا علماً أنه اذا كان بعض هؤلاء يفسر ذلك السبق كنتيجة للرؤيا الالهية فان الآخرين يربطون مواقف النبي عاموس بتأثير ديانة ايل اله الكنعانيين جميعاً أو بتأثير أفكار الفرعون المصري اخناتون الذي كان مصلحاً دينياً.[٣٢]

كما سبق وقلنا لم يتخلَّ عاموس بتاتاً عن فكرة الطابع القومي للاله يهوه وموقفه الخاص من اسرائيل وعندما ينظر عاموس الى المستقبل فان نبوءاته تدور فقط حول مستقبل شعبه وحول مصالح اسرائيل ، بما في ذلك السيطرة على بقية ادوم .

لايقف عاموس قط ضد الأشكال الطقوسية الفظة مثل تقديم الذبائح والبخور وما شابه بل يعتبر فقط أنها لايمكن أن تعوض عن العدل والطيبة بين الناس وهو يغتاظ من منافقة ورياء الذي يقرب ضحية في ثياب خلعها من مدين لا يستطيع سد الدَّين ؛ فمثل هذه التقدمة مُقرفة للاله وغير مقبولة .

عبر بعض من دارسي كتاب عاموس عن دهشتهم لأن النبي لم يجد ضرورة في مهاجمة بعل والآلهة الوثنية الأخرى كما كان يفعل من قبله ايليا ومن بعده عدد من الأنبياء بمن فيهم النبي ارميا (القرن الرابع) ولأنه يذكر عبادة الصنمين اللذين في دان وبيت ايل حيث كان العجلان الذهبيان واقفين كما في السابق كتصوير ليهوه ذكراً سريعاً ويمر مرور الكرام (٢ : ٤-٥ ، ٢٦-٨ : ١٤) ولأن الشروط التي يضعها يهوه أمام شعبه تحمل في جوهرها طابعاً ليس دينياً بل هو أخلاقي أو

---

(٣٢) المرجع السابق.P. 42—44

بالأحرى اجتماعي – أخلاقي فالتجاوز يكون حين يقسرون الفقراء ويرتشون في المحاكم ويسكرون .

لا شك في أن الصور المعبرة للظلم الاجتماعي والتناقضات الاجتماعية التي رسمها عاموس أمام مستمعيه وقرائه لم تكن ثمرة خالصة من ثمار خياله ولا وهماً فارغاً بل هي تعكس الوضع الفعلي في المجتمع المعاصر للنبي ، المجتمع الذي كانت جماهير الشعب فيه تقاسي الفقر والحرمان من الأرض مطمورةً بالديون ، وغالباً ما تقع بين مخالب المرابين الجشعين الذين لا شفقة لديهم . لذلك كانت خطوة واحدة تفصل الناس عن عبودية الديون وفي المحاكم لم تكن هنالك عدالة حقاً بل كانت تهيمن الرشوة بلا حياء كانت جماهير الشعب المظلومة تضمن حقداً حارقاً وعاجزاً على أعدائها الطبقيين . ولكن كما يقول ماركس فان « البؤس الديني هو في الوقت ذاته تعبير عن البؤس الحقيقي واحتجاج ضد هذا البؤس الحقيقي »

في هذا السياق قد يكون ليس صدفة أبداً كون عاموس بالذات سليل سواد الشعب ابن الرعاة من تقوع قد عكس بشكل ديني ذلك الاحتجاج بقوة بارزة فكان أول نبي – كاتب أعلن أن السبب الرئيسي لغضب يهوه هو شرور الناس الذين يملكون الثروة والسلطة . ولقاء تلك الشرور يجب على الاله أن يعاقب بالعدل شعب اسرائيل كله ولكن سوف يقاسي في المرتبة الأولى هؤلاء النقباء الأشرار بالذات الذين « يخزنون الظلم والاغتصاب في قصورهم » (٣ : ١٠) « هوذا أيام تأتي عليكن يأخذونكن بخزائم . . . »(٤ : ٢) فهم أول من سيذهب على رأس الأسرى و : يزول صياح المتمددين(٦ : ٧)ذلك سيكون : يوم يهوه(٥ : ١٨) .

تجدر الاشارة خصوصاًالى استخدام عاموس لتعبير يوم يهوه أو ذلك اليوم للدلالة على يوم الحساب والعقاب الذي سينزله يهوه باسرائيل فهذا التعبير سيصبح سائداً لدى جميع الأنبياء اللاحقين لكن معاصري عاموس كانوا على ما يبدو يضمنونه معنىً مختلفاً وبعض الأنبياء كان يصور هذا اليوم بألوان مشرقة . عاموس على العكس يهدد : ويلٌ للذين يشتهون يوم يهوه لماذا لكم يوم يهوه هو ظلام لا

---

(٣٣)ك. ماركس ف. انغلس المؤلفات المجلد١ ص٤١٥ .

http://www.al-maktabeh.com

نور . (٥ : ١٨) وعبثاً يأمل المستريحون في صهيون أي شعب يهوذا والمطمئنون في جبل السامرة الاسرائيليون الأغنياء والوجهاء الخاطئون أن يوم الكارثة سيحل ليس قريباً (٦ : ١ - ٣) وعبثاً يقول بعضهم لايقترب بالشر ولا يأتي بيننا مستمرين في تجاوزاتهم .

قد يكون عاموس أول نبي رسم اللوحات المظلمة والمرعبة ليوم يهوه تلك اللوحات التي تشابكت فيها سمات الاحتلال الأجنبي الفعلي مع الكوارث الاسخاتولوجية(*) حيث يبرز الاله نفسه بصفة القائم المباشر على العقاب فهو الذي سوف يدق الخاطئين بالسيف شخصياً ولن يهرب منه أو ينجو أحد : « ان نقبوا الى الهاوية فمن هناك تأخذهم يدي وان صعدوا الى السماء فمن هناك أنزلهم وان اختبؤوا في راس الكرمل فمن هناك أفتش وآخذهم وان اختفوا من أمام عيني في قعر البحر فمن هناك آمر الحية فتلدغهم . وان مضوا في السبي أمام أعدائهم فمن هناك آمر السيف فيقتلهم » (٩: ١—٤)

ليس الناس فقط بل الطبيعة أيضاً ستقاسي صدمة رهيبة ستغيب الشمس ظهراً ويغطي الظلام الأرض التي ستبدأ بالارتجاج والتي سيلامسها يهوه فتذوب وتبدأ الصعود والهبوط كأمواج النهر من جراء الزلازل (٨: ٨—٩: ٥) فيما بعد تتكرر هذه اللوحات لدى الأنبياء الآخرين أيضاً .

طبيعي أنه لايوجد في نبوءات عاموس كما لدى الأنبياء اللاحقين أيضاً أي نوع من الدعوة للمقاومة والنضال ضد المستغلين والظالمين ، فمثل هذه الدعوة كان من شأنها أن تتناقض مع جوهر الدين ذاته . يقول ف.لينين أن « فكرة الاله كانت دائماً تنوّم المشاعر الاجتماعية وتثلمها . . . » ولم تكن دعوات عاموس استثناء من القاعدة وربما كان ذلك أحد الأسباب التي دعت الى ابقاء تلك النصوص ودخولها في قانون العهد القديم .

(*) eschatology - اسخاتولوجيا جملة التعاليم الدينية حول نهاية العالم . - المترجم -

(٣٤) ف. لينين المؤلفات الكاملة المجلد٤٨ ص٢٣٢ .

اذاً ربما كان عاموس أول نبي توراتي عثر على تبرير للاله المستعد ان لم يكن لابادة شعبه كلياً فلتركه بين أيدي الوثنيين عرضةً للسبي والعبودية والتلف . كان تبرير يهوه لدى عاموس هو هو التأكيد على العدالة المطلقة للاله : طالما أن اسرائيل قد اختارت في سلوكها الشر وليس الخير ، فان يهوه لا يستطيع ألا يعاقبها فذلك يتنافى مع عدله ولما كان يهوه يحب شعبه لكنه يضع العدل فوق الرافة فلن يرحم حتى اسرائيل وفقط بعد أن تفدي اسرائيل ذنبها بالمعاناة سوف يعيد يهوه اليها رأفته يهوه دائماً على حق .

اذا صدَّقنا ما ورد في كتاب عاموس فان مداخلاته كانت تترك أثراً قوياً على المستمعين . لنتذكر ما كتبه الكاهن عمصيا في وشايته الى الملك « قد فتن عليك عاموس في وسط بيت اسرائيل لاتقدر الأرض أن تطيق كل أقواله »(٧ : ١٠) ويجب الظن أنه ليس فقط أعداء عاموس بل وزملاؤه أنبياء يهوه الآخرون أيضاً كانوا يستمعون الى احاديث هذا النبي ذي الشعبية وبما أن خطبه ظهرت على شكل مكتوب وكانت تلك أول النبوءات المكتوبة فلا شك في أنه كان يتم قراءتها ونسخها وحفظها وتقليدها ليس فقط من قبل الأنبياء المعاصرين لعاموس بل والأنبياء اللاحقين أيضاً ان تأثير عاموس على عدد من الأنبياء (هوشع واشعيا وميخا وارميا) لاشك فيه . فبعد أن يصف هؤلاء تجاوزات اسرائيل بتعابير مماثلة لتعابير عاموس يرسمون جميعاً الصور القاتمة ليوم يهوه ، يوم الحساب تلك الصور التي تختلف قليلاً فقط عن وصف عاموس وكذلك الأمر بالنسبة لصور بعث اسرائيل المقبل كما أن الجميع يكررون الخيط الأساسي لتبرير يهوه لدى عاموس مغيِّرين فيه الشيء القليل فقط .

النبي هوشع :

كتاب هوشع أيضاً يبدأ ببضع كلمات حول المؤلف : « قول يهوه الذي صار الى هوشع بن بثيري في أيام عزيًا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا وفي أيام يربعام بن يوآش ملك اسرائيل » (١ : ١) لاشك أن هذه اضافة متأخرة على النص وزمن المداخلات النبوية لهوشع الوارد فيها غير دقيق ما كان بوسع هوشع أن يتنبأ في أيام

http://www.al-maktabeh.com

يربعام الثاني ملك اسرائيل وحزقيا ملك يهوذا لأن الأول مات بحوالي خمسين عاماً قبل أن يعتلي الثاني عرش مملكته . اعتماداً على عدد من المؤشرات يمكن الاستنتاج أن هوشع بدأ نبوءاته في السنوات الأخيرة لعهد يربعام وانتهى منها قبل عام734 ففي هذا العام هجم الملك الأشوري تغلاتبلاصر الثالث على مملكة اسرائيل واحتل عدداً من مناطقها بما فيها جلعاد لكن هوشع يعتبر جلعاد تابعة لاسرائيل (٨ : ٦) وهكذا نجد أن هوشع كان يتنبأ في نفس زمن عاموس تقريباً أو ربما بعده بقليل أي بين عامي750 و734 قبل الميلاد لا شك أن نبوءاته قد عكست الأحداث العاصفة التي جرت في مملكة اسرائيل بعد موت يربعام : انقلابات البلاط والاستيلاء على العرش من قبل مغتصبي السلطة والخسائر الحربية .

وفقاً للتوراة بدأ النشاط النبوي لهوشع من أن يهوه أمره بالزواج من امرأة زنى : قال يهوه لهوشع اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض زنت زنىً تاركة يهوه . فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابناً فقال له يهوه ادعُ اسمه يزرعيل لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت اسرائيل . بعد ذلك ولدت جومر ابنة وابناً ثانياً ومن جديد يأمر يهوه بمنحهما أسمين فيهما آية : البنت لورحامة « لأني لا اعود أرحم بيت اسرائيل » والابن لوعمّي أي ليس شعبي ويشرح أيضاً : لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم . (١ : ٢—٩)

فيما بعد تلقى هوشع من يهوه أمراً جديداً« اذهب أيضاً احبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة يهوه لبني اسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى . . . فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضة وبحومر ولثك شعير . وقلت لها تقعدين أياماً كثيرة لا تزني ولا تكوني لرجل وأنا كذلك لك لأن بني اسرائيل سيقعدون أياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تماثيل وبلا أفود وترافيم » (٣ : ١—٤) ان الكثيرين من المعلقين القدامى واللاحقين كانوا ينظرون الى هذه القضية حول زيجات هوشع على أنها مجازية في حين يعتبر البعض بمن في ذلك عدد من الناقدين المعاصرين أنه يجب فهم القصة حرفياً ولأنه قد تكون اخفاقات هوشع في حياته الشخصية هي بالذات ما حدا به لأن يرى في ذلك علامة على مستقبل شعبه .

عدا عن هذه الوقائع العائلية لا يُعرف شيء تقريباً عن هوشع فخلافاً لعاموس كان هوشع غنياً بما فيه الكفاية على ما يبدو طالما كان بوسعه اعالة زوجتين بعد دفع مبلغ كبير من المال لقاء الزوجة أو العشيقة الثانية . وهو اسرائيلي أصيل (كان عاموس يهوذياً) اذ يقول عن ملك اسرائيل :ملكنا (٧: ٥) وعن البلد يقول :هذه الأرض (١: ٢) من غير المعروف كيف انتهت حياة النبي وهل عاش حتى ذلك اليوم الذي تحققت فيه نبوءته عندما سبا سرغون الثاني سكان اسرائيل في عام721 وهل كان هوشع مع أبناء قومه الآخرين أسيراً في آشور أم أنه استطاع مثل الكثير من الاسرائيليين ربما — أن يهرب الى يهوذا المجاورة حاملاً معه مخطوطاته .

ان نص كتاب هوشع الذي وصل الينا غامض جداً في بعض مقاطعه وغير مفهوم أبداًفي عدد من الأماكن . جزئياً يمكن تفسير ذلك بالأسلوب الخصوصي لحديث النبي اذ تغلب العاطفة بوضوح على المنطق وتناسق الأفكار فالصور المفاجئة (التي غالباً ما تكون ساطعة ومؤثرة) والمقارنات تخلي مكانها (دون أية جسور) لنداءات ولعنات عن لسان النبي هوشع وباسم الاله ذاته علاوة على ذلك اكتشف نقاد التوراة في نص هوشع الذي وصلنا كما في كتاب عاموس عدداً من الاضافات المتأخرة التي قام بها المحررون اليهوذيون بقصد الرفع من مكانة يهوذا هكذا مثلاً يعتبر المقطعان (١ : ٧) و (١: ١٠—١١) من إضافة محرر يهوذي حيث يتم قطع النبوءة حول اسرائيل بوعود من يهوه حول انقاذ مملكة يهوذا :"وأما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بيهوه الههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب وبخيل وبفرسان". (١ : ٧) معروف أن يهوذا تفادت البطش بدفع جزية للملك الآشوري فبقيت قائمة بعد سقوط مملكة اسرائيل ولكن من المستبعد أن يكون النبي هوشع قد استقرأ ذلك سلفاً فهو في مكان آخر يتنبأ بأن يهوذا ستسقط مع اسرائيل « فيتعثر اسرائيل وأفرايم في اثمهما ويتعثر يهوذا أيضاً معهما » (٥: ٥)

مثلما عاموس يتنبأ هوشع بأن يوم عقاب اسرائيل من قبل يهوه قد بات قريباً وبأنه لم تعد لدى يهوه شفقة فاسرائيل خانت الهها ويهوه الآن يحق له أن يتصرف مع اسرائيل كما يتصرف الزوج مع زوجته التي خانته . ان تشبيه اسرائيل بالزوجة الخائنة مميَّز جداً هنا فبموجب القوانين القديمة كان الزوج بعد أن يدفع مهر الزوجة

http://www.al-maktabeh.com

ويعقد عقد الزواج يتحمل أعباء اعالتها وحمايتها ولكنه في حالة خيانة الزوجة كان يملك عليها حق الحياة و الموت ، أي يستطيع أن يميتها أو يعفو عنها. اذا أحس بالشفقة والحب تجاهها ويستطيع فك الارتباط معها أو تركها معه فذلك حقه .

بعد تشبيه اسرائيل بالزوجة الزانية يتابع هوشع استخدام هذه الصورة أيضاً وأيضاً . فيهوه يلوم زوجته الزانية بغضب — على لسان النبي — لأنها كانت تتبع محبيها بلا نهاية « لأنها قالت أذهب وراء محبيَّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتّاني وزيتي وأشربتي » وكان محبو اسرائيل هم الألهة الأخرى وفي مقدمتهم الاله الكنعاني بعل وهو راعي الخصب « وهي لم تعرف أني أنا أعطيتها القمح والمسطار والزيت كثّرت لها فضةً وذهباً جعلوه لبعلٍ » وهنا يتوعد الاله المخدوع قائلاً : « وأعاقبها على أيام بعليم التي فيها كانت تبخّر لهم وتتزيّن بخزائمها وحليّها وتذهب الى محبيها وتنساني أنا يقول يهوه » والآن فلتعلم أنها « ليست امرأتي وأنا لست رجلها » (٢ : ٢—١٣) لقد فضّل أهل اسرائيل الألهة الغريبة على المهم « فجاؤوا الى بعل فغور ونذروا أنفسهم للخزي » (٩ : ١٠) اذ كانت عبادات بعل وعشتروت تحمل طابع البغاء المقدس وهذا خصوصا ما يغيظ النبي :« يذبحون على رؤوس الجبال ويبخّرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم لأنها ظلها حسن . لذلك تزني بناتكم وتفسق كناتكم لا أعاقب بناتكم ولا كناتكم لأنهن يفسقن. . . لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى » (٤ :١٣ ـ ١٤) .

إن هوشع يقرع اسرائيل كذلك على تعبدها لـ« العجلين » اللذين يمثلان يهوه :« قد زنخ عجلك يا سامرة. . . صنعه الصانع وليس هو الهاً ان عجل السامرة يصبح كسراً . صنعوا لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناماً لكي ينقرضوا ». : ٨) (٤ — ٦) .

ويربط هوشع بين التعبد للآلهة الغريبة والاقتداء بمثلها وبين السقوط الأخلاقي للشعب ، ففي كل الأماكن يتفشى النهب والقسر والسكر والفسق :لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق . يعتنفون ودماء تلحق دماء » وحتى الكهنة تورطوا في التجاوزات :« الزنى والخمر والسلافة تخلب القلب ». (٤ :٢ ـ ١١) كما أن النخبة تمرض من "سورة الخمر" والرؤساء« كلهم حامون كالتنور وأكلوا قضاتهم "وهم أقاموا ملوكاً وليس مني أقاموا رؤساء وأنا لم أعرف »"وجميع ملوكهم سقطوا ليس بينهم من

يدعو اليَّ » (٨ : ١٠ ، ٧ : ١٦) اننا نعرف من مصدر آخر (٢ مل ١٥)أن مغتصبين للسلطة قد استولوا على العرش بعد موت يربعام الثاني عام743 وكان كل منهم يصفي سلفه فما المدهش في أن يهوه الحانق تخلى عن شعبه بعد هذا كله كما يترك الزوج الصارم زوجته الخائنة ؟ وهاهي اسرائيل التي تركها الاله أصبحت «كحمامة رعناء »بلا عقل و بلا قلب اذ أن سياستها الخارجية غبية وغير معقولة : «يدعون مصر يمضون الى آشور» (٧ : ١١)« يقطعون مع آشور عهداً والزيت الى مصر يجلب »(١٢ : ١) وكانت اسرائيل تشتري الود بالهدايا و« يرجعون ليس الى العليّ » (٨ : ١٠، ٧ : ١٦) .

اذا كان الزوج الذي يعاقب زوجته الخائنة يتصرف تصرفاً صحيحاً فما بالك بتصرف يهوه الذي قرر أن يعاقب اسرائيل ، هذا الشعب الذي خان الهه . وهوشع عن لسان الاله يتنبأ بكوارث عظيمة يجب أن تحل باسرائيل على يد يهوه : «سوء المحاصيل والمجاعة (٢ : ٩—١٢) وهجوم الأعداء ونهب البلاد والسبي : «تجازى السامرة لأنها قد تمردت على الهها بالسيف يسقطون تحطم أطفالهم والحوامل تشق» (١٣ : ١٦) ان النبي قد تنبأ على نحو واضح باحتلال اسرائيل من قبل شعب غريب وسبي شعبها ولكن من الذي سيهاجم مملكة اسرائيل أولاً ؟ الى أين ستسبى اسرائيل ؟ كان الموقف غير واضح بالنسبة للدوائر الحاكمة في اسرائيل فكانت ترسل الجزية الى الملك الآشوري حيناً والهدايا الى الفرعون المصري حيناً آخر . ويبدو أن النبي أيضاً كان يتصور بشكل مبهم من أين يأتي الخطر الأكبر ولذلك فان مداخلاته تحمل طابعاً متناقضاً . أحياناً كان يتهيأ لهوشع ربما أن اسرائيل ستقع في الأسر المصري لا محالة ، فقد سبق ليهوه أن حرر الاسرائيليين من العبودية في مصر « الآن يذكر اثمهم ويعاقب خطيتهم انهم الى مصر يرجعون » (١٣ : ٨) أما في مكان آخر فهو يتوقع هجوماً من الجهتين « يرجع أفرايم الى مصر ويأكلون النجس فس آشور » (٩ : ٣) وعلى ما يبدو فإن المداخلة الثالثة حيث حتمية احتلال اسرائيل من قبل آشور أصبحت واضحة نهائياً تعود الى وقت لاحق « لا يرجع الى مصر بل آشور هو ملكه لأنهم أبوا أن يرجعوا » (١١ : ٥) « فيكونون تائهين بين الأمم » (٩ : ١٧) من المعروف أن نبوءة هوشع الأخيرة هي التي تحققت . وينبئنا كتاب الملوك الثاني أنه عندما اقتربت جيوش الملك الآشوري

http://www.al-maktabeh.com

من حدود المملكة الشمالية ما كان من الملك الاسرائيلي هوشع (اسمه مطابق لاسم النبي) الا أن صار له "عبداً ودفع له جزية" ولكن « وجد ملك آشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلاً الى سوا ملك مصر ولم يؤدّ جزية الى ملك آشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك آشور وأوثقه في السجن وصعد ملك آشور على كل الأرض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث سنين في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى اسرائيل الى آشور » (٢ مل ١٧ : ٣ - ٦) ولكن كل هذا لم يحدث بعد ، وما كان بمقدور النبي الا أن يحذر مستمعيه أيضاً وأيضاً من الكارثة المحدقة ويقنعهم بصواب يهوه الذي ينصف حين يعاقب اسرائيل على "تجاوزاتها" لقد صرنا نعرف أن عاموس و ربما أنبياء آخرين كانوا يحذون حذو هوشع في نفس تلك الفترة ويبدو أن هوشع كان يتعرض مثل عاموس للاحقاتٍ ما بسبب انتقاده لرؤساء اسرائيل فهو الذي كانوا يقولون عنه :« سيعرف اسرائيل . النبي أحمق . انسان الروح مجنون من كثرة اثمك وكثرة الحقد » (٩ : ٧) على كل حال فان هوشع في انتقاده لـ" تجاوزات" اسرائيل لايتناول الظلم الاجتماعي بقدر ما يتناول الانحلال الخلقي للأنبياء:شراهتهم وسكرهم ودعارتهم . فقط في مكانين أو ثلاثة يمكن أن نجد لدى هوشع تعابيرعمومية الطابع على غرار « ازرعوا لأنفسكم بالبّر احصدوا بحسب الصلاح » (١٠ : ١٢) وهي تعابير يمكن تأويلها بمعنى اللوم للنظم الاجتماعية غير العادلة لكنها لاتدخل في مقارنة مع العنفوان الساخط للنبي الذي بين الرعاة ازاء الوجهاء والأغنياء والرؤساء والمنافقين .

وخلافاً لعاموس يبدو الاتهام الرئيسي الذي يطلقه هوشع ضد اسرائيل اتهاماً ذا طابع ديني : التعبد للآلهة الغريبة وعبادة الأصنام . لدى هوشع نجد يهوه وهو يتذكر بمرارة حبه الماضي لشعبه :« لما كان اسرائيل غلاماً ومن مصر دعوت ابني ... وأنا درجت أفرايم ممسكاً إياهم بأذرعهم فلم يعرفوا اني شفيتهم كنت أجذبهم بحبال البشر بربطالمحبة ». ولكن اسرائيل لم تقدر هذا الحب الالهي حق قدره (شعبي جانحون الى الارتداد عني) فذهب أبناؤها الى الجلجال :« كل شرّهم في الجلجال اني هناك أبغضتهم من أجل سوء أفعالهم أطردهم من بيتي لا أعود أحبهم ». (٩ : ١٥).

في الوقت نفسه يعترف يهوه على طريقة البشر تماماً بضعفه تجاه اسرائيل :

http://www.al-maktabeh.com

"كيف أجعلك يا أفرايم أصيِّرك ياإسرائيل كيف أجعلك كأدمة . . . قد انقلب قلبي عليَّ اضطرمت مراحمي جميعاً لا أجري حمو غضبي لا اعود أخرب أفرايم". (١١ : ٨ — ٩) هكذا نجد أن الاستعارة التي تبدو فيها اسرائيل بصورة زوجة خائنة ويهوه كزوج غيور ومحب تنتهي بمشهد المصالحة المؤثر فبعد أن يعاقب يهوه الخائنة ويحرمها من كل فرح وعيد ويخرّب كرمها وتينها اللذين تقول عنهما « هما اجرتي التي أعطانيها محبّيّ » بعد ذلك سوف يلاطفها يهوه وستفهم الخائنة كم كان سلوكها سيئاً وستندم :« ويكون في ذلك اليوم يقول يهوه أنك تدعينني رَجُلي ولا تدعينني بعد بعلي(*) وانزع اسماء البعليم من فمها فلا تذكر أيضاًأسمها ». (٢ : ١٦) وسوف يحل الغفران على الخائنة أي على شعب اسرائيل وسيعود الأسرى من مصر وآشور (١١ : ١١) وستقوم مملكة السلام والخير لأجل اسرائيل فيهوه يؤكد : « وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض وأكسر القوس والسيف والحرب من الأرض وأجعلهم يضطجعون آمنين »(٢ : ١٨) وسوف يزهر كالسوسن اسرائيل و :« يعود الساكنون في ظله يحيون حنطة ويزهرون كجفنة يكون ذكرهم كخمر لبنان يقول أفرايم مالي أيضاًوللأصنام »(١٤ : ٦ — ٩).

وهكذا فان اله عاموس لم يعد ذلك الاله القبلي الملتزم بتقاليد النظام القبلي (القاضية بمساعدة أبناء قومه وحمايتهم بحكم الرابط الدموي الطبيعي معهم) لكننا لانجد فيه بعد تلك السمات الشمولية التي أضفاها عاموس على يهوه.إن اله هوشع هو اله اسرائيل القومي وعلاقاته مع اسرائيل مبنية على العهد مثلما العلاقات بين الزوج والزوجة مشروطة بعقد الزواج لقد كان من حق الزوج أن يقتل أو يسامح الزوجة الزانية وطالما أن اسرائيل خانت يهوه فله الحق في افنائها كلياً والى الأبد . لكنه كاله يملك حق العفو عن شعب وعدم ابادته كلياً وهذا ما سيفعله بالذات لأن يهوه يحب اسرائيل لذا لايتوجب على الاسرائيليين أن يفقدوا الأمل والايمان بالههم بل عليهم أن يؤمنوا بأن « هو افترس فيشفينا ضرب فيجبرنا يحيينا بعد يومين في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه » (٦ : ١ — ٢) وسيبقى الاله عادلاً على الدوام وصائباً .

(*) هنا يتلاعب هوشع بالمعاني : بعل إسم الاله ، لكنه ايضاً يعني الزوج .

http://www.al-maktabeh.com

في نهاية الكتاب كلمات تبدو كما لو أنها النغم الختامي في تبرير يهوه من قبل هوشع حيث يقول النبي: « من هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفهيم حتى يعرفها فان طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها وأما المنافقون فيعثرون فيها » (١٤ ك ٩ – ١٠).

http://www.al-maktabeh.com

كتاب اشعيا والنبي اشعيا

يحتوي كتاب اشعيا بشكله الذي دخل في قوام العهد القديم ستة وستين اصحاحاً . لكن أساليب التحليل العلمي لمضمون ولغة الكتاب سمحت بالبرهان القاطع على أن ما يعود لإشعيا ذاته (وهو نبي عاش على تخوم القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) لايتعدى ثلاثة أرباع الاصحاحات والى هذه النواة الأولية كانت تضاف نصوص كثيرة خلال عدة قرون أغلبها يعود الى زمن الأسر البابلي وآخرها الى القرن الثاني قبل الميلاد .

يبدو أن إشعيا كان واحداً من أكثر الأنبياء شعبية في يهوذا وليس غريباً أن بعض مؤلفي النبوءات اللاحقين كان يفضّل لأجل المزيد من الهيبة اضافة نصوصه الى نص اشعيا . أحياناً لايصعب على المرء تحديد الاضافات فهي كانت تأتي في نهاية مداخلة محددة من مداخلات إشعيا . ويبدو أن هذا الأمر يمكن تفسيره بأن نبوءات اشعيا كانت تدور بين الأيادي على شكل تسجيلات متفرقة وكان مالِك تسجيل من هذا النوع يضيف في نهاية النص أو بدايته نصاً من تأليفه هو أو من تأليف شخص آخر ، بهدف تطوير فكرة إشعيا أو التخفيف من صرامة النبي القديم.هكذا حصل أن كتاب النبي اشعيا الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد احتوى نبوءات"متحققة"حول أحداث جرت بعد حوالي قرنين : حول احتلال بابل ليهوذا وحول سقوط بابل الخ . ببساطة هذه إضافات متأخرة على النص الأصلي ويين هذه الاضافات بلاشك الاصحاحان (١٣ و ١٤).

من خلال تحليل هذين الاصحاحين كمثال يمكننا أن نبين كيف يتسنى لدارسي النبوءات التوراتية تحديد التاريخ الحقيقي لاطلاق هذه النبوءة أو تلك .

من المفهوم طبعاً أن الأنبياء العبرانيين القدامى مثلهم مثل المبشرين

المعاصرين خطباء وكتاباً كانوا يتكلمون ويكتبون بطريقة تجعل الناس يفهمونهم . ولذلك من المهم جداً أثناء تحليل نص النبوءة أن نحدد فيه ما يتكلم عنه النبي وكأنه أمر معلوم لدى مستمعيه أو قرائه (أي الأحداث التي يتكلم عنها النبي وكأنها معروفة) وهذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ما يتنبأ به النبي كشيء ينطوي عليه المستقبل ولكن الاله كشف عنه لنبيه .

في الاصحاحين ١٣ و ١٤ يدور الحديث عن تحطيم آشور (١٤ : ٢٥) وعن كون بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين وكذلك عن كون الملك البابلي ظالماً ومتغطرساً (فهو الضارب الشعوب بسخط ضربة بلا فتورالمتسلط بغضب على الأمم) (١٤ : ٤ ، ٦-٦) وهو الذي جعل العالم كقفر وهدم مدنه الذي لم يطلق اسراه الى بيوتهم (١٤ : ١٧) باعتبار هذه الأمور معروفة تماماً لدى معاصري المؤلف ومفهومة من قبلهم .

ويتم التنبؤ بأن يهوه سيرفع ضد بابل شعباً من بلد بعيد من أقصى السموات والاله نفسه يسمي هذا الشعب :« هانذا أهيج عليهم الماديين . . . وتصير بابل . . . كتقليب الله سدوم وعمورة لا تعمر الى الأبد ولا تسكن الى دورفدور »(١٣ : ٥ ، ١٧ — ٢٠) وسوف تحل من جديد شفقة ومحبة يهوه على يعقوب (أي شعب يهوذا) واسرائيل يريحهم في ارضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون الى بيت يعقوب و . . . بيت اسرائيل . . . يتسلطون على ظالميهم (١٤ : ١ — ٢).

بالنسبة لليهوذي معاصر إشعيا في القرن الثامن كان سيبدو لغزاً غير مفهوم اطلاقاً السبب الذي يجعل يهوه يطلق مثل هذه التهديدات بحق بابل التي لم تكن آنذاك لا زينة الممالك كما نعلم الان ولا مسيطرةً على شعوب أخرى بل كانت مثل يهوذا فاقدةً لاستقلالها وتعيش تحت سيطرة آشور . ولكي يفهم قرّاء النبي أو مستمعوه الكلمات حول عودة اليهوذيين الى وطنهم من الأسر كان عليه قبلاً أن يتنبأ بأن بابل سوف تنتصر على آشوروتهاجم يهوذا وتسبي سكانها . ولكن لا توجد هكذا نبوءة والنبي يتحدث عن عودة اليهوذيين من الأسر وكأنها أمر مفهوم تماماً ومعروف لدى معاصريه كل هذا يمكن تفسيره فقط اذا اعتبرنا أن نبوءات الاصحاحين ١٣ و ١٤ قد تم تأليفها بعد أن قضت بابل على الامبراطورية الأشورية ، وبعد أن بلغت جبروتاً كبيرا في عهد الملك نبوخذ نصر الثاني وبعد

http://www.al-maktabeh.com

أن تمت حملة هذا الملك على يهوذا فوجد بيت يعقوب نفسه في الأسر البابلي أي بعد عام ٥٨٦ قبل الميلاد . ولكن النبوءة تقول أن بابل سوف يسقط تحت ضربات الميديين في حين أن بابل تم احتلالها ليس من قبل الميديين بل الفرس على زمن الملك كورش عام ٥٣٩ . هذا يعني أن مؤلف النص لم يكن يعرف بعد عن الانقلاب الذي حصل في إيران ونتج عنه وقوع الميديين ذاتهم تحت سلطة الفرس وهذا ما جرى عام ٥٤٩ أو ٥٥٠ .

من كل ما سبق يتلو استنتاج واحد فقط : تم تأليف النبوءة الواردة في الاصحاحين ١٣ و ١٤ من كتاب إشعيا بين عامي ٥٨٦ و ٥٤٩ قبل الميلاد بالتالي ما كان يمكن لهذه النبوءة أن تعود لقلم النبي اشعيا الذي كان حينئذٍ قد مات منذ زمن بعيد . إن المؤلف الحقيقي لهذه النبوءة الذي لانعرف اسمه وربما لن نعرفه أبداً قد وصف أحداثا أصبحت في ذمة التاريخ من زمن ، ولكن على شكل نبوءة حول الماضي وأضاف اليها تصوراته حول ما يجب أن يحدث في القريب العاجل (كما كان يتنبأ به أو يأمل فيه أو يحلم به) : احتلال بابل وعودة اليهوذيين من الأسر الى الوطن وسيادة يهوذا على ظالميها السابقين .

لقد تم تدوين نبوءة الاصحاحين ١٣ و ١٤ في لفافة تتضمن نص النبي القديم إشعيا وجرى نسبها اليه على نحو متعمَّد كما تشهد على ذلك الإضافة في بداية الإصحاح ١٣ :« وحي من جهة بابل رآه إشعيا بنآموص » .(١٣ : ١) هذا وقد سبق لنا أن تحدثنا عن دوافع الناس الذين كانوا يقومون بمثل هذا العمل .

يمكن ايراد مثل آخر على إضافة دخلت في كتاب إشعيا أيام الأسر ضمن نص الاصحاح ٢١ فمؤلف النبوءة في هذا الاصحاح ينادي بحزن على يهوذا : يا دياستي وبني بيدري (٢١ : ١٠) وكون يهوذا مسحوقة يشير بالطبع الى موقف ما بعد ٥٨٦ ابان احتلال بابل ليهوذا ولكن الذين سحقوا يهوذا لديهم أعداء وهؤلاء الأعداء يتقدمون للهجوم ، والنبي يشجعهم باسم الاله :« اصعدي يا عيلام حاصري يا مادي »(٢١ : ٢) هذا يعني أن المؤلف ومستمعيه يعرفون كما هو واضح أن الفرس (عيلام) والميديين قد قاموا ضد بابل وحاصروا المدينة حتى أنه يتم رسم لوحة لاحتلال بابل « سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها الى الأرض»(٢١ : ٩) ولكن هذه اللوحة غير صادقة ففي الواقع معروف من المصادر

القديمة أن كورش عندما احتل بابل ليس فقط لم يهدم فيها المعابد وتماثيل الآلهة بل أنه أبدى تجاهها احتراماً مميَّزاً وذلك يعني أن النص مكتوب بين ٥٤٩ و ٥٣٨ في سنة أقرب الى عام ٥٣٨ كما أن بعض الاضافات حُشِرت ضمن نص النبي إشعيا في أزمنة أكثر تأخراً فمن غير المحتمل أن تعود لإشعيا المقاطع ١١ : ١١ — ١٢ التي تنبئنا : « ويكون في ذلك اليوم أن يهوه يعيد يده ثانيةً ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروش ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر » .اذ أن مثل هذا الانتشار الواسع للعبرانيين جرى فقط بعد حملة اسكندر المقدوني في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد .

لاحاجة بنا الى دراسة اضافات متأخرة أخرى على نص اشعيا (سوف يرد تحليل الإصحاحات ٤٠ — ٦٦ لاحقاً) فنقَّاد التوراة يعتبرون أن هذه الاضافات هي : (٢ : ٢ — ٤) (٤ : ٢ — ٦ ، ١١ ، ١٢) (١٣ : ١ — ١٤ ، ١٥ — ١٦) (١٧ : ١٢ — ١٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧) (٣٠ : ٢٧ — ٣٣ ، ٣٤ — ٣٥) (٣٦ : ٣٩ ، ٤٠ — ٥٥ ، ٥٦ — ٦٦).

بهذا الشكل كان دارس التوراة الأمريكي ر. بفايفر لديه كل الأسس لأن يكتب في مؤلَّفه الأصيل (مدخل الى العهد القديم) قائلاً : كتاب إشعيا هو على الأرجح مكتبة صغيرة أكثر من كونه كتاباً واحداً فهو أيضاً يمكن اعتباره إسوة بكتاب الأمثال أو كتاب المزامير كتابَ مختارات أو مجموعة نبوءات» [٣٥]

خلال روايتنا حول النبي اشعيا سنشير لاحقاً فقط الى تلك الأماكن من كتابه التي تُعتَبر من تأليفه هو وفقاً لرأي الأغلبية الساحقة من الباحثين وهي بالتالي تعود لإشعيا ذاته .

توجد لدينا كل الأسس لاعتبار إشعيا شخصية تاريخية فعلية ، ويمكن معرفة بعض المعلومات عن حياته من كتابه بالذات وكذلك من كتاب الملوك الثاني (الاصحاحان ١٩ و ٢٠) فقد عاش في أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا (١ ش ١ : ١) الذين حكموا ما بين عامي ٧٨٥ و ٦٨٧ قبل الميلاد وبدأ يتنبأ في سنة وفاة عزيّا (٧٤٢) واشعيا نفسه يروي لنا ، في الاصحاح السادس كيف حدث

(٣٥) Pfeiffer R. H. Introduction to the Old Testament N. Y. 1948 P. 448.

http://www.al-maktabeh.com

ذلك : كان الرجل في معبد يهوه باورشليم عندما نزلت عليه الرؤيا فحظي برؤية وسماع يهوه شخصياً :« رأيتُ يهوه جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع ، وأذياله تملأ الهيكل.السيرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير . وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس يهوه رب الجنود مجده ملء كل الأرض » . عندها أصيب اشعيا بالهلع :« ويلٌ لي اني هلكت لأني انسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عينيَّ قد رأتا يهوه رب الجنود » . ثم ما كان من أحد السيرافيم إلا أن التقط بالملقط جمرة من على المذبح ومس بها فم إشعيا وبذلك تم تطهير النبي من الاثم واعداده لتنفيذ رسالة يهوه . ويهوه يأمر إشعيا أن يعلن للشعب اليهودي عن سلب يهوذا المقبل :« تصير المدن خربةً بلا ساكن والبيوت بلا انسان وتخرب الأرض وتقفر ويبعد يهوه الانسان » . فقط جزء صغير من يهوذا هو الذي سيبقى كبذرة مقدسة لينبعث منها شعب نقي . في الوقت ذاته يحذر يهوه النبي اشعيا : اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وابصروا أبصاراً ولا تعرفوا غلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى . (٦ : ٩ – ١٢)

لاداعي للتساؤل عما اذا كانت رواية اشعيا عن رؤياه مجرد افراز خالص من افرازات الخيال أم أن التهيؤات السمعية والبصرية قد لعبت دورها في حالة الانجذاب فكلا الأمرين كان ممكن الحدوث في حالة كهذه ولكن اذا ترجمنا رؤيا اشعيا من لغة الصور الدينية الى اللغة الدنيوية فان المغزى يصبح واضحاً بما فيه الكفاية : في سنة موت الملك اليهودي عزيا أي عام ٧٤٢ قبل الميلاد قرر اليهودي اشعيا بن آموص أن يصبح نبياً وكان هذا القرار على ارتباط وثيق مع الخطر الرهيب المحيق ببلد أي خطر هجوم الأعداء ونهب البلد وسبي سكانها . خلافاً لعاموس النبي الذي جاء من بين الرعاة كان اشعيا رجلاً من أصل مشهور يعيش في عاصمة يهوذا أورشليم وكان على معرفة قريبة بكهنة معبد أورشليم وتحديداً بالكاهن الأول أوريا (٨ : ٢) كما كان يتعامل مع ملوك يهوذا بحرية ويسدي اليهم النصائح (٧ : ٣) كما كان اشعيا يعرف جيداً حياة وأخلاق النخبة في المجتمع اليهودي فوصف عيوبهم ونقائصهم وصفاً لامعاً ويبدو أنه كان انساناً ذا

ثقافة رفيعة حيث يدل على ذلك مضمون ونسق مداخلاته التي تكشف عن احاطة بالتاريخ وبالتقاليد الثقافية والدينية ليس فقط لدى شعبه وبل وكذلك لدى الشعوب الأخرى المجاورة هذا مع العلم بأن اشعيا كان على دراية ممتازة بكل تعقيدات الوضع السياسي الداخلي والخارجي في زمانه . وما كان بامكان رجل من هذا النوع أن يبقى بعيداً عن الأحداث التي تجري حوله فراح يشترك فيها مشاركة فعالة ليس فقط بصفة نبي بل وكشخصية سياسية أيضاً .

لقد برز اشعيا في دور النبي حين كان الخطر يتهدد ليس فقط استقلال شعبه بل ومجرد وجود هذا الشعب . ففي عام ٧٤٤ قبل الرؤيا التي يصفها اشعيا بسنتين جرى انقلاب في البلاط الآشوري وصعد الى العرش ملك جديد اتخذ لنفسه اسم تغلاتبلاصر الثالث وهو الذي دخل التاريخ كفاتح كبير . خلال العقود التالية بلغت الامبراطورية الآشورية أوج جبروتها . فبعد أن قام الأشوريون بعدة فتوحات الى سوريا الشمالية والوسطى تمكنوا هناك من اخضاع عدة ممالك صغيرة وراحوا يتحركون أبعد نحو الجنوب بلا توقف . ودفع الملك الاسرائيلي منحيم جزية كبيرة وأصبح فعلياً من أتباع الامبراطورية الآشورية (٢ مل ١٥ : ٢٠)

لكن ، وكما نعرف ، لم ينقذ ذلك اسرائيل بل اقتحم تغلاتبلاصر الثالث فلسطين واقتطع من اسرائيل عدة مقاطعات الى الشمال من السامرة ، فتم تهجير سكانها الى شمال الامبراطورية الآشورية . فيما بعد أصبح سبي مئات الآلاف من الناس أبناء الشعوب التي تخضعها آشور من السمات المميزة لسياسة ملوك آشور الفاتحين . وخوفاً من هذا المصير شرع ملوك الدول الصغيرة في سوريا الوسطى وفلسطين بعقد التحالفات من أجل التصدي للامبراطورية الآشورية ، حيث اشتركت في تلك التحالفات مصر أيضاً ، وهي التي كانت تملك كل الأسس للتخوف من قوة آشور المتنامية . في عام ٧٣٤ عقدت مملكة دمشق ومملكة اسرائيل (اللتان كانتا عادة في حالة عداء !) تحالفاً فيما بينهما. وقد سعى ملك دمشق رصين والملك الاسرائيلي فقح الى استدراج الملك اليهوذي آحاز أيضاً الى هذا التحالف ، وحين رفض ذلك أعلنا عليه الحرب . وفي حالة من اليأس والخوف توجه آحاز الى الملك الآشوري طلباً للمساعدة ، وقد وصل الينا نص رسالته :

http://www.al-maktabeh.com

آحاز يتوسل بذُلٍ لتغلاتبلاصر قائلاً « أنا عبدك وابنك اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك اسرائيل القائمين عليّ » (٢ مل ١٦ : ٧).

http://www.al-maktabeh.com

اعتبراشعيا هذه اللحظة الأكثر ملاءمة على ما يبدو لتدخله في السياسة ومن جديد حصل على أوامر في هذا الخصوص من يهوه : « اخرج لملاقاة آحاز أنت وشآرياسوب ابنك الى طرف قناة البركة العليا الى سكة الحقل القصّار وقل له . . . . » (٧ : ٣ ـ ٤) لم يكتف الاله بتحديد دقيق لمكان اللقاء مع الملك بل وحدّد ما الذي يجب قوله لآحاز : لايجدر بملك يهوذا أن يخشى أعداءه لأن يهوه قد قرر مصيرهم : تخلى الأرض التي أنت خاشٍ ملكيها (٧ : ١٦) وفي مدة خمس وستين سنة ينكسر أفرايم (أي اسرائيل . المؤلف) حتى لا يكون شعباً » (٧ : ٨ ٩) ثم اقترح اشعيا على آحاز :« اطلب لنفسك آية من يهوه الهك ». ورغم رفض الملك لذلك:« لا أطلب ولا أجرب يهوه »فان اشعيا يصرُّ على موقفه : « ولكن يعطيكم يهوه نفسه آية » . إن هذا المقطع يستحق أن نورده هنا بكامله :"ها العذراء تحبل وتلد ولداً وتدعو اسمه عمانوئيل (معنا الله بالعبرية ـ المؤلف) زبداً وعسلاً يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير تُخلى الأرض التي أنت خاشٍ من ملكيها » (٧ : ١٤ ـ ١٦) ان مغزى كلمات النبي واضح بما فيه الكفاية فقد قرر اشعيا أن يشد من ازر الملك المرتعب الذي بلغ الأمر به على حد تعبير المؤلف نفسه أن « رجف قلبه وقلوب شعبه كرجفان شجر الوعر قُدام الريح » (٧ : ٢) فاشعيا يوحي لآحاز بأن الملكين نفسيهما سوف يطردان من بلديهما والمقصود طبعاً أن الملك الآشوري هو الذي سيقوم بذلك وسوف يتم كل شيء في الزمن القريب جداً بحيث أن الولد الرضيع على حد تأكيد النبي لن يتعلم كيف يميز الخير من الشر حتى يحدث كل هذا .

ويتبين فيما بعد أن إشعيا لم يكتف بالتنبؤ الكلامي فحقق بنفسه تلك الآية التي تحدث عنها قبل قليل وذلك على ما يبدو بقصد الزيادة من قوة تأثيرها على مخيلة الملك آحاز يقول إشعيا :« وأن أُشهد لنفسي شاهدين أمينين أوريا الكاهن وزكريا بن يبرخيا فاقتربت من النبية فحبلت وولدت ابناً فقال لي يهوه ادعُ اسمه مهير شلال حاش بز(أي يعجل الغنيمة يسرع النهب . المؤلف) . لأنه قبل أن يعرف

الصبي أن يدعو يا أبي و يا أمي تُحمَل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك آشور (٨ :٢ـ ٤) ذلك يعني أن النبي لم يأت فقط بمثاله عن الصبي بل وجهد أن يتعاون مع النبية (زوجته بطبيعة الحال) على انجاب طفل واقعي ولكنه أطلق عليه اسماً مغايراً لعمانوئيل ولكن فيه آية هو الآخر كما نرى .

فيما بعد استخدم المؤلفون المسيحيون الأوائل هذه الفقرة من كتاب إشعيا بمثابة نبوءة أكيدة على الحَبَل الطاهر وولادة المسيح . ففي انجيل متى وردت هذه الحكاية على لسان ملاك الرب الذي ظهر في المنام ليوسف زوج مريم مؤكداً أن « الذي حُبِل به فيها هو من الروح القدس . . . وهذا كله كان ليتم ما قيل من الرب بالنبي القائل هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا » (مت ١ : ٢٠ـ٢٢).

لقد كُتِب انجيل متى باللغة اليونانية وتم ايراد نبوءة إشعيا حول العذراء التي ستلد ابناً باللغة اليونانية أيضاً ، فضلاً عن أن مؤلف الانجيل استخدم لأجل ذلك الترجمة السبعينية للعهد القديم . ولكن أن مترجم السبعينية قد ارتكب في هذا المكان بالذات خطأ فظاً حين ترجم الكلمة العبرية(عَلْما)وتعني الصبية الشابةالى الكلمة اليونانية بارتينوس أي العذراء اذاً من الواضح أن نبي القرن الثامن قبل الميلاد إشعيا حين كان يتكلم أمام الملك آحاز لم يكن يفكر من بعيد أو من قريب لا بالحَبَل الطاهر ولا بولادة المسيح ابن الله .

لقد تنبأ إشعيا باسم الاله بسقوط مملكتي دمشق واسرائيل بعد ثلاث أو أربع سنوات (عندما سيبدأ الصبي لفظ كلماته الأولى) وبالفعل فبعد مدة قصيرة من اللقاء المذكور بين إشعيا والملك آحاز جرى احتلال مملكة دمشق واسرائيل من قبل آشور لكن ليس بالضبط في المدة التي حددها الاله على لسان النبي : سقطت دمشق عام ٧٣٢ أي بعد عامين من اللقاء المذكور في حين توقفت مملكة اسرائيل عن الوجود ليس بعد ٦٥ عاماً بل أقل بكثير في عام ٧٢٢ عندما احتلها الملك الآشوري سرغون الثاني وسبى سكانها الى ما وراء الفرات ولكن كل هذا كان يجب أن يجري في المستقبل في حين أنه عندما جرى اللقاء بين إشعيا وآحاز عام ٧٣٤ كان لدى ملك يهوذا ما يكفي من الأسس للشعور بالخوف . وفي وقت واحد مع هجوم ملكي دمشق واسرائيل من الشمال ، اجتاح الأدوميون والفلسطينيون حدود

http://www.al-maktabeh.com

يهوذا من الجنوب فاحتلوا عدداً من مدنها وقراها وقتلوا الكثيرين وسبوا الكثيرين (٢ أي ٢٨ : ١٧ـ ١٩) فقدّر آحاز الموقف الناشىء تقديراً سلبياً وفضّل عدم الركون الى الوعود المعزّية التي أطلقها نبي يهوه ـ ولو عن لسان الاله ذاته ـ وقرر التوجه كما سبقت الاشارة الى ملك آشور طلباً للمساعدة وقد كلّفته تلك المساعدة كثيراً :« فجاء عليه تلغث فلناسر ملك آشور وضايقه ولم يشدده لأن آحاز أخذ قسماً من بيت يهوه ومن بيت الملك ومن الرؤساء وأعطاه لملك آشور لكنه لم يساعده »(أي ٢٨ : ٢٠ ـ٢١). فضلاً عن ذلك أدخل آحاز عبادة الآلهة الآشورية لأجل ارضاء الملك الآشوري ، على ما يبدو ـ حتى أنه أمر باحداث اعادة تجهيز كبيرة على المنوال الأجنبي في نفس معبد يهوه في أورشليم . والمؤرخ الذي دون كل هذا يلاحظ بملامة أن الملك فعل ذلك « من أجل ملك آشور » (٢ مل ١٦ : ١٨) واضح أن آحاز لم يكن نصيراً غيوراً ليهوه . وقد كتب المؤلف بلهجة ادانة عنه :« كان آحاز ابن عشرين سنة حين ملَكَ و ملَكَ ست عشرة سنة في أورشليم ولم يفعل المستقيم في عيني يهوه كداود أبيه . . . وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبعليم . وهو قد أوقد في وادي ابن هنوم وأحرق بنيه بالنار . . . . . وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء »(٢ أي ٢٨ : ١ ـ ٤ وكذلك ٢ مل ١٦ : ٣) كانت عبادة يهوه في يهوذا قد أصبحت في خطر وترأس صفوف أنصارها النبي إشعيا فراح يبشر ويتنبأ . وقد يكون جزء من نبوءاته قد كُتِب دون أن يُلفظ أمام مستمعين . هكذا يعتقد مثلاً بعض دارسي التوراة الغربيين مثل الألماني شيدل مؤلف المجلدات الخمسة تاريخ العهد القديم ، الذي يشير الى أن لغة نبوءات إشعيا لغة متكاملة ذات وتيرة داخلية وتداعيات وجناس وسجع ، غير مميزة للكلام العادي . انها لغة تأليف كتابية وقد تكون لفافة المداخلات المكتوبة من قبل النبي هي المقصودة في (٨ : ١) و١٦ حيث يأمر الاله إشعيا : « خذلنفسك لوحاً كبيراً واكتب عليه بقلم انسان . وصرّ الشهادة اختم الشريعةبتلاميذي »[٣٦].

هل أدخل إشعيا شيئاً ما جديداً على ديانة العبرانيين القدامى ؟

لقد اكتسب النبي إشعيا تقويماً رفيعاً جداً منذ القديم كما لدى اليهود كذلك

---

(٣٦) ·iedl C. Geschichte des Alten Tlten Testaments. Innsbruck, 1964 Bd4, S.277.

لدى المسيحيين الأوائل . فبين المخطوطات القديمة للنصوص التوراتية التي اكتشفت في فلسطين عند أواسط هذا القرن قرب البحر الميت (ما يسمى بمخطوطات قمران) وجدت لفافات ومقاطع من كتاب إشعيا أكثر بكثير من أي كتاب نبوي آخر . وفي زماننا الحالي أيضاً يقدر اللاهوتيون ورجال الدين اليهود والمسيحيون إشعيا بوصفه « ظاهرة لاهوتية عظيمة واستثنائية بين كل أنبياء العهد القديم »[٣٧] ولكن كما يشير بحق الباحث أ. لودس فان أصالة اشعيا « يجب البحث عنها ليس في مجال النظرية بل في مجال الممارسة »[٣٨]

بشكل عام كانت الأفكار الدينية لدى اشعيا قليلة الاختلاف عنها لدى معاصريه وأسلافه كعاموس وهوشع . حتى أن بعض الباحثين يفترض أن اشعيا كان على معرفة شخصية بعاموس وربما كان أحد تلاميذه . ولا يوجد شيء مستحيل في ذلك اذا أخذ بالحسبان أن تقوع وهي وطن عاموس كان تبعد عن أورشليم مسافة أربع ساعات مشياً على الأقدام . هذا بينما يعتبر آخرون أن اشعيا قرأ تدوين نبوءات عاموس ، وليس صدفة أن عدة أماكن من كتاب عاموس تتكرر لدى إشعيا بطريقة تكاد تكون حرفية (قارن إش ١ : ١١ وعا ٥ : ٢٢ إش ٥ : ١١ — ١٢ ـ اش ٥ — ٩ وعا ٥ : ١١ و ٣ : ١٥). لكن من الأهم بكثير أنه يمكن العثور على الكثير من الأشياء المشتركة بين هذين النبيين في الأفكار الرئيسية وتحديداً في فكرة الاله .

فيهوه بالنسبة لإشعيا كما بالنسبة لعاموس هو بالطبع اله اسرائيل قبل غيرها اله الشعب المختار وإشعيا يسميه قدوس اسرائيل أكثر من مرة (١ : ٤ ؛ ٥ : ١٩ ، ٢٤ وغيرها). لكن سلطة يهوه تمتد الى الشعوب الأخرى والدول الأخرى حتى الى آشور ومصر . ان فكرة عاموس هذه تحصل على تطورها اللاحق لدى إشعيا : عبثاً يتفاخر الملك الآشوري المكابر بانتصاراته قائلاً :« بقدرة يدي صنعتُ وبحكمتي لأني فهيم ونقلتُ تخوم شعوب ونهبت ذخائرهم وحططت الملوك كبطل

---

(٣٧) انظر : Von Rad. Die Theologie des alten testaments. Bd4, S.158.

(٣٨) انظر : Lods A. Histore de la litterature hebraique et juive depuls les origines jusq a la ruine de l etat Iuif. (135 apres I.C), P., 1950, P.282.

http://www.al-maktabeh.com

فأصابت يدي ثروة كعشٍ . . . ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولامصفصف » (١٠ : ١٣ ـ ١٤) فآشور الجبارة في الواقع ليست أكثر من أداة في يد يهوه إنها المنفِّذة لارادة الاله « قضيب يهوه » ولذا لايجدر بالملك الآشوري أن يتباهى :« هل تفخر الفأس على القاطع بها أو يتكبر المنشار على مردِّده كأن القضيب يحرك رافعه . كأن العصا ترفع من ليس هوعوداً ». (١٠ : ١٥) والآن ينوي يهوه انزال ضربة القضيب هذا باسرائيل ويهوذا فقد أطلق يهوه حكمه عليهما .

لقاء أي ذنب ؟ لماذا ؟

ليس إشعيا شديد الفرادة في وصفه لخطايا يهوذا أمام يهوه أيضاً . فهو يكرر نفس الاتهامات التي أطلقها على اسرائيل عاموس وهوشع . ويرسم النبي لوحات ساطعة من التفسخ الأخلاقي للنخبة المسيطرة في المجتمع اليهوذي : الأغنياء والوجهاء يعيشون حياة خاملة وطفيلية ويغرقون في البذخ . إنهم يسكرون في مخادعهم الفخمة أياماً كاملة و« صباحاً يتبعون الخمر . . . في العتمة تلهيهم الخمر وصار العود والرباب والدف والناي والخمر ولائمهم » (٥ : ١١ ـ ١٢) هذا علماً أن ثرواتهم جُمعت بطريقة غير شريفة بواسطة القسر والخداع :« ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبقَ موضع فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض »(٥ : ٨) وإشعيا يفضح الحكام وأصحاب المقام لأنهم « متمردون ولُغفاء اللصوص كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل اليهم » (١ : ٢٣). ومثل عاموس لايحرم إشعيا من اهتمامه النصف النسائي من وجهاء أورشليم ـ بنات صهيون الفخورات اللواتي « يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن . . . ويخشخشن بأرجلهن ويتزيَّن بالحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والأحراز والخواتم وخزائم الأنف »(٣ : ١٤ـ ٢٢) إن عقاب يهوه لن يغفلهن لأن يهوه اله الحق والعدل (٥ : ١٦).

في هذا الوصف للظلم الاجتماعي المسيطر في البلد انعكس ولاشك الوضع الداخلي الفعلي الذي عاصره النبي ولكن اذا كنا نشعر في اتهامات نبي الرعاة عاموس بسخط صادق وغضب صادق لإنسان من سواد الشعب فان الانتقاد لدى إشعيا هو كلام عام يهدف الى شرح الأسباب الداعية لغضب يهوه على شعبه .

ولكن خلافاً لعاموس يعير إشعيا اهتماماً أكبر للخطايا ذات الطابع الديني . فغضب يهوه يثور قبل كل شيء بسبب ميل الشعب المختار الى العبادات والآلهة الغريبة الوثنية والى عبادة الأصنام لأجل ذلك رفض الاله شعبه « لأنهم امتلؤوا من المشرق وهم عائفون كالفلسطينيين ويصافحون أولاد الأجانب . . . . وامتلأت أرضهم أوثاناً يسجدون لعمل أيديهم . . . فلا تغفر لهم » (٢ : ٦ ـ ٩)

كان إشعيا يفهم طابع مسؤولية وذنب اسرائيل أمام الهها بطريقة تختلف عن طريقة عاموس وهوشع لأنه كان يتصور الاله على نحو مختلف فمنذ أول رؤيا ظهر يهوه أمام إشعيا على هيئة ملك يجلس على عرش مرتفع محاط بحشد من السيرافيم التي تمجده . فيما بعد سيؤكد إشعيا بإلحاح على هذا الطابع الملكي لسلطة يهوه . اذا كان عاموس حين تنبأ بالابادة المقبلة لاسرائيل على يد يهوه كان يرى في ذلك تجلياً للعدالة العليا من طرف يهوه الذي يتوجب عليه معاقبة شعبه بعدل طالما أن هذا الشعب أخطأ ؛ واذا كان هوشع قد صور العلاقة بين يهوه واسرائيل كعلاقة بين زوج محب وزوجة خائنة ؛ فان إشعيا يرى في العقاب الذي يجب لامحالة أن يحل بيهوذا حقاً شرعياً للملك الذي يعاقب المتمردين . اسرائيل شعب متمرد (٣٠ : ٩) ويجب أن تعاقب بقسوة وكما أن الملك الأرضي لايستطيع السماح بالابادة الشاملة لشعبه كذلك يهوه الملك السماوي لن يفني اسرائيل كلياً ، والا فَمَن الذي سوف يتعبد له ويمجده على الأرض ؟

لقد عبّر كل من عاموس وهوشع في نبوءاتهما عن الأمل في انبعاث الشعب . أما لدى إشعيا فإن هذه الفكرة مصاغة عبر ذلك الاسم الذي « فيه آية »، والذي أعطاه النبي لابنه : شآرياسوب تعني « البقية ترجع »(٧ : ٣).كان إشعيا يرى حتمية احتلال يهوذا من قبل الأشوريين . فـ « عصا يهوه » التي نزلت على دمشق واسرائيل سوف تنزل على يهوذا أيضاً لا محالة ، وقد أعلن يهوه بلسان النبي حكمه : «ويل لآشور قضيب غضبي . والعصا في يدهم هي سخطي . على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهباً ويجعلهم مدوسين كطين الأزمة » (١٠ : ٥ ـ ٦). وسيتم إفناء الكثير ، ولكن القليل سوف يبقى و« يكون . . . أن بقية اسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعودون يتوكلون أيضاً على ضاربهم بل يتوكلون على يهوه قدوس اسرائيل بالحق . ترجع البقية .

http://www.al-maktabeh.com

بقية يعقوب إلى الله القدير » (١٠ : ٢٠ — ٢١) (« يتوكلون على ضاربهم» ـ تلميح واضح إلى الملك آحاز الذي طلب مساعدة الملك الأشوري . المؤلف) .

عندئذ ، سيقع غضب يهوه على الذين كانوا قبل حين مجرد منفّذين لارادته ، أي على الآشوريين ، وسوف يسقط عن اسرائيل النير الذي كان يضايقها وسيطهّر يهوه « بقية اسرائيل » من الرجس والاثم وستحل بالنسبة لها مملكة السلام والرخاء . سوف يشبع اليهوذيون وستصبح أورشليم مدينة الحق وسوف ينصّب فيها يهوه ـ كما في الزمن السابق ـ القضاة والمستشارين الذين سيحكمون بالحق (١ : ٢٥ — ٢٦).

يصعب القول إلى أي مدى كان إشعيا ذاته يؤمن بما كان يبشّر به ، لكنه ـ في نشاطه السياسي ـ كان ينطلق من الفكرة الرئيسة الموجودة في نبوءاته : على اسرائيل أن تؤمن فقط بإلهها وتعتمد عليه فقط ، دون التفاؤل بمعونة آشور أو مصر أو غيرهما من الشعوب الوثنية وعدم الدخول في أية تحالفات وائتلافات . إن يهوه ضد ذلك ، وباسمه يتوعد النبي قائلاً : « ويل للبنين المتمردين . . . يجرون رأياً وليس مني ويسكبون سكيباً وليس بروحي ليزيدوا خطيئة على خطيئة » نلمس صدى تجربة مريرة . ففي أول لقاء له مع آحاز عبّر إشعيا عن عدم رضاه إزاء طلب الملك للمساعدة من ملك آشور . طبيعي أن إشعيا وآحاز كانا يعرفان أنه حين تزيل آشور مملكتي دمشق واسرائيل من طريقها ، ستجد يهوذا نفسها وجهاً لوجه أمام العدو الرهيب . ولكن إشعيا يرى خطراً حقيقياً على عبادة يهوه في ذلك الاجراء الذي اعتبره آحاز الامكانية الوحيدة لتأجيل احتلال بلده من قبل الأعداء والاستمرار في الجلوس على العرش ولو لوقت ما . وهذا ما حدث فعلاً : بعد ستة عشر عاماً من الحكم مات آحاز موتاً طبيعياً وهو ملك (عام 715) وانتقل العرش من بعده إلى ابنه حزقيا . ورغم أن يهوذا فقدت جزءاً من أراضيها ، فقد حافظت على نوع من الاستقلالية . أما النبي إشعيا فقيض له أن يرى بأم عينيه كيف أن آحاز ، ملك يهوذا ، « ذبح لآلهة دمشق الذين ضاربوه وقال الآن آلهة ملوك آرام تساعدهم أنا أذبح لهم فيساعدونني . . . وجمع آحاز آنية بين الله . . . وأغلق أبواب بيت يهوه وعمل لنفسه مذابح في كل زاوية في أورشليم » (٢أي ٢٨ : ٢٣ — ٢٤) . حتى أن آحاز غيّر « رواق السبت الذي بنوه في البيت ومدخل

الملك من خارج . . . من جل ملك آشور » (٢مل ١٦ : ١٨).

من المستبعد أن يكون موت آحاز قد أحزن إشعيا ، بل أغلب الظن أنه حدث العكس . فقد ألّف النبي حالاً أغنية حماس على شرف اعتلاء الملك الجديد للعرش ، إذ كان النبي يأمل أن يحقق خططه على عهد هذا الملك . وقد وصلنا جزء من ذلك النشيد ضمن كتاب إشعيا : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه (كان اعتلاء الملك الجديد للعرش يعتبر بمثابة ولادته الثانية . المؤلف) ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام .لنمو رياسته وللسلام لانهاية على كرسي داؤود ، وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد . غيره يهوه رب الجنود تصنع هذا » (٩: ٦-٧). لقد رسم النبي في هذا النشيد صورة الملك المثالي ، بالطبع ، ولكن ربما كان عبر هذا النشيد بالذات اجتذب اهتمام حزقيا المتوّج ، فتم تقريب إشعيا من البلاط . على أية حال ، اشتد تأثير إشعيا على الملك وحاشيته ، بشكل حاد ، في السنوات التالية ، حتى أصبح بمقدوره أن يزيح من أعلى المناصب ويعيّن فيها أصحاب المقام ، بحكم سلطته هو . وقد حفظ لنا كتاب إشعيا ذكريات عن هكذا حادث : « هكذا قال يهوه رب الجنود . اذهب ادخل إلى هذا جليس الملك إلى شبنا الذي على البيت . ما لك ههنا ومن لك هاهنا حتى نقرت لنفسك ههنا قبراً أيها الناقر في العلو قبره الناحت لنفسه في الصخر مسكناً . هوذا يهوه يطرحك طرحاً يا رجل ويغطيك تغطية . . . ويكون . . . أني أدعو عبدي الياقيم بن حلقيا وألبسه ثوبك وأشده بمنطقتك وأجعل سلطانك في يده فيكون أباً لسكان أورشليم ولبيت يهوذا » (٢٢ : ١٥ -٢١)، بعد هذا تم عزل شبنا وتعيين الياقيم في منصبه . لكن إشعيا كان يستخدم تأثيره على الملك ليس فقط لأجل تعيين أشخاص يرضى عنهم في المناصب العليا . لاشك أنه تحت تأثير إشعيا أصبح حزقيا بالذات مناصراً غيوراً لعبادة يهوه ونظم ملاحقة عنيفة لعبادة الآلهة الأخرى . فوفقاً لشهادة المؤرخ فتح حزقيا ـ في السنة الأولى بالذات من توليه العرش ـ معبد أورشليم الذي أغلق على أيام آحاز ، والذي تم تنظيفه من « كل النجاسة » . ويعد انقطاع طويل تجدّد فيه تقريب الذبائح وإيقاد البخور وترديد « نشيد يهوه » على أنغام الأبواق المقدسة والآلات الموسيقية الأخرى (٢أي٢٩) . كان حزقيا يصنع « المستقيم في عيني

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يهوه ... هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري » (٢مل ١٨ : ٤—٦)·لقد انتصر أنبياء يهوه ، برئاسة إشعيا ، ولكن انتصارهم كان مؤقتاً كما بيّن المستقبل . فسرعان ماعاد الوضع في يهوذا ليتعقّد .

في تلك السنوات ، كان يحكم في مملكة اسرائيل الملك هوشع ، الذي توقف عن دفع الجزية للملك الآشوري ودخل في تحالف مع مصر ، فاجتاحت الجيوش الآشورية فوراً حدود اسرائيل وحوصرت عاصمة اسرائيل السامرة . لم تقدم مصر العون لحليفها وتابعها ، فاقتحم الملك الآشوري سرغون الثاني مدينة السامرة عام 723 ، وتوقفت مملكة اسرائيل عن الوجود .

كيف انعكست هذه الأحداث على يهوذا ؟ وماذا كان موقف النبي إشعيا منها ؟ إن إشعيا أصرّ ، كما في السابق ، على موقفه : لا يتوجب على حكام يهوذا الاشتراك في الصراع ضد آشور ، بأي حال من الأحوال ، ولا يجب عليهم الدخول في أية أحلاف ضدها ، فالعون والخلاص سيأتيان ليهوذا فقط من الاله وليس من الناس .

لكنه يبدو أن الدوائر الحاكمة في يهوذا ، بمن فيها الملك حزقيا (ورغم اعترافها بالموهبة النبوية لإشعيا وبهيبته في مجال الدين ورغم الحرص على بعث عبادة يهوه). كانت تفضّل الاعتماد في مسائل السياسة على عقلها الخاص والتصرف وفقاً للرأي الخاص .

في تلك السنوات كانت تحالفات الدويلات الصغيرة تنشأ الواحد تلو الآخر في سوريا الوسطى وفلسطين ، بقصد السعي للتصدي لآشور الجبارة وأملاً في مساعدة مصر . في إحدى المرات ، شاهد سكان أورشليم مشهداً غريباً في شوارع المدينة ، فقد ظهر النبي إشعيا في الشوارع عارياً حافياً . وتبين أنه فعل ذلك بأمر من يهوه ، وكانت تلك واحدة من « الآيات »: « في ذلك الوقت تكلم يهوه عن يد إشعيا بن آموص قائلاً . اذهب وحلّ المسح عن حقويك واخلع حذاءك عن رجليك . ففعل هكذا ... فقال يهوه كما مشى عبدي إشعيا معرّى وحافياً ثلاث سنين آيةً وأعجوبةً على مصر وعلى كوش ، هكذا يسوق ملك آشور سبي مصر وجلاء كوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة ومكشوفي الأستاه خزياً لمصر . فيرتاعون ويخجلون ... ويقول ساكن هذا الساحل في ذلك اليوم هوذا هكذا ملجأنا الذي

هربنا إليه للمعونة لننجو من ملك آشور فكيف نسلم نحن »(٢٠ : ٢-٦) . وأغلب الظن أنه بتأثير من إشعيا بالذات لم يشترك حزقيا في التحالف الجديد الذي تزعمته المدينة الفلسطينية أشدود ، وفي ربيع عام 711 ، دفع الملك الأشوري سرغون الثاني بجيوشه نحو سوريا ، وبلا جهد دمر الحلفاء ، فتم احتلال مدينة أشدود بعد حصار ، وتم سبي كل سكانها(٢٠ : ١)، لكن يهوذا تجنب مثل ذلك المصير ولو مؤقتاً .

مرت ستة أعوام أخرى . في عام 705 مات الملك الأشوري سرغون الثاني . ومن جديد حاولت دول سوريا وفلسطين أن تخلع عن أكتافها النير الأشوري بمساعدة مصر . وجاءت بعثة رسل من قبل الحلفاء إلى أورشليم بقصد إدخال يهوذا أيضاً في هذا الصراع . ومن جديد وقف إشعيا ضد هذه السياسة . لكن ، في هذه المرة ، رفض الملك ومستشاروه بعجرفة أن يتبعوا توجيهات النبي ، وتم صده بشكل حاد : « لمن يعلّم معرفةً ولمن يفهم تعليماً . اللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي (٢٨ : ٩).

في عام 703 يرسل حزقيا بعثة رسل إلى مصر ويعقد معها تحالفاً ضد آشور ، دخلت فيه عدة مدن ـ دويلات سورية وفينيقية وفلسطينية . ومن جديد يستخدم إشعيا التهديد باسم يهوه : « فيصير لكم حصن فرعون خجلاً والاحتماء بظل مصر خزياً . . . فإن مصر تعين باطلاً وعبثاً لذلك دعوتها رهب الجلوس » (٣٠ : ٣-٧).يبدو أن « رؤساء الشعب »، كما يسميهم إشعيا ، كانوا يطالبون النبي وتلاميذه بأن يتوقفوا عن تهييج الشعب بتبشيرهم ، ويبدو أن جزءً من أنبياء يهوه قد انتقل إلى طرفهم . فإشعيا يمتعض من أولئك الذين « يقولون للرائين لا تروا وللناظرين لا تنظروا لنا مستقيمات . كلمونا بالناعمات انظروا مخادعات . حيدوا عن الطريق ميلوا عن السبيل اعزلوا من أمامنا قدوس اسرائيل » (٣٠ : ١٠-١١).فهؤلاء الناس قد أصيبوا بالعمى هم وأعموا الآخرين . وأما أنبياؤهم فلا ينفعون وعاجزون عن قراءة المستقبل : « لأن يهوه قد سكب عليكم روح سبات وأغمض عيونكم . الأنبياء ورؤساكم الناظرون غطاهم . وصارت لكم الرؤيا مثل السفر المختوم . . . »(٢٩ : ٩-١١) .أما في الواقع فقد أصدر يهوه حكمه على يهوذا : « سمعت فناءً قضي به من قبل يهوه رب الجنود على كل

http://www.al-maktabeh.com

الأرض»(٢٨ : ٢٢) .

في عام 701 قام سنحريب ، الذي خلف سرغون الثاني على العرش الأشوري ، باقتحام سوريا ، فاحتل صيدا وسائر المدن الفينيقية ، باستثناء صور ، وحطمها . واعترفت بسلطة آشور أقرب جارات يهوذا : عمون وموآب وإدوم . كما احتلت مدينة عسقلان بعد حصار . لكن سنحريب واجه مقاومة قوية في يهوذا ، فامتد حصار مدينة لخيش المحصنة وكانت أورشليم تستعد للحصار ، حيث جرى تحصين جدران المدينة وبني جدار ثان واستكملت احتياطيات السلاح والغذاء . وكان يمكن عدم التخوف من نقص الماء فقد كانت هنالك ينابيع قوية داخل أورشليم . ويبدو أن سنحريب قدّر صعوبة الحصار فحاول التوصل إلى إخضاع المدينة عبر المفاوضات ، وقرر ، أثناء حصاره لمدينة لخيش ، أن يرسل ـ لأجل هذه الغاية ـ مسؤولاً عسكرياً كبيراً (ربشاقي) إلى أورشليم ومعه حاشية كاملة . وقف الرسل الأشوريون تحت جدار المدينة وخرج إليهم مفوضون من قبل حزقيا . وتصوير مشهد المباحثات رائع من حيث طابعه الحياتي (إش٢ ، ٣٦مل٢ ، ١٨أي٢٣٢ه).

الرسل الأشوريون يتكلمون خصيصاً باللغة اليهوذية وبصوت عال لكي يتمكن من سماعهم السكان الذين تحلقوا خلف جدار المدينة . علام يعوّل حزقيا واليهوذيون عند اعلان الحرب على الملك الأشوري ؟ هل يعوّل على مصر ؟ على « هذه القصبة المرضوضة على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها . هكذا فرعون ملك مصر لجميع المتوكلين عليه . وإذا قلت لي . على يهوه إلهنا اتكلنا . أفليس هو الذي أزال حزقيا مرتفعاته ومذابحه وقال ليهوذا ولأورشليم أمام هذا المذبح تسجدون . . . والآن هل بدون يهوه صعدت على هذه الأرض لأخربها . يهوه قال لي اصعد إلى هذه الأرض وأخربها ». وعندما يلاحظ ممثلو يهوذا كيف يستمع مواطنوهم بانتباه إلى كلام الأشوري ، يطلبون إلى ربشاقي : « كلّم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه ولا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذين على السور . فقال ربشاقي هل إلى سيدك واليك أرسلني سيدي لأتكلم بهذا الكلام . أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذرتهم ويشربوا بولهم معكم . ثم وقف ربشاقي ونادى بصوت عظيم باليهودي وقال .

http://www.al-maktabeh.com

اسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور . . . لا يخدعكم حزقيا ولا يجعلكم . . . تتكلون . . . قائلاً انقاذاً ينقذنا يهوه . . . لأنه هكذا يقول ملك آشور . اعقدوا صلحاً معي واخرجوا إليّ وكلوا كل واحد من جفنته . . . حتى آتي وآخذكم إلى أرض مثل أرضكم . . . فسكتوا ولم يجيبوا بكلمة لأن أمر الملك كان قائلاً لا تجيبوه ».

عندئذ أحس حزقيا بخوف حقيقي . وفي حالة الهلع أرسل مستشاريه إلى إشعيا لكي يصلي النبي ليهوه ، « لعل يهوه إلهك يسمع كلام ربشاقي الذي أرسله ملك آشور سيده ليعير الاله الحي فيوبخ على الكلام الذي سمعه يهوه إلهك ». ما الذي كان يمكن أن يجيب به إشعيا على طلب الملك في الوضع الناشىء ؟ لم يكن لديه ثمة خيار . فأن ينصح باسم الاله بقبول شروط الملك الآشوري فذلك يعني الموافقة الطوعية على سبي الشعب إلى أرض غريبة بعيدة ، حيث سيضطر للسجود لآلهة غريبة ولخدمة ملك غريب . وبالنسبة لكلّ من النبي والملك أيضاً يمكن أن ينتهي الأمر بالموت الأليم أو بالعبودية .

في هذه اللحظة كان يقف أمام النبي هدف واحد فقط : تشجيع الملك والرفع من روح الشعب ومناشدة سكان أورشليم أن يقفوا صامدين لحماية مدينتهم وأن يؤمنوا بأن يهوه سيتدخل لا محالة ، فيطلق إشعيا نبوءة جديدة : « كما يهرّ فوق فريسته الأسد والشبل الذي يدعى عليه جماعة من الرعاة وهو لا يرتاع من صوتهم ولا يتذلل لجمهورهم هكذا ينزل يهوه رب الجنود للمحاربة عن جبل صهيون . . . كطيور مرفّة هكذا يحامي يهوه رب الجنود عن أورشليم يحامي فينقذ يعفو فينجي . ارجعوا إلى الذي ارتدّ بنو اسرائيل عنه متعمقين . . . ويسقط آشور بسيف غير رجل وسيف غير انسان . . . »(٣١ : ٤—٨) ولكن إشعيا ـ حسب زعم النص ـ أجاب رسل الملك على نحو آخر : « هكذا تقولون لسيدكم . هكذا يقول يهوه . لا تخف بسبب الكلام الذي سمعته الذي جدّف عليّ به غلمان ملك آشور . هاأنذا أجعل فيه روحاً فيسمع خبراً ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف في أرضه . . . لا يدخل هذه المدينة ولا يرمي هناك سهماً . . . ولا يقيم عليها مترسة . في الطريق الذي جاء فيه يرجع . . . »(٣٧ : ٦—٧ ، ٣٣—٣٤) هذا الكلام حول « الخبر » الذي سيسمعه سنحريب وحول عودته إلى الوطن وحول

http://www.al-maktabeh.com

موته بالسيف ، هو ـ دونما شك ـ إضافةٌ متأخرة . فقد عاد سنخريب فعلاً الى آشور دون أن يبدأ حصار أورشليم و سقط ضحية إنقلاب في البلاط ، إذ قُتِل بأمر ابنه أسرحدون الذي استولى على العرش بعد ذلك . ولكن كل هذا حدث بعد المباحثات التي يتم وصفها تحت جدار أورشليم بزمن طويل : مات سنخريب بعد عشرين سنة من حملته ضد يهوه ، في عام ٦٨١ قبل الميلاد ، ولم يكن بوسع إشعيا أن يعرف ذلك .

ثمة هنالك عدة مصادر للمعلومات المتعلقة بما حدث : تسجيل آشوري للملك سنحريب وثلاثة مقاطع في كتاب الملوك الثاني ، وهي منقولة جزئياً الى كتاب إشعيا .

وفقاً لكتاب الملوك الثاني (١٨ : ١٤ — ١٦)، بعد أن اجتاح جيش سنحريب أراضي يهوذا و احتل الكثير من المدن المحصنة و بدأ حصار الجيش ، تلقى الملك سنحريب من ملك يهوذا رسالة ذليلة : « قد أخطأتُ . ارجع عني ومهما جعلت علي حملتُه »، فطلب سنحريب من حزقيا ثلاثمئة وزنة فضية و ثلاثين وزنة ذهباً . و قدم حزقيا المبلغ ، مع انه اضطر لأجل ذلك ليس فقط أن يُفرغ خزينته و خزينة معبد أورشليم ، بل و أن يخلع القشرة الذهبية عن أبواب المعبد و أعمدته .

وفقاً للرواية الثانية ، سمع سنحريب « عن ترهاقة ملك كوش قولاً قد خرج ليحاربك » (٢ مل ١٩ : ٨ — ٩)، وقد خرج ترهاقة ، الفرعون المصري من سلالة حبشية (كوش = الحبشة) للقاء العدو الاشوري ، مما اضطر سنحريب لأن يعود الى آشور .

ثمة ما يشبه اللغز في المقطع الثالث (٢ مل ١٩ : ٣٥ — ٣٦ ؛ إش ٣٧ : ٣٦ — ٣٧). بعد أن استلم حزقيا رسالة تهديد من الملك الآشوري ، قراها و ذهب الى معبد يهوه و معه هذه الرسالة « و نشرها حزقيا أمام يهوه »، ليتمكن الاله نفسه من قراءة رسالة الآشوري ، وراح حزقيا يطلب مساعدة يهوه ، فأرسل الاله ملاكه : « نخرج ملاك يهوه و ضرب من جيش آشور مئة و خمسة و ثمانين ألفاً . فلما بكروا صباحاً اذا هم جميعاً جثث ميتة . فانصرف سنحريب ملك آشور و ذهب راجعاً و أقام في نينوى ».

http://www.al-maktabeh.com

وأخيراً ، يعلن سنحريب في التسجيل الآشوري أنه اجتاح مملكة يهوذا و أخضع ٤٦ مدينة و سبى ٢٠٠١٥٠ انساناً و غنم غنيمة كبيرة ، و« أغلق حزقيا في عاصمته كما الطير في القفص » و أن حزقيا قد دفع له جزية : ٣٠٠ وزنة ذهب و ٨٠٠ وزنة فضة و أعطاه كنوزه الخاصة و الكثير من النساء و البنات ، من الموسيقيين رجالاً و نساء[٣٩].

إن الشهادة الأخيرة تتطابق بشكل جيد مع الشهادة اليهوذية الأولى . وقد يكون الاختلاف قابلاً للتفسير على أن إحدى الجبهتين تحاول إبراز رقم أصغر و الأخرى إبراز رقم أكبر ، و ذلك لاعتبارات تتعلق بالهيبة .

يبدو أن حصار أورشليم قد جرى ، و يمكن أن يكون لحكاية الملاك تفسير عقلاني : فوباء الطاعون أباد جزءاً بالغاً من جيش سنحريب ، و كل هذا أجبر سنحريب على تجنُّب الصدام مع مصر و التراجع .

من المحتمل أن ذهاب سنحريب المفاجىء من يهوذا و كذلك خلاص أورشليم من المصير الأليم الذي أصاب السامرة قد بدا للكثيرين بمثابة معجزة حقيقية . لكن يهوذا خرجت من الصراع مهزومة ، حيث تم اقتطاع أراض منها . فقد أعطى الملك الآشوري سنحريب أراضي يهوذا الغربية التي احتلها الى المدينتين الفلسطينيتين اشدود و عقرون ، اللتين صانتا الولاء لآشور . و فقدت يهوذا جزءاً هاماً من سكانها ، سُبي بعيداً نحو الشرق ، وقد اعترف الملك اليهوذي حزقيا فعلياً بكونه تابعاًو ملحقاً لملك آشور .

هنالك نبوءتان على الأقل ، لدى إشعيا ، تعودان الى ذلك الزمن ، إحداهما (٢٢ : ١ — ١٤) و الأخرى يبدأ بها كتاب إشعيا .

من جديد يرفع النبي العجوز صوته ضد الذين يفرحون بخلاصهم من أيدي الملك الآشوري ، غاضين النظر عن أن البلد منهوب و مدنه محروقة و محاصيل الحقول يأكلها الغرباء ، و البلد كله يشبه مدينة محاصرة و كل يوم يمكن توقُّع هجوم جديد من العدو . أما هم فيلهون :« لنأكل و نشرب لأننا غداً نموت »(٢٢ : ١٣). لم يغفر لهم بعدُ يهوه خطاياهم السابقة و لكنهم مسرعون

---

(٣٩) Galling K. Textbuch zur Geschichte Israels. Tubingen, 1950, S. 57–58.

http://www.al-maktabeh.com

لارتكاب خطايا جديدة . و يؤكد النبي ، في النبوءة الأخرى ، كيف تجنّب أورشليم مصير سدوم و عمورة : « لولا أن يهوه رب الجنود أبقى لنا بقيةً صغيرة لصرنا مثل سدوم و شابهنا عمورة »(١ : ٩). إن وجهاء أورشليم ، « قضاة سدوم » هؤلاء ، لا يتوقفون عن تقريب الذبائح بلا نهاية للاله و يستمرون في ارتكاب التجاوزات و قهر الفقراء . لكن يهوه لا يحتاج الى ذبائحهم : « لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول يهوه . أُتخمتُ من محرقات كباشٍ و شحم مسمّنات . . . البخور هو مكرهة لي . . . فحين تبسطون أيديكم أستُر عينيَّ عنكم و ان كثرتم الصلوة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً »(١ : ١١ — ١٤). و مرة أخرى يكرر النبي عن لسان الاله : « . . . . كفّوا عن فعل الشر تعلموا فعل الخير اطلبوا الحق انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة » (١ : ١٦ — ١٧) و عندئذٍ سيغفر الاله لشعبه خطاياه . و لكن اذا كان هؤلاء اللاشرفاء و المتجاوزون سيصرون على سلوكهم ، فإن يهوه سيُنزِل بهم السيف و الموت من جديد وسوف يبادون حيث سيطهر يهوه شعبه كما يتم تنقية الذهب من الشوائب . وعندئذ سيتكلم الناس من جديد عن أورشليم بوصفها مدينة الحق ، التي سوف ينصب يهوه فيها القضاة ، كما في السابق ، و المستشارين « كما في البداءة » (١ : ٢٦) و « صهيون تُفدى بالحق و تائبوها بالبر » (١ : ٢٧). و في هذه الكلمات الأخيرة ينحصر ، من حيث الجوهر ، تبرير الاله كما يطرحه إشعيا : الاله يتصرف مع شعبه كما يتصرف الملك مع رعيته ، أي بعدل و حق ، حيث يعاقب الخونة و المتجاوزين فينظف منهم شعبه و يحذر الباقين « ان شئتم و سمعتم تأكلون خير الأرض »(١ : ١٩).

في ظل الظروف الاجتماعية الناشئة كانت الايديولوجيا الدينية هي التي تتطلب تبرير الاله . فضلاً عن ذلك كانت نبوءات إشعيا تتضمن الشيء الذي كانت ولا زالت تحتاجه جماهير الشعب المظلومة و المتألمة ، أي العزاء لقد كانت تعزيهم أقوال النبي حول أن العقاب الصارم من قبل الاله يهوه سينزل ليس فقط على آشور ، بل وعلى معذّبيهم الأغنياء و الوجهاء من بني قومهم ، و حول أن « قضاة سدوم » بالنسبة له ، أي ليهوه ، ليسوا أكثر من طينة بين يدي الفاخوري .

كان المضهَدون يريدون أن يؤمنوا بأن الاله سينتقم انتقاماً عادلاً من الأغنياء و الوجهاء المتجاوزين و سوف يبيدهم . أمّا هم ، الناس العاديون ، غير الآثمين فبامكانهم أن يأملوا في تجنُّب الكارثة و البقاء على قيد الحياة ، في أن يكونوا تلك « البقية التي ترجع » و أن يتذوقوا خيرات الأرض في « مملكة السلام و الحق ». ألم يعدهم النبي عن لسان يهوه بأن غضب الاله سيحل قريباً : « بعد قليل جداً يتم السخط و غضبي في إبادتهم »(١٠ : ٢٥)؟ هذا يعني أنه يوجد ـ رغم كل شيء ـ أمل في الخلاص و في حياة أفضل لأجل الانسان الفقير و الضعيف .

ربما كان إشعيا ، خلال فترة زمنية ما ، يعلق آماله في بعث اسرائيل على مجيء الملك الجديد حزقيا الى السلطة . و الواقع ، كما صرنا نعرف ، لم يبرر تلك الآمال . ففي عهد حزقيا أيضاً استمر الأغنياء و الوجهاء في تجاوزاتهم و قسرهم للشعب الفقير ، و كانت تتضح أكثر فأكثر حتمية الغزو الآشوري . ورغم ذلك لم يكن بوسع النبي أن يتخلى عن إيمانه بخلاص و انبعاث شعبه ، مما جعله يؤجل الأمر الى أجل غير محدد : عاجلاً أم آجلاً سيمر غضب يهوه ، وكما ينبت الفرع من ساق البلوطة المقطوعة ، كذلك سوف تنبعث اسرائيل لأجل حياة سعيدة من « البقية التي ترجع »، من ذلك « الزرع المقدس » (٦ : ١٣).

متى سيحدث كل هذا ؟ « في آخر الأيام »! (٢ : ٢). وفي الترجمة اليونانية لكتاب إشعيا ، تم نقل كلمة « آخر » الى الكلمة اليونانية « إسخاتا »، و يمكن القول أن « الاسخاتولوجيا » قد بدأت من عاموس و إشعيا . لقد صادفنا تعابير « يوم يهوه » و « ذلك اليوم » في كتاب عاموس سابقاً ، عند وصف اليوم الرهيب الذي سوف يتحقق فيه حكم يهوه بحق اسرائيل الخاطئة (٥ : ١٨ ؛ ٨ : ٩). هذا اليوم سوف يكون آخر يوم ، يوم نهاية العالم القديم . ولكن يوم يهوه سيكون أيضاً بداية الرجوع و انبعاث اسرائيل ، حيث سيعيد الاله رأفته الى « شعبه المختار » و سيمنح مطراً غزيراً على حقوله . أما « خبز غلة الأرض فيكون دسماً و سميناً و ترعى ماشيتك في ذلك اليوم في مرعى واسع . و الأبقار و الحمير التي تعمل الأرض تأكل علفاً مملحاً مذرّى بالمنسف و المذراة » (٣٠ : ٢٣ — ٢٤) و « يكون في ذلك اليوم أن الانسان يربيٍّ عجلة بقر و شاتين . و يكون أنه من كثرة صنعها اللبن يأكل زبداً فإن كل من أُبقي في الأرض يأكل زبداً و عسلاً » (٧ :

http://www.almaktabeh.com

٢١ — ٢٢). كما نرى فإن طموحات إشعيا كانت متواضعة جداً ، و كان مثَله الأعلى يقع في الماضي ، في الماضي البطريركي الذي تُضفي عليه صفة مثالية . و ذلك ما يفسر جزئياً أن بعض المداخلات أصبحت لاحقاً تُنسَب الى هذا النبي القديم ، في حين بقي مؤلفوها مجهولين ، و هي تصور المستقبل بألوان أكثر سطوعاً و بصور تحمل طابعاً شمولياً و ليس قومياً .

يصور لنا الاصحاح الثاني ، في أحد مقاطعه ، إحدى الصور الإسخاتولوجية هكذا : « و يكون في آخر الأيام أن جبل بيت يهوه يكون ثابتاً في راس الجبال و يرتفع فوق التلال و تجري اليه كل الأمم . و تسير شعوب كثيرة و يقولون هلم نصعد الى جبل يهوه الى بيت اله يعقوب فيعلمنا من طرقه و نسلك في سبله .... فيقضي بين الأمم و ينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككاً و رماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفاً و لا يتعلمون الحرب فيما بعد » (٢ : ٢ — ٤).

في هذه النبوءة يطلق الحكم على الشعوب يهوه ذاته ، بينما نجد يهوه في المداخلات الأخرى يوكل مهمة القضاء و إقامة مملكة السلام و الحق على الأرض الى شخص آخر هو « ممسوحه »، رسوله .

من الصعب القول متى بالضبط وُلِدتْ لدى العبرانيين فكرة « الممسوح »، وهو رسول من نوع خاص يختاره و يرسله الاله لتنفيذ رسالة خاصة هي انقاذ « الشعب المختار ». و لكن لأول مرة نلتقي بهذه الشخصية الخيالية في كتاب إشعيا .

في الاصحاح الحادي عشر مداخلة مشكوك في تأليفها . فهي قد تعود لإشعيا أو لنبي متأخر ، حيث تنبئنا عن ولادة « قضيب من جذع يسّى »، أي سليل داوّود الملك ، « يحل عليه روح يهوه روح الحكمة و المشورة و القوة روح المعرفة و مخافة يهوه ». و سيكون حاكم حق على الأرض « يقضي بالعدل للمساكين و يحكم بالانصاف لبائسي الأرض و يضرب الأرض بقضيب فمه و يميت المنافق بنفخة شفتيه » و سيختفي الشر عن وجه الأرض . و ليس فقط البشر ، بل الحيوانات أيضاً لا تعود تسبب الأذى لبعضها البعض : « فيسكن الذئب مع الخروف و يربض النمر مع الجدي و العجل و الشبل و المسمن معاً و صبي صغير

http://www.al-maktabeh.com

يسوقها . و البقرة و الدبة ترعيان . تربض أولادهما معاً و الأسد كالبقر يأكل تبناً . و يلعب الرضيع على سَرَب الصل و يمد الفطيم يده على حجر الأفعوان . لا يسوؤون و لا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلىء من معرفة يهوه كما تغطي المياه البحر » (١١ : ١ — ٩).

لقد كان كل نشاط إشعيا ، كنبي و كرجل سياسة ، موجهاً نحو أكثر المشاكل المعاصرة له حدة و حيوية . و اذا كان إشعيا يؤمن صادقاً بعدالة و قدسية و عظمة يهوه ، فيجب الافتراض أنه كان يطمح بصدق مماثل ، الى أن يوضح لنفسه و لشعبه دور الاله في التنبؤ بالكارثة التي تحدق يوماً بعد يوم ، و أن يشرح بذلك لشعب يهوذا كيف عليه ألا يفقد الايمان بجبروت و عدالة إلهه و ألا يتهمه بالضعف أو اللامبالاة و ألا يخونه لأجل الآلهة الغريبة ـ و كأنها أكثر قوة من يهوه ـ كما فعل ذلك الملك آحاز . و ربما كان النبي يؤمن بصدق أيضاً بأن تلك رسالته هو التي أوكلها الاله إليه . هل كان إشعيا يدرك كل الصعوبة ، لا بل الفشل الذي ينتظر رسالته ؟ يبدو أنه كان يدركها ، إذْ أن يهوه منذ الرؤيا الأولى « حذّره » قائلاً : « غلّظ قلب هذا الشعب وثقّل أذنيه وأطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى (٦ : ١٠). لكن الايحاء الذاتي والايحاء كانا دائماً يلعبان دوراً كبيراً ، وكذلك العامل العاطفي . وكلام إشعيا مشبع عاطفياً إلى أبعد حد وأحياناً فإن الحس فيه يحل محل المنطق ويمزق اتساق الفكرة . ربما هنا بالذات ، في موهبة إشعيا كخطيب وكاتب ، يكمن سر التأثير الذي مارسه هذا النبي على الأجيال اللاحقة من الأنبياء وعلى محرري العهد القديم ، يكمن أيضاً تفسير الطموح الذي أبداه البعض لتقليد أسلوب إشعيا بوضوح متخلياً عن شهرة التأليف ، ناسباً إنتاجه إلى النبي القديم .

النبي ميخا :

في نفس زمن إشعيا تقريباً ، كان هنالك نبي آخر يبشر في يهوذا ودخلت أحاديثه في قوام العهد القديم ، إنه النبي ميخا ، وهو ـ بالمناسبة ـ النبي الوحيد الذي يأتي على ذكره كتاب آخر من كتب الأنبياء . ففي كتاب إرميا (الذي يعود إلى زمن يحق) ورد أن الملك يهوياقيم غضب من النبي إرميا لأنه تنبأ بحتمية احتلال أورشليم من قبل ملك بابل فأمر باعدام إرميا . وعندئذ « قام أناس من شيوخ

http://www.al-maktabeh.com

الأرض وكلموا كل جماعة الأرض قائلين إن ميخا المورشتي تنبأ في أيام حزقيا ملك يهوذا وكلّم كل شعب يهوذا قائلاً هكذا قال يهوه رب الجنود صهيون تفلح كحقل وتصير أورشليم حرباً وجبل البيت شوامخ وعر . هل قتلاً قتله حزقيا ملك يهوذا وكل يهوذا . ألم يخف يهوه . . . » (إر٢٦: ١٧-١٩).

لقد وقع المشهد الذي يصفه كتاب إرميا عام 609 قبل الميلاد ، ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن اسم النبي ميخا كان لازال يذكر في نهاية القرن السابع ، رغم أنه عاش قبل ذلك بحوالي قرن ، فضلاً عن أن نبوءاته كانت معروفة للكثيرين ـ بشكل مكتوب طبعاً ـ حيث أن « الشيوخ » في كتاب إرميا أوردوا مقطعاً من نبوءة ميخا بحرفيته ، كما هو وارد في كتاب ميخا الذي وصل إلينا (٣: ١٢).

تتضمن بداية الكتاب معلومات إضافية عن هذا النبي : « قول يهوه الذي صار إلى ميخا المورشتي في أيام يوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا الذي رآه على السامرة وأورشليم »(١ : ١). هذه ، على الأرجح إضافة متأخرة من قبل المحرر أو الناسخ ، وهي تعلمنا بأن ميخا عاش على عهد الملوك الثلاثة الذين عاش في زمانهم إشعيا ، أي ما بين عامي 790 و 750 قبل الميلاد وأن ميخا بالأصل من مورشت وهي بلدة صغيرة في جنوب غرب يهوذا قرب مدينة كبيرة هي لخيش . كانت هذه المناطق تعاني كثيراً من هجمات الأقوام المجاورة ، وعانت خصوصاً أيام حملة سنحريب على فلسطين ، حيث تم احتلالها ونهبها وسبي جزء هام من سكانها . بالتالي كان ميخا « ريفياً » على خلاف ابن العاصمة إشعيا ، وربما هذا هو الأمر الذي جعله يعتبر أورشليم مركز الخطايا(١ : ٥، ٣ : ١٠)ويتنبأ بأن أورشليم ستحال إلى كومة أنقاض ، بينما إشعيا ، على العكس من ذلك ، كان يتنبأ بأن أورشليم ستبقى بمثابة « مدينة العدل القرية الأمينة » (اش١ : ٢٦) .

في كتاب ميخا 7 إصحاحات نقرأ فيها ، بلا تسلسل محدد ، نفس الأقوال التي لدى عاموس وهوشع وإشعيا : فضح يهوذا واسرائيل في آثامها والنداءات إلى التوبة والتهديدات والعزاء . وعلى الأغلب ، فإن نبوءات ميخا من حيث أسلوبها ومضمونها (في المقاطع التي هي من تأليفه)، تذكرنا بعاموس : نفس الهجوم الحاد والحماسي على الذين « في أيديهم السلطان والقوة »، « رؤساء بيت يعقوب »، بسبب قسرهم لعامة الشعب ونهبها وبسبب الخداع والابتزاز . وميخا يفضحهم

عن لسان الاله : « يأكلون لحم شعبي ويكشطون جلدهم عنهم ويهشمون عظامهم ويشققون كما في القدر وكاللحم في وسط المقل »(٣: ٣).فهم « يشتهون الحقول ويغتصبونها والبيوت ويأخذونها ويظلمون الرجل وبيته والانسان وميراثه » (٢: ٢) لذلك تسود الرشوة والخداع في كل مكان : « الرئيس طالب والقاضي بالهدية والكبير متكلم بهوى نفسه . . . »(٣: ١١).

في عهد حزقيا ـ كما صرنا نعرف الآن ـ تجددت في معبد أورشليم عبادة يهوه ، التي كانت توقفت أيام الملك آحاز . وعلى العموم فإن مواقع الاله يهوه قد توطدت في يهوذا نوعاً ما ، ولكن التعبد لـ « التماثيل والأنصاب » استمر كما استمر تقريب الضحايا في السواري المقدسة(٥: ١٢—١٤). لذلك كله سيعاقب يهوه يهوذا واسرائيل عقاباً رهيباً وسينزل بهما النهب والموت ، وسوف تتحول السامرة وأورشليم إلى كومتي حطام(١: ٦، ٣: ١٢، ٦: ١٦)،وعبثاً يأمل المنافقون في استرحام يهوه بإكثار الذبائح وحتى بتقديم أبنائهم البكر ضحايا ، كما يفعل ذلك أنصار الآلهة الأخرى : « هل يسرّ يهوه بألوف الكباش بربوات أنهار زيت » (٦: ٦—٧)-ذلك أن يهوه يطلب شيئاً آخر : « أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك »(٦: ٨) .

ميخا لا يؤمن ـ مثل عاموس وإشعيا ـ بإمكانية تصحيح الأخلاق الفاسدة لأبناء قومه ويعتبر الكارثة حتمية ، فقد أطلق يهوه حكمه على شعبه : « أسلملك للخراب وسكانها للصفير »(٦: ١٦).ولكن تهديدات يهوه المخيفة هذه تتناوب من حين إلى آخر ، في نبوءات ميخا ، مع مداخلات تعزية وتحميس ، بعضها يتعلق ، ولاشك ، بالمستقبل القريب وبعضها الآخر ـ بلا شك أيضاً ـ يحمل طابعاً اسخاتولجياً ، أي يتعلق بنهاية العالم . فهاهو النبي يعد قراءة : « إذا دخل آشور في أرضنا . . . نقيم عليه سبعة رعاة وثمانية من أمراء الناس . فيرعون أرض آشور بالسيف . . . »(٥: ٥—٦). وعندما يتوجه يهوه إلى شعبه ، « بنت صهيون »، يؤكد أنه لن يسمح بفنائه النهائي : « والآن قد اجتمعت عليك أمم كثيرة الذين يقولون لتتدنس ولتتفرس عيوننا في صهيون . وهم لا يعرفون أفكار يهوه ولا يفهمون قصده أنه قد جمعهم كحزم إلى البيدر . قومي ودوسي يا بنت صهيون . . . فتسحقين شعوباً كثيرين وأحرّم غنيمتهم ليهوه وثروتهم لسيد كل

http://www.al-maktabeh.com

الأرض» (٤ : ١١—١٣) .

هنالك في كتاب ميخا عدة أماكن تشكل ، بلا شك ، إضافات متأخرة . فمثلاً ، يجري «التنبؤ» بأن «بنت صهيون»، أي أورشليم ، بسكانها ، سوف تسبى إلى بابل وسوف يتم إنقاذها هناك ، حيث سيفديها يهوه من يد أعدائها (١٠—٤)، كما أشرنا سابقاً ، كان عدو يهوذا في القرن الثامن هو آشور وليس بابل ، وهذا المقطع تم تأليفه وحشره في نص ميخا بعد الأسر البابلي . ويعتبر نقاد التوراة أيضاً أن المقطع (٧ : ١١) هو إضافة من فترة ما بعد الأسر البابلي ، فالحديث يجري هناك عن بعث أورشليم وتشييد سور جديد للمدينة ، بدل السور المهدّم . وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من المقاطع الأخرى .

يتضمن الاصحاحان ٤ و ٥ سلسلة كاملة من النبوءات حول المستقبل الرسولي ، وقد كان المقطعان(٤ : ١—٣) و(٥ : ٢—٣)تحديداً مثار اهتمام خاص وجدل بين دارسي التوراة .

يبدأ الاصحاح الرابع بمداخلة عن المستقبل الوضّاء ليهوذا في «آخر الأيام»: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت يهوه يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال لا تجري إليه الشعوب . وتسير أمم كثيرة ويقولون هلم نصعد الى جبل يهوه وإلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة يهوه . فيقضي بين شعوب كثيرين ينصف لأمم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» (٤ : ١—٣).

إن هذا المقطع يكرر ، بصورة تكاد تكون حرفية ، المداخلة(٢ : ٢—٤)من كتاب إشعيا ، فيختلف عنها.هامن حيث تموضع بضع كلمات . كيف يجب تفسير هذه الواقعة ؟ كيف حدث أن ترد النبوءة ذاتهافي كتابي نبيين مختلفين ؟ إن دارسي التوراة يتوهون بين التساؤلات ويفسرون الأمر بأشكال مختلفة . فالباحثون الذين يعتبرون هذا المقطع من تأليف أحد النبيّين (إشعيا أو ميخا) يعتقدون أنه من الممكن أن يكون أحدهما اقتبسه من الآخر نظراً لاعجابه بهذه المداخلة ، ونظراً لدقة الاقتباس ، يبدو أن ذلك جرى ليس «سماعياً» بل عن طريق النسخ .

ويفترض باحثون آخرون أن إشعيا وميخا كليهما قرأ هذا المقطع في لفافة

http://www.al-maktabeh.com

نبوءات لم تصل إلينا تعود إلى نبي سابق لا نعرفه .

ويعتقد البعض الثالث أن المداخلة المعنية تمَّ إضافتها من قبل الناسخين اللاحقين على كل من كتابي إشعيا وميخا ، حيث كان للمحررين مصلحة في التخفيف نوعاً ما من اللهجة القاسية والكثيبة لنبوءات النبيّين حول مستقبل شعبهما .

ويرى النقاد من هذه الفئة الأخيرة أن أنبياء مثل عاموس وميخا لم يكونوا يرون أيّ بصيص أمل لإسرائيل التي خانت إلهها . لقد سبق لنا الاشارة إلى خطل مثل هذا الرأي : دائماً كان الدين يتضمن عنصر العزاء ، ولم يكن بوسع أنبياء القرن الثامن أن يتركوا الشعب « المختار » دون أي أملٍ في إلهه وفي إمكانية استحقاق غفرانه ولو في المستقبل غير المحدد . أمر آخر تماماً أن تلك الآفاق كانت تتراءى بأشكال مختلفة في أزمنة مختلفة .

المقطع الآخر في كتاب ميخا ، والذي اجتذب اهتماماً زائداً لدى نقاد التوراة ، هو (٥ : ٢ — ٥)، حيث يتنبأ المؤلف بمجد عظيم لمدينة بيت لحم الصغيرة في جنوب ـ غرب يهوذا : « أما أنت يا بيت لحم افراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل . لذلك يسلّمهم إلى حينما تكون قد ولدت والدة ثم ترجع بقية اخوته إلى بني اسرائيل . و . . . يثبتون . لأنه الآن يتعظّم إلى أقاصي الأرض . ويكون هذا سلاماً ».

عمَّ وعمَّن يجري الحديث في هذه المداخلة ؟ لقد رأى اللاهوتيون اليهود لاحقاً فيها نبوءة حول « الممسوح » (الرسول) الخيالي ، في حين رأى هنا المسيحيون الأوائل نبوءة حول يسوع المسيح الذي ولد ـ بموجب الأناجيل ـ في بيت لحم بالذات (مت٢ : ١ — ٥ لو٢ : ٤ — ١٥ يو٧ : ٤٢). ولازال التقليد اليهودي والتقليد المسيحي يتمسكان بهاتين النظريتين حتى الآن . أما فيما يخص النقاد فيوجد بينهم افتراق حاسم بخصوص هذا المقطع من كتاب ميخا . فبينما يعتبر البعض أنه من تأليف النبي ، وبلا طابع إسخاتولوجي ، وأنه يتعلق بولادة الملك اليهودي حزقيا الذي كان أكثر من نبي يحلم أن يرى فيه ملكاً مثالياً (قارن : مداخلة إشعيا المعروفة حول « العذراء » وآماله في حزقيا)، يذهب نقاد آخرون

http://www.almaktabeh.com

إلى منح هذه المداخلة مغزى اسخاتولوجياً صرفاً ، وتعتبرها أكثرية هؤلاء إضافة متأخرة . والحجة في ذلك هي أن التصور الموجود في المداخلة حول العظمة الشمولية للملك المنتظر (« إلى أقاصي الأرض ») هو تصور مميّز لليهودية في مرحلة ما بعد الأسر البابلي . لكن ، وكما نعرف ، فإن عاموس وإشعيا كليهما كانا قد صاغا فكرة الطابع الكوني لسلطة يهوه وحول أن هذا الاله اليهوذي يحدد ليس فقط مصائر اسرائيل ، بل ومصائر الشعوب « الوثنية »، الأخرى . على أية حال ، لا شك في أن المقطع الذي يصف « المتسلط » بأن « مخارجه منذ القديم ، منذ أيام الأزل » هو إضافة لاحقة على النص . فالفكرة حول الأصل الأزلي للمخلّص المقبل ، « الممسوح »، تكونت في الديانة اليهودية ليس قبل القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيما بعد انتقلت إلى المسيحية (يو : ١ : ٣—٤).

أما بالنسبة لمديح بيت لحم الصغيرة فالمسألة تفسّر بأبسط من ذلك . فكما أشرنا ، كان أصحاب الشأن يرون أن المخلّص سيكون سليلاً للملك الممجّد داؤود ، وداؤود كان بالأصل من بيت لحم (١ صم ١٧—١٢).

كتاب النبي صنفيا :

بعد موت حزقيا أصبح ابنه منسّى ملكاً على يهوذا (642—687)، وكان له من العمر اثنا عشر عاماً . لقد أدى رحيل جحافل الآشوريين من يهوذا وخلاص أورشليم من الحصار وموت سنحريب القسري ، إلى تهدئة سكان يهوذا . وفي عهد خليفتي سنحريب ، أسرحدون وآشور بانيبال (655—671)، فاضطر ملوك يهوذا للقبول بدور التابعين العاديين الموالين للملوك الآشوريين . وفي أحد التسجيلات الآشورية يرد ذكر منسّى بخصوص دفع الأتاوة . ربما كانت تلك التبعية أحد الأسباب التي سمحت للعبادات الأجنبية ، بما فيها العبادات الآشورية ، بأوسع انتشار ممكن في يهوذا ، على أيام الملك منسّى الذي ملك حوالي نصف قرن وأيام ابنه آمون الذي بقي على العرش سنتين فقط . فمن جديد ، كما في عهد الملك آحاز تم رسمياً إدخال عبادات الأجرام السماوية (« جند السماء »)، في معبد يهوه بأورشليم وفي المعابد الأخرى . إن منسّى « عمل الشر في عيني يهوه . . . .

وعاد فبنى المرتفعات التي أبادها حزقيا أبوه . . . وسجد لكل جند السماء وعبدها . وبنى مذابح في بيت يهوه . . . لكل جند السماء في داري بيت يهوه » (٢مل ٢١ : ٢ — ٥)، فبالنسبة لملوك يهوه كما بالنسبة للحكام الآخرين الخاضعين للملك الأشوري ، كان مثل هذا السلوك طريقة من طرق التعبير عن إجلالهم له .

في نفس الوقت انتعشت من جديد عبادات الآلهة الكنعانية المحلية ، التي تعرضت للملاحقة في عهد حزقيا . كما أن منسّى بعث من جديد الطريقة القديمة في استرحام الآلهة عن طريق التضحية بالأبناء البكر ، وأعطى بنفسه مثالاً على ذلك : « وعبّر ابنه في النار »، أي قدمه ضحية « محرقة ». من غير الواضح لأي إله تمّ تقديم هذه التضحية المريعة ، فقد يكون المقصود هو الاله الفينيقي مولك ، وقد يكون منسّى أراد بهذه الطريقة أن يسترحم يهوه بالذات . وينبئنا كتاب الملوك عن منسّى نفسه أنه « عاف وتفاءل واستخدم جاناً وتوابع وأكثر عمل الشر في عيني يهوه لإغاظته (٢مل٦ : ٢١). طبيعي أن منسّى لم يتقصد إغاظة يهوه ، ولكنه كان يشاء ـ تحسباً لأحوال ما ـ أن يسترضي أيضاً الآلهة الأخرى ، بما فيها الأجنبية ، التي قد لا تقل بل تزيد جبروتاً عن يهوه ، ولربما لم يكن الملك هو الوحيد في يهوذا الذي يفكر على هذا النحو .

لم يكن ممكناً أن لا يلقى انتشار « الوثنية » في عهد منسّى وابنه آمون احتجاجاً نشطاً من جانب عبدة يهوه الأمناء (خصوصاً من بين كهنة معبد أورشليم والأنبياء)، وأن لا يلقى هذا الاحتجاج بدوره أعمال قمع جوابية من جهة الحكومة . لقد حفظ لنا كتاب الملوك الثاني ذكرى حول أنه قد « سفك أيضاً منسّى دماً بريّاً كثيراً جداً (٢١ : ١٦) ونشأت لاحقاً الأسطورة (غير المؤكدة في المصادر) حول أن ذلك أسفر عن استشهاد النبي إشعيا ، الذي جرى قطعه بمنشار بعد إدخاله في جذع شجرة ، وذلك بأمر من الملك منسّى .

لقد تغير الوضع بالنسبة لديانة يهوه في يهوذا على أيام الملك التالي بعد آمون وهو يوشيا ، الذي اعتلى العرش عام 640 (حين كان عمره ثماني سنوات) وفي ظل ظروف غامضة جداً . فقد جرى في أورشليم انقلاب جديد في البلاط ، ضد آمون الذي ـ مثلما أبوه ـ كان قد « عبد الأصنام وسجد لها وترك يهوه إله آبائه وفتن عبيد آمون عليه فقتل الملك في بيته . فضرب كل شعب الأرض جميع الفاتنين على الملك

http://www.al-maktabeh.com

آمون وملك شعب الأرض يوشيا ابنه عوضاً عنه » (٢مل ٢١: ٢٠-٢٤).
لا توجد في المصادر اشارات مباشرة إلى دور ما قام به في هذه الأحداث « أنصار يهوه »، أي دوائر الأنبياء والكهنة ، ولكن في عهد الملك الجديد يوشيا ، بالذات ، أحرزت عبادة يهوه انتصاراً حاسماً في يهوذا ضد العبادات الأخرى . لكن لم يجر ذلك فوراً بعد اعتلاء يوشيا للعرش وإنما بعد عقدين من السنوات ، ويبدو أنه خلال هذا الفاصل الزمني بالذات ذاعت أصوات ثلاثة من الأنبياء الذين دخلت كتبهم في التوراة وهم صنفيا وناحوم وخصوصاً إرميا .

منذ بداية حكم يوشيا تغير الوضع السياسي في آسيا الغربية تغيراً جوهرياً . ففي عام 655 ، تمكنت مصر من خلع النير الأشوري والحصول على الاستقلال . وفي نهاية ثلاثينات القرن السابع اجتاحت قبائل الاسقوثيين أراضي سوريا وفلسطين ، الخاضعتين لآشور ، قادمةً من الشمال ، ووصلت حدود مصر ، وتمكن الفرعون المصري بساميتيك ـ إذا ما صدقنا رواية هيرودوت ـ من تجنب الاجتياح تلاسقوثي فقط بعد دفع أتاوة كبيرة . لكن عسقلان وغيرها من المدن الفلسطينية احتلّت ونهبت (هيرودوت ١: ١٠٥). أما في عام 626فقد انتفضت بابل الجديدة المستقلة . في الوقت ذاته هجم الميديون والاسقوثيون الذين انضموا إليهم على الامبراطورية الآشورية من الشرق . في عام 614 احتل الميديون المقاطعة الشرقية من آشور (الربخا) والعاصمة القديمة للامبراطورية مدينة آشور . أما في عام 612 فقد عقد الميديون والبابليون تحالفاً فيما بينهم واقتربوا من المدينة الرئيسة في الدولة الآشورية ، نينوى .

إن المعلومات القليلة الواردة عن النبي صنفيا في الكتاب الذي يحمل اسمه ، تفيدنا فقط بأنه كان ابن كوشي ابن جدليا ابن أمريا ابن حزقيا وأن « كلمو يهوه . . . صارت » إليه « في أيام يوشيا . . . ملك يهوذا » (١:١). وإذا كان الاسم الأخير في سلسلة عائلة صنفيا يعود للملك حزقيا ، فإن ما نستنتجه هو كون صنفيا من أصول ملكية وهذا أمر ممكن تماماً .

يتضمن نص كتاب صنفيا الذي وصل إلينا ثلاثة إصحاحات فقط ، ذات مضمون يكاد يكون عادياً ، بشكل عام ، قياساً على نبوءات القرنين الثامن والسابع . فيهوه يهدد ـ على لسان النبي ـ بمعاقبة يهوذا وأورشليم عقاباً مريعاً على

خطاياهما : « وأمد يدي على يهوذا وعلى كل سكان أورشليم وأقطع من هذا المكان بقية البعل اسم الكماريم مع الكهنة والساجدين على السطوح لجند السماء والساجدين الحالفين بيهوه والحالفين بملكوم والمرتدين من وراء يهوه والذين لم يطلبوا يهوه ولا سألوا عنه . اسكت قدام يهوه لأن يوم يهوه قريب . . . ويكون في يوم ذبيحة يهوه أني أعاقب الرؤساء وبني الملك وجميع اللابسين لباساً غريباً . وفي ذلك اليوم أعاقب . . . الذين يملأون بيت سيدهم ظلماً وغشاً » (١ : ٤-٩).

وفي مكان آخر يتوعد يهوه أن يقضي على كل الشعوب الأجنبية : « غزة تكون متروكة و اشقلون للخراب . اشدود عند الظهيرة يطردونها و عقرون تُستأصل . . . يا كنعان أرض الفلسطينيين إني أخربك بلا ساكن . . . و يمد يده على الشمال و يبيد آشور و يجعل نينوى خراباً يابسة كالقفر . . . هذه هي المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة القائلة في قلبها انا و ليس غيري » (٢ : ٤ — ٥ ، ١٣ ، ١٥).

إن هذه المقاطع من النبوءة تتيح الفرصة أمام التحديد الدقيق ، بما فيه الكفاية ، للزمان الذي قيلت فيه : قبل سقوط نينوى عام ٦١٢ - فنينوى لا زالت موجودة بالنسبة للنبي بمثابة مدينة مبتهجة - ولكن خطراً حقيقياً يهدد آشور (من خلال البابليين و الميديين المهاجمين)، أي بعد ٦٢٦ . و هنالك امكانية للمزيد من تدقيق تاريخ هذه النبوءة . فصفنيا يهاجم أولئك الذين لا زالوا يسجدون للآلهة الأشورية و « الوثنية » الأخرى ، دون أن يلمح الى الضربة الحاسمة التي وجهها الملك يوشيا الى تلك العبادات . لقد تم اجراء الاصلاح الديني ليوشيا عام ٦٢٢ (و هذا ما سنتحدث عنه لاحقاً)، مما يعني أن نبوءة صفنيا رأت النور - على الأغلب - بين عامي ٦٢٦ و ٦٢٢ قبل الميلاد ، حين كان يتم الاعداد للاصلاح الديني في يهوذا . و يمكن عدم الشك في أن صفنيا - و ربما بعضاً آخر من أنبياء يهوه - كان يعرف ذلك بل شارك في الاعداد الايديولوجي للاصلاح المذكور .

في مثل هذه الحالة ، يصبح مفهوماً لماذا يثير غضب يهوه - خلافاً لما هو لدى عاموس و حتى لدى إشعيا - ليس الظلم الاجتماعي بالدرجة الرئيسية و لا حتى الانحطاط الأخلاقي للشعب ، متمثلاً بشرائحه العليا ، بل بالذات مسألة العبادة - السجود للآلهة الوثنية و الأصنام . فصفنيا يعلن أن يهوه سوف يبيد « بقية

http://www.al-maktabeh.com

البعل » و أولئك الكهنة و رجال الدين الذين يتعبدون للآلهة الوثنية ، و هكذا بالضبط قضى كهنة معبد أورشليم (بيت يهوه) على منافسيهم بمساعدة الملك يوشيا في عام ٦٢٢ . لقد كان النبي يبتغي من مداخلته هدفاً ملموساً و حيوياً ، مع أنه بناها وفقاً لخطة تقليدية معتادة .

في مكانين أو ثلاثة يذكر صفنيا القسر و الخداع اللذين يمارسهما الرؤساء و القضاة ، كما يذكر أنَّ « لا فضتهم و لا ذهبهم يستطيع انقاذهم في يوم غضب يهوه » (١ : ١٨)، فهؤلاء الناس يقسمون باسم يهوه عن رياء و يقولون « في قلوبهم إن يهوه لا يحسن و لا يسيء » (١ : ١٢)، أي أنه لا شيء يرجى منه : لا معونة و لا مكافأة على الأعمال الحسنة و لا عقاب على الأعمال الشريرة ، و لا يتوجب الخوف منه أيضاً . لكن يهوه لن يغفر لهم ذلك بأي حال من الأحوال : « فتكون ثروتهم غنيمة و بيوتهم خراباً و يبنون بيوتاً و لا يسكنونها و يغرسون كروماً و لا يشربون خمرها » (١ : ١٣). من الواضح أن صفنيا يتنبأ بهجوم عسكري ، و ذلك في القريب العاجل : « قريب يوم يهوه قريب و سريع جداً . . . يصرخ حينئذٍ الجبار مراً . . . يوم بوق و هتاف على المدن المحصنة و على الشُرُف الرفيعة » (١ : ١٤ ، ١٦). الى أي محتلين يلمح النبي ؟ فهُم لا يمكن أن يكونوا الآشوريين و لا البابليين و لا الميديين ، فكل هؤلاء كانوا في تلك السنوات يخوضون فيما بينهم صراعاً مميتاً . على الأرجح كان محتملاً أن يقع هجوم جديد من جانب الاسقوثيين الذين اجتاحوا فلسطين جالبين معهم الموت و الخراب و ذهبوا بغنائم كبيرة .(٤٠)

لم يستغنِ صفنيا في نبوءته عن الجزء الخاص بالتعزية . فهو يشغل قسماً كبيراً من الاصحاح الثالث ، و فيه يَعِد النبي بأن يهوه بعد أن يطهر يهوذا في يوم يهوه من الخاطئين ، سيُبقي « شعباً بائساً و مسكيناً فيتوكلون على اسم يهوه . بقية اسرائيل لا يفعلون إثماً و لا يتكلمون بالكذب . . . لأنهم يرعون و يربضون و لا مخيف ». و عندئذٍ سيلغي يهوه حكمه الذي حكم به على اسرائيل و سيطرد أعداءها و سيقول بنفسه لشعبه : « ملك اسرائيل يهوه في وسطه . لا تنظرين بعد شراً » (٣ : ١١ — ١٥).

من المميز أنه في هذا الجزء بالذات رأى نقّاد التوراة إضافات متأخرة بروحية

(٤٠) هيرودت التاريخ الكتاب الاول ١٠٣—١٠٦ .

http://www.al-maktabeh.com

تمجيد المستقبل الذي ينتظر اسرائيل و تمجيد ديانة يهوه التي ستعتنقها كل الشعوب . مثلاً ، يعتبر الباحثون المقطع (٣ : ٩ – ١٠) إضافة متأخرة ، حيث يهوه يطلق وعده : « حينئذٍ أحوِّل الشعوب الى شفة نقية ليدعوا كلهم باسم يهوه ليعبدوه بكتفٍ واحدة . من عبر أنهار كوش المتضرعون إليَّ متبدِّديَّ يقدمون تقدمتي ». و تشير كل الدلائل الى أن نهاية هذا الاصحاح (٣ : ١٤ – ٢٠) أيضاً تمت إضافتها من قبل محرر لاحق ، على الأرجح في فترة ما بعد الأسر البابلي . في هذا المقطع وعد من يهوه بأن يجمع « المحزونين على الموسم » و كل المبدَّدين بين الشعوب الأخرى : « في الوقت الذي فيه آتي بكم و في وقت جمعي إياكم . لأني أصيركم اسماً و تسبيحةً في شعوب الأرض كلها حين أردُّ مسبيِّكم قدام أعينكم . . . ». واضح أنه ما كان بوسع صفنيا كتابة هذا الكلام ، لأن يهوذا ستعرف عار السبي البابلي فقط بعد ما يزيد عن ربع قرن من زمانه .

يجدر بنا إبداء ملاحظة أخرى فيما يخص نبوءة صفنيا : كان وصف النبي ليوم يهوه ، يوم المحاكمة الرهيبة للعالم ، أحد الدوافع التي حركت ـ على ما يبدو ـ مؤلف « المرثاة » الشهيرة ، وهي صلاة جنائزية كاثوليكية تم تأليفها في القرون الوسطى . ف « المرثاة » تكرر حرفياً عبارة صفنيا (١ : ١٥)، التي كُتِبتْ باللاتينية هكذا : « diesire, dies illa » ، أي « يوم السخط ، ذلك اليوم ».

http://www.al-maktabeh.com

كتاب النبي ناحوم :

http://www.al-maktabeh.com

في وقت واحد مع صفنيا كان يطلق نبوءاته نبي آخر في يهوذا هو ناحوم . ولكن وصلتنا منه نبوءة واحدة فقط . و الكتاب الذي يحمل اسمه يبدأ هكذا : « وحيٌ على نينوى . سفر رؤيا ناحوم الألقوشي » (١ : ١). هذا يعني أن وطن ناحوم هو المدينة اليهوذية الصغيرة « القوش ».

كتاب ناحوم أصغر حتى من كتاب صفنيا ، فهو يتكون من ثلاثة اصحاحات . يبدأ النبي من وصفه لعظمة و جبروت يهوه ، و هو وصف اختلطت فيه ، على نحو غريب ، سمات الاله القديم للبدو ، اله العاصفة و الصحراء ، مع صورة اله كل العالم : « يهوه في الزوبعة و في العاصف طريقه و السحاب غبار رجليه . . . الأرض ترفع من وجهه و العالم و كل الساكنين فيه . من يقف أمام سخطه و من يقوم في حمو غضبه . . . صالحٌ هو يهوه حصن في يوم الضيق و هو يعرف المتوكلين عليه » (١ : ٢ — ٧).

و الآن وجَّه يهوه غضبه ضد نينوى ، و ذنبها أنه منها « خرج المفتكر على يهوه شراً ». فهل كان النبي يقصد سنحريب ؟ إن يهوه قد حدد حكمه و أطلق هذا الحكم على آشور : « لا يُزرع من اسمك في ما بعد . . . عيِّدي يا يهوذا أعيادك أوفي نذورك فانه لا يعود يعبر فيك أيضاً المهلك . قد انقرض كله » (١ : ١٤ — ١٥).

من الواضح أن نبوءة ناحوم قد تم تأليفها حين تلقَّت الامبراطورية الآشورية أول الضربات من أعدائها البابليين و الميديين . لم تكن نينوى قد احتُلت بعد ، لكنها كانت محاصرة و تناهت أخبار ذلك الى أسماع كل الشعوب التي عانت من النير الآشوري ، أي عام ٦١٤ أو ٦١٣ قبل الميلاد .

يورد ناحوم مشاهد سقوط المدينة العظيمة ، « مأوى الأسود »، و يجب الاعتراف بأنه يرسم تلك المشاهد بطريقة لامعة ، غنية بالصور : « صوت السوط و صوت رعشة البكَر و خيل تخب و مركبات تقفز و فرسان تنهض و لهيب السيف و بريق الرمح و كثرة جرحى و وفرة قتلى و لا نهاية للجثث »، لن يستطيع الجنود الآشوريون أن يصمدوا أمام هجوم الأعداء ، أما القادة العسكريون الآشوريون

فيختفون من خوفهم . إنه انتقام يهوه لأجل الكوارث التي كانت آشور تسببها لاسرائيل ، و التي تَنزل الآن مصائب مثلها بآشور . فيهوه يقول لنينوى : « ها أنذا عليك »، ثم : « جميع قلاعك أشجار تين بالبواكير اذا اهتزّت تسقط في فم الآكل .... تنفتح لأعدائك أبواب أرضكِ .... رؤساؤك كالجراد و ولاتك كحرجلة الجراد الحالّة على الجدران في يوم البرد . تشرق الشمس فتطير و لا يُعرَف مكانها أين هو .... كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمرّ شرك على الدوام » (٣ : ٥ — ١٩).

يمكن أن يتفهم المرء هذه الأحاسيس ، أحاسيس الارتياح و الشماتة ، التي كانت تملأ ليس فقط قلب ناحوم و قلوب اليهوذيين ، بل و كل الشعوب الأخرى التي بقيت ترزح قروناً تحت نير آشور الثقيل ، و لكن هذا الفرح الشامت لم يدم طويلاً . فبدلاً من آشور نهض « جارح » آخر في الشرق هو بابل .

« سفر الشريعة » و الاصلاح الديني للملك يوشيا :

كما ذكرنا سابقاً ، في عام ٦٤٠ قبل الميلاد اعتلى العرش في يهوذا الملك يوشيا ابن آمون الذي كان ابن ثماني سنوات فقط .

تبدأ الرواية حول حكم يوشيا في كتاب الملوك الثاني من مديح احتفالي لهذا الملك : « .... و مَلَك إحدى و ثلاثين سنة في أورشليم .... و عمل المستقيم في عيني يهوه و سار في جميع طريق داود ابيه . و لم يحد يميناً و لا شمالاً ». و في العام الثامن عشر من حكمه جرى حدثٌ استثنائي، شغلت الرواية حوله اصحاحين كاملين (٢ مل ٢٢ — ٢٣).

في إحدى المرات أرسل الملك الكاتب شافان الى معبد يهوه في أورشليم في مهمة بسيطة و هي دفع الأجر للعمال الذين كانوا يصلحون بعض الأشياء هناك . في المعبد التقى شافان الكاهن الأول حلقيا ، الذي أخبره خبراً هائلاً : « قد وجدت سفر الشريعة في بيت يهوه . و سلّم حلقيا السفر لشافان فقرأه ». ثم يأتي شافان بالكتاب الى القصر و يقرأها أمام يوشيا . « فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزّق ثيابه ». و بعد ذلك توجهوا الى النبية خلدة لأجل المشورة ، فتنبأت

http://www.al-maktabeh.com

هذه بمصير مريع لشعب يهوذا : « هكذا قال يهوه ها أنذا جالبٌ شراً على هذا الموضع و على سكانه كل كلام السفر الذي قرأه ملك يهوذا . من أجل أنهم تركوني و أوقدوا لآلهة أخرى لكي يغيظوني بكل عمل أيديهم فيشتعل غضبي على هذا الموضع و لا ينطفىء . و أما ملك يهوذا . . . . فهكذا تقولون له . هكذا قال يهوه اله اسرائيل . . . من أجل أنه قد رق قلبك و تواضعت أمام يهوه حين سمعت ما تكلمتُ به على هذا الموضع و على سكانه انهم يصيرون دهشاً و لعنة و مزقت ثيابك و بكيت أمامي . . . . لذلك هأنذا أضمك الى آبائك فتضم الى قبرك بسلام » (٢٢ : ١٥ — ٢٠).

بعد ذلك يتوجه يوشيا الى معبد يهوه بأورشليم ، حيث « جميع رجال يهوذا و كل سكان أورشليم معه و الكهنة و الأنبياء و كل الشعب من الصغير الى الكبير و قرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وُجِد في بيت يهوه . . . . و قطع عهداً أمام يهوه للذهاب وراء يهوه و لحفظ وصاياه و شهاداته و فرائضه بكل القلب و كل النفس لإقامة كلام هذا العهد المكتوب في هذا السفر . و وقف جميع الشعب عند العهد » (٢٣ : ١ — ٣).

بعد هذا الاحتفال المهيب ، بدأ الملك بتنفيذ « كلام هذا العهد » : « و أمر الملك حلقيا الكاهن العظيم و كهنة الفرقة الثانية و حراس الباب أن يُخرِجوا من هيكل يهوه جميع الآنية المصنوعة للبعل و للسارية و لكل أجناد السماء و أحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون ولا شى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم والذين يوقدون للبعل الشمع والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء وأخرج السارية من بيت يهوه خارج أورشليم الى وادي قدرون و أحرقها . . . و دقها الى أن صارت غباراً و ذرى الغبار على قبور عامة الشعب . . . . . . و اباد الخيل التي أعطاها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت يهوه . . . و مركبات الشمس أحرقها بالنار . . . و المرتفعات . . . التي بناها سليمان ملك اسرائيل لعشتروت رجاسة الصيدونيين و لكموش رجاسة الموآبيين و لملكوم كراهة بني عمون نجّسها الملك . و كسر التماثيل و قطع السواري و ملأ مكانها من عظام الناس . . . و كذا جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة . . . أزالها يوشيا . . . . و ذبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على

المذابح و أحرق عظام الناس عليها ثم رجع الى أورشليم . و أمر الملك جميع الشعب قائلاً اعملوا فصحاً ليهوه إلهكم كما هو مكتوب في سفر العهد هذا . انه لم يُعمَل مثل هذا الفصح . . . في كل أيام ملوك اسرائيل و ملوك يهوذا . و لكن في السنة الثامنة عشر للملك يوشيا عُمِل هذا الفصح ليهوه في أورشليم . . . و لم يكن قبله ملك مثله قد رجع الى يهوه بكل قلبه و كل نفسه و كل قوته حسب كل شريعة موسى و بعده لم يقم مثله » (الاصحاح ٢٣).

اذا استبقْنا الحديث قليلاً فسوف نشير الى أن يهوه ـ و على عكس ما وعد به (٢٢ : ٢٠) ـ أبدى نكراناً للجميل ، بكل صفاقة ، تجاه ملكٍ شديد الغيرة و الوفاء له مثل يوشيا . فيوشيا ، خلافاً لجدِّه الكافر منسى لم يمت على فراشه بسلام ، بل مات بسبب سهم الأعداء الذي أصيب به في أثناء المعركة ضد الفرعون المصري نخاو (عام ٦٠٩).

في العلم المعاصر ، يطلق على الحوادث التي وُصِفتْ أعلاه تسمية الاصلاح الديني ليوشيا و هي ذات تأريخ دقيق بما فيه الكفاية : العام الثامن عشر لحكم الملك يوشيا هو عام ٦٢٢ قبل الميلاد : في هذا العام ظهر لدى العبرانيين ـ و لأول مرة ـ كتاب معترف به رسمياً من قبل كهنة معبد أورشليم و من قبل السلطة الحكومية على أنه « سفر الشريعة » (أو « كتاب العهد » الذي أعطاه موسى)، هذا السفر الذي « أوصى » بكل ما فيه من كلام و أحكام يهوه ذاته (٢ مل ٢٢ : ٨ ، ١١ ؛ ٢٣ : ٢٥).

بعد قراءة الرواية التوراتية حول اصلاح يوشيا ، يمكننا ـ اذا فكرنا بطريقة منطقية ـ أن نصل وحدنا الى الاستنتاجات التالية : قبل الاصلاح بحوالي نصف قرن كان يحكم في يهوذا أنصار العبادات الأجنبية و العبادات الكنعانية المحلية « الوثنية »، و قد رعى هذه العبادات الملكان منسى و آمون . و رغم أن الاله القومي لليهوذيين كان ما زال هو يهوه ، فان تنامي النفوذ الذي كان للعبادات « الوثنية » و لكهنتها كان يجب أن يلحق أذىً جذرياً ، إن كان بهيبة كهان يهوه أم بمداخيلهم . عدا عن ذلك ، كان كهنة معبد يهوه الرئيسي بأورشليم يعانون من منافسة المقادس المحلية الأخرى لهذا الاله ذاته ، و لم يكن لديهم نية أن يقبلوا لمعبدهم بدور المعبد الأول بين معابد متساوية . كان كهنة أورشليم يتطلعون الى

http://www.al-maktabeh.com

مكانة احتكارية مسيطرة في الحياة الدينية لشعبهم ، و كانوا ينتظرون الفرصة الملائمة لكي يشغلوا تلك المكانة .

لقد اعتلى يوشيا العرش حين كان عمره ثماني سنوات . و معروف أن الطفل الملك يصبح في مثل هذه الأحوال لعبة في أيدي مختلف الجماعات المحيطة بالبلاط . و نحن نجهل كيف تمكن كهنة معبد أورشليم ـ ربما منذ سنوات يفاعة الملك ـ أن يطوِّعوا يوشيا مخضِعين إياه لنفوذهم . و عندما كبر الملك كان يشعر ، كما يبدو ، بحاجة الى دعم الكهنوت الجبار المرتبط بمعبد أورشليم ، و بالمقابل حصل الكهنوت بدوره على امكانية الارتكاز الى السلطة الملكية في صراعه مع الفئات المنافسة (كهنة الآلهة الأخرى و كهنة يهوه الريفيين)، فلم يفوِّت تلك الامكانية .

ليس مفهوماً لماذا اعتُبِر عام ٦٢٢ قبل الميلاد العام الأكثر ملاءمة لاجراء الاصلاح الديني . و لكن قد لا يكون من باب الصدفة تطابق هذا الحدث مع الخسائر الحربية الأولى للامبراطورية الآشورية . فلم يعد من المخيف كثيراً إلغاء عبادات « جند السماء » و إزالة خيول و مركبات الشمس من معبد يهوه .

يجدر الافتراض أنه قد تم إعداد و تهيئة هذا الاصلاح الديني الكبير قبل اجرائه الفعلي بوقت طويل ، خفيةً عن جماهير السكان الواسعة ، التي كان بوسعها التعبير عن عدم الرضى إزاء تهديم مقادسها القبلية التقليدية ، و خفيةً عن أولئك الناس الذين تلقوا الضربة الأساسية ، أي عن كهنة و أنبياء العبادات الأخرى . و قد يكون ليس من باب الصدفة أيضاً أن يرتبط بالاصلاح الديني ذلك الفَرْض المدوَّن في « سفر الشريعة » و القاضي بالحد من فترة بقاء العبد العبري في عبودية الديون لتكون ست سنوات ، علماً أن السيد كان مُلزمَاً أن يوفر لعبده ، خلال الفترة الأولى من تحريره ، بعض مسببات العيش : « تزوِّده من غنمك و من بيدرك و من معصرتك » (١٥ : ١٢ — ١٤).

إن التغيرات التي طرأت على سياسة الدولة تجاه مختلف العبادات بنتيجة الاصلاح الديني كانت من الحدة و التأثير على جماهير الشعب اليهوذي الواسعة لدرجة أنها جعلت مدبريٍّ الاصلاح يمنحونه منذ البداية تعليلاً و تبريراً ايديولوجيين رصينين . في حالة كهذه ، كانت الطريقة الأكثر فاعلية و المجربة

http://www.al-maktabeh.com

جيداً هي الاستناد الى « إرادة يهوه »، و قد صرنا نعرف الآن - من تجربة صفنيا - أيَّ دور كان يؤديه في ذلك أنبياء يهوه .

لكن يبدو أن مدبريٌ الاصلاح اعتبروا - هذه المرة - أن جهود الأنبياء غير كافية ، فلجأوا الى اجراء إضافي ألا و هو الإعلان أمام الشعب بأنه قد « عُثِر » في أحد مخابىء معبد أورشليم على كتاب قديم بقي هناك مئات السنوات منسياً من قبل الجميع و بأن هذا الكتاب « مكتوب » بيد النبي القديم المشهور موسى و هو يتضمن « الوصايا و الشهادات و الفرائض »، التي أوصى بها الاله شعب اسرائيل عبر النبي موسى نفسه . لقد أعلن عن اللقية حلقيا الكاهن الأول في معبد أورشليم و شهدت على مصداقية الكتاب نبيَّةٌ ذات هيبة هي خلدة . إن الملك يوشيا ، كما نعرف الآن ، « قطع عهداً » بعد ذلك أمام يهوه ، أي أنه التزم (باسمه هو و باسم الشعب) بتنفيذ الفرائض المتضمَّنة في « سفر الشريعة » . و لا يجدر بنا الشك و لو للحظة في أن يوشيا كان على اتفاق مسبق مع قيادة معبد أورشليم . و على أية حال كان سلوكه حاسماً وصارماً وقاسياً إلى أقصى درجة . لقد تم إجراء الاصلاح على نحو جذري وفي أقصر مدة زمنية حيث كان من المهم - على ما يبدو - عدم إتاحة الوقت أمام الخصوم للتفكير .

لكن جوهر الاصلاح لم يكن ينحصر فقط في اجتثاث جذور العبادات الوثنية في يهوذا و تهديم و تبخيس « بيوتها » و تماثيلها و مذابحها ، بل وفي إبادة الأماكن الريفية المخصصة لعبادة يهوه . صحيح أنه لم يُقضَ على الكهنة الذين كانوا يخدمون تلك المقادس ، كما جرى لزملائهم « الوثنيين »، بل مُنِحوا إمكانية الانتقال للسكن في أورشليم ،حيث سُمِح لهم بالخدمة في المعبد المركزي ، ولكن في مناصب ثانوية كانت تؤمِّن لهم الغذاء ، ليس إلا . .

بالتالي ، فان الجواب على سؤال « cui prodest » (من المستفيد أو لمصلحة من ؟) تم تنظيم الاصلاح الديني هو جواب واحد فقط : كهنة معبد أورشليم هم الذين كان يجب أن يستفيدوا ، بالدرجة الأولى . فمنذ الآن ، فقط في « بيت يهوه »، أي فقط في معبد أورشليم ، كان يمكن إقامة الصلوات لاله اسرائيل و تقريب الذبائح و تنظيم الأعياد ، بما فيها العيد الرئيسي « فصح يهوه » . و بالتالي فإنه فقط الى هناك سوف تتوافد أيضاً الدخول الآتية من المؤمنين . و على

http://www.almaktabeh.com

هذا المنوال تنامت هيبة معبد أورشليم و كهنته تنامياً لم يسبق له مثيل . أما التعليل الايديولوجي لذلك فكان « سفر الشريعة » نفسه الذي كان يتضمن ، تحديداً ، الأمور التي نفذها يوشيا في مجرى الاصلاح الديني .

http://www.al-maktabeh.com

ما الذي جرى لهذا الكتاب فيما بعد ؟ من المستبعَد تماماً أن يكون الكاهن الأول حلقيا (بعد أن تم استخدام « سفر الشريعة » الذي « عُثِر » عليه استخداماً بالغ النجاح) قد سمح لهذا السفر أن يبقى في نسخة وحيدة مجهولة يغطيها الغبار على رف المكتبة داخل المعبد . على العكس من ذلك ، يجب الاعتقاد أنه قد تم فوراً أخذ نسخٍ من الكتاب لارسالها الى كافة أنحاء البلاد « لأخذ العلم و الاسترشاد » . فقد كان يجب لهذا الكتاب ، حتى بعد اجراء الاصلاح ، أن يحتفظ بأهميته بوصفه شريعة يهوه التي تتضمن « وصايا و فرائض » ملزِمة لكل يهوذي ، أينما كان يعيش . لكن ، في هذه الحالة ، لم يكن بوسع اللاهوتيين اليهوذيين المتأخرين ، عندما كوَّنوا قانون الكتابات المقدسة ، أن يمروا مرور الكرام على هذا الكتاب ، بل كان يجب أن يُدخِلوا « سفر الشريعة » ضمن القانون .

في أي مكان من العهد القديم يُحتَمل أكثر أن نعثر على « سفر الشريعة »؟ واضح أنه في ذلك الجزء الذي حصل فيما بعد على تسمية« تورا » (بالعبرية « القانون ») أو « بنتاتيك موسى » فقد قيل عن الكتاب الذي عثر عليه حلقيا أنه أعطي بيد موسى (٢ أي ١٤ : ٣٤) . و هذا يعني أنه كان يمكن أن يصبح أحد الكتب الخمسة أو جزءاً من أحد تلك الكتب . و يوجد هكذا كتاب بين كتب « الخماسية »، يعبر بشكل واضح خصوصاً عن الأفكار التي تم تجسيدها في إصلاحات يوشيا . إنه كتاب « التثنية » في آخر البنتاتيك (أي الخماسية).

في « التثنية » يتم التعبير بالحاح عن المطالبة باعتبار يهوه الهاً وحيداً لاسرائيل و باجتثاث عبادة كل الآلهة الأخرى : « اسمع يا اسرائيل . يهوه الهنا يهوه واحد . فتحب يهوه الهك من كل قلبك و من كل نفسك و من كل قوتك » (٦ : ٤ — ٥) . . . « تخربون جميع الأماكن حيث عبَدَتِ الأمم . . . آلهتها على الجبال الشامخة و على التلال و تحت كل شجرة خضراء . و تهدمون مذابحهم و تكسرون أنصابهم و تحرقون سواريهم بالنار و تقطعون تماثل آلهتهم و تمحون اسمهم من ذلك المكان » (١٢ : ٢ — ٣)، وهذا ما فعله يوشيا .

إن كتاب التثنية يطالب بتصفية في منتهى القسوة لأولئك الذين واحدهم يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس أو للقمر أو لكل من جند السماء . . . ارجمه بالحجارة حتى يموت (١٧ ـ ٣ ـ ٥). وهذا أيضاً تم تنفيذه من قبل يوشيا وكانت معبد أورشليم بوحشية متميزة . إن كتاب التثنية يفرض ، بشكل صارم ، مركزة عبادة يهوه ، فيمنع ممارسة التعبُّد و تقديم القرابين أينما كان ، في أي مكان يمكن فيه إقامة مذبح ، كما درجت العادة سابقاً : « بل المكان الذي يختاره يهوه الهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون و الى هناك تأتون و تقدّمون الى هناك محرقاتكم و ذبائحكم و عشوركم و رفائع أيديكم و نذوركم و نوافلكم و أبكار بقركم و غنمكم . . . . بل في المكان الذي يختاره يهوه . . . على مذبح يهوه إلهك » (١٢ : ٥ — ٦ ، ١٤ ، ٢٧). و كما نرى ، فكل هذا يتلاءم مع « سفر الشريعة » العائد لحلقيا . و قد اعتبر بعض اللاهوتيين منذ القدم (كريزوست و جيرونيم و بروكوبيوس) أنه من الممكن المطابقة بين « سفر الشريعة » الذي قدمه حلقيا و كتاب التثنية ، معترفين ، طبعاً ، بمنشئه « الالهي ». لكن اللاهوتي اليهودي ابن عزرا (في القرن الثاني عشر الميلادي) و الفيلسوف سبينوزا (في القرن السابع عشر) و الماديون الفرنسيون ـ خصوصاً فولتير ـ في العصر الحديث ، رفضوا بحزم فكرة أن يكون مؤلف الكتاب الذي عثر عليه حلقيا هو موسى . و في بداية القرن التاسع عشر نشر الباحث الألماني البارز ف. دي فيتّيه مؤلفَه « دراسات من أجل مدخل الى العهد القديم » في مجلدين . وهو كتاب مارس دوراً هاماً في تطور نقد التوراة ، حيث يعار اهتمام خاص بالذات للمسألة المتعلقة بمنشأ كتاب التثنية .

لقد برهن دي فيتّيه بالبرهان القاطع أن كتاب التثنية ماكان بوسعه أن يظهر في زمن موسى ، أي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (كان دي فيتّيه يؤمن بأن هذا النبي الأسطوري وُجِد تاريخياً). فالقوانين و الأحكام المدونة في الكتاب تعني شعباً يعيش حياة حضرية مرتّبة و يشتغل بالزراعة ، في الدرجة الأولى ، من زراعة الحبوب الى زراعة الكرمة و الزيتون ، كما يملك مدناً كثيرة و نظاماً سياسياً جيد التطور (سلطة ملكية و ادارة مدنية و قضاة دائمين) (١٦ : ١٨)، و لديه أيضاً كهنة على شكل فئة خاصة تشغل مكانة ذات امتياز في المجتمع و تتمتع ببنية هرمية

http://www.al-maktabeh.com

من الداخل . وكان دي فيتّيه يؤكد أن كل هذه الأشياء ظهرت لدى العبرانيين ليس فقط بعد سُكناهم في بلاد كنعان ، بل و فقط في عصر الملوك (و ليس في العصر الذي كانوا يجولون فيه أصقاع البوادي المؤآبية الى الشرق من نهر الأردن في القرن الخامس عشر). إضافة الى ذلك ، بقي في كتاب التثنية ذاته تعبير يشهد شهادة مباشرة ضد كون موسى هو المؤلف : « في عبر الأردن في أرض موآب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلاً » (١ : ٥). « عبر الأردن »، أي في الجانب الآخر منه ، و هذه عبارةٌ يمكن أن يكتبها فقط شخص يعيش في هذا الجانب من نهر الأردن ، أي في أرض كنعان ، في حين أن موسى ـ وفقاً للتوراة ـ لم يُقيَّض له أن يدوس « أرض الميعاد ».

هذه الاعتبارات ، بالاضافة الى عدد من الاعتبارات الأخرى ، تُلزمنا ـ حسب راي دي فيتّيه ـ أن نعتبر « كتاب التثنية مجرد توليف . . . وهماً تاريخياً تم نسبه الى موسى »[٤١]، كما أنها تسمح بمطابقة كتاب التثنية مع ذلك الكتاب الذي عُثِر عليه في معبد أورشليم أيام الملك يوشيا .

فيما يخص حكاية اللقية ، كتبَ دي فيتّيه بهذا الصدد : « لا نستطيع معرفة زمن و كيفية مجيء هذا الكتاب الى معبد أورشليم ، و ليست مستبعدة امكانية أن يكون الكاهن حلقيا هو الذي جاء به . فمثل هذا الرأي ، و لا شك ، لديه أرضية من الأسس . إن طريقة ظهور الكتاب شبيهة جداً بإجراء مُدبَّر ، شارك فيه ـ عدا حلقيا و شافان ـ النبيَّة خلدة . . . من أين ظهر الكتاب ؟ هذا ما تسدل عليه الحكاية ستارها ، و إنه لشجاعة زائدة أن يحاول المرء إزاحة هذا الستار ». [٤٢]

يمكننا أن نتفهم لهجة دي فيتّيه التي تنطوي ـ في هذا المقتطف ـ على بعض المراوغة ، خصوصاً اذا أخذنا بالحسبان كون الرجل بروفيسوراً في اللاهوت . أما في الوقت الراهن ، فإن أكثرية دارسي التوراة ، حتى اللاهوتيين منهم ، مضطرون للاعتراف بأن كتاب التثنية ـ أو الأدق ، ذلك الجزء من كتاب التثنية الذي « عثر » عليه حلقيا في تلك السنوات ، أيام حكم يوشيا ـ تمَّ اختلاقه و الادعاء بأنه

---

(٤١) ف. م. دي فيتيه . مدخل موجز إلى العهد القديم منشأ التوراة موسكو ١٩٦٤ ص٣٠٠ .
(٤٢) المرجع السابق ص٢٧٦ .

« مخطوطة قديمة ».

إن تزييفاً من هذا النوع كان من شأنه أن يُكتَشف فوراً في ظل ظروفٍ كظروفنا المعاصرة ، و ذلك بواسطة أساليب التحليل العلمي للمواد التي كُتِب عليها النص (الورق أو الجلد) أو بتحليل الخط و الأسلوب واللغة ، الخ . كتب أ. لودس يتساءل : « كيف يمكن أن تشرح أن كتاب التثنية يتمتع بقاموس ليس قديماً و بأسلوب ليس أسلوب النصوص القديمة ، بل بلغة سلسة ، ذات أطوار واسعة ، خطابية ، مميزة للقرن السابع ، لعصر إرميا ؟». (٤٣) ومن الطبيعي أن لا يخطر ببال حلقيا و لا ببال شافان كاتب الملك ، و لا ببال أحد آخر من مدبريّ هذا التزييف ، أن أحداً ما من معاصريهم يمكنه أن يطرح هكذا أسئلة . لكنهم ، بالمقابل حرصوا على أن يتضمن الكتاب ، الذي « عثروا » عليه ، جواباً على سؤال آخر : لماذا و كيف كان النسيان و الضياع في معبد أورشليم هما مصير الكتاب الذي كُتِب بيد موسى ؟ هاهو الجواب الذي ضُمِّن في نص كتاب التثنية الذي وصل الينا : « فعندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد يهوه قائلاً خذوا كتاب التوراة هذا و ضعوه بجانب تابوت عهد يهوه إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم . لأني أنا عارفٌ تمردكم و رقابكم الصلبة . هوذا و أنا بعد حيٌّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون يهوه فكم بالحريِّ بعد موتي » (٣١ : ٢٤ — ٢٧).

إن سخافة هذا التفسير واضحة تماماً للقارىء المعاصر : لماذا كان يجب إخفاء الكتاب ـ الشهادة بطريقة جعلت من غير الممكن العثور عليه خلال عدة قرون ؟ لكن هذا المقطع من كتاب التثنية يصبح مفهوماً جداً ، إذا ربطناه بقصة اللقية عند حلقيا : لقد استخدم مدبِّرو إصلاح عام ٦٢٢ طريقة معروفة من قبل ، حيث تمَّ نَسْب الكتاب الذي كتبوه الى نبي قديم هو موسى ، الذي كان التقليد الشعبي يرى فيه ليس مجرد شخص خَلَّص الأجداد من نير الفراعنة المصريين ، بل و مؤسس ديانة يهوه .

و هكذا ، لم يسفر إصلاح يوشيا فقط عن تحطيم العبادات « الوثنية » في

---

(٤٣) انظر : Lods A. Histoire de litterature hebraique et juive depuis les origines jusq a la ruine de l etat Iuif (135 apres I.C.) P.362.

http://www.al-maktabeh.com

يهوذا و عن مَرْكَزَة عبادة يهوه في أورشليم ، بل و كذلك عن ظهور أول « كتاب مقدس » لدى العبرانيين ، اذا فهمنا الكتاب المقدس على أنه مؤلَّف ديني معترف به ، رسمياً و شعبياً ، من قبل الجهات المختصة ذات الهيبة ، على أنه مقدس . و كما نعلم لم يحظَ بهذا الشرف ، قبل ذلك ، أي من المؤلفات السابقة في الأدب العبري القديم . لقد اعترف ملك يهوذا و « كل الكهنة و الأنبياء »، شعبياً و رسمياً ، بأن « سفر الشريعة » الذي وُجِد في معبد أورشليم هو « شريعة يهوه » الحقيقية ، التي التزم الملك يوشيا ـ باسمه و باسم شعبه ـ أن يطبقها .

يجب الاعتقاد أنه كان بين الأنبياء الذين حضروا ذلك الاجتماع الاحتفالي النبي صفنيا الذي صرنا نعرفه ، و ربما لم يكن دوره مجرد دور الشاهد السلبي ، بل دور المشارك النشيط ، لا بل دور أحد مؤلفيٌ « سفر الشريعة » الذي يقرأه الملك . و لكن يمكن افتراض الشيء نفسه باحتمالية أكبر فيما يخص نبياً آخر من أنبياء ذلك الزمان و نعني به الملك إرميا .

إرميا النبي - رجل السياسة :

ولد إرميا بين عامي ٦٥٠ و ٦٤٠ ، و انحدر أصلاً من نسل كهنوتي عريق ، فقد كان أحد أجداده القدامى هو أبياثار ، الكاهن الأول في عهد الملك داؤود . و عاش إرميا فترة شبابه في مدينة عناتوث الصغيرة ، الواقعة على مسافة تقارب الخمسة أو ستة كيلو مترات شمال ـ شرق أورشليم . و لا شك أن تسمية هذه المدينة القديمة مرتبطة باسم الإلهة الكنعانية عناة ، التي كان الاسرائيليون في القدم يعبدونها و يعتبرونها زوجة يهوه . و لكن حتى في زمن إرميا ، يُفترَض أن التقاليد الوثنية كانت لا تزال قوية في تلك المدينة .

كان لدى إرميا أرض ما يملكها في عناتوث و كان الرجل ميسوراً بما فيه الكفاية . و على كل حال كان غنياً لدرجة يستطيع معها أن يشتري من أحد أقربائه قطعة أرض أخرى بسعر مرتفع نسبياً (٣٢ : ٧ — ١٠). ربما كان إرميا قد تلقى التربية المطلوبة منذ نعومة أظفاره ، فكان مطَّلِعاً على الأدب القديم و على تاريخ شعبه ، و كان في مداخلاته يذكر بارتياح أمثلة من ذلك التاريخ و يورد أسماء الجدود و الأنبياء القدامى . و لا شك أنه كان يقرأ النبوءات المسجلة العائدة

http://www.al-maktabeh.com

لأسلافه من الأنبياء (عاموس و هوشع و إشعيا)، فأسلوب و تعابير حديثه غالباً ما تكرر أماكن معينة من كتب هؤلاء تكراراً يكاد يكون حرفياً . على أية حال ، كانت اقتباسات من هذا النوع ظاهرة عادية جداً لدى الأنبياء القدامى . لكن إرميا ذاته يكيل التهديدات للأنبياء المعادين له ، قائلاً عن لسان يهوه : « هانذا على الأنبياء يقول يهوه الذين يسرقون كلمتي بعضهم من بعض » (٢٣ : ٣٠).

يروي لنا إرميا كيف أصبح نبياً ، فقد كانت إليه « كلمة يهوه في أيام يوشيا بن آمون ملك يهوذا في السنة الثالثة عشرة من ملكه » (١ : ٢). و العام الثالث عشر من ملك يوشيا هو عام ٦٢٦ قبل الميلاد . و يعرض إرميا مضمون « كلمة » يهوه هكذا : « قبلما صوّرتك في البطن عرفتك و قبلما خرجت من الرحم قدّستك . جعلتك نبياً للشعوب . فقلت آه يا سيد الرب اني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد . فقال يهوه لي لا تقل اني ولد لأنك الى كل من ارسلك اليه تذهب و تتكلم بكل ما آمرك به . لا تخف من وجوههم لأني أنا معك لأنقذك يقول يهوه . و مدَّ يده و لمس فمي و قال يهوه لي هاقد جعلت كلامي في فمك . انظر . قد وكّلتك هذا اليوم على الشعوب و على الممالك لتقلع و تهدم و تهلك و تنقض و تبني و تغرس » (١ : ٥ — ١٠).

إن وصف هذه الرسامة النبوية يذكّرنا ، طبعاً ، بالمقطع المشابه لدى إشعيا (إش ٦). لكن الكلمات الأخيرة ترسم حول صورة إرميا هالة من عظمة غيبية خاصة و جبروت خاص . فإرميا يتطلّع الى شيء أكبر من النبي القديم . فرسالته تخص ليس فقط اسرائيل ، فقد وُكّل « على الشعوب و على الممالك »، و ليس فقط ليعلن مشيئة يهوه ، بل ولكي ينفّذها أيضاً : يقلع ويهدم ويهلك وينقض و يبني و يغرس .

هل كان بوسع إرميا ـ بعد أن شعر بمقدرته على أن يكون نبياً ـ البقاء بعيداً عن الاصلاح الديني الذي كان يعدّه أنصار يهوه من كهنة و أنبياء ؟ واضح أن إرميا ، مثل صفنيا ، قد شارك في الدعاية التمهيدية لتلك الأفكار التي كان يجري تضمينها في« سفر الشريعة » الذي قيد الاعداد ، و أنه بدأ هذا العمل في مدينته الأم عناتوث ، حيث كان يهاجم العبادات الوثنية و يطالب بالسجود ليهوه فقط ، وهو ، بذلك ، كان يغيظ أبناء مدينته ، « أهل عناتوث » لحد أنهم كانوا يبتغون

http://www.al-maktabeh.com

قتله (١١ : ٢١).

اضطر إرميا للانتقال الى أورشليم ، حيث عاش كل حياته الباقية تقريباً . حتى أن بعض الباحثين يعتبر أن إرميا قد ساهم مساهمة مباشرة في كتابة « سفر الشريعة »، و أضعف الايمان أن الكثير من تعابير و صور كتاب التثنية يذكّرنا فعلاً بأسلوب إرميا .

ربما كان ، بين من ساهم في كتابة « سفر الشريعة » و إجراء الاصلاح الديني عام ٦٢٢ ، أناس آمنوا بصدق بأن النتيجة ستكون ليس فقط نمو النفوذ و المداخيل بالنسبة لكهنوت أورشليم ، بل و الانبعاث الأخلاقي للشعب الذي سيطبق الوصايا و القوانين المدونة في هذا الكتاب ، و أن يهوه ـ عندئذٍ ـ سوف يعيد رأفته الى « الشعب المختار » و ستحل ، بالنسبة لاسرائيل ، مملكة السلام و الازدهار ، كما سبق لأنبياء يهوه « رجال الله » أن وعدوا منذ زمن طويل . ربما كان إرميا يؤمن بذلك أيضاً ، و لكن ـ في هذه الحالة ـ سيكون قد أصيب باحباط كبير .

على عكس نبوءات صفنيا و الأنبياء الآخرين ، و رغم الاجراءات القاسية التي اتخذها يوشيا ، لم يتمكن أنصار يهوه أن يجتثوا كلياً عبادات الآلهة الأخرى في يهوذا . لقد لوحقت تلك العبادات في عهد يوشيا ملاحقة صلفة ، مع أنه من المحتمل أن يكون محررو كتاب الملوك قد بالغوا بحجم تلك الملاحقة كثيراً . و لكن في عهد سلوم (أو يهوآحاز) ابن يوشيا درجت العبادة الوثنية من جديد ، فراح الملوك اللاحقون (يهوياقيم و يهوياكين و صدقيا) أيضاً « يعملون الشر في عيني يهوه » (٢ مل ٢٤ : ١٩). إن هذه الكلمات تعني دائماً ـ لدى مؤلفي التوراة ـ التعبد للآلهة الغريبة .

إن إرميا الذي بقي يتنبأ في عهود كل أولئك الملوك (١ : ٢ — ٣) لا يكلُّ من جَلْد شعبه على غدره إزاء يهوه ، على « زناه » مع الآلهة الغريبة و على عبادة الأوثان . و من أحاديثه نعرف أن « بيوت » بعل قد تمَّ ترميمها من جديد في وادي ابن هنوم المريع ، حيث كان يجري حتى تقريب الضحايا البشرية (٣٢ : ٣٥). كما نعرف أن عبادات الآلهة المصرية و الرافدية قد لاقت انتشاراً واسعاً ، خصوصاً عبادة « إلهة السماء »، إيزيس المصرية ، أو عشتار البابلية . و يطلق إرميا على

لسان يهوه سخطه لأجل ذلك : « أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا و في شوارع أورشليم . الأبناء يلتقطون حطباً و الآباء يوقدون النار و النساء يعجنَّ العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات . . . لكي يغيظوني » (٧ : ١٧ – ١٨)، « لأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا و بعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزي مذابح للتبخير للبعل » (١١ : ١٣).

إن غيظ يهوه من التعبد للآلهة الأخرى سيّان على الأغنياء و الفقراء ، على الوجهاء و الناس العاديين : « أما أنا فقلت إنما هم مساكين . قد جهلوا لأنهم لم يعرفوا طريق يهوه قضاء الههم . أنطلق الى العظماء واكلمهم لأنهم عرفوا طريق يهوه قضاء الههم . أما هم فقد كسروا النير جميعاً و قطعوا الرُّبُط » (٥ : ٤ – ٥)، لكن هؤلاء ، كما تبين أسوأ من المساكين : « مثل قفص ملآن طيوراً هكذا بيوتهم ملآنة مكراً . من أجل ذلك عظموا و استغنوا . سمنوا لمعوا . أيضاً تجاوزوا في أمور الشر . لم يقضوا في الدعوى دعوى اليتيم . و قد نجحوا . و بحق المساكين لم يقضوا » (٥ : ٢٧ – ٢٨).

إن إرميا يشمئز خصوصاً من أن هؤلاء المتجاوزين ، المتعبدين للآلهة « الوثنية »، لا يعتبرون سلوكهم هذا خيانةً ليهوه أبداً . فهم يقربون الذبائح المترتبة ، بشكل دوري ، و يعتقدون أنهم ينفذون ـ بما فيه الكفاية ـ واجباتهم تجاه الههم ، و بالتالي ، يتوجب على يهوه أن يصون شروط « العهد »، أي أن يرسل مطراً على حقولهم و يحميهم من الأعداء ، الخ . لكن عبثاً يأملون . فيهوه ساخط عليهم : « أتسرقون و تقتلون و تزنون و تحلفون كذباً و تبخرون للبعل و تسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها ثم تأتون و تقفون أمامي في هذا البيت الذي دعي باسمي عليه و تقولون قد أُنقذنا . حتى تعملون كل هذه الرجسات » (٧ : ٩ – ١٠) ، ولكن يهوه لا يحتاج تقدمة هؤلاء المنافقين : « محرقاتكم غير مقبولة و ذبائحكم لا تلذُّ لي » (٦ : ٢٠).

مثلما عاموس و هوشع و إشعيا ، و بنفس الكلمات تقريباً ، ينوح إرميا على انحطاط الأخلاق و الظلم الاجتماعي السائدين في الشعب : « و يختِلُ الانسان صاحبه و لا يتكلمون بالحق . . . بفمه يكلِّم صاحبه بسلام و في قلبه يضع له كميناً » (٩ : ٥ ، ٨).

http://www.al-maktabeh.com

و لكن أكثر ما يسبب لإرميا الحنق هو سلوك زملائه من أنبياء أورشليم . فكل الشر منهم ، لأنهم بالتعاون مع الكهنة يضللون الشعب الاسرائيلي . فهم أنفسهم « يفسقون و يسلكون بالكذب و يشددون أيادي فاعلي الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن شره . . . »، فانتقلت عدوى الشر من أنبياء أورشليم الى كل الأرض : « هكذا قال يهوه رب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم . فانهم يجعلونكم باطلاً . يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم يهوه . . . و يقولون لكل من يسير في عناد قلبه لا يأتي عليكم شر » . . . « قد سمعتُ ما قالته الأنبياء الذين تنبؤوا باسمي بالكذب قائلين حلمت حلمت . . . النبي الذي معه حلم فليقص حلماً و الذي معه كلمتي فليتكلم بكلمتي بالحق . . . ها أنذا على الأنبياء يقول يهوه الذين يأخذون لسانهم و يقولون قال ». و بعد أن يرسم إرميا هذه اللوحة الحية عن أخلاق الأنبياء ، يعدهم عن لسان الاله بـ « عار أبدي و خزي أبدي » (٢٣ : ١٤ — ٤٠).

يمكننا أن لا نشك بأن خصوم إرميا ، أنبياء أورشليم ، كانوا يتحدثون عن إرميا بنفس التعابير تقريباً ، أما هو فقد كان يعتبر نفسه ـ صادقاً ، على ما يبدو ـ رسولاً إلهياً حقيقياً مدعواً أن ينقل للشعب كلمة يهوه التي وضعتها يد الاله في فمه . و بقي يطلق نبوءاته بلا كلل على مدى ثلاثة عقود تقريباً ، معرِّضاً نفسه أكثر من مرة للملاحقة و مغامراً بحياته أحياناً ، بعد أن اكتسب الكثير من الأعداء الأقوياء . لقد أصبح إرميا « انسان خصام و انسان نزاع مع كل الأرض » (١٥ : ١٠). و هو يشكو أعداءه الى الاله بمرارة : « فقالوا هلموا فنفكر على إرميا . . . وأنت يا يهوه عرفت كل مشورتهم عليَّ للموت و لا تصفح عن إثمهم »، « سلِّم بنيهم للجوع وادفعهم ليد السيف فتصير نساؤهم ثكالى و أرامل و تصير رجالهم قتلى الموت و شبانهم مضروبي السيف في الحرب » (١٨ : ١٨ — ٢٣).

و مع ذلك ، ما الذي كان السبب الرئيسي في العداء بين إرميا و خصومه ؟ عمَّ كان يتجادل و يتخاصم « مع كل الأرض ».

يبدو أن النبي قد اكتسب أعداء ليس فقط بسبب الخلاف حول قضايا الديانة . و على أية حال لم يكن النقاش نقاشاً تجريدياً حول مضمون فكرة الاله . فالرأي الذي تكلم به إرميا عن إله اسرائيل ما كان يجب أن يبدو لقرائه و مستمعيه

أمراً جديداً يستدعي الاحتجاج .

كان إرميا يلح على أن آلهة الوثنيين لا تستحق السجود : « لأنها شجرة يقطعونها من الوعر . صنعة يدي نجار بالقدوم . بالفضة و الذهب يزينونها و بالمسامير و المطارق يشدُّونها فلا تتحرك . هي كاللعين في مقثاة فلا تتكلم . تُحمل حملاً لأنها لا تمشي . لا تخافوها لأنها لا تضر و لا فيها أن تصنع خيراً . . . الآلهة التي لم تصنع السموات والأرض تبيد من الأرض و من تحت هذه السموات » . أمر آخر - يهوه ! فهو اله حقيقي . انه هو « صانع الأرض بقوته مؤسس المسكونة بحكمته و بفهمه بسط السموات . . . مصور الجميع و اسرائيل قضيب ميراثه »، إنه ملِك الأمم و سلطته تمتد حتى على الأقوام التي لم تدعُ باسمه (١٠ : ٣ — ١٦ ، ٢٥). ان اسرائيل شعب مختار عقد معه يهوه « عهداً » منذ القدم : « اسمعوا صوتي و اعملوا به حسب كل ما آمركم به فتكونون لي شعباً و أنا أكون لكم الهاً »، « ملعون الانسان الذي لا يسمع كلام هذا العهد » (١١ : ٤ ، ٣).

كان إرميا يعلِّم أن يهوه ليس كلي الجبروت و حكيماً فحسب ، بل هو أيضاً عادل ، منصف ، و يطلب الشيء نفسه من الناس . إنه يعاقب على الشر و يكافىء على الخير (٣٢ : ١٩)، و هو يقف من شعبه أيضاً موقف إنصاف . فشعب يهوذا قد غاص الآن في الخطايا و هو يخون الهه ، فاستحق العقاب على ذلك : سيتوقف يهوه عن ارسال المطر الى الحقول و سوف يموت الناس جوعاً . كما سيرسل الاله جحافل الشعوب الغريبة على يهوذا ، فيعرِّضونها للنهب و الخراب و يسبون سكانها الذين سيضطرون لخدمة الغرباء في بلاد غريبة . لكن يهوه لن يبيد شعبه نهائياً (٥ : ١٥ — ١٩ و غيرها) . حتى أن بوسعه إسقاط حكمه عن الفرد المعين أو الشعب المعين ، فهما بين يدي الاله كما الطين بين يدي الفخّاري . أما يهوه نفسه ، فيشرح سلوكه على لسان النبي هكذا : « تارةً أتكلم على أمةٍ و على مملكة بالقلع و الهدم و الاهلاك فترجع تلك الأمة التي تكلمت عليها عن شرها فأندم عن الشر الذي قصدتُ أن أصنعه بها » (١٨ : ٦ — ١٠). واذا تابت اسرائيل و صححت سلوكها ، فان يهوه سيعيد رأفته اليها و يقيم من جديد دولتها و عندئذٍ سوف تعلو الأصوات المبتهجة في مدن يهوذا و شوارع أورشليم من جديد ، ممجدةً الاله يهوه

http://www.al-maktabeh.com

(٣٣ : ١٠ — ١٢).

كل هذا سبق لسكان يهوذا أن سمعوه من الأنبياء السابقين . و بوسعنا الافتراض بأن أنبياء يهوه معاصري إرميا و خصومه كانوا أيضاً يبشرون بأشياء مماثلة ، سيما أن « سفر الشريعة » المقدس كان الآن يُلزمهم بذلك ، حيث كانت الوصية الأولى و الأهم هي استثنائية يهوه و تحريم عبادة الأصنام : « أنا هو يهوه إلهك . . . لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما » (٥ : ٦ — ٨).

أما بالنسبة لممارسة العبادة ، فإن إرميا لم يطرح أيضاً أية مطالب خاصة . فلا نستطيع أن نرى فيه نصيراً لتوحيد السامي التجريدي ، « رافضاً شجاعاً لإعطاء أي مغزى ديني للطقوس »،(٤٤) كما يفعل ذلك الباحثون اللاهوتيون . فإرميا لم يكن عدواً لتقريب الضحايا و التبخير ، و حيث يؤكد إرميا أن التبخير و الحرق غير مرضيَيْن ليهوه ، يكون المقصود هو تلك الحالات التي يقوم بالتقريب فيها المرتدون عن يهوه ، الذين « مولعون بالربح » و « يعملون رجساً »، بمن فيهم الكهنة و الأنبياء الذين يتصرفون على هذا النحو (٦ : ١٣ ـ ٢٠). لكن إرميا ذاته، وفي مكان آخر ، عندما يتنبأ بالمستقبل النيِّر لاسرائيل التائبة ، يجد أن الكهنة و اللاويين ، « في كل الأيام » سوف يقومون بإصعاد المحرقات و بحرق التقدمات و تهيئة الذبائح (٣٣ : ١٨).

فاذاً ، لم تكن النظرات الدينية للنبي إرميا هي السبب في الموقف غير الودي الذي يشكو منه في نبوءاته أو في الملاحقة التي يتعرض لها من جهة الكهنة والأنبياء و الأسياد و الملك . و رغم أن تزمُّت إرميا ـ على الأرجح ـ كان يستفز ، و بقوة ، معاصريه (الذين كانوا بأغلبيتهم يعتبرون أنه لابأس للمرء ، بعد أن يقدم التضحيات المطلوبة « في بيت يهوه »، أن يعير بعضاً من اهتمام للآلهة الأخرى أيضاً)؛ رغم ذلك فإن إرميا قد اكتسب أعداءه بسبب مواقفه السياسية . فكل نبوءاته تقريباً تحمل طابعاً سياسياً ساطع البروز . إنها مرتبطة أوثق الارتباط مع الوضع السياسي الداخلي و الخارجي بالنسبة ليهوذا أواخر القرن السابع ـ أوائل القرن السادس .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

(٤٤) الموسوعة اليهودية المجلد الثامن ص٦٢٠ .

http://www.al-maktabeh.com

كما سبق القول ، دخل إرميا في دور النبي - اذا صدقنا كلامه هو - في عام ٦٢٦ أو ٦٢٥ . و في هذه السنوات بالذات كان قد جرى في آسيا الغربية عدد من الأحداث المهمة : في عام ٦٢٧ مات الملك الآشوري آشور بانيبال ، و بعد ذلك فوراً ، في السنة التالية (٦٢٦) انفصلت بابل عن آشور . و استفاد الاسقوثيون من ضعف آشور ، فاجتاحوا سوريا و فلسطين و نهبوا المدن الفلسطينية ثم انسحبوا بلا عقاب نحو الشمال الى وطنهم . كان يمكن اذاً للمرء توقع هجوم آخر من جهتهم . و خلال العقدين التاليين تم التحطيم النهائي للامبراطورية الآشورية ، التي كانت جبارة يوماً ما ، تحت ضربات بابل و ميديا اللتين تقاسمتا فيما بينهما كل أملاك آشور السابقة . و كان المُتوقَّع لسوريا و فلسطين ، بما في ذلك يهوذا ، أن تصبح فريسة سهلة لبابل بزعامة الملك نبوخذنصر الثاني .

لكن مصر أيضاً قررت أن تشارك في تقاسم الإرث الآشوري . حتى أن الفرعون نخاو حاول تقديم المساعدة للحاميات العسكرية الآشورية في سوريا الشمالية ، آملاً في وضع اليد على هذه الأخيرة ، لكنه مُني بالفشل . فقد هزمه نبوخذنصر في سوريا ، في معركة كركميش ، و اضطر نخاو أن يتراجع الى مصر ، لكي يستجمع قواه من جديد و يتابع الصراع ضد بابل .

كانت سنوات حكم يوشيا ، بالنسبة ليهوذا ، سنوات رخاء نسبي . فقد مرَّ الاسقوثيون الى الغرب منها ولم يمسوا جدياً أملاك يوشيا ، لا بل إنه تمكن في السنوات التالية لذلك أن يستغل ضعف آشور و يبسط سيطرته على بعض المناطق التي كانت تدخل يوماً ما في قوام مملكة اسرائيل و أصبحت فيها بعد أملاكاً لملوك آشور . لقد توقفت يهوذا عن دفع الأتاوة لآشور ، و هنالك أسس للافتراض بأن إصلاحاتٍ ما ذات طابع اجتماعي قد أجريت في عهد يوشيا . فمثلاً ، صدر قانون حول الحد من فترة عبودية الديون و تم بعض الترشيد لشؤون القضاء . و إرميا ، في إحدى مداخلاته ، يمتدح يوشيا لأنه « أجرى حقاً و عدلاً . . . قضى قضاء الفقير والمسكين» (٢٢ : ١٥ : ١٦)، لكن يوشيا أنهى عهده - كما أشرنا سابقاً - على نحو ليس بحسن .

بعد موت يوشيا اعتلى العرش ، بدايةً ابنه يهوآحاز ، الذي أزعج فرعون مصر بشيءٍ ما بعد عدة أشهر ، فعزله الفرعون و استجلبه الى مصر ، حيث أنهى

http://www.al-maktabeh.com

حياته فيها . عندئذٍ قام نخاو بتنصيب يهوياقيم ، الابن الآخر ليوشيا ، ملكاً على يهوذا (٦٠٩ – ٦٩٣).

كان يهوياقيم ، باعتباره صنيعة مصر ، ينتهج توجهاً موالياً لمصر . و رغم أن محاولة الفرعون نخاو الرامية الى إيقاف تقدُّم البابليين فشلت ، لم يفقد آماله في بسط سلطته على سوريا ، فدعم - لأجل هذه الغاية - كل محاولات المالك الصغيرة في سوريا و فلسطين الساعية الى مقاومة بابل وهي تتقدم .

في كل تلك الممالك كان يجري صراع بين نزعتين في السياسة الخارجية ، كانت إحداها تميل تجاه مصر و الأخرى نحو بابل . لقد كانت مصر و بابل تشكلان ، على حد سواء ، خطراً على الوجود المستقل ليهوذا الصغيرة ، و كان من الصعب على المرء أن يقرر أي الجارحَيْن المذكورَيْن أخطر من الآخر و لدى أي منهما يجب تلمُّس العون . لقد كان هنالك حزب قوي مُوالٍ لمصر لدى بلاط الملك اليهوذي يهوياقيم . و لكن كان يوجد في صفوف وجهاء يهوذا مجموعة موالية لبابل أيضاً ، و قد تقوَّت مواقعها خصوصاً بعد هزيمة المصريين في كركميش .

ولم يكن هنالك وحدة في الرأي بين الأنبياء اليهوذيين أيضاً ، اذْ كان كثيرون منهم يؤيدون الحزب الموالي لمصر ، بمن في ذلك النبي ذو الشعبية حننيا الذي تنبأ بعد حين ، أمام الشعب في معبَد يهوه بأورشليم - وعلى لسان الاله - بسقوط بابل القريب : « هكذا قال يهوه . هكذا أكسر نير نبوخذنصر ملك بابل في سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب » (٢٨ : ١١).

كان إرميا قد أعلن في مداخلته المبكرة ، أيام الملك يوشيا ، أن الاله نفسه قد وكله و ناداه لإعلان إرادة و نوايا يهوه ليس فقط ازاء اسرائيل ، بل و تجاه الشعوب الأخرى . و هكذا زج نفسه في الصراع السياسي بين الحزب الموالي لمصر و الحزب الموالي لبابل ، ووقف الى جانب الحزب الثاني ، بل و ربما ترأسه .

يصعب القول الى أية درجة كانت تقود إرميا البصيرة الثاقبة لرجل الدولة ، الذي كان يفهم أن الخلاص الوحيد من الانقراض الكامل لشعبه هو الخضوع لبابل دونما مقاومة (هذا هو رأي الكثير من الباحثين)[٤٥]، والى أية درجة كانت

---

(٤٥) توكرايف . مرجع سابق المجلد الثاني ص٧٣ .

تحركه دوافع أخرى . بين الأنبياء الآخرين الذين كانوا يؤيدون التوجه نفسه الموالي لبابل ، نعرف فقط اسم أوريا ابن شمعيا (٢٦ : ٢٠ — ٢٣).

إن كتاب إرميا يعطينا انطباعاً حول حالة العقول في يهوذا تلك السنوات . كانت قلوب الناس ممتلئة رعباً و يأساً أمام الكارثة المحدقة . أين الخلاص ؟ من المُنجِد ؟ الى أي اله يجب التوسل ؟ فالبعض واثق من أن يهوه لن يسمح للوثنيين أن يسيطروا على أرضه و على « بيته فوق صهيون » و كانوا ، في محاولة لإقناع أنفسهم يرددون كالتعويذة : « هيكل يهوه هيكل يهوه هيكل يهوه هو » و « قد أُنقِذنا » (٧ : ٤ ، ١٠)، بينما كان البعض الآخر يفقد الايمان بإلهه ، فيقول بحسرة : « لا يرى آخرتنا » و يتوجه الى يهوه شاكياً : « يا رجاء اسرائيل مخلِّصه في زمان الضيق لماذا تكون كغريب في الأرض و كمسافر يميل ليبيت . . . . كجبار لا يستطيع أن يخلِّص » (١٤ : ٨ — ٩). و هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يؤمنون بقوة الههم كانوا يطلبون من الآلهة الغريبة (٧ : ٣١ — ٣٢). و كان الكثيرون يأتون الى الأنبياء و يطالبون بالسؤال عن « كلمة يهوه » لمعرفة المستقبل . و كان الأنبياء يجيبون بأشكال مختلفة . فبعض الأنبياء من معاصري إرميا كان يفضِّل إعطاء أجوبة مهدِّئة عن لسان الاله : « لا ترون سيفاً و لا يكون لكم جوع بل سلاماً ثابتاً أعطيكم في هذا الموضع » (١٤ : ١٣). أما الآخرون فكانوا يتهمون هؤلاء بالكذب و بأنه « لاتوجد فيهم كلمة يهوه » و يتنبأون بأكثر المصائب هولاً : القحط و الجوع و هجوم الأعداء الأجانب و خراب البلد و تهديم المدن و سبي سكانها و موتهم . هكذا كان يتنبأ إرميا . فقد كان يهوه يطلق حكمه بحق يهوذا على لسان النبي : « ها أنذا أجلب عليكم أمةً من بعدٍ يا بيت اسرائيل يقول يهوه . أمة قوة أمة منذ القديم أمة لا تعرف لسانها و لا تفهم ما تتكلم به . جعبتهم كقبر مفتوح . كلهم جبابرة . فيأكلون حصادك و خبزك الذي يأكله بنوك و بناتك . . . يهلكون بالسيف مدنك الحصينة التي أنت متكل عليها » (٥ : ١٥ — ١٧).

كان الناس ، أثناء سماعهم لتهديدات يهوه ، يسألون النبي مذعورين : « لماذا ؟»، فكان النبي ينقل إليهم جواب يهوه : « و يكون حين تقولون لما صنع يهوه الهنا بنا كل هذه . تقول لهم كما أنكم تركتموني و عبدتم آلهة غريبة في أرضكم

http://www.al-maktabeh.com

هكذا تعبدون الغرباء في أرض ليست لكم » (٥ : ١٩).
مع ذلك كان النبي يَعِد معزّياً مستمعيه : « و أيضاً في تلك الأيام يقول يهوه لا أفنيكم » (٥ : ١٨). و بعد ذلك يَعِد إرميا ـ مثلما الأنبياء القدامى هوشع و إشعيا و غيرهما من قبله ـ بانبعاث اسرائيل من لدن «البقية» التائبة والراجعة ، في المستقبل غير المحدد . و لكن ذلك كان عزاء ضعيفاً لمستمعيه . فما كان بوسعهم أن يفهموا منطق يهوه : ماذا سيجري لمدينته أورشليم و ل « بيت يهوه »، أي لمعبد أورشليم الذي على جبل صهيون ؟ و في إحدى المرات أجاب إرميا على ذلك : « يكون هذا البيت و تكون هذه المدينة خربة بلا ساكن »، و كانت هذه النبوءة في السنوات الأولى من حكم يهوياقيم و داخل معبد أورشليم ذاته ، حين اجتمع هنالك جمهور من الشعب : « و سمع الكهنة و الأنبياء و كل الشعب إرميا يتكلم بهذا الكلام في بيت يهوه . و كان لما فرغ إرميا من التكلم بكل ما أوصاه يهوه أن يكلم كل الشعب به أن الكهنة و الأنبياء و كل الشعب أمسكوه قائلين تموت موتاً » (٢٦ : ٧ — ٨). و لكنه وُجِد أناس دافعوا هذه المرة عن النبي ، « فقام أناس من شيوخ الأرض و كلموا كل جماعة الشعب . . . » (٢٦ : ١٧)، فنجا إرميا من الموت . لكن نبياً آخر من أنبياء يهوه هو أوريا بن شمعيا ، الذي كان يتنبأ « بكل كلام إرميا »، فقد دفع حياته ثمناً لذلك : « أتوا به الى الملك يهوياقيم فضربه بالسيف و طرح جثته في قبور بني الشعب » (٢٦ : ٢٠ — ٢٣).
في إحدى المرات اشترى إرميا إناءً فخارياً و أخذ معه « من شيوخ الشعب ومن شيوخ الكهنة » و توجه الى وادي بني هنوم ، مكان العبادات الوثنية ، فكسر الاناء هنالك و نطق ب « كلمة يهوه » الجديدة : « هكذا أكسر هذا الشعب و هذه المدينة كما يكسر وعاء الفخاريّ بحيث لا يمكن جبره بعد ». إن مثل هذا الفعل كان يُفهَم في الزمن القديم ليس فقط كإجراء رمزي ، بل و كفعل سحري يسبب النحس . ففي مصر كانوا ، عند اعتلاء الفرعون الجديد لعرشه ، يكتبون على جدران الأوعية الفخارية أسماء الأعداء ، الداخليين و الخارجيين و يضيفون كلمة « فليمت » و يكسرون تلك الأوعية . و في فلسطين ، أيضاً ، تم العثور أثناء الحفريات الأثرية (الأركيولوجية) على صيغ لِلَعنات مماثلة على جماجم فخارية . لذلك فان الكاهن فشحور رقيب معبد أورشليم ، بعد أن سمع بفعلة إرميا ، لم

يكتفِ بضربه و حسب ، بل و منعه من الظهور في المعبد (١٩ : ١ — ١١ ؛ ٢٠ : ٢).

في العام السابع لملكه (عام ٦٠٣) اضطر الملك يهوياقيم - رغم كل شيء - الى الاعلان عن خضوعه لبابل ، فالتزم بقطع الاتصالات مع مصر و دفعِ الأتاوة لنبوخذنصر . و لكنه توقف بعد ثلاث سنوات عن دفع الأتاوة ، فهوجمت يهوذا فوراً من قبل جيرانها من الشعوب التي حفظت الولاء لبابل : المؤابيون و الآراميون و العمونيون . في عام ٥٩٨ مات يهوياقيم و سلّم العرش لابنه يهوياكين . وفي هذه السنة ذاتها اجتاح نبوخذنصر يهوذا بجيشه و حاصر مدينة أورشليم ، فاستسلم يهوياكين (عام ٥٩٧ قبل الميلاد)، و سُبي الملك اليهوذي مع كل بلاطه و كهانه و جيشه الى بابل ، كما سُبي الى هناك أيضاً حِرَفيوا أورشليم ، في حين أُبقي سكان الريف في أماكنهم . و نصّب نبوخذ نصر الابن الثالث ليوشيا ، صدقيا ، ملكاً على بقية سكان يهوذا . كما أن نبوخذنصر أخرج معه « جميع خزائن بيت يهوه و خزائن بيت الملك » (٢ مل ٢٤).

في تلك السنوات كان إرميا يبدي المزيد من الالحاح مطالِباً بالخضوع لبابل و حمل نيرها بخنوع ، لأن تلك مشيئة يهوه . و أرسل إرميا رسالة الى سكان يهوذا المسبيين من قبل نبوخذنصر الى بابل (إر ٢٩). في هذه الرسالة يحاول النبي ، باسم يهوه ، أن يُقنِع أبناء قومه الذين يعيشون في الأسر بأن يلتزموا سراط الخضوع التام لملك بابل و لا يعوّلوا على عودة سريعة الى الوطن ، لأنه « هكذا قال يهوه . اني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم و أقيم لكم كلامي الصالح بردُّكم الى هذا الموضع » (٢٩ : ١٠).

رغم ذلك ، قامت يهوذا بمحاولة أخرى لخلع النير البابلي ، فقد تشكل تحالف جديد ضد بابل ، دخل فيه هذه المرة المؤابيون و الإدوميون و العمونيون و المدينة الفينيقية الكبيرة صور و المدينة الفينيقية الأخرى صيدا ، و من جديد كانت مصر تقف وراءهم ، مستجمعةً قواها لأجل الصراع مع بابل .

و حين ظهر في أورشليم رُسُل دول التحالف لأجل إجراء المفاوضات ، تلقى إرميا « كلمة يهوه » الجديدة التي نقلها ليس الى الملك صدقيا لوحده ، بل و الى أولئك الرُسُل الأجانب أيضاً . فقد أمره يهوه : « أوصِهم الى سادتهم قائلاً .

http://www.al-maktabeh.com

هكذا قال يهوه رب الجنود اله اسرائيل . . . اني انا صنعت الأرض و الانسان و الحيوان الذي على وجه الأرض . . . و أعطيتها لمن حسن في عيني . و الآن قد دفعتُ كل هذه الأراضي ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدي . . . و يكون ان الأمة التي لاتخدم نبوخذنصر ملك بابل . . . . اني أعاقب تلك الأمة بالسيف و الجوع و الوباء يقول يهوه حتى أفنيها بيده . . . و الأمة التي تدخِل عنقها تحت نير ملك بابل و تخدمه اجعلها تستقر في أرضها يقول يهوه و تعملها و تسكن بها » (٢٧ : ٤ — ١١). عدا عن ذلك ، تلقى إرميا من يهوه أمراً بأن يعطي « آية » للبرهان على الكلام الذي قيل : « هكذا قال لي يهوه . اصنع لنفسك ربطاً و أنياراً و اجعلها على عنقك و أرسلها الى ملك ادوم و الى ملك موآب و الى ملك بني عمون و الى ملك صور و الى ملك صيدون بيد الرسل القادمين الى أورشليم . . . . » (٢٧ : ٢ — ٣). و فعل النبي كذلك و جاء الى معبد أورشليم ، حيث وقع صدام بين الأنبياء الذين يمثلون الحزبين المتعاديين ، فتكلم ضد إرميا أحد أنبياء يهوه وهو حننيا الذي نزع النير الخشبي عن رقبة إرميا و كسره و أعلن ، بدوره ، على لسان يهوه : « هكذا قال يهوه . هكذا أكسر نير نبوخذناصر ملك بابل في سنتين من الزمان . . . . » (٢٨ : ١٠ — ١١).

في هذه الأثناء قرر الفرعون المصري آبرياس ، أخيراً ، أن يخرج بجيشه لمعونة أورشليم المحاصرة ، فترك الجيش البابلي حصار المدينة لفترة من الزمن و تحرك للقاء المصريين ، فانتعشت في يهوذا الآمال بالخلاص ، و قرر إرميا الرحيل عن أورشليم و الذهاب الى عناتوث ، و لكن تم توقيفه عند بوابة المدينة : « إنك تقع للكلدانيين ». هكذا أُدخِل إرميا الى الزنزانة ، فتابع من هناك ، عبر أناس أوفياء له ، التحريض على تسليم أورشليم للملك البابلي : « . . . هكذا قال يهوه . الذي يقيم في هذه المدينة يموت بالسيف و الجوع و الوباء . أما الذي يخرج الى الكلدانيين فانه يحيا و تكون له نفسه غنيمة فيحيا »، لأن « هذه المدينة ستُدفع دفعاً ليد جيش ملك بابل فيأخذها » (٣٨ : ٢ — ٣). و حين علم بذلك « الرؤساء » الذين كانوا يشرفون على دفاع المدينة ، طالبوا الملك بإماتة إرميا : « ليُقتَل هذا الرجل لأنه بذلك يضعف أيادي رجال الحرب الباقين في هذه المدينة . . . . هذا الرجل لا يطلب السلام لهذا الشعب بل الشر » (٣٨ : ٤). هكذا

رُمي إرميا في بئر عميق ملؤه الأوساخ ، حيث كان يمكنه أن يموت لولا تدخُّل أحد رجال البلاط ، الذي كان بالطبع نصيراً سرياً للحزب الموالي لبابل ، و الذي جاء بسماح من الملك فأخرج النبي من البئر ، لكنه تركه في الزنزانة .

في هذه الأثناء مُنيَ آبرياس بالهزيمة على يد البابليين و عاد الى مصر ، فاستمر حصار أورشليم . و في تموز عام ٥٨٦ تم اختراق أسوار أورشليم و تم احتلال المدينة من قبل البابليين و تهديمها هذه المرة بشكل كامل تقريباً . فقد هُدِّمت أسوار المدينة و أُحرِق معبد يهوه الذي بُني منذ أيام سليمان . و حاول صدقيا الهروب و لكن أُلقي القبض عليه : « فقتل ملك بابل بني صدقيا في ربلة أمام عينيه و قتل كل أشراف يهوذا . و أعمى عيني صدقيا و قيده بسلاسل نحاس ليأتي به الى بابل ... و بقية الشعب الذي بقي في المدينة و الهاربون الذين سقطواله و بقية الشعب الذين بقوا سباهم نبوزرادان رئيس الشُرط الى بابل . و لكن بعض الشعب الفقراء الذين لم يكن لهم شيء تركهم نبوزرادان .... في أرض يهوذا و أعطاهم كروماً و حقولاً في ذلك اليوم » (٣٩ : ٤ — ١٠). لم يكن للملك بابل مصلحة في الخواء الكلي للأراضي من سكانها ، فمن الذي سيدفع الأتاوة عندئذٍ ؟ أما بالنسبة لإرميا ، الذي كان نبوخذنصر ـ طبعاً ـ على علم بنشاطه الموالي لبابل ، فقد أصدر الملك أمراً خاصاً لنبوزرادان : « خذه و ضع عينيك عليه و لا تفعل به شيئاً رديئاً كما يكلمك هكذا افعل معه » (٣٩ : ١١ — ١٢).

لقد تم تخيير إرميا : « ان حسُن في عينيك أن تأتي معي الى بابل فتعال فاجعل عيني عليك . و ان قبح في عينيك ان تأتي معي فامتنع . انظر . كل الأرض هي أمامك فحيثما حسُن و كان مستقيماً في عينيك ان تنطلق فانطلق الى هناك » (٤٠ : ٤). و لسوء طالعه ، اختار إرميا البقاء في يهوذا .

بعد حين ، قتل أنصار مصر الباقون في يهوذا صنيعة البابليين جدليا و هربوا الى مصر ليحميهم الفرعون و اختطفوا إرميا و سكرتيره باروك (الذي كان يلازمه دوماً) غصباً عنهما . و رغم نبوءة إرميا الأخيرة التي قال فيها ، عن لسان يهوه ، أن مصر ستلاقي نفس مصير يهوذا ، لم يشن نبوخذنصر حرباً على مصر و لم يحتلها ، في حين بقي إرميا في مصر و مات في البلد الغريب .

لم تتحقق نبوءات حننيا المناصر للحزب الموالي لمصر ، وربما لهذا السبب لم

http://www.arabicmaktabeh.com

تُكتَب لها الحياة ، و لكن إرميا أيضاً أخطأ حين تنبأ أن نبوخذنصر سيحتل مصر و سيضع عرشه في قصر الفراعنة ، فهذا ما لم يتمكن من إنجازه لا نبوخذنصر و لا ملوك بابل الذين تلوه . كذلك فإن « كل الشعوب » لم تخدم نبوخذ نصر و ابنه و ابن ابنه ، كما تنبأ بذلك إرميا أيضاً عن لسان يهوه (٢٧ : ٤ — ٨). كما أن يهوه الذي حدد مسبقاً ، على لسان إرميا أن اليهوذيين سيمكثون في الأسر ٧٠ سنة بالتمام أخطأ أيضاً . ففي الواقع ، استمر الأسر البابلي بالنسبة لأولئك الذين سبيوا أول الأمر (عام ٥٩٧) مدة ٥٨ عاماً (حتى ٥٣٩) و ليس ٧٠ عاماً . و يمكن أن نجد في كتاب إرميا عدداً غير قليل من النبوءات المماثلة التي لم تتحقق ، فهي على الأرجح أكثر من تلك التي « تحققت ». أما بالنسبة لهذه الأخيرة ، فيجب أن يؤخذ بعين الاعتبار كون قسم هام من كتاب إرميا يتكون من إضافات متأخرة . فمثلاً ، اعتبر الباحث إيخفورن في القرن الثامن عشر أن الاصحاحَيْن ٥٠ و ٥١ هما إضافة متأخرة ، إذ تبدو بعض المقاطع فيهما تكراراً حرفياً لإضافات متأخرة على كتاب إشعيا . في هذين الاصحاحين نبوءة حول هجوم « ملوك مادي » على بابل (٥١ : ١١) و حول سقوط بابل التي ستُباد مثل سدوم و عمورة و ستتحول الى كومة أنقاض ، الى صحراء و مرتع لبنات آوى . لم يكن بوسع إرميا أن يكتب ذلك . فهنا نلمس يد المحرر اللاحق ، الذي هو ـ ربما ـ نفسه مؤلف الاصحاحين ١٣ و ١٤ في كتاب إشعيا . فحديث النبي يختلط بشكل فوضوي مع معطيات سيرة حياته (إر ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ والزيادة التي تتناول سيرة إرميا في الاصحاحات ٣٤ — ٤٥). إن الاصحاح ٥٢ هو اقتباس من الاصحاح ٢٥ في كتاب الملوك الثاني ، وهو أيضاً أضيف لاحقاً ، كما تشهد على ذلك الكلمات الأخيرة في الاصحاح ٥١ : « الى هنا كلام إرميا ». من الواضح أن هذه المقاطع قد أضيفت من قبل شخص كان يعرف جيداً حياة النبي إرميا ، و الأرجح أنه رفيق درب إرميا الدائم و تلميذه الوفي باروك بن نيريا .

لقد كان تاريخ النص الذي يتشكل منه كتاب إرميا تاريخاًمعقداً بما فيه الكفاية . ففي النص ذاته نلتقي عدة مرات بذكرٍ لتسجيلات مداخلات النبي حين كان على قيد الحياة (٢٥ : ١٣ ؛ ٣٦ : ٢ — ٤). و يبدو أنه في تلك الفترة ذاتها صدرت أكثر من « طبعة » من نبوءاته . فالاصحاح ٣٦ ينبئنا أن إرميا تلقى

أمراً من يهوه في العام الرابع لملك يهوياقيم (٦٠٥): « خذ لنفسك درْج سفر و اكتب فيه كل الكلام الذي كلمتك به على اسرائيل و على يهوذا و على كل الشعوب من اليوم الذي كلمتك فيه من أيام يوشيا الى هذا اليوم » (٣٦ : ١ — ٢). فنادى ارميا رفيق دربه الوفي و سكرتيره باروك و راح يملي عليه.

في أول كتاب إرميا هنالك عنوان : « كلام إرميا . . . الذي كانت كلمة يهوه اليه في أيام يوشيا . . . و كانت في أيام يهوياقيم . . . الى سبي أورشليم في الشهر الخامس » (١ : ١ — ٣). إن مثل هذه الاضافة كان يمكنها أن تظهر فقط بعد سبي اليهوذيين الى بابل عام ٥٨٦ في نص يتضمن مجمل نبوءات إرميا، بما فيها تلك التي قيلت بين عامي ٦٠٥ و ٥٨٦ .

في آخر كتاب إرميا هنالك وصف لحوادث من حياة النبي في مصر ، حيث كان قد أخذ الى هناك قسراً بعد سيطرة بابل على يهوذا . لقد كانت تلك - اذا جاز التعبير- طبعة جديدة « متممة » من نبوءات إرميا ، و كل هذه التسجيلات قد دوّنها - على الأرجح - باروك المذكور ذاته ، كما هو أمر الإضافات المتعلقة بسيرة النبي .

لكن ، كما قلنا سابقاً ، جرت إضافات كثيرة على نص إرميا فيما بعد ، في مرحلة الأسر البابلي و في قرون ما بعد الأسر . علماً أن أغلب الاعتقاد هو أن عدداً كبيراً من التدوينات (المختلفة فيما بينها من حيث المضمون) كان يدور بين الأيادي في تلك الأيام بوصفه كتاب إرميا . و يبرهن على ذلك واقع أن الترجمة القديمة لكتاب إرميا الى اللغة اليونانية (القرن الثالث - القرن الثاني قبل الميلاد)، ضمن قوام الترجمة « السبعينية »، تختلف جوهرياً عن النص العبري الذي وصل إلينا . فهي تنقص عنه ب ٢٧٠٠ كلمة و لا تتضمن الكثير من الأجزاء و ترتيب الاصحاحات فيها يختلف . واضح أن المترجمين اليونانيين و « ناشري » النص العبري الذي وصل إلينا قد استخدموا تدوينَيْن مختلفين .

ثمة مقطع آخر في كتاب إرميا يتمتع بأهمية قيِّمة خاصة ، من وجهة نظر دارس التوراة . إنه الاصحاح ٣٦ ، الذي ترِد فيه الرواية حول كيفية تسجيل إحدى مداخلات النبي : كان إرميا في السجن ، الذي دخله بسبب مواقفه في صالح الحزب الموالي لبابل ، الملاحَق من قبل الحزب الآخر ، الموالي لمصر ، و على

http://www.al-maktabeh.com

رأسه الملك يهوياقيم . و كان النبي مهدداً بحكم الاعدام ، لكنه يُقْدم على خطوة مغامرة ، حين يستدعي كاتبه باروك ، « فكتب باروخ عن فم إرميا كل كلام يهوه الذي كلمه به في درْج السفر . و أوصى إرميا باروخ قائلاً . أنا محبوس لا اقدر أن أدخل بيت يهوه . فادخل أنت و اقرأ في الدرْج الذي كتبتَ عن فمي كل كلام يهوه في آذان الشعب في بيت يهوه» (٣٦: ٤ - ٦). لقد طبق باروك وصية إرميا وقرأ المكتوب في اللفافة (في آذان كل الشعب) وفي اليوم ذاته قُيِّض لباروك مرة ثانية أن يقرأ تسجيلاته أمام « الرؤساء »، مستشاري الملك الذين انتزعوا منه اللفافة و جاءوا بها الى الملك . و بأمر من الملك تمت قراءة حديث إرميا للمرة الثالثة في ذلك اليوم . و حين كان يهوديْ قارىء الملك يقرأ « ثلاثة شطور أو أربعة » يعمد الملك الى قصها « بمبراة الكاتب » و يلقيها « الى النار التي في الكليون حتى فني كل الدرج . . . ».(٣٦ : ٢٣).

و من جديد « صارت كلمة يهوه الى إرميا »: « عدْ فخذ لنفسك درْجاً آخر و اكتب فيه كل الكلام الأول الذي كان في الدرج الأول الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا . . . فأخذ إرميا درجاً آخر و دفعه لباروخ . . . فكتب فيه عن فم إرميا كل كلام السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار و زيد عليه أيضاً كلام كثير مثله » (٣٦ : ٢٨ ، ٣٢).

من هذه الرواية يمكننا استخلاص عدة استنتاجات مهمة بخصوص تدوين أحاديث إرميا و بغير هذا الخصوص أيضاً .

من الواضح أن إرميا لم يكن بوسعه أن يتذكر كل الكلام الذي « قاله » له يهوه عن اسرائيل و عن يهوذا و كل الشعوب خلال ثلاث و عشرين سنة مرت منذ لحظة نبوءته الأولى حتى يوم التدوين المعني . و من الواضح أن التسجيل الذي قام به باروك كان موجزاً لدرجة كانت تسمح فعلاً بقراءة ثلاث مرات خلال يوم واحد فقط .

بالتالي ، لم يكن لدى إرميا نية أن يعيد تلاوة « كلام يهوه » بدقة ، ففي التسجيل الثاني (الذي تم ليكون بديلاً عن الأول) لم يخجل النبي أن يزيد عليه « كلاماً كثيراً مثله ».

إن ما أملاه إرميا على باروك لم يكن أبداً تسجيل الأحاديث القديمة ، بل

هو حديث جديد ، جرى تأليفه فوراً من قبل النبي ، وهو مرتبط بالموقف الحاد الناشىء آنذاك في البلد . و يمكن الحكم على مضمون ذلك الحديث من خلال الملاحظة التي أبداها الملك يهوياقيم وهو يحرق اللفافة بعد قراءتها : « لماذا كتبتَ .. قائلاً مجيئاً يجيء ملك بابل و يُهلك هذه الأرض و يلاشي منها الانسان و الحيوان » (٣٦ : ٢٩). فالشيء الرئيسي في الحديث كان مضمونه السياسي و هو بالذات ما استدعى سخط الملك .

نحن لا نتناول هنا السؤال حول ما اذا كان النبي فعلاً يؤمن بأن الكلام الذي يخطر بباله هو فعلاً من وحي يهوه ، أم أن « الاقتطاف » من يهوه على الدوام كان ، بالنسبة لإرميا ، طريقة خطابية معتادة . على أية حال ، فان إرميا ، حين أملى ذلك الحديث على الكاتب مرتين ، قد تصرف كما يتصرف أي خطيب يؤلف أحاديثه بنفسه و دون أي تدخُّل ما فوق طبيعي و دون أن يكرر الكلام المُنزَل عليه من الاله . و لذا لم يتورع إرميا عن إضافة « كلام كثير مثله » على التدوين الثاني لحديثه الذي أملاه على باروك .

كما أننا هنا في غنى عن الخوض في الدافع الرئيسي وراء النشاط النبوي لإرميا . فثمة هنالك نقاشات بلا نهاية تدور حول هذا الأمر منذ زمن بين دارسي كتاب إرميا . و اذا كان البعض يرى في النبي مناضلاً متعصباً من أجل وضع احتكاري لعبادة يهوه في اسرائيل ، فإن البعض الأخر يضع في المرتبة الأولى تبشير إرميا في مداخلاته ب « الانبعاث الأخلاقي للأمة التي غاصت في الفسق و العار ». و اذا كان البعض يرى إرميا شخصاً يفكر تفكيراً واقعياً تماماً ، و سياسياً رصيناً يستخدم هيبة الاله لأجل بلوغ أهدافه السياسية الصرفة (لا بل أن البعض يشك فيرى فيه خائناً اشتراه ملك بابل)، فإن البعض الأخر يمدح إرميا بوصفه رجلاً وطنياً حقيقياً بلا أطماع ، كان يتمنى لشعبه الخلاص من الهلاك المحدق به . و باستخدام أماكن مختلفة من كتاب إرميا ، يمكننا العثور على حجج لصالح أية واحدة من النظريات المذكورة .

طبيعي أن إرميا في عدد من مداخلاته يعتبر أن من واجبه (مثله مثل أنبياء يهوه الأخرين بمن فيهم ـ ربما ـ خصمه السياسي حننيا ، أن يلوم شعب اسرائيل ويهوذا على خيانته لإلهه ، على كون اليهوذيين يخرقون « عهد » يهوه وكونهم لا زالوا

http://www.al-maktabeh.com

يبخرون لبعل و عشتروت و الآلهة الآخرين . و كما الأنبياء الآخرون ، من أسلافه و معاصريه ، يعبّر إرميا ، في كثير من مقاطع كتابه ، عن سخطه و سخط الاله يهوه على السقوط الأخلاقي ليهوذا و ينهال بالتهديد على أولئك الذين يسرقون و يقتلون و يرتادون بيوت الزانيات و يفسقون و يقسرون الأرامل و الأيتام و يرتشون ، ثم يأتون المعبد و يكررون « هيكل يهوه هيكل يهوه هيكل يهوه » و « قد أنقذنا ». و النبي يطالب يهوذا ، باسم يهوه ، بتصحيح سلوكها ، ففي هذه الحالة فقط لن يحرمها الاله من رعايته و حمايته و سيتركها في أرضها . لكن كل هذه الأحاديث تبدو بمثابة « كلام عام »، و كأنها ترديد لأحاديث الأنبياء القدامى ، بل هي أحياناً تكرار حرفي لها . أما الاهتمام الحقيقي و الحماس و الألم الروحي فنلمسها كلها لدى إرميا في المقاطع التي يسيطر عليها الموضوع اليومي الحارق ، الموضوع السياسي .

لا داعي للمبالغة في « السمو الروحي » لإرميا . و لا توجد أسس لأن نعتبر (كما يعتبر ر. كيتل و غيره من دارسي التوراة اللاهوتيين) أن الحركة النبوية و ديانة العهد القديم عاشت ، من خلال شخص إرميا ، ذروة ازدهارها . فقد كان إرميا رجل عصره و كانت تصوراته عن الخير و الشر ، عن العدالة و الانصاف ، عن الاله و العلاقة بين الانسان و الاله ، تتناسب مع ذلك العصر . في إحدى مداخلاته يقدم لنا إرميا نفسه بمثابة « خروف داجن لله و لكنه بعد حين يطالب يهوه بإلحاح أن ينتقم بقسوة و بلا شفقة من أبناء بلدته عناتوث على الأذى الذي سببوه له ، لإرميا ، يوماً ما : « دعني أرى انتقامك منهم »، فيَعِد يهوه نبيَّه بكامل الرِقّة : « هأنذا أعاقبهم . يموت الشبان بالسيف و يموت بنوهم و بناتهم بالجوع . و لا تكون لهم بقية لأني أجلب شراً على أهل عناتوث سنة عقابهم » (١١ : ١٩ — ٢٠ ، ٢٢ — ٢٣). أما تصورإرميا حول الاله فكان أيضاً بعيداً عن « السمو الروحي » و عن التوحيد المتّسق . و كما يشير أ. لودس بحق ، فإن مشروع التوحيد كان يهم أنبياء اسرائيل و يهوذا بقدر قليل على العموم . لقد كان كافياً بالنسبة لهم أن يُقنعوا شعبهم بجبروت يهوه و عجز آلهة الشعوب الأخرى أمامه . و لكنهم ، حين المناسبة ، كانوا يعترفون بواقعية معينة تتصف بها الآلهة الغريبة .(٤٦) و لم يكن إرميا استثناءً من القاعدة .

(٤٦) انظر : Lods A مرجع سابق .P.468

في المقابل ، أدخل إرميا شيئاً جديداً على تبرير يهوه . فقد سبق أن أشرنا أن هنالك قاسماً مشتركاً بين عاموس و هوشع و إشعيا و غيرهم من الأنبياء القدماء السابقين لإرميا ، رغم كل الاختلافات فيما بينهم . و هذا القاسم المشترك مميِّز للتبرير في مرحلته المبكرة : هنالك صدام بين الاله و شعبه ! و حجج المدافعين عن يهوه تتطور حصراً ضمن أطر نمط التفكير القديم ، المرتبط بالعلاقة الجماعية مع الاله، وذلك حتى عندما كان يتم مزج التفكير القديم بشيء جديد. فعاموس، يضفي على يهوه صفة العدالة العليا و في الوقت ذاته يعتبر من الممكن تماماً أن تنسجم مع تلك الصفة مسؤولية الشعب كله عن تجاوزات حفنة من الوجهاء الظالمين . و كذلك بالضبط لدى إشعيا ، يتوجب على كل اسرائيل أن تُسبى لأن الملك و مستشاريه خرقوا مشيئة يهوه المعلَنة على لسان الأنبياء .

والمكافأة من يهوه أيضاً يجب أن يتلقاها كل الشعب أو « بقيته التي ترجع ». آنذاك لم يكن يجري النظر الى العلاقات بين الاله و الفرد و لا يتم أخذها بالحسبان .

لقد كان التبرير لدى الأنبياء يبنى كلياً على مبدأ العقاب . فالاله عادل و يجازي على الأعمال : الخير بالخير و الشر بالشر .

من الأهمية بمكان الاشارة الى سمتين مميزتين اتصفت بهما ديانة اسرائيل القديمة . الأولى هي وحدانية تلك الديانة . لقد كان غريباًجداً على ديانة يهوه ـ في مرحلة ما قبل الأسر ، على أقل تقدير ـ ازدواجية من نمط ازدواجية الديانة الايرانية . فاذا كانت ديانة إيران القديمة تبجِّل ، إضافة الى الاله الخيِّر أهورامزدا ، الإله الشرير أهريمان الذي يساويه من حيث الجبروت ، فإن الخير و الشر ، بالنسبة للاسرائيليين القدامى ، كانا ينبعان من يهوه بدرجة متساوية . أما الشيطان (بالعبرية « شاطان » = الغريم ، الواشي) فكان يقوم لدى العبرانيين بدور مختلف تماماً ، إذ كان واحداً من « بني الله » (أي ١ : ٦ ؛ ٢ : ١)، أي إلهاً من درجة أدنى ، خاضعاً للإله و منفذاً وظيفة خصوصية ، حيث كان يتوجب عليه تجريب و اتهام الناس ، بناءً على تكليف يهوه .[٤٧]

---

(٤٧) انظر : Scharf R. Die gestalt des Satans in Alten testaments. Zurich, 1953 S.254.

http://www.al-maktabeh.com

أما الخصوصية الثانية للديانة العبرانية (على الأقل حتى القرن الثاني قبل الميلاد)، فكانت غياب الفكرة حول الثواب الأبدي . ففي مصر ، مثلاً ، منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، صيغ المذهب القائل بأن روح الانسان بعد موته يجب أن تذهب الى حقول يالُو الهانئة أو تتعرض لآلام مريعة و تموت في فوهة غول مخيف ، و ذلك تبعاً لسلوك الانسان في حياته .(٤٨)

كان الاسرائيليون القدامى يؤمنون بأن الروح ، بعد موت الجسد ، تهبط الى مملكة شيول المظلمة الواقعة تحت الأرض . فهنالك مكان الظلام و النسيان ، حيث الأرواح التي بلا جسد تعيش حياة أشباح أسوأ من اللاحياة ، و هذا المصير ينتظر ـ على حد المساواة ـ الخيِّر و الشرير ، التقي و الكافر و « ليس لهم أجر » (جاو : ٥).

لكن إذا كانوا يرون في يهوه الإله الذي يكافىء على الأعمال ، و إذا كان التصور حول شيول لا يرتبط بنظرية الثواب الأبدي ، فإنه كان يمكن تصوُّر الثواب الصادر عن الإله ممكناً فقط على الأرض ، أثناء الحياة و على شكل خيرات دنيوية ، مادية . هكذا يتم تصوير الأمر في كتاب التثنية (الذي دخل في قوامه ، كما صرنا نعرف الآن ، « سفر الشريعة » الذائع الصيت)، حيث يَعِد يهوه أن يكافىء اسرائيل على طاعتها : « و يزيدك يهوه خيراً في ثمرة بطنك و ثمرة بهائمك و ثمرة أرضك »، « يجعل يهوه اعداءك القائمين عليك منهزمين أمامك »، « يقيمك يهوه لنفسه شعباً مقدساً. . . » (تث ٢٨ : ١١ ، ٧ ، ٩).

لم تكن هذه الفكرة تصطدم بأية صعوبات في ديانة يهوه ، طالما كان الأمر يدور حول الثواب بالنسبة للجماعة ، قبيلة كانت أم شعباً ككل (اسرائيل). كان يهوه يَعِد « شعبه المختار » بالازدهار ، فيما اذا التزم بشروط « العهد »، و بالعقاب الصارم في حالة الخيانة (تث ٢٨ : ١٥ — ٦٨). أما في كتابَيْ القضاة و الملوك ، فإن نجاح و فشل الاسرائليين يُربطان مباشرةً بالوفاء ليهوه . واضح أن الأبرياء ، في ظل مثل هذا التعامل « الجماهيري »، كانوا غالباً ما يعانون الى جانب المذنبين ، لكنهم كانوا أعضاء جماعة مذنبة واحدة ، و لذلك لم تكن معاناة الأبرياء تستثير الشك في عدل يهوه و إنصافه .

(٤٨) توكاريف . مرجع سابق المجلد الأول ص١٨٥—١٨٧ .

http://www.al-maktabeh.com

و هكذا ، طالما كانت عملية التبرير مُلزِمةً فقط بأن تبرر يهوه في موقفه من اسرائيل ككل ، بوصفها شعباً ، كانت العملية مقنعة بما فيه الكفاية : اسرائيل ترتكب التجاوزات و الاله عادل ، يعاقب شعبه على آثامه . وطالما هذا الشعب يخطىء ، بوسع يهوه أن يجعله تحت سلطة الغرباء ، لا بل أن يبيد جزءاً منه على يد الوثنيين الذين يتعبدون لآلهة أخرى . لكن عندما تندم اسرائيل و تعود إلى إلهها ، سوف يبدل يهوه ، عندئذٍ ، غضبه الى شفقة ، و سوف تُنقَذ اسرائيل و تستعيد مجدها و عظمتها . قد ينفذ الإله ذلك في المستقبل القريب ، و قد يموت الناس الأحياء حالياً قبل أن يأتيهم الخلاص . لكن سوف يعيش شعب اسرائيل ، و بالتالي فإن الثواب سيكون مرة أخرى أثناء الحياة و على الأرض .

مرَّ الزمان ، و كانت اسرائيل القديمة تتحول من مجموعة قبائل و عشائر تربط بينها التقاليد القبلية الى جماعة من الأشخاص المنفردين و العوائل الصغيرة المتفرقة التي لم تعد مترابطة بواسطة المفاهيم القديمة حول المنشأ المشترك و المسؤولية الجماعية ، إن كان أمام البشر أم أمام الإله . كان اليهوذي الفرد ، معاصر إرميا ، يعتبر أنه مسؤول شخصياً عن تصرفاته و غير مسؤول عن تصرفات الآخرين ، بمن فيهم أقرباؤه و أبناء قومه . و بالتدريج كان يجب أن يبدو غير عادل مفهوم المسؤولية الجماعية للبعض عن خطايا الآخرين ، مسؤولية كل الشعب عن خطايا جزء منه ، مسؤولية الفرد عن خطايا الشعب ، بما في ذلك خطايا الأهل و الأقرباء . إذْ لا يتوجب على الأبناء أن يكونوا مسؤولين عن خطايا آبائهم و الآباء مسؤولين عن خطايا أبنائهم .

ربما كان إرميا أول واحد بين الأنبياء العبرانيين اعتبر نفسه مُلزَماً بالإجابة على هذه المتطلبات الجديدة التي ظهرت في الوعي الاجتماعي ، تلك المتطلبات التي كانت ، من حيث الجوهر ، تنطوي على اتهام ليهوه بعدم العدالة إزاء البشر . لقد قُيِّض لأرميا ـ وفق كلامه هو ـ أن يسمع أكثر من مرة في معرض الرد على لومه لاسرائيل بخصوص خياناتها التي لاحصر لها في الماضي البعيد السؤال التالي : هل من العدل بمكان من جهة يهوه أن ينتقم للخطايا القديمة ؟ اذا كان الأجداد يخطئون ، لماذا يجب أن يعاني أحفادهم البعيدون ؟ فاتخذ إرميا خطوة جريئة و أكد للناس عن لسان يهوه أن الأخير سوف يعقد مع شعبه في القريب العاجل عهداً

http://www.al-maktabeh.com

جديداً : « في تلك الأيام لا يقولون بعدُ الآباء أكلوا حصرماً و أسنان الأبناء ضَرِسَتْ . بل كل واحد يموت بذنبه كل انسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه » (٣١ : ٢٩ — ٣٠). يبدو أن النبي سمع هذا المثل من مستمعيه غير ذي مرة ، طالما أنه يقتبسه في نبوءته . و لكن هذا لم يكن كافياً لتهدئتهم . ذلك لأن تأكيد النبي بأن الذي سيأكل الحصرم (أي يسلك سلوكاً كافراً) فقط هو الذي سوف تضرس أسنانه (أي يلقى العقاب من يهوه) كان يتناقض (أي التأكيد) مع الواقع على نحو سافر : فبالذات كان يعاني الأبرياء و الأتقياء و ليس « المتجاوزون ». طبعاً كان إرميا نفسه يعي ذلك و لا يعرف كيف يربط هذا التناقض مع مفهوم عدالة الاله ، لدرجة أنه تجرأ أن يطرح هذا السؤال على الاله ، و لكن بأكثر الأشكال خشوعاً : « أَبَرٌّ أنت يا يهوه من أن أخاصمك . لكن لن أكلمك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار . اطمأن كل الغادرين غدراً ». كان هذا السؤال مجرد بلاغة ، إذْ لم يوجد جواب عليه لدى يهوه ، و بالتالي لدى النبي . و لم يكن ممكناً وجود جواب . و هكذا ، ينهي إرميا كلامه الى يهوه برجاء حار : مع ذلك ، فليعاقب الاله هؤلاء الناس الكفار و الغادرين : « افرزهم كغنم للذبح و خصصهم ليوم القتل » (١٢ : ١ — ٣).

بعد كتاب إرميا ، جاء في التوراة عمل أدبي صغير تحت عنوان « مراثي إرميا ». و لكن لا يوجد في نص هذا الكتيِّب ما يشير الى أن الذي ألفه هو إرميا بالذات . بينما يشهد التحليل النقدي على منشئه المتأخر عن زمن إرميا . و هو يضم خمس مرثيات تنوح على الكوارث التي أصابت أورشليم و يهوذا من جراء الاحتلال البابلي ، و على الأغلب فهي مؤلفات كُتَّاب من عهد الأسر أو حتى ما بعد الأسر .

حبقوق :

بين معاصري إرميا ـ على ما يبدو ـ كات هنالك نبي آخر ، وردت نبوءاته في التوراة عبر واحد من أصغر كتب الأنبياء هو كتاب حبقوق الذي يبدأ بعبارة : « الوحي الذي رآه حبقوق النبي ». و هذه العبارة ، طبعاً ، إضافةٌ لاحقة من قبل المحرر و ليست للنبي نفسه ، كما هو الأمر أيضاً بالنسبة لبداية الاصحاح الثالث ،

http://www.al-maktabeh.com

الأخير : « صلوة لحبقوق النبي على الشجوية ».
عدا عن ذكر حبقوق في هاتين العبارتين لا نعرف عنه شيئاً ، كما أن تعيين التاريخ الذي تم فيه تدوين نبوءاته مجازي الى حد كبير.
تبدأ نبوءة حبقوق بشكواه الموجّهة الى يهوه : « حتى متى يا يهوه أدعو و أنت لا تسمع أصرخ إليك من الظلم و أنت لا تخلّص ». و يصف النبي الظلم و التطاولات المنتشرة حوله : « جمدت الشريعة و لا يخرج الحكم بتةً لأن الشرير يحيط بالصدِّيق فلذلك يخرج الحكم معوجاً » (١ : ٢ ، ٤). بعد ذلك ، فوراً و بلا نقلة ، يبدأ حديث يهوه : الإله يهدد بإقامة الكلدانيين على الشعب المذنب : « فها أنذا أقيم الكلدانيين الأمة المارة القاحمة السالكة في رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها .... يأتون كلهم للظلم ... و يجمعون سبياً كالرمل . و هي تسخر من الملوك ... و تضحك على كل حصن و تكوم التراب و تأخذه » (١ : ٦ ، ٩ - ١٠). إنه لعدو مخيف ، لكن النبي يؤمن ، مع ذلك ، بأن يهوه لن يسمح بالهلاك النهائي للشعب : « ألست أنت منذ الأزل يا يهوه إلهي قدوسي . لا نموت . يا يهوه للحكم جعلتها و يا صخر للتأديب أسستها » (١ : ١٢). و كأن النبي يرسم صورة وضعٍ يشير الى سنوات حكم نبوخذنصر الثاني في بابل ، أي الى زمن ذورة الجبروت بالنسبة لبابل . أما الشكاوى بصدد الاضطرابات الداخلية و التجاوزات في البلد ، يمكن أن تكون شهادة على أن النبي كان يعيش لحظتها في وطنه . هذا الجزء من النبوءة يعود ، على الأرجح ، الى سنوات مُلْك يهوياقيم ، قبل السبي الأول (٥٩٧) بقليل . من الملفت للنظر أن حبقوق - و كأنه يكرر إرميا - يطرح على يهوه ذات السؤال الوَجِل حول موقف الاله غير المفهوم و غير المنصف تجاه البشر : « عيناك أطهر من أن تنظرا الشر و لا تستطيع النظر الى الجور فلمَ تنظر الى الناهبين و تصمت حين يبلغ الشرير من هو أبرُّ منه » (١ : ١٣).
في الإصحاح الثاني ، يطلق النبي لعناتٍ على المحتل الذي : « كالموت فلا يشبع بل يجمع إلى نفسه كل الأمم و يضم الى نفسه كل الشعوب »، ثم يتنبأ : « لأنك سلبت أمماً كثيرة فبقية الشعوب كلها تسلبك لدماء الناس و ظلم الأرض و المدينة و جميع الساكنين فيها » (٢ : ٥ ، ٨). و هذه مداخلة مناسبة لفترة ما بين السبي الأول و السبي الثاني ، لا بل و لفترة ما بعد السبي الثاني .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الإصحاح الثالث هو ـ من حيث الشكل و المضمون ـ عبارة عن مزمور ، و ربما كان إضافة صدفية على مؤلَّف حبقوق .

أنبياء في الأسر البابلي

حزقيال: «القانون الكهنوتي» و«يوتوبيا»* الكهان

كان ملوك الآشوريين يسبون الشعوب. هكذا، سبى سرغون الثاني في عام ٧٢٢ عشر قبائل اسرائيلية من بلدها. أما نبوخذنصر فقد سبى فقط جزءاً من سكان يهوذا، وربما الجزء الأقل، فسبى بشكل رئيسي المدنيين من سكان أورشليم وبعض المدن الأخرى، وهم حرفيون: «جميع أصحاب البأس... والصناع والأقيان» (٢مل٢٤: ١٤ — ١٦)، ذلك أن عملية بناء ضخمة للقصور الجديدة والمعابد كانت تجري في بابل تلك السنوات، وكان الاختصاصيون من هذا النوع ضروريين. كذلك تم سبي الجنود ووجهاء يهوذا وكهانها. وجرى السبي على ثلاث دفعات: اول مرة في عام ٥٩٧، حين سلم الملك يهوياقين مدينة أورشليم طواعية للبابليين الذين سبوا مع الملك حوالي عشرة آلاف إنسان (٢مل٢٤: ١٤). أما السبي الثاني فجرى عام ٥٨٦ أيام صدقيا، حين تم تدمير أورشليم وحرق معبد يهوه وسبي الكثير من أهل المدينة (لاتشير المصادر الى العدد). وأخيراً، حدث السبي الثالث بعد خمس سنوات، حيث سبي ٧٤٥انسان الى بابل. إن العدد العام لليهوذيين الذين وجدوا في «الأسر البابلي» لايقبل التحديد، لأن التوراة تورد أرقاماً مختلفة ومتناقضة في مختلف الأماكن (٢مل٢٤: ١٤، إر٥٢: ٢٨—٣٠)

انطلاقاً من معطيات المصادر إياها، لم يكن وضع المسبيين (أو وضع جزء

(*)يوتوبيا: تصور عن النظام الاجتماعي المثالي، أو مشروع للتحويلات الاجتماعية غير واقعي وغير قابل للتحقيق. المترجم

http://www.al-maktabeh.com

منهم، على الأقل) يشبه وضع العبودية أبداً. فالذين تمكنوا من جلب بعض الأموال معهم سمح لهم بشراء البيوت والأرض والعمل بالزراعة. لقد سبق لنا أن أشرنا الى الرسالة التي أرسلها إرميا الى المجموعة الاولى من المسبيين، وفيها كان النبي يقنع الأسرى بعدم التعويل على عودة سريعة الى الوطن ولكنه - بالمناسبة - كتب فيها أيضاً: «ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها... لاتغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم... لانهم انما يتنبأون لكم باسمي بالكذب» (إر٢٦ : ٥، ٨، ٩). لقد كان إرميا يقصد الأنبياء ذوي النزعة الموالية لمصر، الذين لم يتوقفوا حتى في بابل عن التعويل على عودة سريعة الى الوطن، إذا هرع فرعون مصر الى مؤازرة يهوذا، حتى أن أحد اولئك الأنبياء، شمعيا، أرسل من بابل وشاية بحق إرميا، يتوجه بها الى الكاهن الأول لمعبد أورشليم، صفنيا، ويطالبه: «قد جعلك يهوه كاهناً عوضاً عن يهوياداع الكاهن لتكونوا وكلاء في بيت يهوه لكل رجل مجنون ومتنبىء فتدفعه إلى المقطرة والقيود. والآن لماذا لم تزجر إرميا العناثوثي المتنبىء لكم. لأنه لذلك أرسل إلينا إلى بابل قائلاً انهامستطيلة» (إر٢٩ : ٢٦ - ٢٧).

لكن بين تلك الدفعة الاولى من المسبيين ذاتها، كان هنالك رجل لم يشاطر إرميا آراءه فحسب، بل راح يبشر بها بنفسه ويطورها أكثر، وكان اسم هذا الرجل حزقيال.

كان حزقيال ينحدر من نسل الكهنة الصادوقيين العريق ومن عائلة عاشت في نفس أورشليم وربما كانت ضمن ملاك المعبد المركزي باورشليم، لابل ربما كان حزقيال نفسه قد قام بمهام الكاهن. على أية حال، وكما يتبين من نبوءاته كان حزقيال يعرف نظم المعبد وطبوغرافيته من الداخل معرفة جيدة، وكان مطلعاً على ما يجري في أكثر الغرف سرية، كما كان يسعى الى تبرير احتكار الصدوقيين لممارسة الوظائف الكهونية الرئيسية في المعبد، على أساس الحق الذي منحه الصدوقيون لأنفسهم بعد اصلاح يوشيا (حز٤٤ : ١٠ - ١٤).

لقد حصل حزقيال، مثل إرميا، على تربية تتلاءم مع مكانته. وكان على معرفة جيدة ب «سفر الشريعة» وباقي كتب الأدبيات الدينية، وهذا ما يشهد عليه مضمون واسلوب نبوءاته، حيث أن مقاطع كثيرة فيها تكرر نصوص كتاب التثنية

أو نصوص كتب عاموس وهوشع وأشعيا ، ويشكل أكبر إرميا فقد كانت آراء هذا الأخير قريبة الى حزقيال خصوصاً.

وصل حزقيال الى بابل شاباً في عام ،٥٩٧ ضمن قوام الدفعة الأولى من المسبيين.

ويبدو أن حزقيال بدأ يتنبأ فقط في بابل، في السنة الخامسة لأسره ، أي عام ٥٩٢ . وكما لدى الأنبياء الآخرين بدأ ذلك عنده من رؤيا «نجد وصفاًتفصيلياً لها في بداية الكتاب (حز١ : ١ — ٢٨)

كان النبي على ضفة الخابور عندما «انفتحت السموات. . .واذا بريح عاصفة جاءت من الشمال . سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان. . . ومن وسطها شبه أربع حيوانات وهذا منظرها: لها شبه انسان. ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول، وأيدي انسان تحت اجنحتها على جوانبها الأربعة. . . أما شبه وجهها فوجه انسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ووجه ثور من الشمال لأربعتها ووجه نسر لأربعتها. وكل واحد كان يسير الى جهة وجهه. الى حيث تكون الروح لتسير تسير. . . . الحيوانات راكضة وراجعة كمنظر البرق. . . . واذا بكرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة. منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد. . .و. . .كأنها كانت بكرة وسط بكرة. . . وأطرها ملآنة عيوناً حواليها للاربع. .روح الحيوانات كانت في البكرات. وعلى روؤس الحيوانات شبه مقبب كمنظر البلور الهائل منتشراً على روؤسها من فوق. . . . وفوق المقبب. . . شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه كمنظر انسان عليه من فوق . . . من منظر حقويه الى فوق ومن منظر حقويه الى تحت رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها»

إن« شبه الأنسان »، الجالس على «شبه العرش»، الذي رآه حزقيال، كان بالطبع هو يهوه ذاته. وعندئذ، يقول حزقيال،«خررت على وجهي» لكن الاله أمره بأن ينهض، وتوجه إليه بحديث: «ياابن آدم قم على قدميك. . .أنا مرسلك الى بني اسرائيل الى أمة متمردة قد تمردت علي. هم وآباؤهم عصوا علي الى ذات هذا اليوم. . . وهم ان سمعوا وان امتنعوا. لانهم بيت متمرد. فأنهم يعلمون إن

http://www.al-maktabeh.com

كان نبياً بينهم» (٢ : ١ — ٥). وبعد هذه الكلمات بسط يهوه يده وفيها « درج سفر»، نشره الاله أمام النبي : « وهو مكتوب من داخل ومن قفاه وكتب فيه مراث ونحيب وويل». ثم يأمر يهوه حزقيال أن يأكل ذلك الدرج ويكرر له الأمر بالذهاب الى بيت اسرائيل وقول كلام الإله لهم، رغم أن «بيت اسرائيل لايشاء أن يسمع لك ». بعد ذلك سمع حزقيال « صوت أجنحة الحيوانات. . . وصوت البكرات معها وصوت رعد عظيم » وكان ذلك يعني أن يهوه ابتعد. لكن، يؤكد حزقيال، « يد يهوه كانت شديدة علي » هكذا أصبح حزقيال نبياً (٣: ١ — ١٤)

ترك حزقيال بيته وجاء الى تل أبيب وهي بلدة أخرى على نهر الخابور، حيث كان أيضاً يعيش المسبيون اليهوذيون ، وهناك صارت إليه من جديد« كلمة يهوه» التي شرح فيها الإله للنبي واجباته: « ياابن آدم قد جعلتك رقيباً لبيت اسرائيل. فاسمع الكلمة من فمي وانذرهم من قبلي . اذا قلت للشرير موتاً تموت وما أنذرته انت ولاتكلمت انذاراً للشرير من طريقه الرديئة لإحيائه فذلك الشرير يموت باثمه اما دمه فمن يدك اطلبه. وان انذرت أنت الشرير ولم يرجع عن شره ولاعن طريقه الرديئة فإنه يموت باثمه. أما أنت فقد نجيت نفسك. والبار إن رجع عن بره وعمل إثماً وجعلت معثرة أمامه فانه يموت . لأنك لم تنذره في خطيته ولا يذكر بره الذي عمله اما دمه فمن يدك أطلبه . وان انذرت أنت البار من أن يخطىء البار وهو لم يخطىء فانه حيوة يحيا لأنه أنذر وأنت تكون قد نجيت نفسك» (٣ : ١٧ ـ ث٢١) .

واعتباراً من هذه اللحظة أصبح سلوك حزقيال سلوك نبي. فالأنبياء القدامى كانوا يرون«رؤى» ويأتون ب«آيات» وحزقيال يؤكد لنا أنه، بعد الرؤيا الأولى التي سبق وصفها، رأى عدة رؤى مشابهة . بمشاركة الخيروبيم المجنحة الشبيهة بالعجول، التي تحمل عرش يهوه (في بعض الاماكن تم استبدال اسم يهوه، للتبجيل، ب«مجد يهوه». هذا ، وكان الإله يتوجه الى النبي كل مرة ب«كلمته» التي يكشف له فيها خططه بشأن مستقبل اسرائيل و — كقاعدة — يكلف حزقيال بتنفيذ الآية المعينة، واصفاً له بالتفصيل كيف يجب تحقيقها،وسوف نورد هنا مثالاً واحداً على تلك التوجيهات .

«وأنت يا ابن آدم فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة اورشليم. واجعل عليها حصاراً وابن عليها برجاً وأقم عليها مترسة واجعل عليها

جيوشاً وأقم عليها مجانق حولها. وخذ أنت لنفسك صباحاً من حديد وانصبه سوراً من حديد بينك وبين المدينة وثبت وجهك عليها فتكون في حصار وتحاصرها. تلك آية لبيت اسرائيل. واتكىء أنت على جنبك اليسار وضع عليه إثم بيت اسرائيل. على عدد الايام التي فيهاتتكىء عليه تحمل اثمهم، وانا قد جعلت لك سني اثمهم حسب عدد الأيام ثلاث مئة يوم وتسعين يوماً، فتحمل إثم بيت اسرائيل. فاذا أتممتها فاتكىء على جنبك اليمين ايضاً فتحمل إثم بيت يهوذا أربعين يوماً. فقد جعلت لك كل يوم عوضاً عن سنة ... وخذ لنفسك أنت قمحاً وشعيرا... وأصنعها لنفسك خبزاً على الخرء الذي يخرج من الانسان تخبزه أمام عيونهم.... هكذا يأكل بنواسرائيل خبزهم النجس بين الأمم الذين أطردهم إليهم». ثم يأمر يهوه نبيه بان يأخذ موسى ويقص من راسه ومن لحيته قسماً من الشعر وأن يقسم الشعر المقصوص الى أجزاء، فيحرق جزءاً ويقطع جزءا بالموسى ويبدد جزءاًمع الريح. ويوضح الإله أنه هكذا فعل هو بأورشليم ويهوذا لانهما رفضتا مشيئته ولا تتصرفان وفقاًلأحكامه، فأصبحتا أكثر كفراً من الوثنيين ولوثتا بنجاساتهما معبده (الإصحاحات ٤و٥).

منذ زمن بعيد تجري نقاشات حامية بين دارسي التوراة حول كيفية تقويم كل هذه «الرؤى» و «التجليات» و «الأيات» في كتاب حزقيال. البعض يرى فيها عودة الى الماضي القديم جداً، حين كان النبي يعتبر في الوقت ذاته مشعوذاً، قادراً على الفعل السحري والتأثير المباشر على المستقبل ، فيؤكدون أن حزقيال عندما مثل «حصار » اللبنة استخدم طريقة السحر التصويري «التمثيلي». وطرح البعض الآخر نظرية حول أن حماس حزقيال لـ «المداخلات السحرية» وغرابتها سببه الحالة الشاذة للنبي وأن تمدده بلاحراك على خاصرته أياماً كثيرة كان عبارة عن شلل تشنجي. أما البعض الثالث فيميل الى القول بأن هنالك الكثير من التصنع والحسابات في هذا الوصف. يقول ا. لوتس « إن الانطباع حول التصنع يصل درجة يميل معها ... الكثير من النقاد الى الاعتقادبأن حزقيال لم ير أية رؤى ولم يأت بأية آيات، بل ألف كل ذلك، ليس إلا» حتى أن مؤلف عدد من الابحاث حول العهد القديم، اللاهوتي البروتستانتي، دارس التوراة إدوارد رايس قد سمى حزقيال « نبياً» مكتبياً.

http://www.al-maktabeh.com

يبدو أن معاصري النبي من اليهوذيين الذين الذين كانو في بابل كانوا أيضاًينظرون إليه، في البداية، نظرةًانتقادية، وهذا قابل للتفسير. فكما أشرنا أعلاه، كان حزقيال ينتمي الى الأنبياء ذوي النزعة المواليةلبابل، الذين اعتبروا الخضوع لبابل أمراً حتمياً وفسروا المصائب التي لحقت بيهوذا وسببها على أنها عقاب عادل من جهة يهوه لشعبه على التجاوزات القديمة والحالية. لكن من الطبيعي أن الاسرى، في السنوات الاولى من اسرهم، كانوا يشعرون بشوق حار الى الوطن، كما حفظ لنا ذكرى ذلك المزمور١٣٦ : « على انهار بابل هناك جلسنا بكينا أيضاًعندما . تذكرنا صهيون. على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا. لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً. . . كيف نرنم ترنيمة يهوه في أرض غريبة. . . ان نسيتك يا اورشليم تُنسى يميني . . . يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا». واما إرميا، في رسالته الى اليهوذيين المسبيين لم يحاول أن يقنعهم بعدم التعويل على تحرير سريع ، فحسب ، بل وطلب منهم ـ كما نعرف ـ ما هو أكثر من ذلك، عن لسان يهوه: « اطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم اليها وصلوا لأجلها. . .لأنه بسلامها يكون لكم سلام » (إر٢٩ : ٧). هذا كان موقف حزقيال أيضاً، وما كان ممكناً ألا ينعكس ذلك على علاقته ببني قومه. أضف الى ذلك أن اليهوذيين الذين وجدوا أنفسهم في بابل لم يكونوا على ما يبدو — يتقبلونه جدياً، بشكل عام. لقد اشتكى حزقيال أكثر من مرة لربه بهذا الصدد: « آه يا يهوه الرب. هم يقولون أما يمثل هو أمثالاً»(٢٠ : ٤٩). فهل يمكن أن تكون خصوصيات شخصية حزقيال قد لعبت دورها؟ هنالك شهادة طريفة في كتابه حول هذه المسألة، وردت عن لسان يهوه. يقول الرب لنبيه: « وأنت ياابن آدم فان بني شعبك يتكلمون عليك . بجانب الجدران وفي أبواب البيوت ويتكلم الواحد مع الآخر الرجل مع أخيه قائلين هلم اسمعوا ما هو الكلام الخارج من عند يهوه. ويأتون اليك كما يأتي الشعب ويجلسون أمامك كشعبي ويسمعون كلامك ولايعملون به لانهم بأفواههم يظهرون أشواقاً وقلبهم ذاهب وراء كسبهم. وها أنت لهم كشعر أشواق لجميل الصوت يحسن العزف فيسمعون كلامك ولا يعملون به. واذا جاء هذا. لأنه يأتي. فيعلمون أن نبياً كان في وسطهم» (٣٣: ٣٠ — ٣٣). لاشك أن هذه الكلمات مليئة بشعور المرارة والإهانة.

لدى النبي، بينما تحمل عبارة«لانه يأتي» شعور الزهو بالنصر. لقد تحقق وحدث ما كان يتنبأ به إرميا وحزقيال، سقطت أورشليم. والآن سيضطر اولئك الذين كانوا يرون في النبي مجرد مغن يرفه عنهم أن يعترفوابكونه نبياً حقيقياً، نصبه الإله لكي يرشد ويكون «رقيباً» على شعبه.

ممن ومن ماذا كان على حزقيال أن يحمي شعب يهوذا؟ أية أخطار كانت تتهدديهوذا بعد، إذا كان هذا الشعب بالأصل قد تكبد مصيبة عظيمة ووقع أسيراً في بلد غريب؟ إن الخطر، كما يتبين، كان يهدد ديانة هذا الشعب، أو الاصح، ديانة يهوه.

نحن نذكر شكاوى الأنبياء التي لاحصر لها حول ميل الاسرائيليين الى العبادات الوثنية، حين كانوا في وطنهم . ومن كتاب إرميا يتضح أنه ، حتى بعد الإصلاح الديني ليوشيا (الذي وان كان لم يقمع نهائياًالعبادات الوثنية فقد أزاحها الى حد كبير لفترة من الزمن) ، رفعت الوثنية رأسها من جديد على عهد الملوك يهوياقيم ويوياكين وصدقيا. كان اليهوذيون الذين اختطفوا إرميا وهربوا به الى مصر بعد سقوط اورشليم يلومونه حانقين: «اننا لانسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم يهوه بل سنعمل كل أمر يخرج من فمنا فنجر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع اورشليم فشبعنا خبزاً ولم نر شراً. ولكن من حين كففنا التبخير لملكة السموات... احتجنا الى كل وفنينا بالسيف والجوع» (إر٤٤ : ١٦ — ١٨).

يتبين أن حزقيال كان شاهداً على حوادث الخيانة المقيتة من جهة شعب يهوذا بحق إلهه، وذلك في «بيت يهوه» بالذات، في معبد اورشليم. انه يروي ذلك عند وصفه لاحدى «رؤاه»: الاله يشد النبي من شعره ويرفعه «بين الأرض والسماء» وينقله الى اورشليم ويدخله الى معبد يهوه، وهناك يأمر الإله حزقيال أن يحفر في الجدار ويدخل الباب. فدخل حزقيال «واذا شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت اسرئيل مرسومة على الحائط على دائره. وواقف قدماها سبعون رجلاً من شيوخ بيت اسرائيل ويازنيا بن شافان قائم في وسطهم وكل واحد مجمرته في يده وعطر عنان البخور صاعد». بعد ذلك يأخذ يهوه حزقيال الى بوابة المعبد «واذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز»، وفي مكان آخر في البهو الداخلي

http://www.al-maktabeh.com

للمعبد، «بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل يهوه ووجوهم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس ». وبعد أن يرى يهوه هذه المشاهد لحزقيال في "الرؤيا"، يقول ساخطاً: «فأنا أيضاً أعامل بالغضب. لاتشفق عيني ولا أعفو. وان صرخوا في اذني بصوت عال لا اسمعهم »(حز، ٨).

ماكان بوسع حزقيال أن يختلق كل ماوصفه اختلاقاًتاماً. فمن المحتمل أنه شاهد أشياء مماثلة في معبد اورشليم قبل الأسر. وواضح انه وجد مكان في « بيت يهوه» للعبادات الوثنية. من الصعب القول ما الذي كانت ترمز إليه رسوم الحيوانات على جدران المعبد. فهل كانت تلك تصويرات للآلهة المصرية ذات الرؤوس الحيوانية؟ على كل حال، هنالك كل الأسس لأن نرى في تلك الجداريات، التي كان يجري أمامها التبخير وسكب الخمر، شكلاً من رواسب الطوطمية القديمة وعبادة الحيوانات، أما تموز، فهذا إله القوة النباتية للطبيعة، وهو يموت وينبعث ، فكان أتباعه ينوحون عند موته في وقت محدد من السنة، ثم يبتهجون لبعثة. هكذا، يتبين أنه كان في اورشليم « نسوة يبكين على تموز»، كما كان يجري السجود للشمس في معبد يهوه. فما هو الغريب في أن ديانة يهوه تعرضت لضغط قوي من جهة الوثنية، عندما وجدت يهوذا نفسها في بابل؟ لقد كان على انبياء وكهنة يهوه أن يعتبروا أنفسهم «رقباء» على دياناتهم.

حتى أن باحثاً ذا أمزجة لاهوتية مثل . كلاوزنر، في المقالة التي كتبها عن حزقيال لأجل «الموسوعة اليهودية» اضطر للاعتراف بأن « حزقيال لم يدخل على التصور حول جوهر الإله أية سمات جديدة، ذات طابع متميز بالسمو. على العكس من ذلك، نجد النبي في رؤاة (١: ١٠و٤٣ – ٦) يحيط الإله يهوه بكائنات شبه انسانيه وحتى شبه حيوانيه، كانت فيها بعد اساساً لظهور التعليم المتعلق بالملائكه وبنهاية العالم. ولا شك ان ذلك لم يحدث بعيداً عن التأثير البابلي. فالخيروبيم لدى حزقيال تذكرنا كثيراًبالثور المجنح «كيروبو» لدى (٤٩) البابليين»

يمكننا الإضافة على ما قيل أن صفات الإله(كالشمولية والوجود الكلي والانصاف والعدالة) تتخذ عند حزقيال طابعاً اكثر فظاظة، حتى بالمقارنة مع

(٤٩)الموسوعه اليهودية. المجلد الثامن. ص ٥٧١

الانبياء السابقين له. فصفة الوجود الكلي، مثلاً، تتحقق من قبل الإله بواسطة المركبة الطائرة والخيروبيم — كيروبو المجنحة التي تستطيع نقل يهوه من بابل الى اورشليم او الى اي مكان آخر على الارض. كان إله عاموس يرعى ليس فقط اسرائيل، بل وكذلك رعى في حينه الآرامين والإثيوبيين والفلسطينيين. أما لدى حزقيال، فيهوه سينتقم من عمون ومواب ومن إدوم والفلسطينيين، لأنهم ليس فقط تشفوا لهلاك يهوذا، بل ونجسوا الاله نفسه ومعبده. وعلى لسان النبي يهدد يهوه شعب عمون بالهلاك: «من اجل أنك قلت هه على مقدسي لأنه تنجس وعلى ارض اسرائيل لأنها خربت وعلى بيت يهوذا لانهم ذهبوا الى السبي»(٣ : ٢٥).

لكن غالباًما يحدث أن يطلق دارسو التوراة، السابقون والمعاصرون، على حزقيال تهمة «الدوغماتية» والطموح الى تقديم مطالب يهوه على شكل فقرات قوانين وتوجيهات تفصيلية. وهؤلاء يلومون النبي لأنه، باسم الإله، طالب اليهوذيين بتطبيق صارم للالتزامات ليس فقط الأخلاقية بل والطقوسية أيضاً. فخلافاً عن التأكيدات «السامية» لدى الأنبياء القدامى ولدى إرميا حول أن المهم بالنسبة ليهوه هو السلوك التقي ولكنه لايحتاج الى القرابين والبخور، فان إله حزقيال يريد التقوى والقرابين أيضاً لأن المذبح «مائدة أمام يهوه»(٤١ : ٢٢). ويعد يهوه على لسان النبي بأنه، في مملكة اسرائيل التي سوف تبعث، سيعمل الكهنة «على المذبح محرقاتكم وذبائحكم السلامية فأرضى عنكم»(٣٤: ٢٧).

في محاولاتهم لتفسير السبب الذي جعل حزقيال يولي مثل هذه الأهمية للجانب الطقوسي من الدين، يكتب بعض الباحثين عن عودة مفاجئة من قبل الوعي الديني الى نظرات ديانة يهوه القديمة، حين كانت هذه الديانة تتضمن الكثير من عناصر الوثنية لدى الساميين، بما في ذلك التصور حول الدور السحري للقرابين. هذا، بينما يميل باحثون آخرون الى تفسير مجمل الأمر بـ « الطبيعة العملية » لحزقيال، التي كانت تميزه عن غيره من الانبياء. لاشك أن السبب الحقيقي كان يكمن في أن حزقيال جمع في شخصه بين النبي والكاهن في آن واحد وأن نشاطه كان يجري ليس في الوطن بل في القرية، في ظروف الأسر البابلي.

من الواضح أن حزقيال، كنبي عاش بنفسه في الأسر البابلي، كان يجب أن يعتبر من واجبه المباشر أن يحافظ على الايمان بيهوه لدى أنبياء قومه ويذكي فيهم

http://www.al-maktabeh.com

الأمل بتحسن مصيرهم إذا شاء ذلك الإله. كما أنه تنبأ بخصوص شعوب أخرى: عمون ومؤاب وإدوم وصور ومصر، واعداً إياها بانتقام يهوه لأن موقفها من اسرائيل ويهوذا كان سيئاً في الماضي ولأنها تشفت لمصائب يهوذا الحالية. لذلك سوف تبادر هي وتنبعث اسرائيل.

ولكن حين وصلت الى بابل الدفعتان الثانية والثالثة من المسبيين، كان يجب أن تنهض أمام أنبياء يهوه مهام جديدة، كما هو واضح.

في تلك السنوات ظهر بين اليهوذيين المسبيين عدد غير قليل من الناس الذين فقدوا في بابل الإيمان ليس فقط بقوة يهوه، بل وكذلك بثبات محبته لإسرائيل، فراحوا يتعبدون لآلهة تلك الأرض التي هم عليها ساكنون. وهذا هو بالذات ما كان يعنيه حزقيال حين يضع في فم يهوه تحذيراً قاسياً لضعاف النفس هؤلاء: «والذي يخطر ببالكم لن يكون إذ تقولون نكون كالأمم كقبائل الاراضي فنعبد الخشب والحجر. حيٌّ أنا... اني بيد قوية وبذراع ممدودة وبسخط مسكوب أملك عليكم» (٢٠ : ٣٢ — ٣٣). وفي الآن ذاته يبدو أن النبي كان يفهم أن التأثير على عقول بني قومه عبر الخوف وحده غير كافٍ، علماً أن الخوف كان قد خفّ في الموقف الناشيء، فقرر أن يلجأ إلى حجة أخرى إضافية: يؤكد حزقيال أن يهوه سيساعد حتماً شعبه، لأن له مصلحة في ذلك. لقد قال الإله نفسه ذلك: «فبددتهم في الأمم فتذروا في الأراضي... أنا يهوه... وآخذكم من بين الامم واجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم الى أرضكم... واجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها. وتسكنون الارض التي أعطيت آباءكم إياها وتكونون لي شعباً وأنا أكون لكم إلهاً... وأكثر ثمر الشجر وغلة الحقل لكيلا تنالو بعد عار الجوع بين الأمم... لامن أجلكم أنا صانع... فليكن معلوماً لكم... فتعلم الأمم الذين تركوا حولكم اني أنا يهوه بنيت المنهدمة» (٣٦ : ١٩ — ٣٢). يصعب القول، الى أي حد مارست هذه الحجة الجديدة التي ابتكرها حزقيال، دوراً في الحفاظ على الإيمان بيهوة في ظروف الاسر البابلي، لكن من الواضح أنها لم تُضف شيئاً في مجال تبرير الإله. هذا، بينما كان تبرير يهوه بالنسبة لأنصاره قد أصبح، ضمن ظروف الاسر، مهمةً ذات حيوية خاصة وذات صعوبة خاصة في الآن ذاته.

لنفترض أن يهوذا أخطأت. لنفترض أنها مذنبة أمام إلهها، ولكن هل

http://www.al-maktabeh.com

استحقت مثل هذا العقاب المريع الذي يهددها بالفناء الكلي؟ ثم لو أن يهوذا هلكت فسيهلك الإيمان بيهوه معها! كذلك ليس كل أهل يهوذا «كفرة»، فلماذا يجب على الابرياء أن يعانوا مع المذنبين؟ هل يهوه على حق؟ يمكننا أن نتصور كيف كانت مثل هذه الأسئلة تطرح أمام حزقيال دائماً(١٨: ٢٥، ٢٩ ؛٣٣: ١٧ - ٢٠).

لم يكن جواب حزقيال جديداً. فهو مثله مثل الأنبياء القدامى، يشرع بتفصيل ماضي الشعب ويبين كل نكرانه للجميل والآثام الشديدة التي ارتكبها أمام الإله. لقد كانت أورشليم اسوأ من سدوم!(١٦: ٤٨).

على غرار هوشع، يشخص حزقيال السامرة وأورشليم على هيئة زانيتين تخونان على الدوام «زوجهما» الشرعي يهوه، مع عشاقٍ آشوريين ومصريين وبابليين. هذا ويولع النبي فيرسم لوحات طبيعية للغاية وشهوانية جداً عن «الفسق» (الإصحاح ٢٣). لذا عوقبت السامرة (أي مملكة إسرائيل)، عقاباً عادلاً على جرائمها أمام الإله، ولكن اورشليم (أي يهوذا) كانت أكثر إثماً بضعفين. «فاحملي أيضاًخزيك.... فاخجلي أنت أيضاً... رذيلتك ورجاستك أنت تحملينها يقول يهوه». لكن بعد أن يعير الزانية، يعدها يهوه بالغفران، كما لدى هوشع: «ولكني أذكر عهدي معك في أيام صباك وأقيم لك عهداً أبدياً» (١٦: ٥٢ - ٦٠)..

يبدو أنه حتى اليهوذيين الذين كانوا على ثقة بروايات النبي عن «رؤاه» و«تجلياته» كانوا يقولون عنه، في الوقت ذاته: «الرؤيا التي هو رائيها هي الى أيام كثيرة وهو متنبىء لأزمنة بعيدة» (١٢: ٢٧). لقد كان أفق الحياة السعيدة للشعب كله في المستقبل البعيد عزاءً ضعيفاً بالنسبة لليهوذي الفرد معاصر حزقيال. لقد كان هذا اليهوذي، الذي عانى كل ماعاناه من كوارث، يريد أن يشعر ولو بقدر يسير من تلك السعادة خلال حياته هو بالذات، ولا يستطيع أن يفهم لماذا هو شخصياً محروم، اذا كان طوال عمره يتعبد ليهوه ويقدم له القرابين ولا يرى أنه ارتكب أية «تجاوزات» جدية. أين عدالة يهوه إذا؟

في معرض الإجابة عن هذا السؤال الذي يطرحه اليهوذي الفرد، نجد حزقيال يكرر حرفياًتقريباً تفسير إرميا: «وكان لي كلام يهوه قائلاً. ما لكم أنتم

http://www.al-maktabeh.com

تضربون هذا المثل.. قائلين الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست... لايكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في اسرائيل... والإنسان الذي كان بلراً... وسلك في فرائضي وحفظ أحكامي ليعمل بالحق... حيوة يحيا... فان ولد ابناً معتنفاًسفاك دم... أفيحيا. لايحيا». ولكن يلي عند حزقيال هنا إضافة مميزة جداً لانجدها عند إرميا: «فاذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي... فحيوة يحيا لايموت. كل معاصيه التي فعلها لاتُذكر عليه». وأما «إذا رجع البار عن بره وعمل إثماًوفعل مثل كل الرجاسات التي يفعلها الشرير أفيحيا. كل بره الذي عمله لايذكر في خيانته... يموت »(١٨: ١ - ٢٤).

بهذه الإضافة قدم حزقيال كلمة جديدة في تبرير يهوه. الإله لايريد موت الخاطىء، بل يريده أن يتوب ويعيش. هذا الكلام قريب جداً من الإنجيل، وما كان ممكناً ألا يجد صداه في كل القلوب. فهل كان بوسع انسان ما أن يقول أنه لم يذنب ولو مرة واحدة؟ كان الأنبياء القدامى يقولون أن يهوه يريد ندم اسرائيل لكي يبعثها الى حياة جديدة، أما الآن فان النبي - باسم يهوه - يعلن الشيء نفسه بالنسبة لكل يهوذي على حدة، حتى لو كان آخر الخاطئين، فيفتح أمامه، بذلك الأبواب ليس فقط على عدالة الإله، بل وكذلك على رحمته. ربما كان هنالك الكثير من العزاء في ذلك لولا أن الأمر ذاته الذي حصل لإرميا تكرر مع حزقيال، حيث كانت كلماته تفترق مع الواقع افتراقاً حاداً. ففي الواقع لم يكن الموت لايميز بين الأشرار والأبرار فحسب، بل والاسوأ من ذلك غالباًما كان الشرير ينعم بالثروة التي جمعها (بطريقة غير شريفة) ، فيعيش أكثر من الفقير البر. ويبدو أن ذلك السؤال الذي أوصل إرميا الى حالة اليأس لاستحالة الإجابة عليه(والذي طرحه الرجل على الإله بالذات) أي : لماذا يزدهر الأشرار والكفرة في الحياة، «لماذا تنجح طريق الأشرار؟»كان سؤالاً يُطرح أيضاً على حزقيال مرات ومرات. لكن، خلافاً لإرميا الأكثر اندفاعاً، لم يحاول حزقيال قط أن يطرح السؤال على إلهه. فقد كان النبي مشغولاً بأمر آخر يعتبره، على ما يبدو، أكثر أهمية : كان حزقيال يؤلف «مشروع» مملكة اسرائيل المقبلة، وكيف ستكون تلك المملكة حين يعيد يهوه رحمته الى الشعب التائب الراجع.

هنا يتوجب علينا أن نذكر القارىء مجدداً بأن حزقيال لم يكن نبياً فقط، بل وكاهناً في الآن ذاته، مرتبطاً وثيق الارتباط مع كهنة معبد اورشليم. لقد وجد الكهنة الذين سُبيوا الى بابل أنفسهم في وضع معقد. ففي يهوذا، في الوطن، كانوا عبارة عن شريحة ذات امتيازات حقيقيه، ترتبط مداخلها ونفوذها بالمعبد ارتباطاً تاماً. لكن ما الذي كان بوسع الكهنة أن يفعلوه في بابل؟ بقدر ما نعرف من المصادر، لم يكن لا نبوخذنصر ولا غيره من ملوك بابل يطمحون أبداً الى فرض ديانتهم البابلية على اليهوذيين الاسرى، أو الى منعهم من السجود ليهوه. فما كان هؤلاء الملوك ليعيقوا أهل يهوذا لو شاؤوا أن يبنوا مذابح في أماكن سكناهم لكي يقوم الكهان بتقريب الذبائح عليهاالإلههم. لا بل ربما كان حكام بابل سمحوا للمسبيين ببناء معبد ليهوه في بابل، لو أن الكهنة اليهوذيين تقدموا بمثل هذا الطلب. لكن يبدو أن المذابح والمعابد لم تظهر لدى اليهوذيين في بابل، بالذات، لأن كهنة المعبد المركزي في اورشليم قد سبيوا الى بابل جميعاً، بكامل «نصابهم» وبرئاسة الكاهن الأول. فما كان بوسع كهنة يهوه أن يسمحوا لأنفسهم بذلك، باعتبار أن الإله نفسه قد منع في «سفر الشريعة»،على نحو قاطع، أي تقريب للضحايا خارج المكان الذي اختاره يهوه (تث ١٢ : ٥، ، ١١ ١٣ ـ ١٤)، وهذا المكان، كما نعرف هو أورشليم وجبل صهيون.

يمكننا التأكد بثقة أن الكهنة وأنبياء يهوه لم يفقدوا — خلال وجودهم في الأسر — الأمل في العودة الى الوطن وفي إعادة بناء معبدهم على جبل صهيون وفي استعادتهم للمكانة الرفيعة السابقة التي كانت لهم، لابل كانوا يستعدون لذلك حثيثاً.

كما أثبتت الدراسة المعاصرة للتوراة، فقد نشأت خلال تلك السنوات «مدرسة» كاملة من اللاهوتيين اليهوذيين ومن «أهل الكتاب» العلماء، الذين وضعوا نصب أعينهم مهمة تأليف سفر مقدس جديد للشعب اليهوذي على غرار ما جرى قبل ذلك بنصف قرن، في عهد الملك يوشيا، عند تأليف «سفر الشريعة» وقد ألف الكهنة هذا السفر وقدموه، طبعاً، بمثابة «كلمة» يهوه المنقولة من خلال موسى مرة أخرى.

في أدبيات الدراسة المعاصرة للتوراة، حصل هذا السفر الجديد على تسمية

http://www.al-maktabeh.com

مجازية هي «القانون الكهوني» وهذا ليس صدفة. ففي هذا المؤلف، كما في المرآة، انعكست مصالح وتطلعات كهنة اورشليم والأنبياء الذين كانوا قريبين منهم. فيما بعد، في مرحلة ما بعد الأسر، حين أسفرت جهود اللاهوتيين اليهوذيين اللاحقة عن صياغة نهائية لذلك القسم من العهد القديم الذي يسمى «خماسية موسى» تم إدخال «القانون الكهوني» جزءاً جزءاً في كتب متفرقة من هذه الخماسية. وهذه الاجزاء تتميز بلغتها وأسلوبها وأفكارها لدرجة أن دارسي التوراة المعاصرين من كل الاتجاهات تقريباً — موحدو الرأي حول تحديدها.

لقد شمل القانون الكهوني كل مناحي الحياة الاجتماعية تقريباً، فاندرجت ضمنه فرائض حقوقية وأخلاقية وفرائض بخصوص «النظافة» وفرائض «طبية» وطعامية، وكذلك صيغ سحرية وابتهالات ولعنات. وكل ذلك مصور وكانه إرادة يهوه، التي سيكونون هم — كهنة معبد يهوه المقبل — منفذين ومفسرين لها. إن فصولاً كاملة من «القانون الكهوني» مكرسة لوظائف الكهان وللوصف التفصيلي للطقوس التي سيقومون بها، وبالدرجة الأولى، لتقريب التقدمات والمحرقات (بقصد الشكر أو التطهر، لأجل الذنوب أو في الأعياد أو في الأيام العادية). فاسرائيل المقبلة يجب أن تكون دولة هيروقراطية*: شعب تحت سلطة الكهنة!

يمكننا أن لانشك في أن أحد المشاركين في هذه الخطة، لابل ربما ملهمها كان النبي الكاهن حزقيال إياه. فليس صدفة أن ثمانية إصحاحات كاملة من الكتاب الذي يحمل اسمه (٤٠ — ٤٨) (وهي سدس الكتاب) هي عبارة عن مشروع حقيقي لبناء اسرائيل الجديدة، وتبدو بمثابة «يوتوبيا» فريدة يبنيها الكاهن. وقد عرضها لنا حزقيال بطريقة معتادة على شكل «رؤيا»:

«في السنة الخامسة والعشرين من سبينا(أي٥٧٣قبل الميلاد — المؤلف)... السنة الرابعة عشرة بعدما ضربت المدينة في نفس ذلك اليوم كانت عليَّ يد يهوه واتى بي الى هناك. في رؤى الله أتى بي الى اسرائيل ووضعني على جبل عالٍ جداً عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب». وفجأة ظهر امام النبي كائن فوق طبيعي، «رجل منظره كمنظر النحاس»، وهو — طبعاً ملاك يهوه. كان في يد الملاك «خيط كتان» و«قصبة القياس» ثم يدقق المؤلف طول «قصبة القياس»

(*) هيروس hiereus باليونانية كاهن وكراتوس kratos سلطة. المترجم

: «ست أذرع طولاً بالذراع وشبر»، وبالتالي — حسب مقاييسنا نحن — حوالي ثلاثة أمتار. أما طول «الخيط» الذي أيضاً يجب أن يستخدم للقياس — كما تبين — فلا يأتي على ذكره. ويشرح «الرجل» لحزقيال أن البناء الذي يراه هو معبد يهوه المقبل، ثم يصبح دليلاً للنبي عبر هذا البناء.

يصف «الرجل» بأكثر قدر من التفصيل مخطط البناء وقياساته وقياس غرفه الداخلية وتركيب المذبح والزينة، التي على هيئة نخلات وأشكال الخيرويم، الخ. كما يجد الوقت لإجراء القياسات ب«القصبة» ويخبر النبي ليس فقط بقياس الغرف، بل وبقياس النوافذ التي فيها والابواب والأعمدة والطاولات «لتذبح عليها المحرقة وذبيحة الخطيئة وذبيحة الإثم.. والمأزيب شبر واحد ممكنة في البيت من حوله وعلى الموائد لحم القربان». في هذه الأثناء، سمع حزقيال صوتاً «كصوت مياه كثيرة»، وتبين أن يهوه شخصياً قد وصل الى معبده (في النص «مجد يهوه» بدلاً من «يهوه»)، وقال للنبي: «ياابن آدم هذا مكان كرسي ومكان باطن قدميٌ حيث أسكن في وسط بني اسرائيل الى الأبد ولا ينجس بعد بيت اسرائيل اسمي القدوس... وأنت يا ابن آدم فأخبر بيت اسرائيل عن البيت ليخزوا من آثامهم... فعرفهم صورة البيت... وكل أشكاله... واكتب ذلك قدام أعينهم ليحفظوا كل رسومه وكل فرائضه ويعملو بها». ان الكلمات الاخيرة تعني ان النبي وضع لنفسه هدفاًليس فقط وصف المنظر الخارجي والداخلي للمعبد كما رآه حين طاربه الإله الى المستقبل، بل وتصوير الدور الذي سوف يلعبه هذا المعبد في حياة اسرائيل الجديدة، العائدة. انه سيكون مكان سكن دائم ليهوه، مكاناً لعرشه، قلعة اسرائيل وحمايتها «الى آبد الآبدين». وهذا وحده يجب ان يضع خدمة المعبد من كهنة وأنبياء على أعلى درجة في السلم الاجتماعي.

من المميز أن حزقيال، في الوصف اللاحق لرؤياه، يؤكد أكثر من مرّة أنه ليس كل الكهنة اللاويين سوف «يقتربون» من يهوه ليخدمون، بل فقط الصادقون، الشريحة العليا من كهنوت اورشليم. أما اللاويون الآخرون، الذين كانوا في السابق كهنةً للمرتفعات، فيفرض يهوه عليهم: «اجعلهم حارسي حراسة البيت لكل خدمة لكل ما يعمل فيه... لأنهم خدموهم أمام أصنامهم وكانوا معثرة إثم لبيت اسرائيل» (٤٤: ١٠ — ١٤). لكن الصادوقيين لن يكتفوا بأن يعلموا

http://www.al-maktabeh.com

الشعب «التمييز بين النجس والطاهر. وفي الخصام هم يقفون للحكم يحكمون حسب احكامهم ويحفظون شرائعي وفرائضي في كل مواسمي ويقدسون سبوتي» (٤٤ : ٢٣ – ٢٤). فالسلطة القضائية في اسرائيل المنبعثة ستكون أيضاً في يد الكهنة.

مقابل ذلك، تضطلع السلطة المدنية لدى حزقيال بدورٍ غير مهم الى أقصى الحدود. فإذا كان النبي، في مداخلاته المبكرة، يتنبأ بأنه سيكون لإسرائيل الجديدة ملك من نسل داؤود، فإن الإصحاحات (٤٠ – ٤٨) لاتأتي على ذكر الملك بتاتاً، بل يدور الحديث فقط حول «رئيس» (بالعبرية «ناسي»)، والرئيس يجب ان يقرب الضحايا عن الشعب وأن يرعى المعبد وممارسة الشعائر الدينية، وأن يجمع – لأجل هذه الغاية فقط الاتاوة من الشعب لصالح المعبد، على شكل حيوانات أو أشياء أخرى تصلح للتقدمة. ولكي لا يظلم «الرئيس» شعب يهوه، تفرد له مقاطعة خاصة يستفيد من مداخيلها.

في اسرائيل المنبعثة سوف يجمع الإله ليس فقط اليهوذيين، بل وسيعيد من بلدان الشتات تلك «الاسباط» العشرة التي عاشت في المملكة الشمالية والتي سباها سرغون الثاني. وسوف يعيش الجميع في كفاية وشبع وسيكون هنالك وفرة من ثمار الأرض وكثير من السمك في نهر سحري سوف ينبع من تحت المذبح في معبد يهوه.

ولن تضطر اسرائيل لان تخشى من الحروب أما إذا تجرأ احد على مهاجمتها فسوف يتدخل يهوه ذاته ويبقى على اسرائيل أن تدفن جثث الاعداء وتحرق سلاحهم.

هكذا نجد أن حزقيال ألف مشروع دولة اسرائيل الجديدة الذي انعكست فيه بجلاء متناه أحلام وآمال الكهنوت اليهوذي في الاسر البابلي. ولم يكن كهان يهوه وأنبياؤه يحلمون فقط ويبنون خططاً خيالية، بل كانوا يعدون العدة لتحقيقها. كان من المهم بالنسبة لانصار يهوه عدم إضاعة رعيتهم. فلم يكن لدى اليهوذيين في بابل ذلك المركز الديني الذي يوحدهم، كما كان حال معبد اورشليم يوماً ما، ولذلك كان الدور الذي يجب أن تمارسه الطقوس دوراً أكبر. هذا هو السبب الذي يجعل حزقيال يتميز عن الانبياء القدامى بكون الواجبات الطقوسية لديه لاتقل أهمية عن الواجبات الاخلاقية. فالختان بالنسبة له رمز القداسة والسبت علامة بين

يهوه و«الشعب المختار» (٢٠ : ١٢ — ٢٤). كان الالتزام بتطبيق هذه الخصائص الطقوسية وغيرها من خصائص الديانة اليهودية معنياً بأن يؤدي (ولربما ادى) دوراً معيناًفي عزل اليهوذيين، فهو لم يكن فقط يبرزهم بل ويضعهم في معارضة محيطهم الوثني، معيقاً بذلك عمليات اضمحلالهم وانحلالهم في ذلك المحيط. وعلى كل، فمن الذي يعرف كيف كان يمكن ان يكون مصير شعب يهوذا لو ان فترة الاسر استمرت ليس نصف قرن بل اكثر. لم يدم حزقيال حتى نهاية الاسر فآخر نبوءاته المؤرخة كانت في العام السابع والعشرين للاسر(٥٧١قبل الميلاد).

فيما يتعلق بقضايا تأليف النص في كتاب حزقيال، جرت نقاشات كثيرة ايضاً، حيث كان بعض دارسي التوراةيبرهنون — حتى! — ان كل الكتاب هو نتاج تأليف متأخر زمنياً وينسبونه الى اواسط، لا بل الى النصف الثاني من القرن الخامس. اما خصوم هذه النظرية فيوردون ضدها حجة مقنعة بما فيه الكفاية: يتضمن كتاب حزقيال الكثير من النبوءات التي لم تتحقق (مثلاً حول ان الملك اليهودي صدقياً سوف يحاكم في بابل (١٧ : ٢٠)، او حول ان نبوخذنصر سيحتل صور (الاصحاحات ٢٦ — ٢٨)، فما هي حاجة المؤلفين اللاحقين لأن ينسبوا تلك الاخطاء الى نبي قديم؟ ان أكثرية دارسي التوراة المعاصرين يعتبرون المضمون الاساس لكتاب حزقيال من تأليفه هو.

إشعيا الثاني — النبي المجهول.

لم يكن حزقيال هو النبي الوحيد في الأسر البابلي الذي يروي للناس «رؤاه» وينطق بنبوءات حول مستقبل اسرائيل، بل كان يفعل ذلك انبياء آخرون، وكانت مداخلاتهم أيضاً تتنقل بين الأيادي، ولربما كان بعضها لايحمل اسم مؤلفه. فيما بعد تم نسب جزء من تلك النبوءات الى أنبياء آخرين أكثر شهرة وتدوينها على اللفافات التي كانت نبوءاتهم مسجلة عليها. وقد صرنا نعرف أن عدداً من مداخلات كهذه قد نُسبت الى النبي إشعيا، ومن خلال تحليلنا — كمثال — لمضمون إصحاحين من كتابه، بيَّنا كيف يتسنى، عادةً التحديد الدقيق للزمان الحقيقي الذي جرى فيه تأليف النبوءات الواردة في النصوص.

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.almohtadeen.com

إن تاريخ الإصحاحات الاخيرة في كتاب إشعيا (٤٠ — ٦٦) مثير بشكل خاص. فقد سمح تطبيق أساليب النقد التاريخي واللغوي على النص التوراتي بالتوصل الى أن كل الجزء النهائي في كتاب إشعيا، ابتداء من الإصحاح ٤٠ يعود، بلا شك ، إلى زمن الأسر البابلي ، بل إلى زمن أكثر تأخراً . وبالتالي ، فمن غير الممكن أن يكون مؤلفه هو إشعيا ، الذي عاش بين القرنين الثامن والسابع . ويعود الفضل الرئيسي في البرهان على هذه الحقيقة لدارس التوارة الألماني إ . إيخغورن (١٧٥٢ ـ ١٨٢٧). في الوقت الحاضر ، لايشك أحد من العلماء الجادين في هذا الاستنتاج ، رغم أن « اللجنة البابوية » في نهاية القرن التاسع عشر ألزمت الكاثوليكيين بأن يعتبروا كل كتاب إشعاي مكتوباً من قبل نبي واحد يحمل الكتاب اسمه . . . .

لنطبق على نص الإصحاحات (٤٠ — ٥٥) الطريقة نفسها التي طبقناها على الإصحاحات ،١٣ , ١٤ فإذا جمعنا من هذه الإصحاحات تلك الوقائع التي كان يجب أن تبدو معروفة تماماً ومفهومة لاتحتاج الى شرح بالنسبة للقراء المعاصرين للنبي مؤلف النص ، يمكننا إعادة تخطيط الموقف التاريخي الذي عاش المؤلف في ظله، وبالتالي تحديد الزمن الحقيقي لكتابة هذه الاصحاحات الخمسة عشر. يبدأ الإصحاح الأربعون بالكلمات التالية: «عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم. طيبوا قلب اورشليم ونادوا بأن جهادها قد كمل ان اثمها قد غفي عنه انها قد قبلت من يد يهوه ضعفين عن كل خطاياها» (٤٠ : ١ — ٢). وهكذا، فإن النبي يعلن عن لسان الإله أن العقاب الذي استحقته يهوذا على آثامها قد وقع والجزاء الذي نزل من الإله قد انتهى والوضع الراهن هو وضع محزن للغاية بالنسبة للشعب اليهوذي ولأورشليم ، التي بقيت بلا سكان ، بينما مدن يهوذا الأخرى أصبحت خراباً (٤٤ : ٢٦) . الاسرائيليون أسرى في الشرق والغرب ، في الشمال والجنوب (٤٣ : ٥ ـ ٧) والدولة التي تأسرهم هي بابل (٤٧ : ٦ ـ ٧). لكن بابل نفسها قد تعرضت للهجوم من جانب عدو رهيب ،يسميه النبي بالاسم :كورش (٤٤ : ٢٨ ؛ ٤٥ : ١) ، وذلك دون أية شروح ، باعتبار أن الاسم معروف جيداً لدى القراء . لقد أحرز كورش انتصاراته الأولى (٤١ : ٢ ، ٢٥ ؛ ٤٦ : ١١ ؛ ٤٨ : ١١ ـ ١٦) . والنبي يتنبأ بانتصار كورش على بابل (٤١ : ٢٥ ؛ ٤٦ :

١١) ،مؤكداًباسم الإله أن النبوءات الأخرى التي كانت تتعلق بانتصارات كورش الأولى قد تحققت : « هوذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها . . . » (٤٢ : ٩) . . لقد وقع خيار يهوه على كورش ليكون « ممسوحه » ومنفذ مشيئته وخططه الخاصة باسرائيل : « هكذا يقول يهوه لمسيحة كورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً واحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق . . . لأجل عبدي يعقوب واسرائيل مختاري دعوتك باسمك .لقبتك وأنت لست تعرفني » (٤٥ : ١ ، ٤) . ويعلن يهوه عن كورش : « هو يبني مدينتي (أي أورشليم ـ المؤلف) ويطلق سبيي لا بثمن ولا بهدية » (٤٥ : ١٣) . .

إذاً لاشك حول أن هذه الإصحاحات كتبت بعد احتلال يهوذا من قبل نبوخذنصر وسبي اليهود الى بابل، وكذلك بعد اعتلاء كورش للعرش في بلاد فارس (٥٥٨) وبعد انتصاراته الأولى (أي بعد إخضاع كورش لمملكة ليدا وللمدن اليونانية في آسيا الصغرى عام ٥٤٦ قبل الميلاد)، ولكن قبل عام ، ٥٣٩ لأن بابل لم يجر احتلالها بعد، كما أن كورش لم يطلق بعد سراح اليهوذيين الأسرى الى وطنهم.

لقد تأكد هذا الاستنتاج أيضاً من خلال دراسة أسلوب ولغة الإصحاحات (٤٠ — ٥٥)، حيث يوجد فيها الكثير من الكلمات والصفات التي لم تكن ترد في الإصحاحات السابقة، المنسوبة الى إشعيا. وتوجد كلمات دخلت التداول لدى اليهوذيين فقط في مرحلة الأسر. وأخيراً، هنالك شهادات أخرى على المنشأ المتأخر للاصحاحات (٤٠ — ٥٥): ففي كتاب أخبار الأيام الثاني يتم الاستناد الى نص نبوءة حول أن يهوه «نبه. . . روح كورش ملك فارس» وأمره بأن يبني معبد يهوه في اورشليم. والمؤلف ينسب هذه النبوءة لإرميا، بينما لايوجد هكذا مداخلة في كتاب إرميا، بل هي واردة — كما رأينا — في كتاب إشعيا (٤٤ : ٢٨). لقد تم تأليف كتابي أخبار الايام في زمن ما بعد الأسر، ليس قبل القرن الثالث قبل الميلاد، مما يعني — ربما — أن الإصحاحات (٤٠ — ٥٥) كانت آنذاك تُنسب الى إرميا وليس الى إشعيا.

يمكن إيراد برهان آخر على أن الإصحاحات (٤٠ — ٥٥) لم تكن في البداية داخلة ضمن قوام كتاب إشعيا. فالمسألة تكمن في أن الاصحاحات السابقة لها

http://www.al-maktabeh.com

(٣٦–٣٩) لا تحمل طابع النبوءات بل هي أشبه بتعليق تاريخي أو إضافة، وجد المحرر من المناسب جعلها خاتمة لمداخلات إشعيا، وقد نقلها، بالحرف تقريباً، من كتاب الملوك الثاني (١٨ : ١٣ – ١٩). هذا في حين أن تعليقاً تاريخياً مماثلاً يختم كتاب إرميا أيضاً، بينما ينتهي الإصحاح السابق له بكلمات هي أيضاً لاتعود الى النبي إرميا بل الى محرر كتابه: «الى هنا كلام إرميا»(إر ٥١ : ٦٤). يجب الافتراض أن محرر كتاب إسعيا قد تصرف على نحو مماثل، ف«كلام» النبي إشعيا نفسه انتهى مع الاصحاح الخامس والثلاثين . أما الاصحاحات (٣٦–٣٩)، التي يجري الحديث فيها عن النبي إشعيا بضمير الغائب دائماً ، قد كتبت ليس من قبل النبي ذاته ـ على ما يبدو ـ بل من قبل شخص آخر .

أما مع الاصحاح الأربعين فيبدأ « كلام » نبي آخر ، لقّبه دارسو التوراة المعاصرون بلقب مجازي هو « إشعيا الثاني » أو « المجهول الكبير . لماذا تم « نشر » نبوءاته بدون اسم وجرى نسبها إلى النبي القديم إشعيا ؟ لماذا جرى إخفاء الاسم الحقيقي للمؤلف ، ربما عن معاصريه بالذات ، فبقي مجهولاً لدى الأجيال اللاحقة ؟ لقد بذلت محاولات كثيرة لتفسير ذلك . فقد تم الافصاح ، مثلاً ، عن فكرة تقول أن المؤلف الذي كان يعيش في بابل و« تنبأ » بالاحتلال الحتمي والقريب لهذه المدينة من قبل الفرس ، كان لديه من الدواعي ما يكفي ليخشى من ملاحقة السلطات البابلية(٥٠) . ولكن قد يكون أقرب إلى الحقيقة تفسير آخر للمسألة : إن المؤلف الحقيقي الذي كتب نبوءات النص (٤٠–٥٥)، أو لربما الناس الذين كان لهم مصلحة في نجاح تبشيره ، قد استخدموا عن عمد أسلوباً سبق استخدامه كثيراً من ذي قبل (« اكتشاف » « سفر الشريعة » من قبل الكاهن حلقيا ، مثلاً) وأصبح أسلوباً عادياً في فترة الأسر ـ أن يتم نسب النبوءة إلى نبي قديم ومشهور من أجل « الهيبة ».

لقد تنبأ « المجهول » بالسقوط القريب لبابل تحت ضربات الفرس وسمّى اسم ملكهم كورش ، ولكن هذا الأمر كان يستطيع ، في تلك السنوات أن يتنبأ به الكثيرون ، ولما اعتبر أحد المعاصرين نبوءة كهذه بمثابة « تجلّ » إلهي ونبوءة

---

(٥٠) انظر : Budde K. Geschichte des althebraischen Litteratur. Leipzig, 1906, S.176.

حقيقية . شيء آخر لو أن نبياً قديماً ، معروفاً منذ القديم ، هو الذي تنبأ بهذه الأحداث . ففي مثل هذه الحالة ، كان يمكن أن يعرف عن وقوع أحداث كهذه فقط ذلك الذي يعرف كل المستقبل حتى « آخر الأيام »، أي الاله ، وهو الذي كشف كل ذلك لنبيّه . في هذه الحالة يجب الايمان ليس فقط بسقوط بابل قريباً ، بل وبكل ما سيتلو بعده ، كما يؤكد النبي ، أي بالعودة إلى الوطن وباعادة بناء المعبد وبالمستقبل الوضاء لاسرائيل . كان من المهم خصوصاً ، بالنسبة لأنصار يهوه في الأسر البابلي ، أن يزرعوا في أبناء قومهم هذا الايمان الذي كان يشاطرهم إياه ليس كل اليهوذيين بتاتاً . فالكثير منهم قد استقر في الغربة ، حتى أن بعضهم ـ كما تشهد على ذلك المصادر البابلية التي وصلت إلينا ـ بلغ ازدهاراً كبيراً ولم يكن يتحفز للعودة إلى وطنه البائس . وفيما بعد . حين أصدر كورش مرسومه القاضي بالسماح لليهوذيين بالعودة إلى فلسطين وإعمار المعبد ، لم يسلك الجميع طريق العودة فوراً ، بل كان الجزء الغالب بين العائدين يتكون بالذات من الكهنة .

لقد سبق القول حول كيفية استعداد كهنة يهوه وأنبيائه في الأسر البابلي لعودتهم إلى الوطن . ولا شك أن النشاط الذي قام به « النبي المجهول » كان جزءاً من ذلك الاستعداد ، الذي من أجل نجاحه ـ ربما ـ تقرر تقديم كتابه للقراء على أنه من نبوءات إشعيا المشهور التي تتحقق الآن. هل صدق المعاصرون إشعيا الثاني؟ يقول المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس الذي عاش بعد ذلك بكثير، في القرن الأول بعد الميلاد، في مؤلفه حول التاريخ القديم لشعبه، أن اليهوذيين في بابل أخبروا كورش فور دخوله الى بابل أن انتصاره قد تم التنبؤ به من قبل نبيهم القديم قبل ماينوف عن قرنين، وأن ذلك — على حد الزعم — جعل كورش يصدر مرسومه حول عودة اليهوذيين الى وطنهم*.

في نبوءات إشعيا الثاني يتجلى بوضوح دخول بعض الأفكار الجديدة الى الديانة اليهوذية، وهي أفكار تتعلق تحديداًبظروف عيش يهوذا في الأسر البابلي. لقد أشرنا سابقاً الى ذلك الخطر الذي كان يتهدد ديانة يهوه من جانب محيطها الوثني في بابل. ويمكن أن نتخيل أي انطباع عميق كان يجب أن تتركه على اليهوذيين المسبيين هذه المدينة الضخمة بسكانها الكثر المتنوعين أجناساً وبثقافتها العالية

*: انظر : يوسف فلافيوس. التواريخ اليهودية. المجلد الحادي عشر، ١، ٢

http://www.al-maktabeh.com

ويقصورها الفخمة ومعابدها، التي كان معبد اورشليم بالمقارنة معها يبدو صغيراً جداً مثيراً للشفقة. وربما كان هنالك الكثير من اليهوذيين الذين بدأ يتهيأ لهم أن يهوه أيضاً هو عبارة عن مجرد إله صغير، بالمقارنة مع إله بابل الجبار بيل — مردوك. كما تفيد بعض المصادرالبابلية، (٥١) بدأ الكثيرمن اليهوذيين في الجيل الثاني يتزاوجون مع البابليين ويحملون أسماء بابلية ويقلدون عادات البابليين، ناسين بالتدريج وطنهم وإلههم. وليس صدفة أن يهوه لدى إشعيا الثاني ينادي: «هو ذا من أجل آثامكم قد بعتم ومن أجل ذنوبكم طُلِّقت أمكم. لماذا جئت وليس انسان. ناديت وليس مجيب. هل قصرت يدي عن الفداء وهل ليس فيَّ قدرة للانقاذ» (٥٠: ١ — ٢،

والآن حل زمن الزهو بالنصر لدى أنصار يهوه، فإشعيا الثاني يتنبأ كيف ستهدم بعد سقوط بابل معابدها وكيف سيذهب بالسبي سكانها، حاملين معهم تماثيل الآلهة المطاح بها: «قد جثا بيل، انحنى نبو. صارت تماثيلها على الحيوانات والبهائم... قد انحنت جثت معاً لم تقدر أن تنجي الحمل وهي نفسها قد مضت في السبي» (٤٦: ١ — ٢). الآن يتضح أن الالهة البابلية هي مجرد أصنام عاجزة عن حماية أتباعها و«لايعلم الحاملون خشب صنمهم والمصلون لإله لايخلِّص» (٤٥: ٢٠). اما الإله الحقيقي فهو يهوه وهو الإله الوحيد في الكون. فقط هو الإله! وإشعيا الثاني يوحي بهذه الفكرة لقرائه مُلحاً، فيردد يهوه نفسه لدى النبي مراراً: «أليس أنا يهوه ولا إله آخر غيري. إله بار ومخلص. ليس سواي» (٤٥: ٢١) «وأنا هو»، «قبلي لم يصور إله وبعدي لايكون» (٤٣: ١٠) و«أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» (٤٤: ٦)، وغيرها..

في الأسر البابلي بالذات، وفي تبشير إشعيا الثاني، خطت ديانة يهوه خطوة حاسمة نحو التوحيد. فقبل قرن اعتبر مؤلفو «سفر الشريعة» أن من الضروري تضمينه «الوصاية العشر» ليهوه، التي كانت أولاها تقول عن لسان الإله: «انا يهوه إلهك... لايكن لك آلهة أخرى أمامي... لاتسجد لهن ولاتعبدهن...» (تث ٥: ٦ — ٩). لكن هذه الوصية، من حيث الجوهر، كانت تتضمن فقط المطالبة

---

(٥١) دايخيس مخطوطات آرامية من زمن عزرا هاشيلواخ المجلد١٧ ص٢٧—٣٦ باللغة العبرية

بوحدانية العبادة أي بالتعبد فقط ليهوه وعدم السجود للآلهة الأخرى، التي لايجري التشكيك بوجودها. أما الفقرات المقتطفة أعلاه من نص إشعيا الثاني فتتمتع بمغزى توحيدي لاشك حوله: «انا يهوه ولااله آخر سواي »، فإذا يوجد اله واحد، وهو يهوه، وهو خالق ومدبر الكون وكل شعوب الدنيا. لكن — وبمثابة إرث من ماضي التصورات القديمة عن يهوه، اله اسرائيل القومي — نجد هذا الإله لدى اشعيا الثاني يؤكد بنفسه على موقفه الخاص من اسرائيل: «هذا الشعب جبلته لنفسي. يحدث بتسبيحي». على هذه الموضوعة بالذات، بنى إشعيا الثاني، من حيث الجوهر، نظريته في تبرير يهوه.

لم يكن إشعيا الثاني قد قطع مع التعاليم حول الإله الذي يجازي ومع فكرة المسؤولية الجماعية للشعب أمامه. فعند هذا النبي أيضاً يغضب يهوه على اسرائيل لاجل ارتدادها، لأجل خيانتها لإلهها ويعاقبها على ذلك. كما أن إشعيا الثاني، مثله مثل الأنبياء الذين سبقوه، يدعو الشعب الى التوبة والتصحيح وتطبيق «شريعة يهوه » (٥٥ : ٦ — ٧)، ولكن من المهم أن التشديد هنا يتم على شيء مختلف: عقاب اسرائيل على الخطايا المرتكبة هو أمر في الماضي. فاليهود بمعاناتهم، التي لاتقاس بمقياس، قد افتدوا «كل خطاياهم » أمام يهوه «ضعفين» (٤٠ : ٢). واذا كانت اسرائيل — مع ذلك — لازالت تعاني، فتلك معاناة «مجاناً» لقاء «لاشيء» (٥٠ : ٣). إن اسرائيل تتلقى الخطوب الآن ليس بسبب ذنبها؛ ليس لأنها أسوأ من الشعوب الأخرى، بل لأنها أفضل! فالشعوب الأخرى تتعثر في ظلام الوثنية، بينما اسرائيل متنورة ب«شريعة يهوه» ولهذا فهي شعب «مختار» من قبل الإله، مكتوب له أن يصبح «نوراً للأمم» (٤٢ : ٦)، وبسبب جهل الشعوب الاخرى يتوجب على هذا الشعب أن يتعذب ويأخذ ذنوب الآخرين على عاتقه، وذلك أمر مجهول لدى الشعوب وغير مفهوم من قبلها. إنها تنظر الى اسرائيل بازدراء وشماتة وتدوسها بالأقدام وتعذبها (٥١ : ٢٣)، ولكن في هذه العذابات، التي يلقاها «الشعب المختار»، ضمانة مجده المقبل، ففي نهاية المطاف، حين ينتهي من أداء رسالته، سوف يرفعه يهوه ويعظم شأنه. عندئذ ستعرف الشعوب الناجية أن شعب اسرائيل كان يتعذب من أجل خلاصها هي، هكذا كانت مشيئة يهوه: «يهوه قد سرَّ من أجل برِّه. يعظم الشريعة ويكرمها »(٤٢ :

http://www.al-maktabeh.com

٢١)، واسرائيل حين كانت تنفذ مشيئة الذي أرسلها، منحت ذاتها للعذاب طائعة، في سبيل مجد يهوه، كما يليق الامربالعبد الوفي.

http://www.al-maktabeh.com

من المعروف أن بين الأساليب البيانية الأثيرة لدى أنبياء اسرائيل القديمة كانت الأساليب المجازية وأساليب التشخيص. فسواء كان النبي يتحدث عن اسرائيل أو عن أي شعب آخر، أو بلد أو مدينة،كان يتحدث عنها كأنها شخصيات حية. أما أثناء وصفهم للعلاقة بين يهوه والشعب اليهوديو فكان الأنبياء يحبون خاصة استخدام هذه الأساليب. فلنتذكر، على الأقل، النبي القديم هوشع الذي صور اسرائيل في هيئة الزوجة الزانية التي تخون زوجها الشرعي يهوه، لكنها – مع ذلك – عزيزة على قلبه. لكن القضية لم تكن، عادة، تتوقف عند المقارنة البسيطة، فالخيال الشرقي أثناء التشخيص المذكور، كان غالباً ما ينمّي التفاصيل بلا حاجة ظاهرة، فكانت الصورة المجازية المجردة تكتسي لحماً ودماً وتبدأ تعيش ما يشبه الحياة الخاصة بها. ومن مثال حزقيال استطعنا أن نرى الى أية درجة من الواقعية، لابل من «الطبيعية » الفظة كان يمكن أن يصل هذا الأمر (الإصحاحان ٢١و ٢٣).

بين الصفات العادية ولكن المشرّفة (ا)، التي كانت تطلق على اسرائيل لدى أنبياء مرحلة الأسر كانت صفة «عبد يهوه»، ونجد هذه الصفة تتكرر لدى إشعيا الثاني كثيراً خصوصاً، وفي سياق وحيد المدلول، اغلب الاحيان، بشكل لا يدع مجالاً للشك حول من هو المقصود لدى الاله حين يتحدث عن لسان النبي على «عبد يهوه». فالحديث، بلا شك، يجري حول الشعب اليهودي، حين قال: «وأما انت يا اسرائيل عبدي يا يعقوب الذي اخترته... الذي... دعوته وقلت له انت عبدي اخترتك ولم ارفضك... لأني الهك »(٤١ : ٨ – ١٠). ويلوم الاله«عبد يهوه » على تمرده وعدم طاعته، حيناً: « من هو اعمى إلا عبدي وأصم كرسولي الذي ارسله... من هو اعمى... كعبد يهوه »(٤٢ : ١٩)،بينما يعده بغفران خطاياه السابقة حيناً آخر: «استخدمتني بخطاياك واتعبتني بآثامك. انا انا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا اذكرها »(٤٣ : ٢٤ – ٢٥)، «اذكر هذه يا يعقوب. يا اسرائيل فانك انت عبدي. قد جبلتك. عبد لي انت. يا اسرائيل لا تنسى مني. قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارجع إلي لاني فديتك

»(٤٤: ٢١ — ٢٢). ويعلن يهوه للشعوب الوثنية، متوجهاً إليهم على لسان النبي، الرسالة العظيمة لإسرائيل، العظمة المقبلة لعبده: «هذا الشعب جبلته لنفسي يحدِّث بتسبيحي» (٤٣: ٢١)، «هو ذا عبدي يعقل يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً» (٥٢: ١٣).

لكن اذا كانت فكرة إشعيا الثاني حول الدور الإنقاذي والمغزى السامي لآلام البريء قد تكونت تحت ضغط الحاجة الى تبرير يهوه في موقفه من شعب اسرائيل، فإن جانباً آخر من هذه الفكرة كان يتكون في الوقت نفسه، وهو تطبيق المبدأ على الصعيد الشخصي للفرد. وقد ظهر هذا الجانب بطريقة مميزة لدى إشعيا الثاني بالذات، فالنبي يتصور نفسه بالذات تقياً مر عبر أتون الآلام أثناء أدائه لرسالة يهوه.

يمكننا الإفتراض أن حياة «المجهول» ذاته لم تكن سهلة قط، مع أننا لا نعرف عنها شيئاً. ثمة غموض يكتنف الإصحاح ٥٣ من كتاب إشعيا، في العديد من النواحي. ففيه تصوير ل«حياة» قديس معذب حقيقة، يقول يهوه عن صاحبها «عبدي البار» (٥٣: ١١) وهذا «العبد» محتقر من قبل الناس وقد اندار عنه الجميع، لشكهم بأنه يتلقى العقاب من الإله على آثامه. أما في الواقع، فإنه «أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لاجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا» (٥٣: ٤ — ٥)، ذلك أن «يهوه وضع عليه اثم جميعنا»(٥٣: ٦). ويجري الحديث في هذا الاصحاح عن سجن القديس المعذب ومحاكمته وربما حتى عن إعدامه («قطع من أرض الأحياء ») لكن الإله يعلن على لسان النبي أنه إذا «جعل نفسه ذبيحة اثم يرى نسلاً تطول ايامه ومسرة يهوه بيده تنجح » (٥٣: ١٥)، ثم يؤكد يهوه: «لذلك أقسم له بين الاعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمه وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين» (٥٣: ١٢).

عمَّن يجري الحديث هنا؟ ذلك لغز تعبت فيه العقول منذ القدم! ولازال

http://www.al-maktabeh.com

دارسو (٥٢) التوراة يتناقشون حوله بلا نهاية في العصر الحديث . فلا يبدو أن النبي يتحدث عن نفسه. بعض الباحثين افترض أن إشعيا الثاني قد وصف في هذا الإصحاح أحد معذبي الماضي المعروفين لديه، الذين تعذبوا لاجل إيمانهم، في عهد ملك ما من ملوك يهوذا المرتدين عن يهوه (ربما في عهد منسى)، في حين افترض آخرون أن الشخص المصور بمثابة «عبد يهوه» في الاصحاح ال ٥٣ أحد النبيين القديمين إشعيا أو إرميا، أما البعض الثالث فاعتبر هذا المقطع إضافة متأخرة، مفترضين أنه وصف لمصير أحد الذين تعذبوا لاجل ديانة يهوه في زمن المكابيين. هذا، بينما ينسب الكثير من المفسرين اليهود مضمون الإصحاح ٥٣ الى المستقبل البعيد، فيرون في «عبد يهوه» شخصية ذلك «المسوح» الاسخاتولوجي، أي المخلص الذي يجب أن يأتي في المستقبل، في نهاية العالم. وأخيراً، فان التفسير التقليدي للإصحاح ٥٣ لدى الكنيسة المسيحية يتلخص في (٥٣) اعتباره نبوءة حول يسوع المسيح .

لكن الاحتمال الأرجح هو أننا هنا – كما في إصحاحات إشعيا الثاني الأخرى – أمام صيغة مجازية وأن «عبد يهوه» هو أيضاً تشخيص لإسرائيل. ولا داعي لاستغراب السمات الواقعية التي تُضفي هنا على الصورة، بما في ذلك وصف مظهره الخارجي («لاصورة له ولا جمال فننظر اليه ولامنظر فنشتهيه») (٥٣ : ٢). كما أن التعداد التفصيلي لعذاباته لايتوجب علينا تقبُّله على نحو حرفي. لنتذكر مجدداً الأمثلة المشابهة لدى الانبياء الآخرين. إنه «موضوع انشاء حر» حول موضوع «المعذبون». والنبي يعدد العذابات المريعة التي يأتيه بها خياله، والتي يمكن أن تصيب الإنسان: الأمراض والتقرحات والجراح والحروقات والمذلة والقيود والزنازن، وأخيراً، الإعدام والموت. لكن المعذب يستمر في الوجود حتى بعد أن أُنبئنا بموته، وذلك موشر واضح على أن المؤلف لا يقصد انساناًفرداً، بل

---

(٥٢) لمزيد من التفاصيل حول الاصحاحات (٤٠ – ٦٦) في كتاب اشعيا انظر
snaith n. h. iesaiah 40 –66 . a rtudy of the teaching of the second iesaiah and it eonsequences. supplements to vetus testamentum. v14. leiden, 1967, p.145–205.

(٥٣) غ. دياتشكو. النبوءات الرسولية في العهد القديم. « برافوسلافنوية اوبوزرينية »، ١٨٨٤، ٢، ص ٤١٨ – ٤٢٠

وجود وعذاب شعب بأكمله.

لكن من المهم، بالنسبة لنا، التأكيد على ما يلي: بغض النظر عن مسألة من هو المقصود لدى النبي في الإصحاح ٥٣ من كتاب إشعيا، حين يُرسم لنا هذا التصور المحسوس والحي والمؤثر حول «معبد يهوه» (أي شعب اسرائيل أو معذب من الأتقياء أو الرسول المقبل)، فانه يمكن القول أن هذه الصورة الادبية بدأت حياة مستقلة خاصة بها وتجسدت من خلالها – في آخر المطاف – نظرية كاملة حول أن العذاب ليس هو بالضرورة دليلاً على ارتكاب ذنب وليس دائماً هو انتقام للخطأ. إذ يمكن أن يتعذب البريء تماماً والتقي وهذا يمكن أن يجري بعلم ومشيئة الإله لأجل مجد يهوه الذي يستطيع أن يلقي على التقي تبعات ذنب الآخرين ويسلمه للعذاب ، فاسحاً بذلك في المجال أمام الخاطئين لخلاصهم . لماذا يختار الإله هذا الطريق بالذات إلى مجده ؟ إنه سر يهوه المحجوب عن البشر : « لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول يهوه . لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي وأفكاري عن أفكاركم » (٥٥ : ٨ ـ ٩) . إن اللاهوت اليهوذي يعلن هنا عن المعاناة الطوعية والإذلال الذاتي من قبل التقي وعن « شعور الدودة » (إش ٤١ : ١٤ ، مز ٢١ : ٧) باعتبارها الدليل الأول على الورع الحقيقي . .

كان تبرير يهوه، كما هو وارد لدى اشعيا الثاني، وليد الفكرة اللاهوتية في مرحلة الأسر البابلي، وقد استدعته خصوصية الموقف: كان من المهم تبرير يهوه عبر شرح الدوافع التي جعلت يهوه يسمح بإبعاد «شعبه المختار» عن أرضه ليسكن في أرض غريبة، أسيراً، تحت ظلم الوثنيين. هكذا صيغت فكرة الرسالة الفدائية لإسرائيل، عبد يهوه وبشيره، الذي يجب عليه حمل شريعة إلهه وتعليمه الى «الجزائر . . .والأمم. . . البعيدة (٤٩: ١)، لأجل مجد هذا الاله.

ثمة عنصر لايقل أهمية في تبشير اشعيا الثاني هو النبوءات حول الخلاص المقبل لاسرائيل وازدهارها (الذي حُدد لها جائزةً اذا هي صانت الوفاء ليهوه). والنبي يمنح الوعود بسخاء. ثم من الجوهري هنا أن الخلاص والثواب يجب ان يتحققا في المستقبل القريب. ومن الواضح انه حين كان إشعيا الثاني يؤلف نبوءاته، كانت هنالك اسس لتصديق ذلك: جيش كورش يقف عند ابواب بابل،

http://www.al-maktabeh.com

والنبي يعلن دونما تفكير ان الملك الفارسي (الوثني) هو «ممسوح» يهوه و«رسوله» المنتظر منذ زمن والمنقذ لإرادة إله اسرائيل: «هكذا يقول الرب لمسيحه كورش الذي امسكت بيمينه لادوس امامه امماً... لأجل عبدي يعقوب واسرائيل مختاري دعوتك... لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها ان ليس غيري. انا يهوه وليس آخر» (٤٥: ١، ٤، ٦). ويرسم النبي المجهول بألوان ساطعة هلاك بابل القريب. فالمدينة العظيمة ستسقط فريسة بيد كورش، يساعده في ذلك يهوه الذي على لسان النبي يعد ملك الفرس: «أنا أسير أمامك والهضاب أمهد. أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف» (٤٥: ٢)، ذلك أن بابل قد كُتب عليها أن تذوق نفس المصير الذي أصاب سابقاً شعب يهوذا: عار الأسر والعبودية والحياة في المنفى (٤٧: ١ — ٢). أما شعب اسرائيل فسوف يعود الى وطنه ويتعظم شأنه بلا حدود.

باسم يهوه يعلن النبي لشعب اسرائيل أن كأس معاناته ستنتقل الى شفاه معذبيه ليشربوا منها (٥١: ٢٢ — ٢٣)، فظالموه السابقون سيأكلون. جسدهم الخاص ويشربون دمهم كما سلاف الخمر (٤٦: ٢٦)، وسوف تأتي إليه الشعوب بكنوزها (٤٥: ١٤). وسوف يسقط من يتسلح ضد اسرائيل لأن يهوه ذاته سيقاتل الى جانب شعبه (٥٤: ١٥). سوف يسيطر أبناء اسرائيل على الشعوب ويسكنون المدن الخاوية (٥٤ ـ ٣) أما صهيون فسيكتسي بلبوس العظمة (٥٢ ـ ١) وعندئذ سيلحق الخزي والعار بالوثنيين ولذا سيأتون ليقولوا: «فيك وحدك الله وليس آخر. ليس إله» (١٤ : ٤٥). وستصبح أورشليم مدينة مقدسة لن يدخل إليها بعد «أغلق ولانجس» (٥٢ : ١). فلتستعد يهوذا الأسيرة إلى الخروج الثاني. ثم ينادي النبي: «اخرجوا من بابل اهربوا من أرض الكلدانيين. بصوت الترنم أخبروا نادوا بهذا» (٤٨ : ٢٠)، «اعتزلوا اعتزلوا اخرجوا من هناك لا تمسوا نجساً. اخرجوا من وسطها...» (٥٢ : ١١)..

يتكون لدى القارىء المعاصر لنبوءات إشعيا الثاني انطباع عفوي بأن النبي أيضاً كان، اثناء تأليفه للوحات ساطعة حول مستقبل شعبه بعد العودة الى الوطن، يتعذب بنفس التساؤل: هل سيصدقه الناس؟ فليس صدفة أن اشعيا

http://www.al-maktabeh.com

الثاني يسير على خطا حزقيال فيؤكد أن ضمانة تنفيذ يهوه لوعوده هي المصلحة الشخصية للاله: «من أجل نفسي من أجل نفسي أفعل. لأنه كيف يدنس اسمي وكرامتي لاأعطيها لآخر» (٤٨: ١١). كما ويكرر «المجهول تأكيدات حزقيال حوله أنه بوسع يهوه أن يغفر للمتجاوزين وغير الشرفاء، اذا هم تركوا طريقهم وغيروا أفكارهم (٥٥: ٧). رغم ذلك، يبدو أنه كان لدى أتباع يهوه ما يكفي من الأسس للشك في رغبة الكثيرين من أنبياء قومهم بالعودة من بابل الى أرض أجدادهم، كما كان لدى أنباء قومهم ما يكفي من الأسس للشك في جدية التأكيدات التي يسمعونها من أنبياء يهوه.

ولقد برر الواقع شكوك الطرفين كليهما!

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أنبياء مرحلة ما بعد الأسر

إشعيا الثالث

فإذاً، في عام ٥٣٨، وبعد دخوله بابل بقليل، أصدر كورش مرسوماً، سُمح بموجبه لليهوذيين بالعودة الى وطنهم يهوذا. في كتاب عزرا، وهو من أواخر كتب العهد القديم، ورد حول ذلك أنه « في السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام يهوه بفم إرميا نبّه يهوه روح كورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضاً قائلاً. هكذا قال كورش ملك فارس. جميع ممالك الارض دفعها لي يهوه إله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في اورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن الهه معه ويصعد الى اورشليم التي في يهوذا فيبني بيت يهوه اله اسرائيل. هو الاله. الذي في اورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجده اهل مكانه بفضةٍ وبذهبٍ وببهائم مع التبرع لبيت يهوه الذي في اورشليم » (١عز ١: ١ — ٤).

وتعود الى عام ٥٣٨ ذاته وثيقة أخرى وصلت إلينا وهي نداء الكهنة البابليين الى شعبهم بمناسبة قدوم الفرس. إن كهنة بابل التي احتلها الملك الاعجمي يؤكدون في هذا النداء إن الإله البابلي الرئيسي مردوك « بعد أن نظر كل البلدان وفحصها بحثاً عن ملك تقي يكون من قلبه ليأخذ بيده، . . . نادى الملك كورش. . . باسمه وناشده السيطرة على الكون. . . وأمره بالسير الى مدينته هو (أي مدينةالإله) بابل. . . ودون معركة أو قتال سمح له بدخول بابل ». ثم يتم

إيراد البيان الحقيقي لكورش، حيث يعلن ملك الفرس: «حين دخلت بابل... مستني رعاية شؤون بابل الداخلية ومقدساته، ... ففرح مردوك، المليك العظيم، لأعمالي المباركة وباركني أنا، كورش، الملك الذي يجلّه، وقمبيز ابني..».

إن عدداً من التعابير في نداء الكهنة البابليين يذكِّر، على نحو مدهش، بنصوص إشعيا الثاني: ففي كلا المصدرين يسمى كورش بالملك التقي، وهو قريب من قلب الإله، الذي سماه بالإسم وأخذ بيده. وفي بيان كورش، كما في المرسوم بصدد تحرير اليهوذيين، يتحدث الملك باجلال، عن مردوك، في حاله، وعن يهوه «إله السماء»، في الحالة الأخرى، كما أنه يبدي رعايته للمقادس. طبيعي أن السبب في ذلك لم يكن تدين كورش بقدر ما كان مصالحه السياسية. فقد كان بحاجة لان يجتذب الى جانبه كهنة بابل ذوي النفوذ ونجح في ذلك. ولم تحاول بابل لا في عهده ولا في عهد ابنه أن تنتفض ضد الفرس. كما أن كورش سمح لليهوذيين بالعودة الى وطنهم، بالطبع، ليس لإنه تلقى أمراً من يهوه ببناء «بيت» له في اورشليم. فقد كان كورش يهيىء هجوماً على مصر وكان مهماً بالنسبة له أن يملك على مشارف مصر بلداً سكانه أوفياء للسلطة الفارسية. أما الكهنة اليهوذيون فحصلوا ليس فقط على سماح ببناء معبد يهوه في اورشليم، بل وعلى الأوعية والاواني الثمينة الاخرى التي كان نبوخذنصر قد استولى عليها وأخذها الى بابل. لقد تم تسجيل جزء من مصاريف بناء المعبد على حساب الخزينة الفارسية (١عز ٦: ٣ – ٥). كان كورش يريد أن يكون واثقاً من إخلاص الكهنوت اليهوذي لكن يهوذا لم تصبح دولة مستقلة بحال، بل دخلت ضمن قوام الدولة الفارسية بمثابة منطقة تابعة، يحكمها الوالي الفارسي. كما تم تنصيب حاكم محلي على يهوذا، وهو زربابل سليل بيت داؤود، إضافة الى كاهن أول هو يهوشع، لكن زربابل لم يحصل على لقب ملكي كامل، بل على مجرد لقب «رئيس».

لقد تحققت مخاوف إشعيا الثاني. فكما قلنا، لم يشأ جميع المسبيين اليهوذيين في بابل أن يغادروا وطنهم الجديد. وفي كتاب عزرا إشارة الى العدد العام للناس الذين عادوا بموجب مرسوم كورش (٤٢٣٦٠ نسمة) ويبدو أن ذلك كان جزءاً صغيراً فقط من مجمل اليهوذيين الذين عاشوا آنذاك في بابل، بينما فضل الباقون أن

(٥٤) تواريف. مرجع سابق. المجلد الثاني. ص ١١٧.

http://www.al-maktabeh.com

يكتفوا بتقديم التبرعات لبناء معبد اورشليم والبقاء في أماكنهم. ويورد كتاب عزرا كذلك عدد الكهنة اللاويين ومغنيي المعبد وغيرهم من خدم المعبد، الذين عادوا الى يهوذا، وهو يزيد عن ٤٥٠٠ شخصاً.

لقد كان على حق اليهوذيون الذين لم يصدقوا حتى النهاية وعود يهوه وأنبيائه البابليين، بأنه سوف يبيد قريباً مدينة بابل ويكسو صهيون بحلة المجد. فبابل التي استلمها الفرس لم تتجنب الدمار فحسب، بل على العكس من ذلك، راحت تبني أبنية ومعابد جديدة وتحولت الى عاصمة من عواصم الدولة الفارسية. ومع أن عودة اليهوذيين من الأسر كانت تجري، لكنها كانت تجري ليس على النحو الذي رسمه الأنبياء قطعاً. فأين عظمة « الشعب المختار » وازدهاره الموعودان؟ لقد وجد المجتمع اليهوذي نفسه ضمن ظروف في غاية القسوة: مواسم سيئة لعدة سنوات وجفاف مريع أصاب البلد وكذلك الأمراض التي أصابت الحبوب والأشجار المثمرة (حج١: ٥ — ١١ ، ٢: ١٥ — ١٩) اضافة الى هجوم الجراد. وكان الجوع يتكرر من عام الى عام. كما ان ذلك الجزء من السكان الذي لم يسب في حينه من قبل نبوخذنصر احتل أراضي المسبيين وما كان يرغب في إعادتها. وبدأ بناء المعبد من ترميم المذبح الذي بدأ فوراً تقديم الذبائح عليه. لكن تشييد معبد يهوه امتد عشرين سنة كاملة. كانت اورشليم غارقة في حطام الأطلال وكان يتوجب ترميم سورها أيضاً.

الى مرحلة الذكرى المئوية الأولى لعودة اليهوذيين من الاسر البابلي يعود نشاط عدة أنبياء، تم فيما بعد، توحيد مداخلاتهم في كتب خاصة تحمل أسماءهم (كتب حجي وزكريا ويوئيل وعوبديا). هذا عدا عن مداخلات مجهولة المؤلفين تم حشرها في كتب أنبياء آخرين. وبين تلك المداخلات التي نجهل مؤلفيها تحتل مكانة خاصة الأصحاحات الأحد عشر الأخيرة (٥٥: ٦٦) من كتاب اشعيا، وقد أطلق دارسو التوراة في العهد الجديد على النبي المجهول الذي ألف هذه المداخلات اسم اشعيا الثالث.

ان الموقف التاريخي القائم آنذاك مرسوم في هذه الاصحاحات بوضوح كافٍ: عاد الى الوطن أهل يهوذا المسبيون، لابل أحفادهم. وبدأ بناء المعبد الجديد، لكن أسوار المدينة لم ترمم بعد (٦٠: ١٠ — ١٣). وتسود البلاد نزعات

بين «الأتقياء» و «الكفرة»، حيث الكفرة المتجاوزون ليسوا الظالمين الوثنيين كما كان الأمر لدى اشعيا الثاني، بل هم المتجاوزون الكفرة من أهل يهوذا الذين أصبحوا نصف وثنيين، يقربون التقدمات ليهوه على مذبحه في اورشليم، وفي الوقت نفسه «رتبوا المائدة». للإلهين الوثنيين جاد ومني (٦٥ : ١١) ويقدمون ضحايا في الغابات وياكلون لحم الخنزير (٦٦: ١٧). انهم أيضاً الحكام المدنيون الذين لاينفعون بشيء والسكارى والكسالى والمتجاوزون الذين يظلمون الفقراء بقسوة ويستغلونهم ويجبرونهم على العمل لصالحهم حتى في أيام الصوم والأعياد (٥٨ : ٣ — ٦). انهم منافقون ويتكلمون «بالظلم والمعصية» (٥٦ : ١٢ — ١٣). بالمقابل فان يهوه ممتلىء غضباً وسيعاقب الخاطئين كما سبق له ان عاقب ظالمي يهوذا الوثنيين (لم يعد هنالك ذكر لبابل وكورش!). وبعد ان يعاقب الخاطئين الذين لم يتوبوا ويبيدهم، سوف يعيد يهوه بناء اورشليم وسيشرق فوقها نور مجد الإله. اذاً، يتنبأ المؤلف بمستقبل باهر لاسرائيل: فسوف تبني في يهوذا كل الأماكن الخالية ويعاد بناء المدن المنهوبة (٦١ : ٤)، ولسوف يسمى اليهوذيون أنفسهم «كهنة يهوه» و«خدام الإله» (٦١ : ٦)، بينما الشعوب والممالك التي لن ترغب في خدمة يهوذا ستهلك و«خراباً تخرب» (٦٠ : ١٢). وبعد ذلك «لايسمع. . . ظلم. . . ولا خراب أو سحق» في أرض يهوذا، والشعب كله سيكون أبراراً(٦٠ : ١٨، ٢١).

اذا حكمنا من خلال المدخلات المشار اليها أعلاه، فإن الوضع المعاصر للنبي هو — طبعاً — وضع يهوذا في السنوات الأولى بعد عودة المسبيين من بابل وعلى رأسهم زربابل والكاهن الأول يهوشع. وكان يتوجب على كهنة يهوه العائدين ان يكتشفوا — بشعور من الأسف — كيف أن بني قومهم الذين تركهم نبوخذنصر في يهوذا قد أصيبوا، خلال خمسين سنة مضت، بعدوى الوثنية إصابة عميقة. فبما أن معبد أورشليم لم يكن موجوداً، تم إحياء المقادس المحلية في الغابات (السواري) وعلى الجبال، وراح الناس هناك يقدمون القرابين ليس فقط ليهوه، بل وللآلهة الوثنية القديمة بعل جاد ومني وغيرهما. لقد شنَّ الكهنة العائدون نضالاً حاسماً ضد ذلك العار. وكان هذا النضال أصعب، نظراً لتزايد الزيجات بين أهل يهوذا وممثلي الشعوب المجاورة وكان من الصعب إيقاف هذه العملية. فمنذ منتصف القرن الخامس، كما يشهد كتاب عزرا، «لم ينفصل شعب

http://www.al-maktabeh.com

اسرائيل والكهنة واللاويين من شعوب الأرض من رجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين. لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الاراضي. وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة أولاً» (١عز ٩: ١ —).

كانت الزيجات المختلفة تشجع المزيد من انتشار الوثنية وتجعل من الصعب اجتثاث جذورها. وكان كهنة وأنصار يهوه مضطرين في البداية الى النضال ضد الوثنية بالوسائل الدعائية، فكان أن قام بدور المبادرين في ذلك الأنبياء المقربون من الكهنوت. ومن الواضح أن أشعيا الثالث كان أحد اولئك الانبياء. ففي نبوءاته يمكن العثور على عدد من السمات المميزة لذلك الزمن بالذات، أيام كان كهنوت اورشليم لم يبلغ سطوته الكاملة وكان يلح فقط على فروض العبادة معتبراً أنه يمكن التنازل عما تبقى. إن النبي يفسح — باسم يهوه — في المجال أمام أبناء الشعوب الاخرى لكي يخدموا يهوه: «فلا يتكلم ابن الغريب الذي اقترن بيهوه قائلاً افرازاً أفرزني يهوه من شعبه. . . أبناء الغريب الذين يقترنون بيهوه ليخدموه وليحبوا إسم يهوه ليكونوا له عبيداً كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي. آتي بهم الى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون ذبائحهم ومحروقاتهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلوة يدعى لكل الشعوب. يقول يهوه الرب جامع منفيي اسرائيل أجمع بعد اليه الى مجموعيه» (٥٦ : ٦، ٣ — ٨). ورغم ذلك، فإن أنبياء الشعوب الأخرى الذين آمنوا بيهوه سوف يعيشون في مملكة اسرائيل المزدهرة بمثابة رعاة ومزارعين وكرامين (٦١ : ٥). أما خدمة الإله المباشرة فسيقوم بها اليهوذيون.

هنالك لدى اشعيا الثالث فقرة، يؤكد فيها يهوه أنه ليس في شديد حاجة الى المعبد: «هكذا قال يهوه السموات كرسي والارض موطىء قدمي. أين البيت الذي تبنون لي وأين مكان راحتي» (٦٦ : ١) كما أنه ليس بحاجة الى الضحايا والصيام، طالما « انكم في يوم صومكم توجدون مسرةً وبكل أشغالكم تسخرون. . . اليس هذا صوماً أختاره حلّ قيود البشر. فك عقد النير واطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير. أليس ان تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين الى بيتك اذا رأيت عرياناً أن تكسوه وان لا تتغاضى عن لحمك.

http://www.al-maktabeh.com

حينئذٍ. . . يسير بربك أمامك ومجد يهوه يجمع ساقتك» (٥٨: ٣ ، ٦ ـ ٨)

اضافة الى هذه الفقرات التي تذكرنا بنداءات مشابهة لدى عاموس وميخا وإشعيا (وهي نداءات مشبعة بالتعاطف مع المظلومين والمحرومين من عامة الشعب)، نجد عند إشعيا الثالث، مثلا، اشياء مخالفة: « ان رددت عن السبت رجلك عن عمل مسرتك يوم قدسي ودعوت السبت لذة ومقدس يهوه مكرماً واكرمته عن عمل طرقك وعن ايجاد مسرتك والتكلم بكلامك فإنك حينئذ تتلذذ بيهوه واركبك على مرتفعات الارض واطعمك ميراث يعقوب ابيك. . » (٥٨: ١٣ — ١٤). فالفرائض الطقوسية لدى إشعيا الثالث لاتقل اهمية، اذاً، عن المتطلبات الاخلاقية. ان الجانب الطقوسي في ديانة يهوه يبدأ — اعتباراً من ايام الاسر — بأداء دور متزايد الاهمية، وفي ذلك مصلحة الكهنوت اليهوذي بالدرجة الأولى. أما أنبياء يهوه فقد عكسوا الفرائض الطقوسية بشكل خصوصي، في صيغة تهديدات ومواعظ صادرة عن لسان الإله. ومع الزمن انتقل كهنة يهوه الى اجراءات أكثر تشدُّداً ذات طابع قمعي، موجه ضد خصومهم. ولكن المهمة الأولى، في سنوات ما بعد الاسر الاولى، كانت بناء معبد يهوه في اورشليم، وهو عمل طال كثيراً كما نعلم.

أنبياء المعبد: حجي، زكريا، زكريا الثاني.

يتضمن كتاب حجي إصحاحين فقط، والمداخلات الموجودة فيهما يمكن أن نحدد تاريخهابقدر كافٍ من الدقة فمؤلف الكتاب أشار الى تاريخ النبوءات في أربعة أماكن: «في السنة الثانية لداريوس الملك في الشهر السادس في أول يوم الشهر كانت كلمة يهوه عن يد حجي النبي الى زربابل بن شألتيئيل والى يهوذا والى يهوشع بن يهوه يهوصادق الكاهن العظيم » (حج ١ : ١) « في الشهر السابع في الحادي والعشرين من الشهر كانت كلمة يهوه عن يحد حجي النبي » (٢ : ١) ، « في الرابع والعشرين من الشهر التاسع في السنة الثانية لداريوس كانت كلمة يهوه عن يد حجي النبي » (٢ : ١٠) ، « وصارت كلمة يهوه ثانية إلى حجي في الرابع والعشرين من الشهر » (٢ : ٢٠) . إن السنة الثانية من مُلك داريوس هو عام ٥٢٠ قبل الميلاد ، والإشارات المذكورة ليست من قبل حجي نفسه ،فهي تتحدث

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عنه بضمير الغائب مع إضافة « الرتبة » ـ نبي ، لابل إنه في أحد المقاطع سُمي «رسول يهوه برسالة يهوه . . .» (١ : ١٣) . .

عندما يقرأ المرء كتاب حجي ، لا يفارقه الانطباع بأن مداخلات النبي كانت تستهدف غرضاً ملموساً تماماً ، ألا وهو تسريع بناء المعبد، بعد أن امتدت العملية كثيراً. فلدى اشعيا يبدو الإله وكأنه ليس يلح كثيراً على كونه بحاجة لسكن على الارض، لأن السماء كرسيه (إش٦٦: ١). أما لدى حجي فيسلك يهوه سلوكاً مختلفاً. فهو يحتاج الى سكن على الارض بدرجة لاتقل عن حاجة البشر: «هكذا قال يهوه رب الجنود قائلاً. هذا الشعب قال ان الوقت لم يبلغ وقت بناء بيت يهوه. . . هل الوقت لكم أن تسكنوا في بيوتكم المغشاة وهذا البيت خراب » (١ : ٢، ٤). ويعلن النبي ، باسم الإله، أن جميع المصائب، التي ذاق طعمها الشعب في السنوات الاخيرة، كان يهوه يرسلها عليهم بسبب التباطؤ الإجرامي في تشييد المعبد: «زرعتم كثيراً ودخّلتم قليلاً. . . انتظرتم كثيراً واذا هو قليل ولما ادخلتموه البيت نفخت عليه. لماذا يقول يهوه رب الجنود. لأجل بيتي الذي هو خراب وأنتم راكضون كل انسان الى بيته. لذلك منعت السماوات من فوقكم الندى ومنعت الارض غلتها. ودعوت بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ماتنبته الارض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب اليدين» (١: ٦، ٩ — ١١). إن يهوه يطالب بإلحاح أن يتم تسريع بناء المعبد: «اصعدوا الى الجبل واتوا بخشب وابنوا البيت فأرضى عليه وأتمجد قال يهوه» (١ : ٨). واذا صدقنا ما هو مكتوب في الكتاب، فان مداخلات النبي وتهديدات الإله فعلت فعلها: «خاف الشعب أمام اوجه يهوه. . . فجاؤوا وعملوا الشغل في بيت يهوه رب الجنود المهم » (١ : ١٢ ، ١٤) .

من المستبعد، في الواقع، أن تكون هذه المحاولة من قبل الكهنة تسريع بناء المعبد قد أحرزت، هي الأخرى نجاحا. فقد استمرت عملية البناء خمس سنوات أخرى، وكان المعبد الثاني أكثر تواضعاً من سابقه لدرجة أن حجي يشير بمرارة: «من الباقي فيكم الذي رأى هذا البيت في مجده الأول وكيف تنظرونه الآن. أما هو في عينيكم كلا شيء» (٢ : ٣). ولكي يعزي بناة «بيت يهوه» يعدهم النبي بمعونة الإله: «تشددوا يا جميع شعب الأرض يقول يهوه واعملوا فاني

معكم. . . لاتخافوا. لأنه هكذا قال يهوه رب الجنود. هي مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة. وازلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال يهوه رب الجنود» (٢ : ٤ — ٧).

من هو الذي يسميه حجي «مشتهى كل الأمم»؟ انه، على الأرجح، زربابل، سليل نسل داؤود. فكتاب حجي ينتهي بوعد مهيب من جانب يهوه: «كلم زربابل والي يهوذا قائلاً. اني ازلزل السموات والأرض وأقلب كرسي الممالك وأبيد قوة ممالك الأمم واقلب المركبات والراكبين فيها وينحط الخيل وراكبوها كل منها بسيف أخيه. في ذلك اليوم يقول يهوه رب الجنود آخذك يازربابل عبدي ابن شألتيئيك يقول يهوه وأجعلك كخاتم لأني قد اخترتك يقول يهوه رب الجنود » (٢ : ٢١ — ٢٣).

في عام ٥٣٠ قام كورش بحملة على آسيا الوسطى ضد قبائل الرحل من الماساجتاي الذين كانوا يهددون حدود دولته من الشمال الشرقي. وفي المعركة الحاسمة تم تحطيم الجيش الفارسي وقُتِل كورش نفسه، فانتقل العرش الى ابنه قمبيز الذي تابع سياسة الاحتلال التي انتهجها أبوه، فدفع عام ٥٢٥ بجيوشه نحو مصر واحتلها. لكن انتفاضةً قامت ضد قمبيز في وطنه ايران، تزعمها الكاهن الميدي جوماتا الذي قدم نفسه على أنه برديا، شقيق قمبيز. فتوجه قمبيز الى ايران لكنه مات في الطريق ضمن ظروف غامضة، واحتل العرش الفارسي المدعي «بردياالكذاب » لكن الملك قُتل في العام نفسه بنتيجة انقلاب في البلاط، فأصبح داريوش، وهو أحد المتآمرين، ملكاً على فارس، وبعد ذلك فوراً اندلعت عدة انتفاضات من قبل الشعوب التي أخضعتها الدولة الفارسية، فقامت الانتفاضات في بابل وفارس وميديا وعيلام وآسيا الوسطى ومصر. وتمكن داريوش من قمع تلك الانتفاضات وتوطيد وضعه في العرش فقط عند نهاية عام ٥١٩ . ربما من الممكن أن نرى في مداخلات النبي اليهوذي حول تحطيم العروش وإبادة الممالك الوثنية إشارات الى تلك الاضطرابات في الدولة الفارسية. وربما كان قد اعتبر ذلك بداية نهاية هذه الدولة ومؤشراً على الحلول القريب للحقبة الرسولية؟ ربما كان حجي ، لهذا السبب، اعتبر نفسه يملك الحق في التأكيد عن لسان الإله، أن ذلك سيحدث قريباً وأن يهوه قد اختار زربابل ملكاًللمملكة الرسولية؟ لكن النبوءة

http://www.al-maktabeh.com

المنقولة عن لسان يهوه لم تتحقق مرة أخرى. فالدولة الفارسية لم تصمد فقط، بل وبلغت في عهد داريوش الأول جبروتاً لم يسبق له مثيل. والى ذلك العهد يعود كتاب آخر لنبي آخر من أنبياء المعبد وهو النبي زكريا.

في نص كتاب زكريا الذي وصلنا ١٤ اصحاحاً، لكن الأكثرية الساحقة من الباحثين تعتبر أن الإصحاحات الثمانية الأولى فقط هي التي تعود للنبي الذي سُمي الكتاب باسمه. أما بقية النص فألفها شخص ما آخر وقد أطلق العلماء على هذا النبي المجهول اسم زكريا الثاني، مجازياً. إن زكريا يسمي عدة مرات تواريخ تَلَقّيه لكل «الرؤى» و«التجليات » وأولاها كانت «في الشهر الثامن في السنة الثانية لداريوس (تشرين الثاني عام ٥٢٠) بينما تعود الباقيات الى أشهر مختلفة من عامي ٥١٩و ٥١٨).

يبدو أن زكريا، مثل حجي، كان يعتبر الأحداث العاصفةالتي جرت خلال أول سنتين من حكم داريوش بمثابة دلائل أكيدة على اقتراب «اليوم الأخير» وحلول المملكةالرسولية. لكن،كما نعلم، تمكن داريوش في عام ٥١٩ أن يفرض السكينة في الجزء الأكبر من مملكته ويصفي الانتفاضات. ويمكن رؤية أصداء هذه الحوادث في نبوءات زكريا الأول، حيث يروي لنا ثماني رؤى كشفها له يهوه خلال ليلة واحدة «في اليوم الرابع والعشرين من الشهر الحادي عشر... في السنة الثانية لداريوش... (شباط ٥١٩): «رأيت في الليل واذا برجل راكب على فرس أحمر وهو واقف بين الآس... وخلفه خيل حمر وشقر وشهب». ثم يأتي الشرح للنبي من الملاك ومن الرجل الذي على الفرس الاحمر: «هؤلاء هم الذين أرسلهم يهوه للجولان في الأرض... فأجابوا ملاك ملاك يهوه... وقالوا قد جلنا في الأرض واذا الأرض كلها مستريحة وساكنة». وبعد ذلك يطرح الملاك ذاته سؤلاً على يهوه : متى سيترحم الإله على أورشليم ومدن يهوذا التي ما برح يغضب عليها منذ سبعين عاماً ؟ في جوابه نطق الإله «بكلام طيب وكلام تعزية»: «غرت على اورشليم وعلى صهيون غيرة عظيمة . وأنا مغضب بغضب عظيم على الامم المطمئنين... قد رجعت الى اورشليم بالمراحم فبيتي يبنى فيها يقول يهوه رب الجنود ويمد المطمار على اورشليم ». وهنا رأى زكريا اربعة قرون وأربعة صناع اتجهوا نحو تلك القرون، فيشرح الملاك: « هذه هي القرون التي بددت ليهوذا حتى لم يرفع انسان راسه »،

واما الصناع فقد جاؤوا « ليرعبوهم وليطردوا قرون الأمم الرافعين قرناً على ارض يهوذا لتبديدها » (١: ٧ – ١٢).

إن زوجين من القرون هما، بالطبع، مصر وبابل، وتحطيم قرونهما، على ما يبدو، إشارة الى قمع الانتفاضة في هذين البلدين من قبل داريوش. والآن شعباهما مستريحان. أما يهوه فلا زال بدون « بيت »، وهذا ما يشغل باله.

في الرؤيا التالية يرى زكريا « رجلاً » – ملاكاً بيده حبل قياس وملاكاً آخر يقول للأول: « كلّم هذا الغلام قائلاً. كالأعراء تُسكن أورشليم من كثرة الناس والبهائم فيها. وانا يقول يهوه اكون لها سور نار من حولها واكون مجداً في وسطها. يا يا اهربوا من ارض الشمال... تنجي يا صهيون الساكنة في بنت بابل». ان يهوه يقصد، بلا شك، اليهوذيين الذين لم يرغبوا في العودة من بابل الى الوطن، وهو يناديهم للهروب من بابل «ارض الشمال» لانه قريباً يرفع يده عليهم « فيكونون سلباً لعبيدهم»، بينما ستبتهج اورشليم: « ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لاني هاأنذا آتي واسكن في وسطك... فيتّصل امم كثيرة بيهوه في ذلك اليوم ويكونون لي شعباً».

في الرؤيا التالية يشاهد النبي الكاهن الاول يهوشع واقفاً امام الملاك « والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه». لكن يهوه يمنع الشيطان منعاً باتاً من مقاومة «الكاهن العظيم». وهنا رأى النبي ان ثياب الكاهن الاول مغطاة كلها بالبقع، وامرّ الملاك قائلاً: «انزعوا عنه الثياب القذرة» ثم توجه الى يهوشع: « انظر. قد اذهبت عنك اثمك والبسك ثياباً مزخرفة... هكذا قال يهوه رب الجنود ان سلكت في طريقي وان حفظت شعائري فانت أيضاً تدين بيتي وتحافظ على دياري... فاسمع يا يهوشع الكاهن العظيم انت ورفقاؤك الجالسون امامك. لأنهم رجال آية. لاني هانذا آتي بعبدي الغصن. فهو ذا الحجر الذي وضعته قدام يهوشع » ثم يدقق يهوه أن على ذلك الحجر « سبع اعين » (وفيما بعد سيتبين ان تلك هي أعين الإله السبع) وأن الإله سوف يزيل « اثم تلك الارض في يوم واحد » و« في ذلك اليوم يقول يهوه رب الجنود ينادي كل انسان قريبه تحت الكرامة وتحت الزيتونة »(زك ٣)

من الواضح أن مداخلة النبي كان لها علاقة مباشرة بالوضع الناشيء في

http://www.al-maktabeh.com

مجتمع اورشليم. فرؤية ثياب وسخة على الكاهن يمكن تفسيرها بشكل واحد فقط: كاهن معبد اورشليم لطخ نفسه كثيرا جراء تصرفات ما، غير لائقة، مما استدعى الهجوم عليه من جهة خصوم ما، فاضطر أنصار يهوشع من حزب الكهنة أن يدفعوا الى مسرح الاحداث نبياً شاباً من عائلة كهنوتية شرح للناس أن الذين يقفون ضد يهوشع هم معاونو الشيطان وأن الإله نفسه يمنع الهجوم على خادمه الذي قد طهره، هو الإله، من الآثام. وفي الوقت ذاته تم تقديم تحذير شديد للكاهن الأول نفسه، بحيث يمشي في « طرق يهوه » فقط ولايحيد عنها (مثلما جرى معه في السابق، على ما يبدو)، وعندئذ سيحتفظ يهوشع بمكانته الرفيعة وسلطته. لكن سيكون معه « الغصن » الذي يقصد به، ولاشك، « غصن جذع داؤود »، أي زربابل، الذي يتوجب على يهوشع أن يتعايش معه بوئام ويتبادل الزيارات.

في الرؤيا التالية تتأكد هذه الفكرة، حيث يرى النبي « منارة كلها ذهب. . . وسبعة سرج عليها وسبعة أنابيب للسرج. . . وعندها زيتونتان احداهما عن يمين الكوز والأخرى عن يساره ». ويشرح الملاك لزكريا: « هذه كلمة يهوه الى زربابل قائلاً لا بالقدر ولا بالقوة بل بروحي. . . ان يدي زربابل قد أسستا هذا البيت فيداه تتممانه. . . فتفرح أولئك السبع ويرون الزيج بيد زربابل. انما هي أعين يهوه الجائلة في الأرض كلها ». ثم يسأل النبي :« ما فرعا الزيتون اللذان بجانب الأنابيب من ذهب المفرغان من أنفسهما الذهبي »، فيجيبه الملاك « هاتان هما ابنا الزيت الواقفان عند سيد الأرض كلها » (زك ٤ : ١٤)، وابنا الزيت هما الكاهن الأول يهوشع والوالي المدني زربابل الذي، طالما بدأ بناء « بيت يهوه »، يجب أن ينهيه متجاوزاً كل الصعاب، بما فيها سرقة مواد البناء المُعدة لتشييد المعبد، وتلك مسالة نطلع عليها في رؤيا زكريا الجديدة. فقد رأى النبي لفافة ضخمة طائرة مكتوب عليها من الجهتين، وتبين أنه من جهة كتب عبارة « كل سارق يُباد. . . » ومن الجهة الاخرى عبارة « كل حالف يُباد. . . » وأعلن يهوه لزكريا أنه هذه اللعنة « تدخل بيت السارق وبيت الحالف باسمي زورا وتبيت في وسط بيته وتفنيه مع خشبه وحجارته »(٥ : ١ — ٤).

ثم تلي رؤيا أخرى يبرز فيها خيول من أربعة ألوان (وهي مشدودة هذه المرة الى مركبات). ويشرح الملاك لزكريا أن تلك هي الأرواح السماوية الأربعة التي

يرسلها الإله الى مختلف الجهات لكي تجوب الأرض وأن « هوذا الخارجون الى أرض الشمال قد سكنوا روحي في أرض الشمال ». وأرض الشمال هي تسمية يطلقها النبي على بابل. وبعد أن يطمئن الإله على معشر اليهوذيين في بابل، يكلف نبيّه بمهمة ملموسة وواقعية تماماً دون رموز أو مجازات: « خذ من أهل السبي من حلداي ومن طوبيا ومن يدعيا الذين جاؤوا من بابل وتعال انت في ذلك اليوم وادخل الى بيت يوشيا بن صفنيا. ثم خذ فضةً وذهباً واعمل تيجاناً وضعها على رأس يهوشع بن يهو صادق الكاهن العظيم. وكلمه قائلاً. هكذا قال يهوه رب الجنود قائلاً. هو ذا الرجل الغصن اسمه ومن مكانه ينبت ويبني هيكل يهوه. . . ويجلس ويتسلط على كرسيه ويكون كاهناً على كرسيه وتكون مشورة السلام بينهما كليهما » (٦: ١ — ١٣).

بغض النظر عن هذا النداء الجديد الى السلام بين الكاهن الأول يهوشع والوالي زربابل، لم ينشأ ذلك السلام، ولاشك أن الجالية اليهوذية البابلية قد لعبت دوراً ما في ذلك. فلنتذكر أن كهنة أورشليم في سنوات الاسر الاولى بدأوا يبنون خطط دولتهم المقبلة كدولة هيروقراطية. وفي خطة اليوتوبيا التي وضعها حزقيال، يقف على رأس الدولة الكاهن الاول، بينما الوالي في موقع بعيد على الخط الخلفي. وبالنسبة لليهوذيين الذين بقوا في بابل، لكنهم حافظوا على صلات وثيقة بوطنهم، كانت اورشليم مركزاً دينياً قبل كل شيء. وكان يهوذيو بابل الاغنياء يدعمون حزب الكهنوت ويرسلون الى فلسطين الذهب والفضة، متوقعين ان الاموال سوف تنفق على تشييد معبد اورشليم وتوطيد النظام الهيروقراطي. وعندما صنع النبي زكريا من الذهب المرسل من بابل تاجاً لاجل الكاهن الاول وليس لاجل الوالي، فقد كان ذلك اعترافاً صريحاً بتفوق السلطة الكهنوتية على المدنية. بذلك تحدد، من حيث الجوهر مصير الوالي زربابل، الذي اضطر لمغادرة اورشليم والعودة الى بابل، حيث لم يتمتع لاحقاً بأي دور سياسي.

يمكن عدم الشك ايضاً في ان حزب الكهنة كان يتمتع بدعم السلطات الفارسية ايضاً. فقد كان ملوك الفرس، ابتداء بكورش، يطمحون الى الاعتماد على الكهنوت في البلدان المحتلة، مثل بابل وثم مصر، ولم تكن يهوذا استثناء من القاعدة: في عام ٥١٩ اصدر داريوش الاول مرسوماً خاصاً يؤكد فيه اوامر كورش

http://www.al-maktabeh.com

في حينه بصدد بناء معبد اورشليم وعن صرف اموال لهذا البناء «من مال الملك»(عز٦ : ٨) اما زربابل الذي كان وريث سلالة ملكية عريقة، كان يمكن انتظار نزعات انفصالية من جهته، ولذا سعى اصحاب الشأن لإخراجه من اورشليم. .

يبدو انه بعد تصفية زربابل تم إخراج النبي زكريا من اللعبة السياسية. فالإصحاحات ٧و٨ يتضمنان محتوى « كلمة يهوه » الجديدة الى زكريا، التي كانت الاخيرة ربما، وفيها يدعو يهوه مرة أخرى الى إقامة محكمة عادلة وابداء الرحمة والتعاطف تجاه الأشقاء وعدم قسر الأرامل واليتامى والفقراء. لان اليهوذيين لم يكونوا يطبقون هذه الوصايا التي كان يهوه يرسلها بواسطة روحه عبر الأنبياء القدامى، لذلك، تم تبديدهم بين الامم. اما الآن فقد أعاد يهوه رأفته الى صهيون وسوف يعيش في أورشليم.

ثم لا شيء معلوماً عن المصير اللاحق للنبي زكريا.

كما قلنا سابقاً تختلف الإصحاحات (٩ — ١٤) في كتاب زكريا اختلافاً حاداً، من حيث الاسلوب واللغة والمضمون. ومن الواضح أنها تعود الى نبي آخر أطلقت عليه تسمية « زكريا الثاني » .

يبدأ نص هذه الإصحاحات من بضع مداخلات تخص المدن الفينيقية والفلسطينية : صور وأشقلون وغزة وعقرون. لا تفخرنّ صور بغناها وبقلعتها، لأن يهوه سيجعلها فقيرة ويضرب قوتها في البحر وستباد هي بالنار. كما أن كبرياء المدن الفلسطينية سوف يقضى عليه: لن يبقى ملك في غزة وستكون أشقلون بلا سكان فيهوه سيفلت عليها أقواماً غريبة تسكنها. أما الإله فسيضع مسكنه حول بيته مقابل الجيش « بسبب الجيش الذاهب والآئب فلا يعبر. . . بعد جابي الجزية »عبر يهوذا (زك ٩: ١ — ٨). ومن ثم ستحل في يهوذا مملكة السلام والرخاء وستفنى كل الاسلحة والمركبات الحربية وسيأتي الملك المخلص (٩: ٩): « ابتهجي جداً يا ابنة صهيون. . . هو ذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان »، ثم يعد يهوه شعب يهوذا على لسان النبي :« بدم عهدك قد أطلقت أسرك من الجب الذي ليس فيه ماء »، ويناشد « أسرى الرجاء » أن « يرجعوا الى الحصن » (٩: ١١ — ١٢).

لكن النبوءات حول مستقبل السلم والرخاء في يهوذا تخترقها مداخلات كثيرة حول حروب ومعارك جديدة: سوف يُنهض يهوه « أبناء صهيون » ضد « بني ياوان » أي ضد اليونانيين، وسوف يحمي شعبه ؛ وسهمه يخرج كالبرق ويهوه الرب ينفخ في البوق ويسير في زوابع الجنوب (٩: ١٤)، كما يعد الإله: « وأقوي بيت يهوذا وأخلص بيت يوسف وارجعهم لاني قد رحمتهم ». لكنه في الوقت ذاته سيزرعهم « بين الشعوب... في الأرضي البعيدة ويحبون مع نبيهم ويرجعون » (١٠: ٦ — ٩)، وسوف يعيدهم يهوه من أرض مصر ومن آشور وسيجمعهم في الوطن و « تُخفض كبرياء آشور ويزول قضيب مصر » (١٠ : ١٠ ـ ١١) .

في الاصحاح الحادي عشر، يأمر الإله نبيه :« ارع غنم الذبح الذين يذبحهم ما لكوهم ولا يأثمون وباثعوهم يقولون مبارك يهوه قد استغنيت. ورعاتهم لا يشفقون عليهم »(١١: ٤ — ٥). بالمقابل يتوعد الإله :« هانذا مسلم الانسان كل رجل ليد قريبه وليد ملكة »، ويؤكد انه اباد الرعاة الثلاثة في شهر واحد وقال « لاأرعاكم »، ثم نقض عهده الذي قطعه مع كل الأسباط. « وهكذا علم أذل الغنم المنتظرون لي أنها كلمة يهوه. فقلت لهم إن حسن في أعينكم فا عطوني أجرتي والا فامتنعوا. فوزنوا اجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي يهوه القها الى الفخارى الثمن الكريم الذي ثمنوني به. فأخذت الثمانين من الفضة والقيتها الى الفخارى... ».

في الاصحاح الثاني عشر ، يَعِد يهوه بأنه بعد إبادة الشعوب التي تهاجم أورشليم ، سيفيض على بيت داؤود و على سكان أورشليم روح النعمة و التضرعات « فينظرون إليّ الذي طعنوه و ينوحون عليه كنائحٍ على وحيدِله » (١٢ : ١٠).

لكن يهوه فيما بعد سيجمع مجدداً « كل الأمم على أورشليم للمحاربة فتؤخذ المدينة و تنهب البيوت و تفضح النساء و يخرج نصف المدينة الى السبي و بقية الشعب لا تُقطَع من المدينة » (١٤ : ٢). أما بعد ذلك فسيترحّم الإله من جديد على شعبه و سيبيد أعداءه الذين قاتلوا ضد أورشليم . « ويكون في ذلك اليوم أن اضطراباً عظيماً من يهوه يحدث فيهم فيمسك الرجال بيد قريبه و تعلو يده على قريبه . و يهوذا أيضاً تحارب أورشليم ... و كذا تكون ضربة الخيل و البغال و

http://www.al-maktabeh.com

الجمال و الحمير و كل البهائم التي تكون في هذه المحال ». و ستنتهي الأمور الى أن « كل الباقي من جميع الأمم الذين جاءوا على أورشيلم يصعدون من سنة الى سنة ليسجدوا للملك يهوه رب الجنود » (١٤ : ١٣ — ١٦). و في ذلك اليوم الذي يعلمه يهوه فقط ، لن يكون هنالك « لا نهارٌ ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور » ومن أورشليم « في ذلك اليوم » مياهٌ « حيةٌ تخرج ... نصفها الى البحر الشرقي و نصفها الى البحر الغربي . في الصيف و في الخريف تكون » (١٤ : ٦ — ٨).

إن هذا العرض السريع يمكن أن يعطي تصوراً ضعيفاً فقط عن الخلط و التضارب اللذين يسودان في هذه الاصحاحات الأخيرة من كتاب زكريا ، واللذين يدفعان بدارسيّ التوراة الى حالة اليأس ، حين يحاولون فهمها بشكل ما . يمكننا فقط أن نعتقد أنها تضم مداخلات من أزمنة مختلفة : قبل الأسر ، حين يجري الحديث عن عودة الأسرى من آشور و مصر ، و بعد الأسر . أما النبوءة حول صور فلها علاقة ـ ربما ـ باحتلال صور من قبل اسكندر المقدوني عام ٣٣٢ قبل الميلاد . بينما المداخلة التي يَعِد فيها يهوه بمشاركة شخصية في حرب « أبناء صهيون » ضد « بني ياوان » تعود ـ على الأرجح ـ الى زمن متأخر ، قد يكون في القرن الثالث أو حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، عندما تفككت دولة اسكندر المقدوني و برزت الدولتان الهيلينيتان في مصر و سوريا ، فأصبحت يهوذا « تفاحة الشقاق » بينهما و راحت تنتقل من أيدي احداهما الى أيدي الأخرى ، حتى أن اندلعت فيها ، عام ١٦٨ قبل الميلاد ، انتفاضة المكابيين ، التي أسفرت عن طرد جيوش الملك الهيليني أنطيوخس أبيفان من يهوذا .

لا شك أن عدداً من مداخلات « زكريا الثاني » يتعلق بالموقف داخل يهوذا : فالأغنياء الذين يبيعون الفقراء (مثال الغنم !) هم اليهوذيون الذين ـ مثلهم مثل الرعاة الذين لا يصلحون لشيء ـ لا يشفقون على « غنمهم ». أما تهديد يهوه بأن يبيد « ثلاثة من الرعاة »، فيتضمن ـ بلا شك ـ إشارة الى حوادث واقعية و أشخاص واقعيين . لكن أية أحداث و أي أشخاص ؟ و أي مغزىً غريباً ضَمَّن النبي في رجاء يهوه أن يُدفَع له ٣٠ من الفضة التي أعطاها النبي فيما بعد الى الفخاريّ في معبد يهوه ؟ ماذا و مَنْ هو المقصود بنبوءة النبي حول أن اليهوذيين

سينوحون على الذي أصابوه ؟ لقد حاولت أجيال كاملة من دارسي التوراة فك هذه الألغاز ، مقترحين مختلف التفسيرات دون الوصول الى رأي موحد . و تُبذَل محاولات مماثلة الآن . فالطابع الضبابي لمداخلات كتاب زكريا أعطى غذاء وافراً لخيال الغيبيين اللاحقين ، و خصوصاً أوائل المسيحيين . فكما هو معروف ، يورد الانجيل حكاية « الثلاثين من الفضة » و عبارة « فينظرون الى الذي طعنوه » بمثابة نبوءتين مباشرتين ، من جهة النبي القديم ، حول يسوع المسيح (مت ٢٧ : ٥ ، ٩ — ١٠ ؛ يو ١٩ : ٣٧). لكن انجيل متى ينسب النبوءة حول الثلاثين من الفضة ليس الى زكريا ، بل الى النبي إرميا .

النبيان عوبديا و يوئيل . كتاب ملاخي

بين كل كتب العهد الجديد كتاب عوبديا هو الأقصر . ففيه اصحاح واحد يتضمن ٢١ عدداً .

يبدأ الكتاب بعبارة « رؤيا عوبديا . هكذا قال يهوه الرب عن ادوم ». و ادوم شعب صغير قريب من العبرانيين ، كان يعيش الى الجنوب من يهوذا على حدود شبه جزيرة سيناء ، في مناطق جبلية يصعب الوصول إليها . و نجد يهوه يلوم شعب ادوم : « ايها الساكن في محاجىء الصخر رفعة مقعده القائل في قلبه من يُحدِرني الى الأرض » (١ : ٣)، مؤكداً أن هذا الكبرياء عبث . سوف يُفلِت يهوه بالذات الأعداء على ادوم . و الاله يشرح لادوم سبب غضبه عليه : « من أجل ظلمك لأخيك يعقوب . . . تنقرض الى الأبد . . . يوم سَبَتِ الأعاجم قدرته و دخلتْ الغرباء أبوابه و ألقوا قرعةً على أورشليم كنتَ أنت أيضاً كواحد منهم » (١ : ١٠ — ١١). ماكان يجدر بادوم أن يشمت في مصيبة اسرائيل ولا أن يغزو حدود الشعب الشقيق و ينهب أملاكه ، وكذلك أن يقف « على المفرق ليقطع منفلتيه ولا يسلِّم بقاياه يوم الضيق » (١ : ١٤). ذلك لأنه « قريبٌ يوم يهوه على كل الأمم » (١ : ١٥)، وعندئذٍ سيَجازى إدوم على ذنبه مئة ضعف و سيشربها مليئةً كأس غضب يهوه . وعلى جبل صهيون « تكون عليه نجاةٌ ويكون مقدساً ». أما يهوذا و العائدون من الأسر فسيستولون على أراضي إدوم و الأراضي الفلسطينية و الفينيقية و « يكون الملك ليهوه » (١ : ١٩ — ٢١).

http://www.al-maktabeh.com

يمكننا ، بموجب عدة مؤشرات ، اعتبار أن نبوءة عوبديا قد تم تاليفها في مرحلة ما بعد الأسر فلم تصلنا أية معلومات حول شخصية المؤلف . لكن الأرجح أنه عاش في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد ؛ فقد احتفظت ذاكرته بالمصائب التي عاناها شعبه أثناء هجوم نبوخذنصر على يهوذا . ونعرف من مصادر أخرى أن الشعوب المجاورة : موآب و عمون و خصوصاً إدوم هاجموا يهوذا آنذاك ، مستفيدين من وضعها الصعب ، فنهبوا مدنها و سبوا سكانها الذين هربوا (حز ٢٥ : ١٢ — ١٤ ؛ ٣٥ : ١ — ٥). ومن جهة أخرى ، فإن مصائب إدوم التي توصَف في هذه المداخلة ، تذكّرنا بوضع ما بعد عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، حين تعرض إدوم للهجوم الذي شنه العرب من الجنوب فنهبوا جزءاً كبيراً من أرضه .

لكن النبي عوبديا لم يعتبر المصيبة التي حلّت بإدوم عقاباً من يهوه (على الأذى الذي سبّبه إدوم في الماضي لشعب يهوه) وحسب ، بل ودليلاً أكيداً على اقتراب « يوم يهوه »، ذلك اليوم الذي سيحاكم فيه يهوه كل الشعوب ويجعل الجميع يشربون كأس غضبه و كأس الخطوب .

هذه الخصوصية تميِّز كتاباً آخر كتاب النبي يوئيل .

يبدأ الكتاب من لوحة حول هجوم جرادٍ منقطع النظير وهجوم الحشرات الأخرى الضارة على حقول و حدائق و كروم يهوذا . والنبي يرسم الصور الخيالية لهذا العدو المرعب : « قد صعدت على أرضي أمة قوية بلا عدد أسنانها أسنان الأسد و لها أضراس اللبوة . . . تلف الحقل ناحت الأرض لأنه قد تلف القمح جف المسطار ذبل الزيت . . . انه قد يبست البهجة من بني البشر . وبمسحة من الفكاهة يعلن النبي : « اصحوا أيها السكارى وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر على العصير لأنه انقطع عن أفواهكم ». كما أن المصيبة مسّتْ معبد يهوه أيضاً : « تنطقوا ونوحوا أيها الكهنة . ولولوا يا خدام المذبح . ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهي لأنه قد امتنع عن بيت الهكم التقدمة و السكيب » (يوء ١ : ٥ — ١٣). ويتجه النبي الى الكهان بدعوة لاعلان الصوم و مناداة كل السكان الى معبد يهوه و استرحام الاله ، « لأن يوم يهوه قريب . يأتي كخراب . . . » (١ : ١٤ — ١٥).

في الاصحاح الثاني يستمر وصف الهجوم الشنيع و يتداخل على نحو غريب

مع لوحات « يوم يهوه ». و تصدر دعوة جديدة للصوم و الصلاة : « ليبكِ الكهنة خدام يهوه بين الرواق والمذبح ويقولوا اشفق يا يهوه على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار حتى تجعلهم الأمم مثلاً . لماذا يقولون بين الشعوب أين إلههم » (٢ : ١٧). وعندئذٍ سيترأف يهوه ويطرد العدو الفظيع الذي جاء من الشمال « الى أرض ناشفة و مقفرة مقدمته الى البحر الشرقي وساقته الى البحر الغربي فيصعد نتنه وتطلع زهمته لأنه قد تصلَّف في عمله » (٢ : ٢٠). وسيعيد يهوه الى الأرض خصبها ، فيَعِد الإله على لسان النبي : « وأعوض لكم عن السنين التي أكلتها الجراد الغوغاء و الطيار والقَمَص جيش العظيم الذي أرسلته عليكم . فتأكلون أكلاً و تشبعون وتسبحون باسم يهوه إلهكم الذي صنع معكم عجباً . . . » (٢ : ٢٥ — ٢٧).

إن النبي يصور « يوم يهوه » المقترب ، وفقاً للخطة المعروفة : سيكشف الإله علامةً على السماء و على الأرض ، « دماً وناراً و أعمدة دخان . تتحول الشمس الى ظلمة والقمر الى دمٍ قبل أن يجيء يوم يهوه العظيم المخوف »، ولكن « في جبل صهيون وفي أورشليم تكون نجاة » (٢ : ٣٠ — ٣٢).

ثم يعِد يهوه نبيَّه : « وتعلمون أني أنا وسط اسرائيل واني أنا يهوه إلهكم و ليس غيري . . . ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم و بناتكم و يحلم شيوخكم أحلاماً ويرى شبابكم رؤى . وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام » (٢ : ٢٧ — ٢٩).

في الوقت ذاته سيقيم يهوه محاكمة مخيفة لكل الشعوب الوثنية : « في تلك الأيام وفي ذلك الوقت عندما أردُّ سبي يهوذا و أورشليم اجمع كل الأمم و انزلهم الى وادي يهوشافاط و أحاكمهم هناك على شعبي و ميراثي اسرائيل الذين بددوهم بين الأمم » (٣ : ١ — ٢). وسيعاقب يهوه ، بصراحةٍ خاصة ، صور و صيدا والمدن الفلسطينية التي باعت بني يهوذا وبني أورشليم لبني ياوان . أما « مصر تصير خراباً وإدوم تصير قفراً خَرِبا من أجل ظلمهم لبني يهوذا الذين سفكوا دماً بريئاً في أرضهم » (٣ : ١٩). وستصبح فلسطين بلد الخصب السحري : « ويكون في ذلك اليوم أن الجبال تقطر عصيراً والتلال تفيض لبناً وجميع ينابيع يهوذا تفيض ماء ومن بيت يهوه يخرج ينبوع و يسقي وادي السنط » (٣ : ١٨).

كما كتابا حجي وزكريا ، ظهر كتاب يوئيل في مرحلة مابعد الأسر . وفيه أن

http://www.al-maktabeh.com

أهل يهوذا يعيشون في وطنهم منذ زمن وأنه قد تم ترميم بيوت أورشليم وأسوارها (٢ : ٩) وأن الخدمة الدينية تجري في معبد أورشليم المبني من جديد . إنه وضع مامن مكان يوجد فيه ذكر للملك وممثلو السلطة الذين يرد ذكرهم هم الكهنة وهذه أيضاً سمة مميزة ليهوذا ما بعد عام ٥١٥ . فمفهوم « اسرائيل » لدى المؤلف يعني فقط يهوذا وأورشليم . وما بعد الأسر . إن الحديث حول بيع اليهود عبيداً للهيلينيين قد تكون تشير ـ ربما ـ حتى الى فترة ما بعد حملة الاسكندر المقدوني ، كما يمكن ملاحظة عناصر متأخرة في لغة كتاب يوئيل ، حيث أن بعض المقاطع فيه تشير الى أن المؤلف على معرفة بنبوءات حزقيال : فعند يوئيل ، كما لدى حزقيال ، يسيل ينبوع من معبد أورشليم ويسقي المرج (٣ : ١٨ . قارن مع حز ٤٧ : ١).

لكن المميِّز أكثر لمرحلة ما بعد الأسر هو أفكار كتاب يوئيل . فالنبي يستخدم مجيء الجراد ، في هجوم لامثيل له ، بمثابة « علامة » ودليل أكيد على اقتراب « يوم يهوه ». كما أن يوم يهوه لديه يصبح كذلك يوم الدينونة العظمى ، ولكن الدينونة هذه سيمارسها يهوه فقط على الشعوب الوثنية .

وتغيب في كتاب يوئيل تلك السمة التي كانت بارزة لدى كل الأنبياء السابقين ، الا وهي فضح اسرائيل وتعداد ذنوبها أمام الاله واعتبار تلك الذنوب السبب الرئيسي لمصائب « الشعب المختار ». ولانجد عند يوئيل ماكنا نجده مميِّزاً للأنبياء السابقين ، بمن فيهم حزقيال ، من اتهامات بحق الأغنياء والوجهاء ظالمي الشعب ، كما لا نجد تلك الاتهامات بعبادة الأوثان (وهي التي كانت عادية جداً !) أو بخيانة يهوه مع الآلهة الأخرى . ولا يوجد لوم للكهان غير الجديرين والأنبياء الكذابين . فكهنة يهوه ببكائهم وصلواتهم سيسترحمون الاله الذي « يندم على الشر » و « يغار . . . لأرضه ويرق لشعبه » (٢ : ١٣ ، ١٨). إن شعب يهوذا لدى يوئيل يبدو وقد تطهَّر من ذنوبه . فالدينونة المخيفة في وادي يهوشافاط ستمس فقط الوثنيين ، بينما سيكون اليهوذيون شعب قديسين : سوف تنسكب روح الإله عليهم وسيصبحون أنبياء ورائين ، بما في ذلك عبيدهم وعبداتهم ، الذين ـ حسب مانفهم ـ سيبقون في وضع عبوديتهم حتى ضمن مملكة الاله .

يمكن الظن بأن مؤلف كتاب يوئيل ـ إن لم يكن هو نفسه كاهناً ـ كان على علاقة وثيقة بكهنة أورشليم .

من ناحية ثانية ، يبدو أكثر صعوبة أن نتصور موقف نبي آخر من أنبياء تلك المرحلة وهو مؤلف كتاب ملاخي الذي رسم لوحة عن الوضع في يهوذا ليست لوحة حياة رغيدة أبداً .

كتاب ملاخي مؤلَّف صغير يختتم قانون الكتب النبوية في العهد القديم ، وهو ـ على ما يبدو ـ يحمل اسم كتاب النبي ملاخي النبي ملاخي دون استحقاق . ذلك لأن كلمة « ملاخي » في العبارة المفتاحية « وحي كلمة يهوه لاسرائيل عن يد ملاخي » ليست اسم علم بل صفة . ففي النص العبري القديم « مالياخي » وهي تعني «ملاك » أو « رسول ». ونصادف كلمة « مالياخي » هذه مرة أخرى في النص (٣ : ١)، وهناك تمت ترجمتها بشكل صحيح « ملاكي ». فكتاب ملاخي ، إذاً هو ، في الواقع ، كتاب مجهول المؤلف ، على غرار المقاطع المعنية في كتاب إشعيا و الجزء الثاني من كتاب زكريا . مع ذلك يمكن تحديد عمر الكتاب بدرجة كافية من الثقة : إنه زمن السيطرة الفارسية على يهوذا . وفي المكان الذي ترد فيه كلمة « والي » (١ : ٨) ورد في النص العبري « بيخا »(*) وهذا لقب آشوري ـ فارسي درَج استعماله لدى العبرانيين ، يُطلَق على الحاكم المحلي . ومؤلف الكتاب يتحدث دائماً عن معبد يهوه في أورشليم وكأن بناءه مكتمل تماماً وعمله سائر على قدم وساق : الكهنة يمارسون فيه العبادة ويقربون التقدمات وما شابه ، مما يشير الى زمن مابعد ٥١٥ . لكن المؤلف لا يذكر ولا مرة حدثاً مهماً آخر من تاريخ بلده ونعني مجيء عزرا وقيام اصلاحاته (حدث ذلك عام ٤٤٥ وسنتكلم عن ذلك لاحقاً). لقد تم تأليف كتاب ملاخي ، إذاً ، بين عامي ٥١٥ و ٤٤٥ قبل الميلاد وهو يعطينا تصوراً ما عن الموقف في يهوذا وعن وضع ديانة يهوه في عقود ما بعد الأسر .

في هذه الفترة أصبحت يهوذا واحدة من المقاطعات المزيلة في الدولة الفارسية (عز ٤ : ١٠ — ١١ ؛ ٥ : ٣ — ٦). ففي داخل البلد ، وبعد إقصاء زربابل عن السلطة ، كان كهنة معبد أورشليم المدعومون من السلطات الفارسية هم الذين يتصرفون داخل البلد بشكل كامل . ومن حيث الجوهر ، فقد تحول

(*) او ربما « بيها » ـ المترجم ـ

http://www.al-maktabeh.com

الكهنة الى فئة موظفين : لم يكن الكهنة ينفذون الواجبات الطقوسية في المعبد ويجبون من الشعب الأعشار لأجل أنفسهم وحسب ، بل ويمارسون الوظائف الادارية ويجمعون الأتاوة لأجل الفرس .

لاذكر في كتاب ملاخي لأية سلطات مدنية . فكهنة يهوه يديرون الشعب ويقضون له (٢ : ٧)، وهذا الوضع يبدو للمؤلف مشروعاً تماماً . كان بوسعنا التأكد ، في كتابي حجي وزكريا ، من أن الأنبياء أصبحوا ، خلال مرحلة ما بعد الأسر ، معاونين أوفياء وسنداً ايديولوجياً للكهنة . ومؤلف كتاب ملاخي بالذات مفعم بالغيرة على مصالح « بيت يهوه » والكهنة وطقوس العبادة .

يتمتع كتاب ملاخي بشكل فريد هو شكل الجدل بين يهوه واسرائيل ، حيث يتناول المؤلف عدداً من المسائل المهمة والحيوية ، التي كانت ـ على ما يبدو ـ تُقلِق الكثيرين في ذلك الزمان . انه يبدأ من مسألة موقف يهوه من شعبه : لقد أكد الأنبياء مراراً و تكراراً أن يهوه يحب اسرائيل فبمَ أثبت الاله ذلك ؟ فيمَ يتجلى حبُّه ؟ أين مملكة الوفرة والفرح التي تنبأ بها الأنبياء ؟ إن يهوذا ، كما في السابق ، تعيش أزمنة صعبة تحت ظلم الظالمين من بنيها ومن الغرباء . ويبدأ المؤلف كتابه بمونولوج يهوه حول هذا الموضوع : « أحببتكم قال يهوه . وقلتم بِمَ أحببتنا » وبعد طرح هذا السؤال التقريري ، يجيب عليه يهوه بنفسه : « أليس عيسو(*) أخاً ليعقوب . . . وأحببتُ يعقوب وأبغضتُ عيسو وجعلتُ جباله خراباً و ميراثه لذئاب البرية . لأن ادوم قال هاقد هُدِمنا فنعود ونبني الخِرَب . . . هم يبنون وأنا أهدم » (مل ١ : ٢ — ٥). من المعروف أن إدوم قد تعرضت في تلك الفترة لهجمة ساحقة من قبل العرب لم تمس يهوذا ، وهذا ما يسوقه المؤلف بمثابة برهان على حب يهوه لشعبه ، فقد سلمتْ يهوذا ويجب عليها أن تشكر الاله . لكن أين الشكر ؟ أين الإجلال ؟ الإجلال الذي فقده حتى خَدَم الإله من الكهنة : « فان كنت أنا أباً فأين كرامتي وان كنتُ يهوه فأين هيبتي قال لكم يهوه رب الجنود أيها الكهنة المحتقرون اسمي . وتقولون بمَ احتقرنا اسمك » ـ هذا هو السؤال التقريري الجديد الذي يطرحه يهوه ثم يبدأ بتعداد أوجه الأذى الذي سبّبه له الكهنة : « تقربون خبزاً نجساً على مذبحي . وتقولون بمَ نجّسناك . بقولكم أن

(*) عيسو وفقاً للتوراة هو شقيق يعقوب والجد الاسطوري لشعب إدوم .

http://www.al-maktabeh.com

مائدة يهوه محتقرة ». فالكهنة ، إذاً ، لا يكتفون بتقديم الخبز النجس طعاماً للاله ، بل ويقربون حيوانات فيها عيوب و معطوبة : « وان قربتم الأعرج والسقيم أفليس ذلك شراً . قرّبه لواليك أفيرضى عليك أو يرفع وجهك ». وبعد هذا السؤال التهكمي يستخلص يهوه غاضباً : « من فيكم يغلق الباب بل لاتوقدون على مذبحي مجاناً . ليست لي مسرة بكم » (١ : ٦ — ١٠). وفي حالة من العجز عن كتم الحنق ، يكرر يهوه كلام عدم الاجلال الذي يردده كهنته وهم يجدفون عليه : « أما أنتم فمنجسوه بقولكم أن مائدة الرب تنجست وثمرتها محتقر طعامها . وقلتم ماهذه المشقّة وتأففتم عليه » (١ : ١٢).

بعد هذه الادانة لوقاحة ونفاق الكهنة ، يتناول النبي مسألة أخرى كانت ، على ما يبدو ، تقلقه بقدر أكبر : ليس فقط الكهنة ، بل واليهوذيون البسطاء أيضاً قد فقدوا الخوف من الاله ويقولون عنه كلمات جسورة : « أقوالكم اشتدت عليّ قال يهوه . وقلتم ماذا قلنا عليك . قلتم عبادة الله باطلة و ماالمنفعة من أننا حفظنا شعائره . . ولأننا نحن مطوبون المستكبرين وأيضاً فاعلو الشر يُبنَون بل جربوا الله ونجوا » (٣ : ١٣ — ١٥). لكن يتبين أنّ معاصري النبي كانوا يُبدون جسارة أكبر تجاه الاله ، متّهمينه ليس فقط بغض الطرف عن الأشرار ، بل وبرعايتهم أيضاً : « لقد أتعبتم يهوه بكلامكم . وقلتم بم أتعبناه . بقولكم كل من يفعل الشر فهو صالح في عيني يهوه وهو يسر بهم . او اين اله العدل » (٢ : ١٧).

كان الناس يكشفون عن موقفهم المزدري للاله ليس فقط كلامياً بل وفي الممارسة أيضاً : لقد توقف الكثيرون عن جلب الأعشار الى المذبح وتقديم الذبائح أو أنهم يجلبون أسوأ ما لديهم . ويطرح يهوه سؤاله الجديد بغضب : « أيسلب الانسان الله . فانكم سلبتموني . فقلتم بم سلبناك . في العشور والتقدمة . قد لعنتم لعناً وإياي أنتم سالبون هذه الأمة كلها . هاتوا جميع العشور الى الخزنة ليكون في بيتي طعام وجربوني بهذا »، والتجربة التي يقترحها الاله تتلخص في الآتي : اذا توقف اليهوذيون عن سرقة يهوه ، فإنه سوف يفتح لهم كوى السموات ويفيض عليهم بركة حتى لا توسع ، وسوف ينتهر الآكلين (أي الحشرات الضارة) ويمنعها من إفساد ثمر الأرض ، وعندئذٍ تسمي الشعوب يهوذا بلدَ الرخاء

http://www.al-maktabeh.com

(٣ : ٨ — ١٢).

يبدو أن مؤلِّف كتاب ملاخي يلقي بجزء كبير من المسؤولية تجاه انحطاط التدين لدى الشعب على الكهنة غير المستقيمين من ذرية لاوي . لقد عقد معهم يهوه في حينه « عهداً »، فعهد الى الكاهن واجب أن يكون « رسول يهوه رب الجنود »، « لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة ومن فمه يطلبون الشريعة ». أما هم ، كهنة يهوه ، فقد حادوا قبل غيرهم عن الطريق الصحيح و « أعثروا » كثيرين بالشريعة (٢ : ٤ — ٨). لأجل ذلك يتوعد يهوه أن يعاقب بصرامة خَدَمَه غير الأوفياء : « ان كنتم لا تسمعون ... فاني أرسل عليكم اللعن وألعن بركاتكم بل لعنتُها .. ها أنذا .. أمد الفرث على وجوهكم فرث أعيادكم فتُنزَعون معه ... صيرتكم محتقرين ودنيئين عند كل الشعب » (٢ : ٢ — ٤ ، ٩).

أما السبب الآخر لحالة الدين المحزنة (حالة ديانة يهوه)، في أرض يهوذا ، فيراه المؤلف في الزيجات المختلَطة بين اليهوذيين والوثنيين من الشعوب الأخرى : « غدر يهوذا وعمل الرجس في اسرائيل وفي أورشليم . لأن يهوذا قد نجس قدس يهوه ... وتزوج بنت إله غريب » (١١ : ٢). والإله يهدد أولئك اليهوذيين أيضاً بالإبادة الشاملة ، حتى الذين يقربون التقدمات ليهوه ، فعنهم أيضاً تصدر الغواية والشتائم بحق يهوه .

مثله مثل الأنبياء السابقين له ، يتنبأ مؤلف كتاب ملاخي بالحلول القريب ل « يوم يهوه »، مُدخِلاً على وصف هذا اليوم سمة جديدة . فيهوه قبل أن « يأتي بغتةً الى هيكله » سيرسل رسوله ، « ملاك العهد »، الذي سيهيء الطريق للإله : « هوذا يأتي قال يهوه رب الجنود » (٣ : ١). هذا « الملاك » الذي « مثل نار المحمص » سيطهِّر أبناء لاوي « ويصفيهم كالذهب و الفضة ليكونوا مقربين ليهوه تقدمة بالبر ». بعد ذلك سيأتي يهوه للحكم و سيكون « شاهداً سريعاً على السحرة وعلى الفاسقين وعلى الحالفين زوراً وعلى السالبين أجرة الأجير الأرملة و اليتيم ومن يصد الغريب ولا يخشاني » (٣ : ٥). وعندئذٍ سيرى الجميع ماهو الفرق بين « الصديق والشرير بين من يعبد الله ومن لايعبده » (٣ : ١٨)، وسيعلم الجميع أن المحقين هم من خاف الإله ، أولئك الذين يقولون أحدهم للآخر ، عن الذين

يتفوهون بكلمات جسورة عن يهوه ، أن هذا الأخير « أصغى وسمع و كُتِب أمامه سفر تذكرة للذين اتقوا يهوه و للمفكرين في اسمه » (٣ : ١٦). بالنسبة لمتقي الإله هؤلاء سوف « تشرق شمس البر » وسوف يدوسون الأشرار الذين « يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال يهوه رب الجنود » (٤ : ٢ — ٤). ويتنبأ المؤلف بأنه عندئذٍ ، سيخدم يهوه ليس أهل يهوذا فقط بل كل الشعوب : « لأنه من مشرق الشمس الى مغربها اسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يُقرَّب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة لأن اسمي عظيم بين الأمم قال يهوه رب الجنود » (١ : ١١).

ينتهي كتاب ملاخي بنداء يهوه : « اذكروا شريعة موسى عبدي التي أمرته بها في حوريب على كل اسرائيل الفرائض والأحكام . هانذا أرسل اليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم يهوه اليوم العظيم والمخوف . فيردُّ قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعنٍ » (٤ : ٤ — ٦).

ربما كان يتهيأ لأنصار يهوه ، بعد عودتهم من الأسر البابلي ، أن مجرد انبعاث معبد أورشليم وسكن الإله في « بيته » سيجعل ممكناً تحقيق مستقبل اسرائيل المجيد ، ذلك المستقبل الذي حلم به نبي الأسر حزقيال ، عندما ألف « يوتوبياه » عن أورشليم الجديدة تحت اسمها الجديد : « يهوه شمه »، أي يهوه هناك (حز ٤٨ : ٣٥). كان يحلم بذلك مؤلف كتاب ملاخي أيضاً ، ربما . وعموماً كان الأنبياء يوحون للشعب بآمال حلوة في الحلول القريب لمملكة السلام والوفرة . والآن لم تتحقق تلك الآمال ، فأصيب الكثيرون بمشاعر الخيبة وعدم الثقة ليس فقط بالأنبياء وبوعودهم ، بل وبيهوه ذاته .

لكن نص كتاب ملاخي لا يعطي أدلة مباشرة على أن الناس بعد خيبتهم في يهوه كانوا يرمون بذبائحهم على مذابح الآلهة الأخرى . فلا توجد في هذا الكتاب اتهامات ليهوذا بالزنى مع الآلهة الأخرى وبعبادة الأوثان ، وهي اتهامات اعتيادية لدى الأنبياء القدامى . لكن مثل هذا الخطر كان واقعياً تماماً ، وبإمكاننا عدم الشك في ذلك . فليس عبثاً يقوِّم النبي زواجَ اليهوذيين من « بنت إله غريب » باعتباره عمل غدر بالنسبة ليهوه .

لقد كان كهنة يهوه في يهوذا بأمس الحاجة الى اجراءات متشددة لكي يوطدوا

http://www.al-maktabeh.com

هيبتهم المهزوزة ويحسنوا مداخيلهم . وجاءهم العون من الخارج ، من بلد أسرهم السابق ، من بابل .

http://www.al-maktabeh.com

إصلاحات عزرا ونحميا. قانون « التورا ».

سبق لنا أن ذكرنا كيف سمح الملك الفارسي كورش بعودة اليهوذيين من بابل الى وطنهم وكيف أنه ليس جميع هؤلاء أبدوا رغبة في الاستفادة من ذلك السماح . فثمة جزء هام (وربما كان الجزء الأكبر) فضّل البقاء في بلد « الأسر »، حيث تعود الناس واستقروا ، لابل اغتنى بعضهم .

في عام ١٨٩٣ ميلادي ، كانت البعثة الاركيولوجية لجامعة بنسلفانيا تجري حفريات أثرية في المدينة البابلية القديمة نيبور . وفي أحد المباني التي تم اكتشافها ، عُثِر على غرفة مليئة بالألواح الطينية ، وهي ـ كما تبين ـ أرشيف وثائق خاص بدار موراشو ، التاجر المرابي ، الذي كان مزدهراً في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد . وتبين أن أسماء عبرية ترد في تلك الوثائق بين حين وآخر ، مما يدل على وجود سكان يهوذيين كثر في منطقة نيبور ، وأكثرهم مزارعون يستلفون من موراشو نقوداً مقابل نِسب مئوية ويدفعون الديون عينياً على الأغلب : قمحاً أو تيناً أو بيرةً أو غنماً . وكان بعضهم يضطر الى رهن أراضيه للمرابي . ولكن يوجد بين المتعاملين مع موراشو عددٌ من الأغنياء و الموظفين الحكوميين وجامعي الضرائب و الكَتَبة .

كان عبرانيو بابل يعتبرون واجباً دينياً عليهم أن يدفعوا اشتراكات معينة لصالح معبد أورشليم ، باعتبار أنهم استمروا ينظرون إليه بوصفه مركزهم الديني الوحيد . كان يتم إرسال الاشتراكات الى أورشليم مع رسل خاصين ، يبدو أنهم ماكانوا يكتفون فقط بنقل النقود ، بل ويتدخلون تدخلاً فعالاً في شؤون المجتمع اليهوذي (زك ٦ : ٩ — ١٠). وقد تجلت في ذلك بشكل رئيسي مصلحة الشريحة العليا من عبرانيي بابل ومصلحة كهنة يهوه الذين لم يعودوا هم أيضاً من بابل في حينه .

ماالذي كان بوسع كهنة يهوه أن يشتغلوا به في الغربة ؟ فكما قلنا سابقاًلم يكن لديهم هنالك معبد ولا كان ممكناً أن يظهر أبداً . فقد كان « سفر الشريعة »

يفرض ، بصرامة ، ممارسة عبادة يهوه فقط في المكان الذي اختاره الإله ، أي في معبد أورشليم . ولكن ، اذا كان الكهنة اليهوذيون في بابل لايملكون امكانية تقديم الذبائح لإلههم والعيش من وراء ذلك ، فان ذلك لا يعني أن الحياة الدينية لليهوذيين قد توقفت نهائياً في بابل . لقد أصبحت بيوت الصلاة مراكز للحياة الدينية في الغربة ، فكان اليهوذيون يصلون فيها ويقررون شؤونهم العامة ويسمعون مواعظ الكهنة والأنبياء وكذلك « الكتبة » (السوفير) .

إن كلمة « سوفير » تعني « الكاتب » أو « رجل الكتاب » لكن في يهوذا سابقاً كانوا يطلقون هذه الكلمة على العلماء اللاهوتيين ، رغم انحدار بعض هؤلاء من الشريحة الكهنوتية . عادة ، لم يكن « رجل الكتاب » يشارك مشاركة مباشرة في الطقوس داخل المعبد ولم يكن يُنسب إليه موهبة التجلي الإلهي والمقدرة على « رؤية » المستقبل والتنبؤ به على نحوٍ سحري ، بل كان عالماً ، لاهوتياً .

إننا نصادف ذكراً لهؤلاء الناس في أدبيات ماقبل الأسر أيضاً : كان إرميا ينحي باللائمة على الكتبة الذين بقلمهم يحولون تعاليم يهوه الى زيف (إر ٨ : ٨) . ومن الواضح أن تفسيرات هؤلاء بصدد بعض المسائل الدينية لم تكن تتطابق مع آراء إرميا نفسه ، وهذا ما أثار غضبه . أما في بابل ، في مرحلة مابعد الأسر ، فإن الكَتَبة بالذات تعاونوا مع الأنبياء و الكهنة ليعملوا على اعداد « كتاب مقدس » جديد لأجل شعبهم ، وهو الذي سُمي فيما بعد « تورا » . لقد انتهى تأليف « التورا » ، من حيث الأساس ، عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . و « تورا » تعني « تعليم » أو « قانون » (شريعة) . وبالفعل فإن هذا « التعليم » أصبح بعد حين قانوناً ، من المفروض ـ رسمياً ـ على كل يهودي أن يخضع له تحت خطر الموت إعداماً . وهذا ما ينبئنا عنه العهد القديم في كتابين هما كتاب عزرا و كتاب نحميا .

يعتبر نقاد التوراة أن كتابيْ عزرا و نحميا يتضمنان المذكرات الحقيقية لهذين الشخصين ، مع كونها قد تعرضت للتشذيب على يد المحررين اللاحقين . وفي الوقت نفسه يدخل في كتابي عزرا و نحميا عدد من الوثائق الرسمية وتحديداً النصان الحقيقيان لمرسومين اثنين : مرسوم الملك الفارسي كورش حول السماح لليهوذيين بالعودة الى وطنهم وبناء معبد يهوه (عز ١ : ٢ — ٤) ومرسوم الملك

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ارتحشستا الأول (٤٦٤ – ٤٢٣) حول تخويل عزرا صلاحيات خاصة للسفر الى يهوذا .

في كتاب عزرا إضافةٌ من الواضح أنها من صنيع يد المحرر ، وهي توصيف لمؤلف المذكرات : كان عزرا ينحدر من عائلة مشهورة من الكهنة الصادوقيين ، وهو « كاتب ماهر في شريعة موسى » (٧ : ١ – ٦). لقد تمكن اليهوذي عزرا ، بطريقة ما ، من التقرب الى الملك الفارسي أرتحشستا ، وفي السنة السابعة لملك هذا الأخير استلم منه عزرا مرسوماً ملكياً يردِ نصه في الكتاب كاملاً ويعتبر نقد التوراة أنه نص حقيقي يتضمن إضافات طفيفة دخلت على يد المحرر . في المرسوم أمرٌ لعزرا بالذهاب لأجل « السؤال عن يهوذا وأورشليم »، أي للقيام بجولة في البلد ، كما كان ذلك يجري دورياً في الدولة الفارسية . لكن مهمة عزرا كانت تتضمن ماليس عادياً تماماً : كان عليه نقل « فضة و ذهب تبرع به الملك ومشيروه لاسرائيل الذي في أورشليم مسكنه . وكل الفضة و الذهب التي تجد في كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلهم الذي في أورشليم » (٧ : ١٤ – ١٦). وقد منح الملك لعزرا صلاحيات هامة في يهوذا : « أما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكاماً و قضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع مَنْ يعرف شرائع إلهك والذين لايعرفون فعلموهم . وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليُقضَ عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس » (٧ : ٢٥ – ٢٦). في نص المرسوم الملكي هنالك إضافة بعد عبارة « السؤال عن يهوذا وأورشليم » وهي « حسب شريعة إلهك التي بيدك » (٧ : ١٤)، مما يعني أن عزرا كان يحمل معه الى يهوذا ليس فقط الفضة والذهب لأجل المعبد ، بل و « شريعة الإله »، أي « التورا » التي ألفها في بابل كهنة يهوه و الكَتَبة .

في ٢٥ آذار عام ٤٥٨ قبل الميلاد غادر عزرا بابل وتوجه معه ٢٠٠٠ يهوذي ممن أراد العودة الى بلد أجداده .

في يهوذا اصطدم عزرا بوضع معقد . كان البلد قد عانى عدة سنوات من الجفاف وسوء المواسم ، مما أصاب ، بالطبع ، المزارعين أكثر من غيرهم . ويشهد المصدر التوراتي على أنه « كان صراخ الشعب ونسائهم عظيماً على اخوتهم اليهود .

وكان من يقول بنونا و بناتنا نحن كثيرون . دعنا نأخذ قمحاً فنأكل و نحيا . . . حقولنا و كرومنا و بيوتنا نحن راهنوها حتى نأخذ قمحاً في الجوع . . . استقرضنا فضة لخراج الملك على حقولنا و كرومنا . . . وهانحن نُخضِع بنينا و بناتنا عبيداً ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيء في طاقة يدنا » (نح ٥ : ١ — ٥).

توقف السكان الفقراء عن جلب التقدمات الى المذبح ، و « هرب اللاويون و المغنون عاملو العمل كل واحد الى حقله » (١٣ : ١٠)، فبقي المعبد بدون جزء من جهاز خدمته ، وأما الكهنة الذين بقوا فكانوا يهملون واجباتهم بصراحة (لنتذكر شكاوى يهوه المريرة في كتاب ملاخي). وكانت أورشليم خاوية لسبب إضافي هو أن أسوارها التي هدمها نبوخذنصر كانت لم تُرمَّم بعد .

يبدو أن محاولات عزرا لفرض نظامه في يهوذا كانت تلقى مقاومة قوية ، خلال عدة سنوات . وبعدئذٍ وصل من بابل الى أورشليم يهوذي آخر ، مرسلاً من قبل الملك ، وهو نحميا ، الذي كان يشغل منصباً رفيعاً لدى البلاط الملكي ، فقد كان ساقياً في ديوان الملك . في عام ٤٤٦ حصل نحميا على موافقة الملك ارتحششتا الأول بتعيينه لمنصب والي يهوذا .

كان نحميا يعمل بحيوية ؛ فجَمَع الناس لبناء أسوار أورشليم ، فاكتمل السور في عام ٤٤٥ وحمى المدينة التي بدأ السكان يعودون للسكن فيها . وتم إعادة المئات من خدم المعبد الذين كانوا قد هربوا الى القرى والمدن المحيطة بأورشليم .

بعد ذلك أقدم عزرا ونحميا على خطوة حاسمة ، روى لنا عنها كتاب نحميا كالآتي : « ولما استُهِل الشهر السابع وبنو اسرائيل في مدنهم . اجتمع كل الشعب كرجل واحد الى الساحة التي أمام باب الماء وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها يهوه اسرائيل . فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء وكل فاهم مايُسمَع . . . وقرأ فيها أمام الساحة . . . . وأجاب جميع الشعب آمين آمين . . . وخروا وسجدوا ليهوه على وجوههم . . . واللاويون أفهموا الشعب الشريعة » (نح ٨ : ١ — ٨).

هكذا ، كرر عزرا ونحميا ماكان قد فعله ، قبل قرنين من ذلك ، الملك يوشيا والكاهن حلقيا ، أي أنهما حصلا على اعتراف رسمي بأن الكتاب الذي جلبه عزراهو « قانون » أوصى به يهوه ذاته لموسى . أما الاجزاء الآخر الذي تم

http://www.almaktabeh.com

اتخاذه بمساعدة (أو بمبادرة) من عزرا ونحميا أيضاً فكان منع الزيجات المختلطة بين اليهوذيين و أبناء الأقوام الأخرى . من الواضح أن أنصار يهوه كانوا يجدون الأسس للتخوف من أن تصاب ديانة يهوه بضرر جدي نتيجةً لهذه الزيجات . لنتذكر أن مؤلف كتاب ملاخي كان يتهم اليهوذيين الذين تزوجوا « بنات اله غريب » بالغدر . ويشهد المصدر التوراتي على أن عزرا جَمع في البداية ممثلي الكهنوت ، اللاويين و رؤساء الكهنة وطالبهم بأداء اليمين على أن يتم إقصاء زوجاتهم الأجنبيات أو اللواتي وُلِدن لأمهات أجنبيات (عز ١٠ : ٣ — ٥). ثم أُعْلِن في كل يهوذا أنه يتوجب أن يأتي جميع الرجال الى أورشليم « وكل من لا يأتي في ثلاثة أيام حسب مشورة الرؤساء والشيوخ يحرم ماله وهو يُفرَز من جماعة أهل السبي » (١٠ : ٨).

واجتمع الشعب . « وجلس جميع الشعب في ساحة بيت الله مرتعدين من الأمر ومن الأمطار . فقام عزرا الكاهن وقال لهم . انكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم اسرائيل . فاعترفوا الآن ليهوه اله آبائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة . فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم كما كلمتنا كذلك نعمل » (١٠ : ٩ — ١٢). كما جرى تشكيل لجنة خاصة كان يجب أن يأتي إليها مقترفو تلك الخطيئة لكي يُصار الى فسخ زواجهم من « الوثنيات ».

من المستبعد أن يكون تحقيق هذه الخطوة القاسية قد تم بسهولة . فنحميا الذي قَدِم الى يهوذا مجدداً بعد سنوات كثيرة يقول في مذكراته : « في تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكَنوا نساء اشدوديات وعمونيات وموآبيات . ونصف كلام بنيهم باللسان الاشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي » حتى أن بعضاً من أعضاء عائلة الكاهن الأول تورط في هذا الاثم ، فنحميا يقول « خاصمتهم ولعنتهم وضربتُ منهم أناساً ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم . . . وكان واحد من بني يوياداع بن الياشيب الكاهن العظيم صهراً لسنبلط الحوروني فطردته من عندي » (نح ١٣ : ٢٣ — ٢٥).

واضح أنه لم يكن جميع اليهوذيين ، في مرحلة ما بعد الأسر ، متزمتين مثل

عزرا ونحميا وأن الكثيرين لم يكونوا يعتبرون الزواج من ابنة قوم آخر خيانة لإلههم الخاص . والأكثر من ذلك يمكن التأكيد على أن بعضاً من هؤلاء الناس تجرأ على الدفاع عن رأيه وعرضه « على صفحات الجرائد » ـ كما يقال الآن ـ لكن دون اعلان اسمه . ثمة هنالك عملان أدبيان وصلا إلينا ضمن قوام العهد القديم ويتناولان هذا الموضوع . إنهما كتاب راعوث وكتاب يونان .

ـ كتاب راعوث :

كتاب راعوث قصة قصيرة وعمل أدبي حقيقي . إنه يروي سيرة عائلة اسرائيلية من عصر القضاة ، وقد كُتِب بدون تنطح وبأسلوب واقعي ، مما يجعلنا نرغب أن نعتبر قصته حكاية وقعت فعلاً . فيما بعد فهمها اللاهوتيون اليهود على هذا النحو بالذات وأعلنوا النبي صاموئيل مؤلفاً لهذا الكتاب . لكن نقد التوراة المعاصر يتمسك بوجهة نظر أخرى ، فمن حيث اللغة (التي تتضمن كلمات متأخرة المنشأ ومن حيث التعابير والأفكار الواردة في هذا الكتاب) ، يمكننا أن ننسبه بثقة الى زمن إصلاح عزرا ونحميا ، لابل حتى الى زمن لاحق .

ينقل المؤلف الحدث الى القديم الغابر : « حدَثَ في أيام حكم القضاة » . ففي سنة جوع ، سافرت عائلة من مدينة بيت لحم اليهوذية لتسكن في بلد الموآبيين ، الشعب المجاور ليهوذا . وبعد فترة مات رب العائلة أليمالك ، فبقيت أرملته نعمي وابناها للعيش في أرض موآب ، فتزوج الابنان موآبيتين من السكان المحليين . وكان اسم احداهن راعوث . وبعد زمن وجيز مات الابنان أيضاً . وسمعت الأرملة نعمي أن في بلدها موسماً وفيراً ، فقررت العودة الى بيت لحم ، حيث بقي لها هناك قريب لزوجها ، رجل ذو وجاهة وثراء اسمه بوعز . واقترحت على كَنَّتيْها البقاء في الوطن لدى أهلهما، ففعلت إحداهما كذلك ، لكن الأخرى ، راعوث ، رفضت و أشفقت على حماتها وقالت : « لاتلحي عليَّ أن اتركك وأرجع عنك لأنه حيثما ذهبتِ أذهب وحيثما بتُّ أبيتُ . شعبك شعبي والهك الهي . حيثما متُّ أموت وهناك أدفن . . . انما الموت يفصل بيني وبينكِ » .

هكذا عادت نعمي وراعوث معها الى بيت لحم ، وكانتا تعيشان في جوع . « فقالت راعوث الموآبية لنعمي دعيني أذهب الى الحقل وألتقط سنابل وراء من أجد نعمةً في عينيه » ، وكان ذلك مسموحاً ، وفق التقاليد القديمة ، لأفقر الناس ،

http://www.al-maktabeh.com

ممّن لا يملكون أرضاً . وأقدمت راعوث على ذلك ، فذهبت الى الحقل الذي يملكه بوعز . وحين رآها بوعز امرأةً غريبة تجمع السنابل في حقله ، سأل عنها خَدَمَهُ ، الذين أجابوا فقط أنها موآبية جاءت من موآب مع حماتها . فتوجه إليها بوعز قائلاً : « إنني قد أُخبِرتُ بكل مافعلتِ بحماتك بعد موت رجلك حتى تركت أباكِ وأمكِ و أرض مولدكِ وسرتِ الى شعبٍ لم تعرفيه من قبل . ليكافىء يهوه عملك وليكن أجرك كاملاً من عند يهوه اله اسرائيل الذي جئتِ لكي تحتمي تحت جناحيه ». ان بوعز لم يسمح لراعوث بجمع السنابل في حقله فحسب ، بل وأطعمها مع العاملين لديه . هكذا صارت راعوث تجمع السنابل أثناء الحصاد لتُطعِم حماتها .

وحين انتهى الحصاد ، قالت نعمي لراعوث : « أليس بوعز ذا قربة لنا الذي كنتِ مع فتياته . هاهو يذري بيدر الشعير الليلة . فاغتسلي وتدهني والبسي ثيابكِ وانزلي الى البيدر ولكن لا تُعرَفي عند الرجل حتى يفرغ من الأكل والشرب . ومتى اضطجع فاعْلي المكان الذي يضطجع فيه وادخلي واكشفي ناحية رجليه واضطجعي وهو يخبركِ بما تعملين ». ونفذت راعوث توجيهات حماتها . وعندما استيقظ بوعز ليلاً ، وجد عند رجليه امرأة ، فسألها « من أنتِ »، فقالت : « أنا راعوث أَمَتك . فابسط ذيل ثوبك على أَمَتك لأنك ولي ».

وفقاً لعادات اسرائيل القديمة ، كان الأخ ـ وفي غياب الأخ ، قريبٌ آخر ـ ملزَماً ، إذا مات أخوه دون أن ينجب أطفالاً ، بأن يتزوج أرملته ، وكان الأطفال الذين يولدون بعد ذلك يُعتبَرون أطفال الميت ، لكي لا ينطفىء اسمه .

في تلك الليلة أرسل بوعز راعوث الى بيتها دون أن يقترب منها . أما في اليوم التالي فاستدعى شهوداً وأعلن : « راعوث الموآبية امرأة محلون قد اشتريتها لي امرأة لأقيم اسم الميت على ميراثه ولا ينقرض اسم الميت من بين أخوته ومن باب مكانه . . . فقال جميع الشعب . . . والشيوخ نحن شهود . فليجعل يهوه المرأة الداخلة الى بيتك كراحيل وكليئة اللتين بَنَتا بيت اسرائيل ». (بموجب التوراة كانت راحيل وليئة زوجتين للأب الكبير يعقوب الذي كان يبجل كوالد لشعب (اسرائيل).

بعد ذلك ، أصبحت راعوث زوجةً لبوعز وولدت ابناً اسموه عوبيد .

ينتهي الكتاب بكلمات : « عوبيد ولد يس و يس ولد داؤود ». هكذا جعل المؤلف راعوث جدةً للملك داؤود .

إن هذه القصة ، التي تبدو متواضعة للوهلة الأولى ، كانت تتضمن ـ في الواقع ـ شحنة جدالية كبيرة . فماهي الفكرة الرئيسية التي يستهدي بها مؤلف كتاب راعوث ؟

حين يركز الكاتب على الأصل الأجنبي لبطلته ، من الواضح طموحه الى تبيان أنه ليس حتمياً أن تكون النساء الأجنبيات خطراً ولعنةً على العائلة الاسرائيلية ، وأنه يوجد بين الأجنبيات نساء لا يعترفن بيهوه إلهاً وباسرائيل شعباً لهن فحسب ، بل ويسلكن سلوكاً تقياً وفاضلاً لدرجة تجعلهن يستأهلن ثقة أقربائهن من الاسرائيليين وتعاطف الشعب ومباركة يهوه ذاته . أوليس يهوه هو الذي حدد مسبقاً أن تصبح الأجنبية راعوث جدةً لداؤود ، الملك الذي سيولد من نسله « الممسوح » المقبل ؟

وإذا كانت هذه هي الفكرة الأساسية للكتاب ، فمن الواضح منشؤها المتأخر . لقد كان ذلك احتجاجاً ضد الاجراءات التي لا شفقة فيها والتي اتخذها عزرا ونحميا وأنصارهما ، أي ذلك الجزء الأكثر تعصباً بين كهنة وأنبياء أورشليم ، الذين وضعوا نصب أعينهم هدف تطهير اسرائيل ـ قدر الامكان ـ من العناصر الدخيلة التي يمكن أن تجلب عليها عدوى الوثنية . لقد أعدوا العدة لكل ذلك في الكتاب المقدس الذي أصبح بعد ذلك نقطة ارتكاز متينة لكافة الأرثوذكسيين ، فلقد أصبح لديهم مايستندون إليه . ويروي مؤلف كتاب نحميا أنه ، قبل اتخاذ القرار بطرد الزوجات الأجنبيات مع أطفالهن ، « قُرِىء في سفر موسى في آذان الشعب ووجد مكتوباً فيه أن عمونياً وموآبياً لايدخل في جماعة الله الى الأبد » (نح ١٣ : ١). أما في كتاب التثنية (سفر موسى) فقد زِيْدَ على ذلك : « حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة يهوه الى الأبد » (تث ٢٣ : ٣). ويبدو أن مؤلف كتاب راعوث الذي أصدر كتابه في تلك السنوات كان انساناً شجاعاً . فنحن نذكر كيف كان نحميا يصفي أولئك الذين لم يرغبوا في طرد زوجاتهم الأجنبيات ، وكيف كان الأرثوذكس الممسكون بزمام السلطة لايتورعون عن اتخاذ أي اجراء لإبقاء سيطرتهم على الشعب .

http://www.al-maktabeh.com

كتاب النبي يونان .

http://www.al-maktabeh.com

رغم أن كتاب النبي يونان يدخل في عداد كُتُب « الأنبياء الصغار » الاثني عشر ، فإنه ، من حيث الأسلوب والمضمون ينتمي الى نفس اللون الأدبي الذي يندرج ضمنه كتاب راعوث .

البطل الأساسي للكتاب هو يونان بن أمتاي ، ويبدو أنه شخصية وُجدت تاريخياً ، بالفعل . فكتاب الملوك الثاني يذكره كنبي عاش في مملكة اسرائيل في عهد الملوك يهوآحاز ويهوآش ويربعام الثاني ، أي في نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن . في تلك الفترة كان يهجم على اسرائيل جيرانُها ، وخصوصاً ملوك دمشق . وقد تمكن يربعام ليس فقط من صد هجوم دمشق ، بل ومن الانتقال الى الهجوم المعاكس . وبهذا الصدد ، حشر المؤرخ في النص عدة أسطر حول يونان . فبعد أن يروي لنا عن يربعام وعن أنه « رد تخم اسرائيل من مدخل حماة الى بحر العربة »، يضيف المؤرخ : « حسب كلام يهوه اله اسرائيل الذي تكلم به عن يد عبده يونان بن أمتاي النبي الذي من جت حافر » (٢ مل ١٤ : ٢٥).

وماعدا ذلك لا ذكر لهذا النبي في التوراة .

يبدأ كتاب يونان بعبارة : « وصار قول يهوه الى يونان بن أمتاي قائلاً قم اذهب الى نينوى المدينة العظيمة ونادِ عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي ». ومن السرد اللاحق يتضح ماالذي كان يتوجب على يونان أن يبشر به سكان نينوى : كان عليه إعلامهم بأن يهوه ينوي تدمير هذه المدينة العظيمة بعد أربعين يوماً . لكن يونان ، بدلاً من تنفيذ أمر يهوه ، يذهب الى ميناء يافا ويركب سفينة ذاهبة ليس الى نينوى ، بل في الاتجاه المعاكس تماماً ، الى مدينة ترشيش في اسبانيا . لقد فعل يونان ذلك هارباً « من وجه يهوه » (لكن سبب الهرب يتضح لاحقاً)، فأرسل يهوه الغاضب نوءاً عظيماً في البحر . وخوفاً من الموت مع سفينتهم راح الملاحون يصلون كلاً لإلهه ، وحين لم يُفِد ذلك بشيء ، ألقوا قرعةً ليدلهم الآلهة من السبب في حلول هذه المصيبة ، فوقعت القرعة على يونان ، الذي اعترف فوراً بعدم طاعته ليهوه واقترح بنفسه : « خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم ». وجرت الأمور على هذا

النحو وأُلقي يونان في البحر فهدأت العاصفة . لكن يهوه لم يَدعْ يونان يموت في عمق البحر : « وأما يهوه فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان . فكان يونان في جوف الحوت ثلثة أيام وثلث ليالي . فصلى يونان الى يهوه الهه من جوف الحوت . . . وأمر يهوه الحوت فقذف يونان الى البر» (١ : ١٧ ، ٢ : ١ ، ١٠).

بعد ذلك ، أمر يهوه يونان من جديد بالذهاب الى نينوى ، فوصلها يونان وهي ؛ مدينة عظيمة لله مسيرة ثلثة أيام . فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد ونادى وقال بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى . فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً. وفعل ملك نبنوى الشيء ذاته وأصدر أمراً : « لا تَذُق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً . لا ترعَ ولا تشرب ماءً . وليتغطَّ بمسوح الناس والبهائم ويصرخوا الى الله بشدة ويرجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم . لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك ». ونفذ سكان نينوى أمر الملك . « فلما رأى الله أعمالهم انهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه » (الاصحاح الثالث).

ولكن « غمَّ ذلك يونان غماً شديداً فاغتاظ »، لابل تجرأ أن يعنف الهه لأن الأخير لم يُصن كلامه حول إبادة نينوى : « آه يايهوه أليس هذا كلامي اذ كنتُ بعد في أرضي . لذلك بادرت الى الهرب الى ترشيش لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر ». ذلك لأن الإله كشف عن عدم انسجام مع الذات : نينوى بقيت سليمة ، والآن سوف يبدو يونان في نظر الناس دجالاً ونبياً كذاباً ، وهذا ماأثار سخطه لدرجة أنه يطلب الى الاله : « خذ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي . فقال يهوه هل اغتظت بالصواب ».

خرج يونان من المدينة منزعجاً ومغتاظاً و« جلس شرقي المدينة وصنع لنفسه هناك مظلةً وجلس . . . حتى يرى ماذا يحدث في المدينة . يبدو أنه كان لازال يأمل أن يفي يهوه بوعده ويبيد الوثنيين . لكن يهوه تصرف على نحو آخر ، فأنبت « يقطينةً فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاً على رأسه لكي يخلصه من غمه . ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحاً عظيماً ». ثم يتبين أن الاله أنبت هذه النبتة لأجل هدف آخر الى جانب هذا الهدف : « اعد الله دودةً عند طلوع الفجر في الغد

http://www.al-maktabeh.com

فضربت اليقطينة فيبست »، وعند طلوع الشمس أرسل الاله « ريحاً شرقيةحارة فضربت الشمس على رأس يونان فذبل فطلب لنفسه الموت . . . فقال الله ليونان هل اغتظت بالصواب لأجل اليقطينة »، فاعترف يونان : « اغتظت بالصواب حتى الموت »، « فقال يهوه أنت أشفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها التي بنْت ليلةٍ كانت وبنْت ليلةٍ هلكت . أفلا أشفق أنا على نينوى العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة ». بهذه الكلمات تنقطع قصة يونان على نحو مفاجىء .

إن كتاب يونان واحد من الكتب « الفتية » جداً ضمن قوام الكتب النبوية . ونقاد التوراة يؤكدون بثقة أنه قد وُضِع بعد الأسر وحتى بعد إصلاحات عزرا ونحميا . فلغة الكتاب متأخرة وفيها الكثير من الكلمات ذات المنشأ الآرامي . واللغة الآرامية انتشرت لدى اليهوذيين في مرحلة السيطرة الفارسية ، لابل بعد ذلك . من الواضح أن المؤلف عاش في عصر كانت نينوى فيه مهدَّمة منذ زمن بعيد (أي بعد ٦١٢)، وهو يتحدث عنها كمدينة موجودة في الأساطير .

لقد جعل المؤلفُ يونان بطلًا لكتابه ، نظراً لحاجته الى شخصية النبي القديم الذي لم يبقَ منه سوى الاسم ، واختار نينوى لأنها بقيت في الذاكرة كمدينة وثنية كبيرة ، كعاصمة آشور ، الدولة التي لعبت دوراً مميتاً في تاريخ اسرائيل . أما ما تبقى ، بما فيه « الحوت الكبير » الذي ابتلع يونان ثم لفظه بناء على أمر الإله وكذلك قصة تبشير يونان في نينوى وحكاية اليقطينة العجيبة التي أعدها الإله ليوم واحد ، كله اختلاق واضح من قبل المؤلف . ولكن ماهو الهدف الذي كان يبتغيه هذا المؤلف ؟ ماهي الفكرة التي كان يريد تمريرها في هذه الحكاية المُختلَقة ؟

من الجلي أن الدرس الذي لقنه يهوه ليونان كان موجها ليس فقط الى هذا النبي القديم ، بل كان مؤلف الكتاب يخص به معاصريه ، وخاصةً أولئك الأرثوذكس من أتباع يهوه المتعصبين الذين كانوا ، في صراعهم ضد الوثنية داخل اسرائيل ذاتها ، يشملون بحقدهم كل العالم الوثني ، ولأنهم كانوا يرون أن هذا العالم لا يموت على يد يهوه (كما وعد ويَعِد الأنبياء مراراً)، كانوا يتساءلون بانزعاج وسخط : « الى متى ؟ ». وليس عبثاً أن مؤلف كتاب يونان يصور بطله بحلة غير لائقة ويضع في فم يهوه حكمه القاسي على نبيه : لقد أشفق يونان على النبتة الميتة

http://www.al-maktabeh.com

التي ليس هو من رباها ، فكيف له أن يظن السوء بالإله ويصدق أنه راغب في إزالة مدينة رائعة ؟ كيف استطاع يونان الظن بأن يهوه لن يشفق على سكان نينوى الذين رجعوا عن الطريق السيئة وأطفالهم الأبرياء وحتى بهائمهم ؟

في كتاب يونان يبدو يهوه خيِّراً ، رحوماً ، صبوراً ، وحتى اذا أنزل مصيبة يأسف لذلك . وهو يقف هذا الموقف ليس فقط من « شعبه المختار »، بل ويشفق على الوثنيين ، وهو لا يتمنى موتهم أبداً ، بل على العكس ، فهو يريدهم أن يندموا ويتوقفوا عن القيام بأعمال شريرة ويبقوا على قيد الحياة . ولذلك فإنه يتحملهم . لقد أرسل يهوه نبيَّه الى نينوى لكي يساعد بتبشيره على عودة الوثنيين الى الصواب . أَوَليس ذلك واجباً على كل اسرائيلي : عدم انتظار أن يلجأ الوثنيون اليه في بحثهم عن الإله الحقيقي ، بل اجتذابهم ، عدم طرد الوثنيين التائبين من مجتمع اسرائيل بل العمل على تحوّلهم الى يهود حقيقيين ديناً ودماً .

لقد كان كتاب يونان تحدياً صارخاً لكهنة أورشليم وللأنبياء الذين يدعمونهم ، أي للذين سعوا الى عزل اسرائيل عن محيطها من الأقوام المجاورة ، معتبرين ذلك أفضل وسيلة لإبقاء سيطرتهم على الشعب وللحفاظ على سلطتهم ومداخيلهم .

في الوقت ذاته ، كان ظهور أعمال أدبية مثل كتاب يونان وكتاب راعوث ، لدى اليهوذيين بعد الأسر البابلي ، ايذاناً بحلول طور جديد في تطور ديانة يهوه ، فقد بدأت تشتد في هذه الديانة النزعة الى التبشير . إن أفكار اشعيا الثاني حول الرسالة التاريخية لإسرائيل (وهي أن تحمل الى الشعوب المتخبطة في ظلام الوثنية نور الايمان الحقيقي ، نور الايمان بيهوه) أصبحت جزءاً هاماً في قوام اللاهوت اليهودي . وسوف يمر زمن معين فيعتبر الأرثوذكسيون أنه من الممكن إدخال كتاب راعوث وكتاب النبي يونان في قوام الكتاب المقدس .

أما كتاب أيوب ، وهو عمل أدبي آخر دخل في قانون العهد القديم ، فإن حكايته أكثر تعقيداً .

كتاب أيوب و كتاب الجامعة

كان مؤلفو ومحررو كتب العهد القديم يرون إحدى أهم مهامهم في تبجيل

http://www.al-maktabeh.com

يهوه وحماية عبادته في النضال ضد عبادة الآلهة الأخرى . والكثير من المقاطع في تلك الكتب يحمل طابع الجدل المباشر بين انصار يهوه وأتباع الديانات الأخرى . لكننا نجد أحياناً في أعمال العهد القديم جدلاً ضد نوع آخر من أعداء يهوه ، ضد المتشائمين و أصحاب الفكر الحر الذين كانوا ينفون (أو يشككون بِ) صفات يهوه الأساسية : الجبروت الكلي والدراية الشاملة والحكمة والعدالة والرحمة أو حتى مجرد حقيقة وجوده كإله . ولدينا أسس للاعتقاد بأن التعبير عن هذه الأفكار الانعتاقية والهرطقية كان يجري ليس شفاهاً فقط ، وأنه كان يتم تأليف أعمال كتابية أيضاً . وأحد تلك الأعمال هو كتاب أيوب بشكله الأولي ، قبل أن يدخل في قوام العهد القديم . هذا الكتاب ، من حيث لغته والأفكار المتضمنّة فيه ، يعود الى مرحلة مابعد الأسر ، وهو ـ على الأغلب ـ مكتوب ليس أبكر من القرن الخامس قبل الميلاد .

بشكله الحالي ، يتضمن كتاب أيوب ٤٢ إصحاحاً ، والاصحاحان الأول والثاني يشكلان ما يشبه المدخل . فمؤلف الكتاب ، الذي فضل عدم ذكر اسمه ، يصف لنا أحد « أيام الحضور » في السماء ، في بلاط الملك السماوي يهوه : « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام يهوه وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم . فقال يهوه للشيطان من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان يهوه وقال : من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها، فقال هل جعلتَ قلبك على عبدي أيوب. لأنه ليس مثله في الأرض . رجلٌ كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر . فأجاب الشيطان يهوه وقال هل مجاناً يتقي أيوب الله . . . . باركتَ أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض . ولكن ابسط يدك الآن ومس كل مالهُ فانه في وجهك يجدف عليك » . هكذا ، يرشد الشيطانُ الإله الى فكرة أن إيمان أيوب وتقواه ليسا خاليين من الاغراض أبداً . وبإيعاز من الشيطان يوافق يهوه على تعريض عبده الوفي لامتحانٍ قاسٍ ، فيسمح للشيطان أن يُنزِل بالرجل التقي عدداً من المصائب المريعة . هكذا يفقد أيوب كل ثروته ويموت أبناؤه ويصاب كل جسمه بمرض مخيف هو القرح . لكن أيوب لم يدِنْ الإله ولو بكلمة ، بل عبر عن موقفه مما جرى له بجملة : « يهوه أعطى ويهوه أخذ فليكن اسم يهوه مباركاً » (١ : ١٢) .

بعد ذلك يأتي الى أيوب أصدقاؤه القدامى الثلاثة ، أليفاز وبِلدّد وصوفر ،

لكي يعبروا له عن مواساتهم ، فارتعبوا من هول الخطوب التي مر بها وبقوا زمناً طويلاً عاجزين عن التلفظ بأي كلام . يبدأ أيوب الكلام أولاً ، وبذلك يبدأ في الحقيقة الجزء الأساسي من الكتاب كما يجري في الوقت ذاته تغير كامل لأيوب (من ٣ : ١ حتى ٤٢ : ٦). في بضع مداخلات يعبر أيوب عن سخطه لعدم عدالة يهوه : لأجل ماذا استحق أيوب كل هذه المعاناة ، فهو لم يذنب بشيء أمام الإله ؟ لكن مايجري لأيوب يفتح عينيه على مايجري من حوله . فالناس في كل مكان يعانون وفي كل مكان يسود الظلم والشر ، ويهوه يسمح بذلك .

يأخذ أصدقاء أيوب على عاتقهم دور المدافعين عن الإله ، واعتراضاتهم على أقوال هذا المعذَّب تشغل الجزء الأساسي من الكتاب وتشكل نقاشاً فلسفياً بين أنصار النظرية الأرثوذكسية في الديانة اليهوذية ، كما كان وضعها في مرحلة مابعد الأسر ، وبين نقادها ممثَّلين بأيوب .

إن مداخلات أصدقاء أيوب هي دفاع حقيقي عن يهوه : الإله كلي الجبروت ، وهو الذي خلق ويدبر العالم ، وهو عادل بلا شك ومحق على الدوام . وهم يقدمون هذه الموضوعة كمُسَلَّمة : « ألعل من يبغض الحق يتسلط أم البار الكبير تستذنب » (٣٤ : ١٧)، فيهوه يجازي كلاً على أعماله ، بلا تردد . إنه يكافىء البررة و « مع الملوك يجلسهم على الكرسي أبداً فيرتفعون » (٣٦ : ٧)، ويعاقب الأشرار . لكن العقاب ليس فورياً في بعض الأحيان . فعظَمة الشرير وثروته تزولان وهو يتسكع بحثاً عن لقمة العيش (١٥ : ٢٣)، ويموت باكراً . وحتى اذا أنهى هو حياته على نحو جيد فان أولاده سوف يعانون و « يترضون الفقراء ».

إن أيوب يرد حجج مجادلته نقطةً إثر نقطة ، وبلا استحياء يسميهم « ملفقي الكذب » و « أطباء باطلين » لأنه أين المجازاة العادلة لكلٍّ على أعماله ؟ لا شيء من هذا القبيل . فالاله يفني الكامل و الشرير على حدٍّ سواء (٩ : ٢٢). والأسوء من ذلك أنه يؤازر بوضوح الكفرة والأشرار ويحيطهم برعايته : « انه ليوم البوار يُمسَك الشرير ليوم السخط يقادون » (٢١ : ٣٠). ان المتجاوز يعيش حياة طويلة في الثراء والطمأنينة ويترك ذرية كثيرة (وهو ماكان يُعتبَر في القدم علامة أكيدة على رضى الإله !) ويموت موتاً سريعاً وسهلاً (٢١ : ٧ — ١٤). وفي غضون ذلك

http://www.al-maktabeh.com

يقول هؤلاء الأشرار عن الإله : « من هو القدير حتى نعبده وماذا نتفع ان التمسناه » (٢١ : ١٥)، هذا في حين أن الأبرياء الذين يهابون الإله يذوقون شتى صنوف الذل ويعانون من الجوع ويموتون على يد الأشرار : « من الوجع أناس يئنون ونفس الجرحى تستغيث والله لا ينتبه الى الظلم » (٢٤ : ١٢).

وأيوب غير موافق اطلاقاً على تفسير مجادليه بأن يهوه سينتقم لذلك من أولاد الشرير : « الله يخزن اثمه لبنيه . ليجازه نفسه فيعلم . . . فما هي مسرته في بيته بعده وقد تعين عدد شهوره » (٢١ : ١٩ — ٢١).

كما نرى ، فإن موضوعة الحياة الآخرة والثواب الأبدي غريبة عن ايوب وعن أصدقائه المجادلين أيضاً . فأيوب مقتنع بأن الموت هو نهاية كل شيء ، نهاية المسرة والأحزان ، لابل ونهاية كل أمل : « أما الرجل فيموت ويبلى . الانسان يسلم الروح فأين هو . . . والانسان يضطجع ولا يقوم . لا يستيقظون حتى لا تبقى السموات ولا ينتبهون من نومهم » (١٤ : ١٠ ، ١٢).

إن أيوب يشكك بقوة في فكرة أن المعاناة قد تُستخدَم من قبل الاله لأجل امتحان البررة . فسلوك الانسان ، في آخر المطاف ، يتوقف أيضاً على الإله ، الذي « عنده العز والفهم . له المضِل والمضَل » (١٢ : ١٦) وبالتالي يجب أن يعرف الإله مسبقاً إلام سينتهي امتحان الانسان .

وأخيراً يلجأ أيوب الى حجة أخرى ، كثيراً مايسوقها نقاد الدين المعاصرون، كما كان يستخدمها النقاد القدامى : حتى إذا اخطا الانسان في شيء ما بحكم طبيعته الضعيفة ، فإنه ليس من العدالة بمكان ـ في هذه الحالة ـ أن يتهمه الإله . فالانسان يكون كما خلقه إلهه : « أحسُنٌ عندك أن تظلم أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار » (١٠ : ٣).

في نص كتاب أيوب الذي وصلنا ، ينتهي النقاش بين أيوب وأصدقائه بكلمات من قبل المؤلف : « فكفَّ هؤلاء الرجال الثلاثة عن مجاوبة أيوب لكونه باراً في عيني نفسه » (٣٢ : ١)، بمعنى أن الأرثوذكس لم يتمكنوا من إقناع أيوب . لكن على نحو مفاجىء يأتي الإله ذاته لمؤازرتهم ويتكلم عن العاصفة بخطاب طويل ضد أيوب (الاصحاحات ٣٨ — ٤١)، تتلخص فحواه في فكرة وحيدة المدلول : يهوه لايبرر أبداً سلوكه تجاه البشر ولا يفسر سيطرة الشر في العالم ، بل

هو ـ عوضاً عن ذلك ـ يمجد جبروته وحكمته بكلام كثير ، ليبرهن أن الانسان مقارناً به صغير لحد وضعيف لحد وغير حكيم لحد أنه لا يملك حقاً في الحكم على أفعال الإله ، ناهيك عن ادانته لها (٣٩ : ٣٢). وفقط بعد رؤيته للإله يعترف يهوه بهزيمته ويردد كلمات التوبة : « قد نطقتُ بما لم أفهم . . . . بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عيني . لذلك أرفض واندم في التراب و الرماد » (٤٢ : ٣ — ٦).

ينتهي كتاب أيوب بخاتمة قصيرة : يهوه يكافىء أيوب التائب بثروة تضاعف تلك الثروة التي أُخِذَتْ منه ، ويُولَد له أبناء وبنات جدد ويعيش ١٤٠ سنة أخرى ويموت بعد شيخوخة مديدة ، « شبعان الأيام » (الاصحاح ٤٢).

وهكذا ، انتصر يهوه . لكنه حقاً انتصار القوة على الحق . وهذا هو الاستنتاج الذي ماكان يمكن ألا يتوصل إليه اليهوذي القديم قارىء كتاب أيوب ، اذا كان يقرؤه بانتباه ويتابع مجرى النقاش . فالتجربة الحياتية الخاصة لذلك اليهوذي الفرد كانت تقنعه بأن الحق مع أيوب وليس مع مجادليه (ففي دنيا الناس لا توجد بالفعل أية مؤشرات على التدبير الإلهي العادل وعلى المجازاة بحسب الأفعال : المكافأة للبررة والعقاب للأشرار)، وبأن الحق الى جانب أولئك الذين يقولون في هذا الكتاب : « من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع أن التمسناه ». ان هذا الكتاب الذي ألفه كاتب مجهول كان يجب أن يزرع في نفوس قارئيه بذور التشكك وعدم الايمان . وقد فهم ذلك ، بالطبع ، أنصار ديانة يهوه القدامى فلجأوا الى الطريقة القديمة المجربة ، فعرضوا هذا العمل الأدبي ل « التشذيب » الضروري .

كان يتوجب التخفيف من الشعور بتلك القوة الضاغطة لمنطق الاتهامات التي يطلقها أيوب بحق الاله . ولهذا الغرض تم إدخال عدد من الاضافات على مداخلات أيوب . فمثلاً ، تشكل الأعداد (٢٧ : ٨ — ١٠ ، ١٣ — ٢٣) اضافة من هذا النوع ، حسب رأي الأكثرية الساحقة من الباحثين . وفيها يؤكد أيوب على حين غرة أن الشرير ينتظره حساب عسير من قبل الاله ، مع أنه في كل فقرات الكتاب الأخرى يهاجم بحزم موضوع الديانة الرسمية حول أن معاقبة الشرير حتمية أثناء حياته . ولكن ايوب الذي يلتقي مع آراء أصدقائه الثلاثة في

http://www.al-maktabeh.com

المقطع المذكور ، يلقي عليهم ، بعد حين ، اللوم لأن كلامهم هراء . كذلك يُعتبر أن العددين (٢١ : ١٦) و (٢١ : ٢٢) هما إضافة لاحقة وكذلك فقرات أخرى . هكذا سعى المحررون الورعون أن يثلموا الطابع الجسور والكافر الذي تحمله أحاديث أيوب وأن يقدموا شكوكه في عدالة يهوه وكأنها مجرد ضعف مؤقت اعترى هذا الانسان المعذَّب ، لكنه تجاوزه وتاب فغفر له الإله . هكذا بالذات ، نموذجاً للورع والتقوى ، دخلت صورة ايوب الى الديانة اليهوذية المتأخرة والى المسيحية ـ وأُدرج كتاب أيوب ضمن قانون الأسفار المقدسة .

* * *

يشكل كتاب « الجامعة » أثراً آخر من آثار التفكير الحر القديم التي دخلت ضمن قوام العهد القديم ، على نحو مماثل لكتاب أيوب . و « الجامعة » ليس اسم علم ، بل ترجمة الكلمة العبرية « كوهوليت » الواردة في العبارة الأولى من النص الأصلي : « كلام الجامعة ابن داؤود الملك في أورشليم »، وتعني هذه الكلمة « المبشر »، « الداعية ». فالحكيم يتوجه الى المستمعين الذين تحلقوا حوله معبراً عن أفكاره حول الإله والعالم وحول مغزى حياة الإنسان وغايتها .

بين كل أبناء داؤود لم يصبح ملكاً في أورشليم سوى سليمان ، مما يعني أن المؤلف يقدم نفسه على أنه الملك الاسرائيلي القديم سليمان . ولكن تحليل نص الكتاب يكشف ، بلا شك ، عن أن هذا العمل هو من آخر الأسفار في أدبيات العهد القديم وأنه قد كُتِب ليس قبل القرن الثالث قبل الميلاد . وأفكار صاحب الكتاب تتطابق الى حد كبير مع آراء مؤلف كتاب أيوب ، لابل انه يكرر بعض المقاطع حرفياً تقريباً (مثلاً : جا ٥ : ١٤ و أي ١ : ٢١ ؛ جا ٦ : ٣ — ٥ و أي ٣ : ١١ — ١٣).

إن مؤلف كتاب الجامعة ، مثله مثل المؤلف المجهول لكتاب أيوب يجابه الدوغماتية بالواقع وينتقد فلسفة تبرير يهوه التقليدية من زاوية واقعية،فهو أيضاً اكتشف في دنيا الناس الكثير مما لا يجتمع مع المفاهيم الانسانية حول النظام والعدالة : « يوجد باطل يُجرى على الأرض . أن يوجد صديقون يصيبهم مثل عمل الأشرار و يوجد أشرار يصيبهم مثل عمل الصديقين . فقلت أن هذا أيضاً باطل » (٨ : ١٤)، « قد رأيت الكل في أيام بُطلي . قد يكون بارٌ يبيد في بره وقد

يكون شرير يطول في شره » (٧ : ١٥). وهنالك ظلم وشر عظيم آخر يمس جميع الأحياء بنفس القدر ، وهو الموت : « الكل على ما للكل . حادثة واحدة للصديق وللشرير للصالح وللطاهر وللنجس . للذابح وللذي لا يذبح . كالصالح الخاطىء . الحالف كالذي يخاف الحلف . هذا أشرُّ كل ماعُمِل تحت الشمس » ٩ : ٢ — ٣). لا مغزى في كل هذا ـ تلك هي الفكرة التي يصوغها المؤلف ويرددها مراراً : « باطل الأباطيل »! فلا داعي لاقتناء ثروة كبيرة لأنها بعد الموت تؤول إلى آخر ولا مغزى للحكمة الانسانية : « لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم و الذي يزيد علماً يزيد حزناً » (١ : ١٨)، . . . ولا يجدر أن نعزي أنفسنا بفكرة أن ثمة ذكرى ـ على الأقل ـ ستبقى للحكيم بعد موته ، « لأنه ليس ذكر للحكيم ولا للجاهل الى الأبد . كما منذ زمان كذا الأيام الآتية . الكل يُنسى » (٢ : ١٦).

الموت ، بالنسبة ل « الجامعة »، هو ذلك الحد الذي لاشيء حسناً ينتظرنا خلفه : « لكل الأحياء يوجد رجاءٌ فان الكلب الحي خيرٌ من الأسد الميت . لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون . أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نُسي » (٩ : ٤ — ٥).

يعبر « الجامعة » عن الموقف العاطفي للانسان من الإله بكلمات « اخشَ الله » (٥ : ٧). فهل هذا يعني أن على الانسان أن يخشى عقاب الاله له على ذنوبه ؟ وأن الإله يقدر في الانسان تقواه وورعه ؟ إن ذلك لمن المستبعد . فالكاتب في إحدى الفقرات (٧ : ١٦) يقدم لقارئه نصيحة بتهكم : « لا تكن باراً كثيراً ولا تكن حكيماً بزيادة »! وهو يبدي القليل من الاحترام تجاه تجليات التقوى في تلك الأيام ، أي تجاه الصلوات والنذور (٥ : ١ — ٢)، وذلك لأن « الله في السموات وانت على الأرض » ـ هكذا يشرح موقفه المؤلف ، وهذا الشرح يمكن أن يعني فقط كون المسافة بين الانسان والإله أكبر بكثير وكون الإله أرفع بكثير من أن يتابع سلوك كل إنسان ويكافئه أو يعاقبه ومن أن يقيم نظاماً وعدلاً في دنيا الناس . لذلك يسود بينهم الشر : « ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تُجرى تحت الشمس فهوذا دموع المظلومين ولا معزٍّ لهم ومن يد ظالميهم قهر » (٤ : ١). لقد سمى أيوب ، بلا خوف ، المذنب في هذا الظلم الاجتماعي : انه الإله ، ف « الأرض مُسلَّمة ليد الشرير . يغشي وجوه قضاتها . وان لم يكن هو فاذاً من » (٩

http://www.al-maktabeh.com

: ٢٤)، أما لدى « الجامعة »، فاننا نجد تصريحاً كافراً من هذا القبيل . لكن ، كما لاحظ أ. لودس بحق : « منطقياً ، كان يجب لهذا المتشكك ، بما يمتاز به من طريقة في تقبُّل العالم وفهم الحياة ، أن يكون ملحداً »(٥٥).

كما في مداخلات أيوب ، ثمة هنالك متناقضات كثيرة في كتاب « الجامعة » . فإلى جانب الأقوال التي أوردناها والتي ينز منها التشكك الديني ، يمكن أن نجد في هذا الكتاب تأكيدات معاكسة تماماًمن حيث معناها . فمثلاً : سيكون خير للأتقياء ولا يكون خير للشرير (٨ : ١٢ ـ ١٣) ، أو : سيجلب الإله جميع الناس إلى الدينونة (١١ : ٢) ، وغير ذلك . .

لاشك في أن كتاب الجامعة أيضاً قد مرَّ بين أيدي المحررين الأرثوذكس . يعتبر أ. لودس (الذي ألَّف شرحاً مفصلاً حول هذا الكتاب) أنه تظهر آثار لأيدي ثلاثة محررين ، على الأقل ، حاولوا أن يخففوا من الطابع « الهرطقي » فيه ويحيدوه . ونظراً لذلك ، وبعد نقاشات طويلة بين مختلف مدارس اللاهوتيين اليهود ، تقرر إدخال كتاب الجامعة (وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب يهوه) ضمن القانون . في الوقت ذاته فإن هذين الأثرين اللذين يشهدان على حرية التفكير في الزمن القديم ، يكشفان بجلاء عن ذلك المأزق الذي دخلته ديانة يهوه في مرحلة ما بعد الأسر ، نظراً لفشل الدوغمة الأساسية فيها ، ألا وهي مبدأ مجازاة الإله لكل انسان أثناء الحياة ، حسب أفعاله . أما كيف وُجِد المخرج من هذا المأزق ، فذلك ما يرويه لنا آخر كتاب في العهد القديم ألا وهو كتاب دانيال .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

---

(٥٥) انظر : Lods l ecclesiaste et la philosophie greque. P., 1890, P.66.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المخرج من أزمة التبرير

اكتشاف الثواب الأبدي . كتاب دانيال .

تكشَّفتْ نقاط ضعف الدولة الفارسية في القرن الخامس قبل الميلاد ، عند اصطدامها بالعالم اليوناني . فقد قام داريوش الأول بمحاولة لإخضاع المدن الغنية في اليونان البلقانية ، لكنه مُني بالهزيمة في معركة ماراثون عام ٤٩٠ . ومنذ ذلك الحين بدأت حقبة الحروب اليونانية ـ الفارسية ، الطويلة ، التي امتدت ما يقارب نصف قرن من الزمان . وكانت تلك الحروب ، في معظمها ، خاسرة بالنسبة للفرس . أما في النصف الثاني من القرن الرابع ، فإن المقدونيين واليونان انتقلوا بأنفسهم الى الهجوم ضد الدولة الفارسية . فلم تحتمل جيوش الأخيني الأخير داريوش الثالث قضمان ، المكونة من أبناء أقوام مختلفة ، ضربات جيش الاسكندر المقدوني ، وهو جيش أفضل تنظيماً وتدريباً بكثير . في عام ٣٣٠ قبل الميلاد قُتِل الملك داريوش الثالث أثناء هروبه الى آسيا الوسطى ، على يد بيس ، أحد ولاته ، فأصبح الاسكندر وريثاً لمملكته .

كانت امبراطورية الاسكندر المقدوني شاسعة الأصقاع : من البحر الإيوني حتى حوض السند ومن صحراء ليبيا حتى بحر قزوين . ولكن هذه الدولة الهائلة ، مثلها مثل المملكة الفارسية المدمَّرة ، كانت عبارة عن تجميع قسري لكثير من البلدان والشعوب ، يقوم على القوة العسكرية فقط ، وماكان بوسعها أن تعمر طويلاً . فبعد ٢٠ عاماً من موت الاسكندر (عام ٣٢٣)، حصل انشطارها النهائي ونشأت على أنقاضها عدة دول مستقلة ، وضع اليد عليها القادة

العسكريون للاسكندر والمقربون إليه . هكذا ، وطد سلطته في مصر بطليموس لاغ وأعلن نفسه ملكاً ، وعنه نشأت سلالة اللاغيين ، بينها تكونت في سوريا مملكة قائد عسكري آخر من قادة الاسكندر ، وهو سلوقس نيكاتور ، الذي كانت أملاكه تمتد في البداية من سوريا حتى الهند . وكانت تجري حروب لانهاية لها بين وَرَثة الاسكندر ومن ثم بين ورثتهم هم ، حيث كان كلٌ يسعى لأن ينتزع من الآخر بعض أملاكه . ومن جديد وجدت يهوذا الصغيرة نفسها محصورة بين جارَيْن جبارين : مصر بطليموس وسوريا السلوقية وأصبحت « تفاحة الشقاق » الدائم بينهما .

على زمن البطالسة الأوائل كانت فلسطين كلها وكذلك فينيقيا وسوريا الجنوبية تحت سيطرتهم . لكن الملك السلوقي أنطيوخس الثالث تمكن في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد من انتزاع هذه المناطق . وبعد موته انتقلت السلطة عليها الى يد ابنه أنطيوخس الرابع إيبيفان (١٧٥ — ١٦٤)، وفي عهد هذا الأخير قامت في يهوذا انتفاضة ضد المحتلين اليونانيين ـ المقدونيين وضد الشرائح العليا الارستقراطية (الكهنوتية والمدنية) التي وقفت الى جانبهم ، وذلك عام ١٦٧ . تراس الانتفاضة الإخوة آل حشمون ، حيث برز بينهم خصوصاً يهوذا الملقب « مكابي »، أي « المطرقة ». وبعد صراع طويل وخسائر جسيمة ، تمكن المنتفضون من طرد المحتلين ، وحصلت يهوذا على استقلال نسبي لبعض الوقت ، في زمن الملوك ـ الكهان من سلالة الحشمونيين (أو آل حشمون).

لقد دشنت الحملة الشرقية للاسكندر المقدوني بداية ما يُسمى بالحقبة الهيلينية في العالم القديم . وإن أشكال النظام العبودي اليوناني ، الأكثر تطوراً من مثيلاتها الشرقية ، راحت تنتشر في مناطق شاسعة من الشرق ، وكان يجري تفاعل نشيط وتبادل للتأثير بين العناصر اليونانية والشرقية في الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية للشعوب التي دخلت في قوام امبراطورية الاسكندر المقدوني (أو الممالك الهيلينية لاحقاً). وبما أن الفئة الحاكمة كانت مؤلفة من اليونانيين والمقدونيين ومن الوجهاء المحليين القريبين منهم ، فقد مسَّ التأثير الهيليني ، بالشكل الرئيسي ، تلك الشريحة المسيطرة من السكان المحليين . لقد انتشرت في هذه الأوساط ، وعلى نطاق واسع ، اللغة اليونانية والعناصر السطحية من الثقافة والديانة

http://www.al-maktabeh.com

اليونانيتين . لم تنجُ من التطبيع الهيليني(*) في تلك الحقبة يهوذا أيضاً . ونعرف من مصادر مختلفة كم كان هذا التأثير قوياً في فلسطين ، خصوصاً على المراتب العليا من المجتمع اليهوذي . فضرورات التواجد لدى بلاط الملوك الهيلينيين ، الذين كانت فلسطين تحت سيطرتهم ، والدخول في احتكاك مع الإدارة اليونانية أو إقامة علاقات تجارية ، كل ذلك كان يدفع وجهاء يهوذا الى التمثل النشط لإنجازات العالم اليوناني . فليس مستغرَباً أن تظهر آنذاك في أورشليم والمدن اليهوذية الأخرى بفلسطين مدارس يونانية وأستادات يونانية ، كانت الشبيبة اليهوذية تمارس فيها الرياضة على غرار اليونانيين ، عاريةً مثلهم ، مما أثار الرعب في قلوب الأرثوذكس . وبالمناسبة ، فان المصادر تنبئنا بأن البعض من أولئك الرياضيين اليهوذيين كانوا يعرضون أنفسهم لعملية جراحية مؤلمة من أجل طمس آثار « العهد المقدس » المتمثلة بالختان ، وذلك بقصد عدم الاختلاف ـ قدر الامكان ـ عن اليونانيين . ولم تكن النخبة الكهنوتية تتأخر عن النخبة المدنية ، لدرجة أن الكاهن الأول كان يفضل تغيير اسمه من يهوشع الى ياسون أو من عونيا الى مينيلاس وهكذا . ومن الملفت للانتباه أن أحد أشهر اللاهوتيين اليهوذيين « الكَتَبة »، في القرن الثالث قبل الميلاد ، كان يحمل أيضاً اسماً يونانياً هو أنتيغونس . ويجب الافتراض أن هذا الانسان اكتسب من اليونانيين ليس فقط الاسم ، بل ربما كان على معرفة بالديانة والفلسفة اليونانيتين . ففي أفكار أنتيغونس هذا ، يمكن أن نجد قاسماً مشتركاً مع تعليم الرواقيين اليونانيين ، كما أن البعض يرى في آراء حكيم يهوذي آخر من ذلك الزمان (وهو مؤلف كتاب الجامعة الآنف ذكره) تأثيراً لفلسفة أبيقور .

لكن التطبيع الهيليني كان يجب أن يُنظَر إليه ببعض العداء من جانب الجماهير الشعبية ، وذلك ـ على الأقل ـ لأن هذا التطبيع كان نابعاً من المضطهدين اليونانيين والمحليين . كما أن قسماً من الكهنة العاديين وقف أيضاً في معارضة النزعات الهيلينية ، خصوصاً كهنة خارج أورشليم وبعض العلماء « الكَتَبة » من أنصار يهوه وحُماة « التورا » ومعلميها ، الذين أصبحوا يُسّمون في تلك المرحلة « حاشيدي » أي الورعين .

(*) « التطبيع الهيليني » انسب ترجمة ارتأيناها لاجل كلمة Hellenization. ـ المترجم ـ

في بداية القرن الثاني قبل الميلاد ، كان صراع ضارٍ يجري في أوساط الفئة العليا من كهنة أورشليم حول السلطة وحول منصب الكاهن الأول في معبد يهوه بأورشليم . ففي نهاية السبعينات كان يشغل هذا المنصب عونيا الثالث الذي لم يكن يؤيد التجليات المفرطة للتطبيع الهيليني ، وهذا ما استغله أعداؤه فوراً ، فلجؤوا الى الكذب والرشوة وتمكنوا من حمل السلطات السورية على إعدام عونيا الثالث في عام ١٧١ . بعد ذلك احتل « المرتدون عن العهد » السلطة بمساعدة من السوريين ، وأصبح ياسون ، منافس عونيا ، كاهناً أول ، لكنه بدوره أزيح عن هذا المنصب من قبل مينيلاس . لقد أخذ مينيلاس من خزانة معبد أورشليم جزءاً من الأواني الذهبية المقدسة وتبرع بها لإقامة ألعاب مقدسة على شرف الإله الوثني هرقل ـ ميلقارت الصوري . وكانت السلطات السورية في تلك الأثناء قد فرضت على يهوذا أتاوة كبيرة ، قام بجمعها أيضاً الكاهن الأول وخدمه . كما أن الملك أنطيوخس قرر إجراء إصلاح ديني وفرض عبادة الإله اليوناني زيوس الأولمبي في كل أرجاء مملكته ، وكان من المفترض أن تقترن هذه العبادة بعبادة الملك ذاته . فعلى النقود ، التي ضُرِبتْ في عهد أنطيوخس الرابع ، كان يُطبَع رسم الملك على هيئة زيوس الأولمبي . ولم يرَ أنطيوخس ضرورةً لاستثناء يهوذا من القاعدة ، فتم استبدال المذبح الذي في معبد يهوه بتمثال زيوس في كانون الأول عام ١٦٨ ، مما خلق الذعر و اليأس لدى أنصار يهوه ، كما تم منع تقريب التقدمات ليهوه ومنع الالتزام بالسبوت والأعياد والختان .

لكن الديانة اليهوذية كانت حتى ذلك الحين قد اكتسبت سماتٍ ، أصبحت تميزها جوهرياً عن الديانات الأخرى القديمة القائمة على تعدد الآلهة . كانت تلك سمات التوحيد . كان « بنتاتيك » موسى في ذلك الحين قد أصبح بالنسبة ليهود مرحلة ما بعد الأسر ليس فقط سفراً مقدساً ، بل وكلمةً إلهية و « تورا » (قانون يهوه)، وفي هذا السفر فرائض صارمة : « أنا يهوه إلهك . . . . لايكن لك آلهة أخرى أمامي . . . . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً ما مما في السماء . . . . » (خر ٢٠ : ٢ — ٤).

لقد انهالت السلطات بإجراءات قمع قاسية على الذين كانوا يرفضون الانصياع لمرسوم أنطيوخس ، فتعرض هؤلاء للتعذيب والإعدام . وكانت تلك

http://www.al-maktabeh.com

المرة الأولى في تاريخ يهوذا التي يتعرض فيها أتباع يهوه لمثل هذه الملاحقة الشديدة بسبب إيمانهم ، فكانت النتيجة انفجاراً عنيفاً للتعصب الديني ، حيث هرب الى الصحراء الكثير من اليهود الذين لم يرغبوا في خيانة إلههم ، ففضلوا الموت جوعاً وعطشاً على خيانة دين آبائهم . هذا ، في حين راح آخرون يتجمعون في الفصائل التي انتفضت بقيادة يهوذا « مكابي »، عازمين على النضال بالسلاح ضد ظالميهم الأجانب وأعوانهم المحليين من بين « المرتدين على العهد ». وكان هنالك أناس يسلمون أنفسهم طوعاً للتعذيب والإعدام بسبب إيمانهم بيهوه . ورغم ذلك ، كان يجب أن يدخل الخوف والشعور بالقنوط الى نفوس أولئك المؤمنين الذين قرروا تقاسُم المصير نفسه ، لكنهم لم يكونوا قادرين على التسليم بذلك .

لقد انعكست هذه الأمزجة في أحد المزامير ، الذي يعود ـ حسب راي العلماء ـ الى ذلك الزمان بالذات : « لماذا رفضتنا يا الله الى الأبد . لماذا يدخن غضبك على غنم مرعاك . . . الكل قد حطم العدو في المقدس . . . . دنسوا الأرض مسكن اسمك . . . أحرقوا كل معاهد الله في الأرض . آياتنا لانرى . لا نبيٌّ بعد . ولا بيننا مَنْ يعرف حتى متى . حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك الى الغاية » (مز ٧٤ : ١ — ١٠). لقد كان المطارَدون بسبب ديانة يهوه ينظرون حولهم يائسين : أين الخلاص ؟ من الذي سيرشد الى المخرج ؟ من يعرف ما الذي سيجري لهم ولديانة يهوه ؟.

ولكن « العارفين » وُجِدوا ، من بين أولئك الذي كانوا يلقبون بالـ: « حاشيدي »، الورعين الذين ذكرناهم أعلاه . لقد شارك « الورعون » مشاركة بسيطة في الانتفاضة المكابية ، وكان شعارهم الأساسي ليس النضال بل الإخلاص ليهوه بلا حدود ، والصمود في الإيمان بلا حدود ، رغم كل شيء . وأخيراً الصبر . كان « الورعون » يسعون بشتى الوسائل أن يوحوا للشعب بأن الخلاص ليس ممكناً فحسب ، بل هو قريب أيضاً ، لكنه لن يأتي على يد فصائل يهوذا المكابي ، وانما من يد يهوه بالذات . فيهوه سينتصر بالتأكيد لديانته المدنسة ولمعبده المهان ، وهو لن يتمهل في صب جام غضبه على الملك الكافر المستكبر وعلى جميع الأعوان والمرتدين عن الايمان الحقيقي . أما الصامدون فسيَلْقون ثواباً على صمودهم وعلى الآلام التي قاسوا منها .

لكن آلاف الناس كانوا قد تلقوا الموت لأجل الإيمان بيهوه ، وكم من الناس كانوا يستعدون لنفس المصير ! وفي مثل هذه الظروف ، كان لابد أن ينهض أمام جمهور المؤمنين سؤال مؤلم : هل من العدل بمكان أن تبقى كل هذه التضحيات بلا ثواب ؟ لم يكن بمقدور الوعي الديني الجماهيري أن يسلّم بهذا الظلم الصارخ : اذا كان الذين قاسوا من أجل يهوه لم يُكافَؤوا من قِبَل الإله في حياتهم ، فيجب أن يحصلوا على المكافأة ، حتى ولو جرى ذلك بعد موتهم !

عاجلاً أم آجلاًكان يجب على اللاهوت اليهودي أن يستجيب لهذه الحاجة التي يشعر بها الوعي الديني الجماهيري ، وقد استجاب فعلاً . فعلى التوازي مع تمجيد الآلام راح يتكون عنصر جديد في إيديولوجيا اليهودية ، ألا وهو التعليم حول قيامة الموتى والثواب الأبدي .

متى حدث ذلك ؟

من المعروف أن هاتين الفكرتين كانتا غريبتين عن الديانة اليهوذية القديمة . فلنتذكر كيف كان يتصور الموت أيوب وأصدقاؤه ، حيث لم يفترض أحد منهم امكانية وجود ثواب عادل للانسان بعد موته ، أي « في الدنيا الآخرة » . أما مؤلف كتاب الجامعة فقد أعلن بثقة أن « الموتى لا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر » (٩ : ٥).

لكن هنالك كتاب واحد وحيد في العهد القديم يتحدث عن قيامة الموتى وعن الثواب الأبدي . انه كتاب دانيال .

يتكون كتاب دانيال من جزأين ، الأول سردي والثاني عبارة عن رؤيا .

في الجزء السردي (أول ستة اصحاحات) يتم وصف بعض الحوادث من حياة دانيال ، البطل الأساسي في الكتاب ، بينما يتضمن الجزء الثاني رؤىً سحرية كانت تتجلى لدانيال في النوم وفي الحقيقة ، وكان يتراءى له في الحلول القريب لنهاية العالم وما سيجري قبيل ذلك .

إذا صدقنا ماهو مكتوب في كتاب دانيال ، فإن مؤلفه حكيم ونبي يهوذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد في بابل . وقد شغل مناصب هامة في بلاط عدة ملوك وثنيين ، لكنه حافظ على تقواه العميقة وإيمانه بيهوه . لذلك كشف له يهوه في عدد من الرؤى كل مايجب أن يجري لشعبه ولكل البشرية حتى « الزمن

http://www.al-maktabeh.com

الأخير»، أي حتى نهاية العالم وحلول «مملكة الله». هذه هي وجهة النظر التي كان ولا زال يتبناها اللاهوت اليهودي والمسيحي، على حد سواء، بالنسبة لكتاب دانيال.

لكنه منذ القدم وُجِد بين قراء دانيال أناس رأوا في الحوادث الموصوفة في هذا الكتاب (والتي يُزعَم أنها تسبق «نهاية العالم») مجرد تصوير لقصة الملك أنطيوخس الرابع، وهو - كما ذكرنا - واحد من آخر الملوك في سلالة السلوقيين. هكذا، نجد أن الفيلسوف اليوناني فرفوريورس، في كتابه الجدالي الموجَّه ضد المسيحيين «كلمة الى المسيحيين» (القرن الثالث الميلادي) يعبر عن اجتهاد مفاده أن كتاب دانيال قد كُتِب في زمن ملاحقة المؤمنين بيهوه أيام الملك أنطيوخس وأن المؤلف عاش ليس في القرن السادس بل في القرن الثاني قبل الميلاد، وأنه كان من بين الذين لوحقوا. وقد اعترف بهذه الحقيقة - فعلياً - واحد من آباء الكنيسة ذوي الهيبة وهو الأب جيرونم (إيرونيموس) في القرن الرابع الميلادي. أما الآن فتتمسك بهذا الرأي الأكثريةالساحقة من الباحثين.

ان التحليل الانتقادي لمضمون وأفكار ولغة كتاب دانيال سمح بالتوصل الى تحديد الزمن الحقيقي لظهور هذا الكتاب والظروف المحيطة بذلك الظهور.

يصف كتاب دانيال عدداً كاملاً من الحوادث التي جرى بعضها، بينما سيجري بعضها الآخر في المستقبل. ولو أن مؤلف الكتاب قد عاش وكتب في القرن السادس قبل الميلاد، فعلاً، لتوجَّب عليه - بشكل طبيعي - أن يعرف حوادث زمانه معرفة أفضل، باعتباره كان مشاركاً فيها، ولكنه أثناء عرضه للوقائع التاريخية للقرن السادس ارتكب أخطاء مدهشة. واليكم بعض الأمثلة.

يؤكد المؤلف أن نبوخذنصر احتل أورشليم وسبى الملك اليهوذي يهوياقيم، «في السنة الثالثة من مُلك يهوياقيم» (دا ١ : ١). ولكن إرميا الذي عاصر، دونما شك، سقوط المملكة اليهوذية تحت ضربات البابليين يشهد بأن نبوخذنصر لم يكن، في السنة الرابعة من مُلك يهوياقيم قد احتل أورشليم (إر ٢٥ و ٢٦)، بل جرى احتلال أورشليم من قبل البابليين بعد موت يهوياقيم، في عام ٥٩٧ وسُبي الملك يوياكين وليس أبوه يهوياقيم (٢ مل ٢٤ : ٦، ١٢).

يذكر كتاب دانيال اثنين من ملوك بابل هما نبوخذنصر و بيلشاصر الذي

http://www.al-maktabeh.com

يعتبره المؤلف ابناً لنبوخذ نصر وآخر ملوك بابل (٥ : ٢ ، ١١). واذا صدقنا المؤلف فان بيلشاصر قد قُتِل « فأخذ لمملكة داريوش المادي » (٥ : ٣١).

هنا أيضاً يوجد عدد من الافتراقات مع الحقائق التاريخية . فالمصادر البابلية وكذلك المصادر القديمة (مثل برحوشا البابلي المسمى بيروس وبعض المصادر اليونانية) تفيد بأن بيلشاصر لم يكن ابناً لنبوخذنصر قط . وقد حكم بعد نبوخذنصر الملك أويل مردوك الذي تذكره كُتُب العهد القديم الأخرى (٢ مل ٢٥ : ٢٧ — ٣٠ ؛ إر ٥٢ : ٣١)، وحكم بعده ملكان . وكان آخر الملوك البابليين (نبونيد) لاينتمي الى العائلة الملكية أصلاً ، وكان بيلشاصر ابن نبونيد ، لكنه لم يكن ملكاً قط . ثم ان كتاب دانيال يؤكد أنه بعد موت بيلشاصر احتل مملكته داريوش (٥ : ٣٠) وهو « بن احشويروش من نسل الماديين » (٩ : ١). لكن معطيات الألواح المسمارية والمؤلفين القدامى تشهد على أن الملك الفارسي كورش ، وليس الميدي داريوش ، هو الذي احتل بابل عام ٥٣٩ ، كما أن التاريخ لم يعرف داريوشاً ميدياً ، بل ان اسم داريوش ذاته فارسي . إن أول ملك فارسي باسم داريوش كان داريوش الأول ابن ويشتاسب ، ولكنه حكم ليس قبل كورش ـ كما يؤكد مؤلف كتاب دانيال (٦ : ٢٨)— بل بعد كورش وبعد ابنه قمبير (٥٢١ — ٤٨٦).

من الصعب أن نتصور كيف يمكن أن يوجد خلط كهذا لدى انسان عاصر كل تلك الأحداث وشغل مكانة رفيعة في دوائر البلاطَيْن البابلي والفارسي ، وبالتالي عرف شؤون السياستين الداخلية والخارجية لهاتين المملكتين على أفضل نحو ممكن .

بالمقابل ، حين ندرس تلك الأحداث التي توصف في المقاطع النبوية من كتاب دانيال على أنها نبوءات عن المستقبل ، يمكننا العثور على بعض الأخطاء ، لكن الملفت للانتباه أن عدد هذه الأخطاء يصبح أقل ووصف الأحداث يصبح أكثر تفصيلاً ودقةً كلما اقترب المؤلف من عصر أنطيوخس ، فيتطابق مع معطيات المصادر التاريخية . ان « نبوءات » دانيال ، حتى العدد ٣٩ من الاصحاح ١١ قد « تحققت » بدقة . وهي تصف سقوط بابل وانتقالها الى أيدي الفرس وتحطيم الدولة الفارسية من قبل الاسكندر المقدوني وتفكك المملكة بعد موته والحروب بين

http://www.al-maktabeh.com

اللاغيين والسلوقيين (ملوك الجنوب وملوك الشمال) والسنوات الأولى من حكم أنطيوخس الرابع ، وكل ذلك بطريقة مموهة ولكن مفهومة . أما بعد ذلك فيحدث انعطاف حاد : في المقطع (١١ : ٤٠ — ٤٣) تُوصَف حملة الملك الشمالي « الوقح » و « المستكبر »، أي أنطيوخس الرابع نحو الجنوب واحتلاله لمصر ولمختلف البلدان الأخرى ونهب كنوزها وسبي سكانها . لكن في الواقع لم يحدث شيء من هذا القبيل . والعدد (١١ : ٤٥) يتنبأ بأن ملك الشمال هذا سيلقى الموت « بين البحور وجبل بهاء القدس »، مما يعني بالنسبة لليهودي المؤمن فقط جبل صهيون الذي كان يقع عليه معبد يهوه . فالمؤلف اذاً يتنبأ لأنطيوخس بالموت في فلسطين ، لكننا نعرف من المصادر الأخرى أن هذا الملك « بلغ غايته في ظل ظروف مغايرة تماماً . فبعد أن قام بحملة على إيران عام ١٦٤ قبل الميلاد مرض في طريق العودة ومات . إن وصف موت الملك أنطيوخس الرابع إيبيفان يختتم الاصحاح الحادي عشر من كتاب دانيال بينما يصف لنا الاصحاح الثاني عشر والأخير لوحات رؤيوية خالصة ، نابعة عن خيال ديني ، تمثل نهاية العالم وقيامة الموتى وما شابه .

ليست المسألة ، بالطبع ، في كون قوة « الرؤية النبوية » قد خانت المؤلف اعتباراً من العدد (١١ : ٤٠).

فالسبب الحقيقي للانعطاف يكمن في أمر آخر : لقد أظهر المؤلف دراية لا مثيل لها إزاء الأحداث التي كانت أقرب إليه في الزمان والمكان ، ومعرفة ضعيفة بما جرى في الماضي الغابر بعيداً عنه . من الواضح أن كتاب دانيال قد كُتِب ليس في بابل ، بل في فلسطين ، وليس في القرن السادس ، بل في القرن الثاني قبل الميلاد . ويمكن تحديد زمن ظهوره بشكل أكثر دقة : ليس قبل ١٥ كانون الأول عام ١٦٨ ، وهو التاريخ الذي جرى فيه ـ وفقاً لمصادر أخرى ـ نصب تمثال (أو مذبح) زيوس في معبد أورشليم ، ولكن قبل عام ١٦٤ ، باعتبار أن المؤلف لم يكن على علم بموت أنطيوخس الرابع الذي مات بعيداً عن فلسطين ، ولذلك فإن الكتاب « تنبأ » بهذا الحدث خطأً .

هنالك براهين أخرى أيضاً على المنشأ المتأخر لكتاب دانيال . فقد كشف التحليل اللغوي عن أن الكتاب كُتِب أصلاً باللغتين العبرية والآرامية (من ٢ : ٤

حتى الإصحاح ٧) المميزتَيْن للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وفيه كذلك عدة اقتباسات، من الفارسية واليونانية . ففي الاصحاح الثالث ، مثلاً ، جاءت جميع تسميات الآلات الموسيقية ، تقريباً ، باللغة اليونانية : « بيسانطرين » و « كاتروس » و « سمفونيا »، ومن الواضح أنه في زمن كتابة الكتاب كان قد أصبح لليهود علاقة منتظمة مع اليونانيين ، وهذا ما جرى تحديداً في الحقبة الهيلينية وليس قبلها .

وأخيراً ، فان عدداً من الأفكار والطقوس الدينية التي يصفها مؤلف الكتاب أصبحت مميزةً هي أيضاً لليهودية المتأخرة . مثلاً : عادة الصلاة في ساعة محددة ثلاث مرات في اليوم والوجه مُدار صوب أورشليم (٦ : ١٠)، أو الفرائض الطقوسية بالنسبة للطعام (١ : ٨). لكن البرهان الأقوى على الظهور المتأخر لهذا الكتاب هو كونه عكس ، لأول مرة ـ كما قلنا ـ في الأدبيات الدينية اليهوذية ، فكرة قيامة الموتى والثواب الأبدي .

يمكننا الاعتقاد بأنه من المُثبَت كون كتاب دانيال قد كُتِب بين عامي ١٦٨ و ١٦٤ قبل الميلاد ، في حمأة الملاحقة التي تعرضت لها ديانة يهوه في زمن أنطيوخس الرابع إيبيفان وأن الذي كتبها ليس النبي دانيال المُختلَق ، من القرن السادس ، بل انسان آخر عاش بعد أربعة قرون في فلسطين وأخفى اسمه عن عمد . ويمكننا أن نحاول تصور شخصية هذا الرجل . فالكتاب بوسعه أن يقدم لنا الكثير في هذا المجال .

ان مؤلف كتاب دانيال يعبر أكثر من مرة عن تعاطفه العميق مع « متقي الإله » الصامدين في إيمانهم بيهوه ، رغم كل الملاحقات و الآلام ، ولكنه يرفع أكثر من شأن أولئك الذين يسميهم « الفاهمون من الشعب » (بالعبرية : ماسقيلي عام) (١١ : ٣٣)، أي الذين كانوا مستعدين ليس فقط للمعاناة تحت اسم يهوه « بالسيف وباللهيب وبالسبي وبالنهب »، بل ولأن « يعلموا كثيرين » التقوى (١١ : ٣٣). إنه يواسي هؤلاء مؤكداً أن نهاية آلامهم ستحل قريباً ، وان كانوا يعانون الآن ، فان ذلك ضروري « للتطهير وللتبييض الى وقت النهاية . لأنه بعد الى الميعاد » (١١ : ٣٥). بالمقابل ، يتنبأ المؤلف بأنه عندما تحين القيامة من بين الأموات ، فان « الفاهمين يضيئون كضياء الجلد . . . كالكواكب الى أبد الدهور »

http://www.al-maktabeh.com

١٢ : ٣).

لاشك أن مؤلف كتاب دانيال كان في عداد هؤلاء « الفاهمين من الشعب ». ومن المفهوم أن موقف هؤلاء الناس كان يجب أن يخلو ، خصوصاً ، من المهادنة تجاه هجوم الوثنية ، وأنهم كانوا يعانون حقبة ملاحقة دينية وفي عهد أنطيوخس الرابع إيبيفان إنهم قد لعبوا - على مايبدو - دوراً قيادياً في حزب ال « حاشيدي »، فالمصادر الأخرى تفيد أن قسماً من ال« حاشيدي » قد انضم الى المتفضين بقيادة يهوذا « مكابي »، وأنه تحت تأثير تبشيرهم المتعصب كان قسم من المنتفضين في البدايات يرفض أن يقاتل في السبوت لكي لا ينقض وصايا يهوه . ويشهد كتاب المكابيين الأول أنه حين كان الأعداء يهجمون ، لم يكن هؤلاء الناس يردون عليهم ولا بحجرة ولا حتى يغلقون منافذ ملاجئهم السرية ، بل يقولون : سنموت جميعاً في عفافنا . وكانوا بالفعل يقدمون أنفسهم للذبح بالمئات مع كل زوجاتهم وأولادهم ، الى أن اجتمع قادة الانتفاضة واتخذوا قراراً خاصاً : على الجميع أن يقاتلوا في السبوت !

لكن من المستبعد أن يكون مؤلف كتاب دانيال قد شارك بنفسه في الانتفاضة المكابية . فالخلاص يأتي ليس من النضال النشط والأعمال الحربية و « ليس بيد انسان » يجب أن يُقتَل الملك الوقح و أعوانه ، بل بتدخل من يهوه و ملائكته . والمطلوب هو فقط إبداء الصبر والصمود ، ولم يبق وقت كثير للانتظار : « من وقت إزالة المحرقة الدائمة وإقامة رجس المخرب ألف ومئتان وتسعون يوماً . طوبى لمن ينتظر ويبلغ الى الألف والثلاث مئة والخمسة والثلاثين يوماً » (١٢ : ١١ - ١٢). ليس واضحاً سبب إيراد ميعادَيْن مختلفَيْن هنا ، ولكن قد يكون الباحث الألماني ك. مارتي محقاً حين يعتبر أن الميعاد الثاني هو إضافة متأخرة وعبارة عن « تذكار يشهد على القنوط و ، في الوقت ذاته ، على الايمان الراسخ في زمن المكابيين ، وهذان الأمران كانا يدفعان أولئك الورعين الى تحديد مواعيد قريبة لحلول الخلاص ، ومن ثم إلى تمديد تلك المواعيد أكثر من مرة »(٥٦).

بالنسبة للميعاد الأول (١٢٩٠ يوماً)، توصل نقاد التوراة منذ زمن الى تفسير لكيفية حصول المؤلف على هذا الرقم . ف ١٢٩٠ يوماً تساوي ، بموجب

---

(٥٦) انظر : Marti K. Das buch daniel. Tubingen – Leipzig 1910, S.92.

التقويم اليهودي ثلاث سنوات ونصف وهذا نصف « السبع سنوات »، وهذا رقم يكن له المؤلف شعوراً خاصاً ، حيث كان العديد من الشعوب يضفي على هذا الرقم مغزىً غيبياً : لقد أعلن النبي إرميا قبل ذلك بثلاثة قرون وعن لسان يهوه أن العبرانيين سيمكثون في الأسر البابلي سبعين سنة ، أي عشر « سبعات »: « هكذا قال يهوه . اني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم الى هذا الموضع » (إر ٢٩ : ١٠). ويبدو أن هذا الرقم (٧٠) هو الذي أوحى لمؤلف كتاب دانيال بحساباته للمواعيد : « أنا دانيال فهمت من الكتب عدد السنين التي كانت عنها كلمة يهوه الى إرميا النبي لكمالة سبعين سنة على خراب أورشليم ». بعد ذلك يتوجه دانيال الى الإله بصلاة طويلة (معظم الباحثين يعتبرها إضافة متأخرة)، ومن ثم يأتي الملاك جبرائيل و « يُفهِم » دانيال أن السبعين سنة الواردة في كتاب إرميا يجب فهمها كسبعين « أسبوعاً » (٤٩٠ عاماً): « سبعون أسبوعاً قُضيَت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الاثم وليؤتى بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين . فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها الى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون اسبوعاً يعود ويبنى سوق وخليج في ضيق الأزمنة . وبعد اثنين وستين اسبوعاً يُقطَع المسيح وليس له شعب رئيس آتٍ يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارةٍ والى النهاية حرب وخربٌ قضي بها . ويثبت عهداً مع كثيرين في أسبوع واحد وفي وسط الاسبوع يبطل الذبيحة والتقدمة وعلى جناح الأرجاس مخربٌ حتى يتمّ ويُصَب المقضيُّ على المِخرَّب » (الاصحاح ٩).

ليس صدفة أن نورد هنا كلام جبرائيل كاملاً تقريباً . فاللاهوت المسيحي يقترح رؤية تنبؤ واضح ، لا جدال حوله ، في هذا المقطع من كتاب دانيال ، بشأن قدوم يسوع المسيح. فقد كتب أحد لاهوتي الكنيسة الروسية للروم الأرثوذكسي إ. سولوفيوف : « ان الأحداث التي يتم التنبؤ بها في كتاب دانيال هي على نحو يمكنه أن يكون ملائماً للمسيح المخلِّص وحده ولزمانه فقط . . . فقد شاء الله ، من خلال النبي دانيال ، أن ينبئنا ليس فقط بالحلول الفعلي للخلاص المسيحي ، بل وبميعاد الزمن الذي يجب أن يأتي فيه هذا الخلاص ويكتمل ».

http://www.al-maktabeh.com

في الواقع ، لم يكن مؤلف كتاب دانيال ينوي التنبؤ بالمسيح ، وهذا طبيعي . فلنحاول أن نفهم هذا المقطع من كتاب دانيال ، لكي نستوعب مغزاه الحقيقي .

من الكتاب نعرف أن مؤلفه قد « فَهِم من الكتب عدد السنين التي كانت عنها كلمة يهوه الى إرميا النبي »، فما هي تلك الكتب التي كان الناس يقرؤونها لمعرفة أسرار المستقبل الذي ينتظر شعبهم ؟ بين تلك الكتب يرد ذكر كتاب إرميا . إنها واقعة هامة ! يمكننا ألا نشك في أن مؤلف الكتاب كان يتعامل مع كتب أنبياء يهوه التي كان قد تم الاعتراف بها آنذاك كأسفار مقدسة قانونية وكلام إلهي ، أي نفس تلك الكتب التي أصبحت فيما بعد أحد الأجزاء المكونة للعهد القديم . لكن قانون العهد القديم أُقِرَّ وأُغلِق ليس قبل القرن الثالث قبل الميلاد (برهان آخر على المنشأ المتأخر لكتاب دانيال !).

فاذاً ، بعد أن اكتشف مؤلف كتاب دانيال النبوءة المتعلقة بالسبعين سنة في كتاب إرميا ، قرر أن يفسرها على طريقته الخاصة . لدى إرميا كلامٌ واضح تماماً : « عند تمام سبعين سنة »، أي أنه كان يعتبر سنة سبي العبرانيين الى بابل على يد نبوخذنصر بدايةً لفترة السبعين سنة ، وهذا ماكان يفهمه جيداً ـ على ما يبدو ـ مؤلف كتاب دانيال . ولكنه أيضاً كان يعرف تاريخاً آخر ، هو عام ٥٣٨ ، معرفة جيدة ، فراح « يفكر » في الأمر ولاحظ أن النبي إرميا قد أخطأ (في الواقع مكث اليهوذيون في الأسر البابلي ليس ٧٠ سنة بل ٤٨ ، أو لنقل ٤٩ ، فمن المستبعد أن المؤلف كان يعنى بالدقة عناية كبيرة)، وهنا لمعت في ذهنه الفكرة : ٤٩ تساوي سبعة « أسابيع » من السنوات ، ولذا ربما كانت نبوءة إرميا تعني بالسنوات أسابيع السنوات ، أي ٤٩٠ سنة ـ تلك هي المدة التي تحددت لمعاناة اسرائيل تحت ظلم الوثنيين حتى تكفر بالآلام عن ذنوبها وتستحق رحمة وغفران يهوه . سبعون أسبوعاً ، اذاً . لكن من أي عام يبدأ العد ؟ ماهو التاريخ الذي اتخذه مؤلف كتاب دانيال بمثابة بداية الحساب ؟ لا شك أنه نفس التاريخ الذي لدى إرميا ، تاريخ بداية الأسر .

في مثل هذه الحالة يصبح واضحاً الى من يشير الى المؤلف ، حين يضع في فم الملاك جبرائيل عبارة : « الى المسيح الرئيس سبعة أسابيع »، فهو يقصد زربابل

الذي نصبه كورش رئيساً على العبرانيين العائدين الى يهوذا . لقد أحيط هذا الشخص ، الذي كان سليل الملك القديم داؤود ، بهالة من القدسية الكبيرة والعظمة في التقليد الديني عموماً . ففي كتاب زكريا ، يطلق عليه بالذات اسم « كاهن على كرسيه » (٦ : ١٣) و « مسيح ».

بعد أن يصف المؤلف ، بواسطة المجازات ، المرحلة الأولى وهي سبعة أسابيع ، ينتقل الى الثانية فيحددها ب ٦٢ اسبوعاً ، لأنه ـ بلا شك ـ أراد أن يُبرِز الاسبوع الأخير بشكل خاص .

في الفترة الثانية ، سيعمل اليهوذيون العائدون الى وطنهم على بناء وترميم عاصمتهم ، ولكن « في ضيق الأزمنة »، وفي نهاية هذه الفترة « بعد اثنين وستين اسبوعاً يُقطَع المسيح » (٩ : ٢٦). عن أي « مسيح » يجري الحديث هنا ؟ إن العبارة التالية (٢٧ : ٩) تعطينا المفتاح لحل اللغز ، حيث تصف لنا الاسبوع الأخير . ومن هذا الوصف نعلم أنه في منتصف هذا الأسبوع السبعين ستتوقف تقدمة الذبائح ليهوه وسوف يُنصَب « رجس المخرب » في مقدس الاله ، وهذا ماكان المؤلف قد ذكره سابقاً في رؤيا الاصحاح السابع (٧ : ٢٥) وفي الاصحاح الثامن (٨ : ١١ — ١٤) وعاد فذكره بنفس الكلمات تقريباً في الاصحاح الحادي عشر . ويبدو أن هذا الأمر كان مرتبطاً بحدثٍ ما اهتزت له خصوصاً المشاعر الدينية للمؤلف . وقد أصبحنا نعرف الآن أي حدث كان ذلك : نصب تمثال ومذبح زيوس ، حيث كان يتم تقريب التضحيات ، من حيوانات غير نظيفة وخنازير ، للإله الوثني ، « رجس المخرب »، كما كانت تقام الطقوس الوثنية ، بشكل عام . في وقت لاحق سوف يتذكر مؤلف كتاب المكابيين الثاني برعب كبير تلك الحادثة : « فاشتد انفجار الشر وعَظُم على الجماهير وامتلأ الهيكل عهراً وقصوفاً وأخذ الأمم يفسقون بالمأبونين ويضاجعون النساء في الدور المقدسة ويُدخِلون إليها مالا يَحِل وكان المذبح مغطى بالمحارم التي نهت الشريعة عنها » (٢ مل ٦ : ٣ — ٥).

لقد حدث ذلك ، كما نعرف ، يوم ١٥ كانون الأول من عام ١٦٨ ، وهذا التاريخ هو الذي يعتبره المؤلف منتصف الاسبوع الأخير وهذا يعني ، وفقاً للتقسيم الذي اعتمده المؤلف ، أن بداية الاسبوع الاخير ونهاية الأسبوع الثاني

http://www.al-maktabeh.com

والستين من الفترة الثانية هي عام ١٧١ (= ١٦٨ + ٣,٥). ففي هذا العام بالذات تم إعدام الكاهن عونيا الثالث بوشاية من « المرتدين عن العهد ». لا شك أن هذا هو « المسيح » الذي يهلك في العدد (٩ : ٢٧).

لكن بوسع القارىء المعاصر أن يرى هنا ، مرة أخرى ، عدم الانسجام في المواعيد . إذا كان الاسبوع الأول قد بدأ في عام ٥٣٨ وعونيا قُتِل سنة ١٧١ ، فإن ٣٦٧ عاماً تفصل بين هذين التاريخين ، بينما يساوي ٦٢ أسبوعاً مقدار ٤٣٤ عاماً ، أي بفارق زيادة قدرها ٦٧ عاماً . لكن مايبدو بدهياً للباحث المعاصر لم يكن كذلك لا بالنسبة للقارىء القديم ولا حتى بالنسبة للمؤلف ذاته ، على مايبدو ن فقد كان تسلسل الأحداث التاريخية مسألة معقدة ، حتى أن المؤرخ يوسف فلافيوس أخطأ بمقدار ٤٠ — ٥٠ سنة في حساب الفترة المنصرمة بين نهاية الأسر البابلي وتهديم أورشليم من قبل تيتوس عام ٧٠ ميلادي .

والآن يمكن أن نفهم أيضاً ماالذي تعنيه الكلمات ـ اللغز حول أنه في نهاية الاسبوع السبعين يحدث « مسح قدوس القدوسين ». ان المؤلف يكرر بكلمات جديدة ما قاله في الاصحاح الثامن السابق ، ضمن « رؤياه » حول أنه بعد أن تُسلَب الذبيحة اليومية من يهوه وبعد أن يتم تدنيس المقدس ، سيمضي زمن معين ، ومن ثم « فيتبرأ القدس ». القدس هو طبعاً معبد أورشليم وخصوصاً مذبح يهوه . في « بنتاتيك » موسى ، الذي يقتبس مؤلف كتاب دانيال تعابيره برغبة واضحة ، يسمى المذبح « قدس أقداس » وكان طقس التطهير وتقديس المذبح يتلخص بالذات في أنهم كانوا يمسحونه ب « دهن المسحة » (خر ٢٩ : ٣٦ — ٣٧ ؛ لا ٨ : ١٠ — ١١).

هكذا يتكشف لغز الأسابيع السبعين التي في كتاب دانيال .

إن مؤلف الكتاب لم يلاحظ خطأ النبي إرميا وحسب ، بل واستغله لأهدافه هو . فلا شك أنه كان يعرف الزمن الفعلي لفترة الأسر البابلي ، إنه ٤٩ عاماً ، وهو يشكل لدى المؤلف الاسبوع الأول ، ولكن مداخلة إرميا الخاطئة حول السنوات السبعين نفعت المؤلف ، حين فسرها بشكل مجازي ليحصل على أسابيعه السبعين ، التي أفاد منها في البرهان « حسابياً »، كما يقال ، على اقتراب ميعاد مملكة القديسين . لقد برز مؤلفنا هنا عارفاً بارعاً للنفوس البشرية ، اذ يمكن عدم

الشك في أن سحر الأرقام والبرهان على نحو « اثنان في اثنان يساوي أربعة » قد أثرا تأثيراً مقنعاً على القدماء بدرجة لا تقل عن تأثيرهما على معاصرينا .

لقد سار على خُطا مؤلف كتاب دانيال اللاهوتيون المسيحيون الذين وضعوا نصب أعينهم هدف البرهان على أن قدوم يسوع المسيح قد تم التنبؤ به من قبل النبي دانيال قبل خمسة قرون من وقوعه . وكان لديهم مسألة جوابها جاهز سلفاً ، ألا وهو « تواريخ » حياة المسيح . فبموجب الروايات الانجيلية ، جرت معمودية المسيح (التي يمكن اعتبارها نوعاً من « المسح ») في السنة الخامسة عشرة من عهد الامبراطور الروماني طيباريوس (لو ٣ : ١) وجرى صلبه بعد ثلاث سنوات ، في السنة التاسعة عشرة من عهد طيباريوس . وهذا يعني في تقويمنا المعاصر العامين ٢٩ و ٣٢ ميلادي . وكتاب دانيال يتنبأ بموت « الممسوح » في منتصف الأسبوع العاشر: (٦٩×٧ + ٣,٥ = ٤٨٦,٥). وبعملية حساب بسيطة (٤٨٦,٥ - ٣٢) حصل اللاهوتيون على تاريخ عام ٤٥٣ أو ٤٥٤ قبل الميلاد . أما كتاب نحميا فيُعلمْنا أنه في مثل هذا التاريخ تقريباً ، تمكن نحميا ، وهو ساقي الملك الفارسي أرتحشتا ، أن يحصل من هذا الملك - كما كتب في مذكراته - على « رسائل الى ولاة عبر النهر لكي يجيزوني حتى أصل الى يهوذا ورسالة الى آساف حارس فِردَوس الملك لكي يعطيني أخشاباً لسقف أبواب القصر الذي للبيت ولسور المدينة وللبيت الذي إدخل إليه » (نح ٢ : ٧ — ٨).

لقد حاولوا المطابقة بين « خروج الأمر لتجديد أورشليم » في العدد (٩ : ٢٥) من كتاب دانيال وبين الرسائل التي أرسلها أرتحشتا ، وذلك غير صحيح أبداً ، على الأقل ، لأنه إذا شئنا الاستناد الى مراسيم الملوك الفارسيين ، فإن أول مرسوم أصدره ليس أرتحشتا ، بل كورش وقبل ذلك بحوالي قرن تقريباً (عام ٥٣٨).

ثم جرى تفسير عبارة « ولمسح قدوس القدوسين » (دا ٩ : ٢٤) وكأنها نبوءة حول معمودية المسيح .

هل رأى مؤلف الكتاب في أحلامه وتهيؤاته كل تلك الرؤى التي يصفها لنا ؟ إن ذلك لمستبعد . فكل الكتاب موسوم بطابع العمل المدروس بإتقان وبمنهجية ، ولا شك أن مؤلفه قد كتبه وفقاً لخطة مسبقة ؛ لأن في نسيج الكتاب ثمة منطق

http://www.al-maktabeh.com

داخلي ، وأجزاؤه التالية تكمل الأجزاء السابقة . وليس صدفة أن القسم السردي سبق القسم الرؤيوي . فمن القسم الأول يمكن للقارىء أن يعرف ـ من جهة ـ كيف عاقب يهوه الملوك العظام في الأزمنة السابقة عقاباً مريراً ، لأنهم جُنوا من كبريائهم وتجرأوا على تشبيه أنفسهم بالاله وتجاسروا على تدنيس مذبح يهوه أو تدنيس أوانيه (هذا طبعاً تلميح واضح الى أنطيوخس الرابع ، ومن جهة أخرى ، كيف كان الاله ينقذ الناس المخلصين له من أفظع المحن . وربما كان الهدف الرئيسي للمؤلف هو إقناع القارىء كم كان دانيال تقياً وحكيماً وكم كانت موهبته النبوية عظيمة . بعد هذا ، كان من السهل على القارىء أن يؤمن بالرؤى الواردة في القسم الثاني والمتعلقة بالخلاص القريب ، السحري .

إن المؤلف الحقيقي لكتاب دانيال ، على غرار إرميا ، الذي سبقه بثلاثمائة عام ونيف ، والكثير من الأنبياء قبله وبعده ، كان أثناء تأليفه ل « رؤاه » حول المستقبل يسترشد ليس بالوحي الديني بتاتاً ، بل بالتقدير السليم للموقف وبالمهام التي يمليها عليه هذا الموقف . فالمرسوم الديني للملك أنطيوخس الرابع وسياسة التطبيع الهيليني التي انتهجها « المرتدون » اليهوذيون شكلا تهديداً لوجود ديانة يهوه ذاتها . لقد كان « كثيرون من اسرائيل » يرتدون عن دين الآباء (١ مك ٢ : ١٦) وكان عدد أكبر من اليهوذيين متردداً ومستعداً ـ كما تكون الأحوال في فترات كهذه ـ لعقد مساومة مع الضمير .

كيف كان يجب أن يتصرف في مثل هذه الظروف أناس مثل الشخص الذي ألّف كتاب دانيال ؟ لقد كانوا ، بالطبع ، يرفعون الى الاله ابتهالات حارة يطلبون فيها الخلاص ويؤمنون أن الاله لن يسمح بالاستئصال النهائي لديانته وسوف يتدخل ويجترح معجزة . لكن الناس الذين كانوا أقل بساطة من هؤلاء ولا يعتمدون على المعجزات (ومن ضمنهم ، على الأرجح ، مؤلفنا)، لم يفقدوا الأمل هم أيضاً . فالموقف الذي نشأ حول سوريا السلوقية (وقد رأينا الى أية درجة درس مؤلفنا ذلك الموقف بانتباه) كان معقداً بما يكفي وبوسعه أن يتغير كل يوم : فقد تتمكن مصر أخيراً من استجماع قواها وتحطيم عدوها . وقد تتدخل روما التي كانت في تلك السنوات تنتهج سياسة احتلالية نشطة في حوض البحر الأبيض المتوسط . كما كان من الممكن توقع تغيرات داخلية ما في المملكة السورية ، فكم

جرى فيها من متغيرات ؟ إذاً ، فالمهم كان الصبر وإطالة الزمن بأية سبل كانت وتوطيد الصمود ورفع المعنويات لدى الذين لم يتخلوا في هذه المحنة القاسية عن مذهب الآباء وتشجيعهم وزرع الأمل بخلاص قريب في نفوسهم وحث الايمان فيهم بأنهم سيلقون الثواب اللائق عن إخلاصهم ليهوه وآلامهم العظيمة . تلك كانت المهمة التي تقف أمام مؤلف كتاب دانيال ، وقد صرنا نعرف الآن كيف نفذها . لقد ألف كتاباً دعائياً حيوياً وأقدم على « غشٍّ وَرِع » (عن كامل وعيه طبعاً)، فنسب الكتاب الى النبي القديم دانيال . ففي الأوساط التي كان ينتمي اليها المؤلف كانت هذه الطريقة معروفة ومجربة منذ زمن . فبهذه الطريقة ذاتها نُسِبتْ مجموعة من الأمثال الى الملك القديم سليمان ، قبل قرن واحد فقط ، كما نُسِبتْ المزامير الكثيرة التي ألفها أناس مختلفون وفي أزمنة مختلفة الى الملك داوُود . طبعاً ، كان يمكن أن ينشأ لدى قارىء ذلك الزمان سؤال استغراب : لماذا لم يسمع أحد أي شيء حول هذا الكتاب الذي كُتِب قبل ما يقارب الأربعة قرون ؟ لقد احتاط المؤلف وحشر في كتابه تفسيراً : بعد أن سجل دانيال رؤاه وتجلياته ، أمره يهوه بإخفاء الكتاب « الى وقت النهاية ». والآن ظهر الكتاب ، مما يشكل دليلاً آخر على أن نهاية الآلام قد اقتربت .

ولكن إذا صحَّ أن كتاب دانيال هو ، من أوله الى آخره ، « تلفيقة »، فان ذلك لا يعني أن المؤلف الحقيقي قد اختلقه كاملاً « من الذهن »، بل على العكس من ذلك تماماً . فالى حدٍ ما يمكن القول أن المؤلف قد كشف عن قليل من الاستقلالية الابداعية ، حيث اكتشف نقاد التوراة أن أكثرية مواضيع وصور وأفكار الكتاب مقتبسة بوضوح من مصادر مختلفة ، وقبل كل شيء ، طبعاً ، من مؤلفات العهد القديم ، كما وُجِدت فيه ـ إضافة الى ذلك ـ اقتباسات من الأساطير الشعبية والحكايات الدارجة لدى شعوب مختلفة .

لنبدأ من صورة دانيال . يمكن أن نفهم كيف توصل المؤلف الى فكرة جعْل يهوذي تقي وحكيم ، من أولئك الذين عاشوا في بابل أيام الأسر ، بطلاً رئيسياً للكتاب . لقد كان مهماً بالنسبة له أن يضع بطله في موقف شبيه بذلك الموقف الذي وُجِد فيه اليهود المؤمنون في عهد أنطيوخس ابيفان : الملك الوثني يقرر استئصال ديانة يهوه ومتقوا الاله يتعرضون لآلام عظيمة ، لكنهم لا يخونون مذهب

http://www.al-maktabeh.com

الآباء، وهكذا . ولكن ديانة يهوه لم تتعرض ، على حد ماهو معروف ، لملاحقة مماثلة في فلسطين نفسها قبل مجيء أنطيوخس إيبيفان ، مما جعل المؤلف يرى أن الموقف أيام الأسر البابلي هو الأكثر ملاءمة . صحيح أنه لاتوجد معلومات حول ملاحقة دين العبرانيين أثناء وجودهم في بابل ، لكن ذلك لم يصد مؤلفنا ، حيث كان بوسعه هنا تشغيل خياله . فعلى غرار المرسوم الذي كرس فيه أنطيوخس إيبيفان عبادة زيوس الأولمبي والملك نفسه ، بمثابة دين للدولة ، اخترع المؤلف مرسومَيْن نسب أحدهما الى نبوخذنصر (إصحاح ٣) والآخر الى داريوش الأول (اصحاح ٦). هذا في حين لا تأتي المصادر التاريخية على أي ذكر لهذين المرسومين . بالمقابل ، نجد أن صور التصفيات الوحشية للمؤمنين اليهود (التي كان بوسع المؤلف نفسه رؤيتها في عهد أنطيوخس !) قد أوحت له بالرواية التي تضمنها الكتاب حول أن دانيال وأصدقاءه الثلاثة رفضوا الطعام غير النظيف ، رغم القسر ، وكيف قذف بهم الى تنور ملتهب لقاء اخلاصهم ليهوه ورفضهم السجود للصنم ، وكيف أُلقي بدانيال الى حفرة ملأى بالأسود ، الخ .

كما يمكن أن نعتبر أمراً مُثبَتاً من أين أتى المؤلف بصورة واسم دانيال . فبعد أن قرر نسْب بطله الى عصر الأسر البابلي ، كان يجب عليه أن يلجأ الى الأدبيات التي يعرفها حول ذلك العصر ، وهاهو قد وجد في كتابيْ عزرا ونحميا قوائم كاملة بأسماء الناس الذين عادوا من بابل الى الوطن . ويوجد بينهم أسماء : دانيال (عز ٨ : ٢) وعزريا (نح ١٠ : ٢) وعانان (نح ١٠ : ٢٦) وميشائيل (نح ٨ : ٤). نحن لانعرف لماذا اختار المؤلف الأسماء الثلاثة الأخيرة ، لكن اسم دانيال كان يجب أن يلفت انتباهه خصوصاً .

فكما ذكرنا سابقاً ، وُجِدتْ بين الكتابات المسمارية ، التي اكتُشِفت أثناء حفريات أوغاريت ، ملحمة شعرية كاملة مكرسة لبطل أسطوري هو دانيال الذي يبدو فيها تجسيداً للحكمة والعدالة : « انه يجلس تحت أشجار بديعة ويحامي عن قضية الأرملة ويعيد حقوق اليتيم اليه ». يبدو أن دائرة من الأساطير والحكايات كانت قد نشأت حول هذا الاسم لدى العبرانيين . ففي إحدى النبوءات يذكر حزقيال اسم دانيال الى جانب اسمين آخرين لاثنين من الأنقياء والحكماء وهما أيوب ونوح (حز ١٤ : ٤ ، ٢٠)، علماً أن السياق يشير الى كون حزقيال يسمي

هذا الاسم قاصداً به شخصاً عاش في الأزمنة التي عاش فيها أيوب ونوح ، في الزمن الغابر القديم ، وكان معروفاً مثلهما في التقليد الشعبي ، لكنه ليس من معاصري حزقيال . وقد لا يكون صدفة أن دانيال ، في الاصحاح ١٣ ، ضمن سياق الحديث عن سوسنة والشيخين ، يبرز على هيئة القاضي الحكيم تحديداً .

ومن الواضح أنه قد ارتبطت باسم دانيال ، لدى العبرانيين ، أساطير حول رجل قديم وحكيم جداً وتقي جداً ، فقرر مؤلف كتاب دانيال أن يستخدم هذه التداعيات . أما القصة المدهشة حول كيف أن الملك نبوخذنصر عُزِل عن البشر و « أكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظفاره مثل الطيور » (٤ : ٣٠) فمن أين أخذها مؤلف كتاب دانيال ؟ إن القصة بمجملها خيالية ، اذ لايوجد أي ذكرٍ لجنون مؤقت للملك نبوخذنصر ، لا عند المؤرخين القدامى ولا في الكتابات المسمارية البابلية . لكن لدى المؤرخ اليوناني أبيدين ، الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ، هنالك نبأ حول أن المؤرخ اليوناني ميغا سفين الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، كان قد سمع من البابليين الأسطورة التالية : ذات مرة نزلت على الملك نبوخذنصر روح إله ما فصاح بصوتٍ عالٍ : « إيه ! يا أهل بابل ، اني أنا نبوخذنصر أقول لكم أن الكارثة القادمة قريبة . . . سوف يأتي رجل فارسي ويأسر آلهتكم ويجلب عليكم العبودية . . . آه لو ابتلعته خريبدا أو البحر أو لو أنه ذهب الى الصحراء حيث لاتوجد مدن ولا يمشي الناس وحيث الوحوش البرية تبحث عن طعام والطيور تطير . . . . » . وبعد أن لفظ هذه الكلمات ، اختفى نبوخذنصر عن الأبصار .

يتبين من هذه الحكاية أن اسم نبوخذنصر كان قد أحيط منذ القرنين الرابع والثالث بضباب الأساطير والحكايات وأنه نسبت إليه موهبة التنبؤ واستقراء المستقبل ، كما وُجِدت أسطورة حول اختفائه الغامض المحاط بالألغاز . ربما كان اليهودي مؤلف كتاب دانيال على علم بتلك الأسطورة البابلية التي أوحت له بفكرة تأليف قصته التي أراد بها ، وفقاً لخطته العامة ، أن يبين مرة أخرى تفاهة وعجز السلاطين الأرضيين المستكبرين أمام يهوه وأن يمجد ، في الوقت ذاته ، القدرة النبوية لدانيال . ففي حكايته جرى قلب كل شيء رأساً على عقب ، حيث خص المؤلف بموهبة التنبؤ دانيال وليس نبوخذنصر ، وحيث كان الروح الذي نزل على

http://www.al-maktabeh.com

النبي ليس روح « إله ما »، بل روح يهوه ذاته ، كما أن المؤلف جعل نبوخذنصر يذوق المعاناة التي تمناها هذا الملك ، بموجب الأسطورة البابلية ، لعدوه الفارسي .

من المحتمل جداً أن تكون القصة حول الجنون الذي أنزله يهوه بنبوخذنصر تنطوي على تلميح أكثر وضوحاً الى أنطيوخس الرابع مباشرة . فقد اتخذ هذا الملك لنفسه ، كما هو معروف ، اسم إيبيفان (الإله الجديد). يمكننا الآن فقط أن نتصور كم كان ذلك يغيظ اليهوذيين الورعين وغيرهم أيضاً . فقد نقل بوليبوس أن اليونانيين أنفسهم كانوا يسخرون من الملك المغرور والمهبول ، ويسمونه ـ على السجع ـ بيبيان ، أي « المجنون ».

كان مؤلف كتاب دانيال يعزي الذين يعانون ويلاحَقون من أجل ديانة يهوه ، فتنبأ بأن الاله « في آخر الأيام » سيسلم المُلك والسلطة في كل المعمورة « لشعب قديسي العلي . ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون » (٧ : ٢٧). نحن نعرف أن آفاقاً مستقبلية باهرة كهذه حول مستقبل اسرائيل كانت تُرسَم أمام الناس منذ أيام الأنبياء القدامى ، ولكننا في كتاب دانيال نلتقي لأول مرة بالفكرة حول أن « مملكة القديسين » سوف تضم أيضاً أولئك الذين لقوا الموت من أجل إيمانهم بيهوه : « الفاهمون . . . والذين ردوا كثيرين الى البر » (١٢ : ٣). ربما كان مؤلف كتاب دانيال أول لاهوتي يهوذي عبّر كتابياً في الأدب الديني اليهودي عن هذه الفكرة ، فكرة قيامة الموتى والثواب الأبدي ، علماً أنه من المثير للاهتمام أن هذه الفكرة لم تكن تنطوي بعد على مبدأ القيامة الجماعية الشاملة : « كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء الى الحيوة الأبدية وهؤلاء الى العار للازدراء الأبدي » (١٢ : ٢). من الواضح أن ذلك كان طوراً مبكراً في تطور فكرة قيامة الموتى . ولا شك أن هذا الطور قد عكس ، وفي صورة غيبية خاصة ، ذلك الاستقطاب الذي كان قائماً في الحياة الدينية للشعب اليهوذي آنذاك ، كما عكس كل قسوة الصراع بين « متقي يهوه » و « المرتدين عن العهد » أنصار الهيلينية .

على أية حال ، كانت فكرة قيامة الموتى مرحلة هامة في تطور التصورات الدينية لليهودية ، لكنها كانت ، قبل كل شيء ، مساهمة جديدة وهامة في تبرير يهوه .

اذا كان الوعد ب « المملكة والسلطان » الأبديين ل « شعب القديسين » («الذي عانى لكنه صمد في دين يهوه) هو تبرير جديد ليهوه أمام شعب اسرائيل ككل ، فإن التعليم حول قيامة الموتى والثواب الأبدي بعد الموت ، حسب الأعمال ، كان تبريراً للإله أمام كل يهوذي معذَّب من أجل الايمان ، فيهوه سيكافىء التقي والكافر حسب أعمالهما ، وان كان بعد الموت . فالتقي سيعيش في « مملكة القديسين » بعد الموت . لنأخذ هنا بالاعتبار أن « مملكة القديسين » المقبلة لم تكن تتراءى للناس في مكان سماوي ما ، بل على الأرض ، تحت السماوات (٧ : ٢٧). ويجب الافتراض أن أوائل الدعاة لفكرة قيامة الموتى ومستمعيهم كانوا يتصورون هذه القيامة « بشكل واقعي »: الموتى يقومون من « تراب الأرض » بشكلهم الأرضي ، الجسدي .

يمكن القول أن كتاب دانيال كان آخر كلمة في فلسفة التبرير ضمن العهد القديم . أما الكلمة التالية في تبرير الإله فجاءت بها المسيحية .

* * *

كما هو معروف ، عاش آخر الأنبياء الذين دخلت كتبهم في العهد القديم تحت أسمائهم الصريحة ، أي النبيان حجي وزكريا في القرن الخامس قبل الميلاد . وبعد قرنين من الزمان ، اي في القرنين الثالث والثاني ، تكون في اليهودية اعتقاد محدد تماماً بأن زمن الأنبياء والمعجزات قد مضى . فهاهو مؤلف المزمور ٧٤ ، الذي عاش في ذلك الزمان يؤكد بمرارة : « آياتنا لانرى . لانبيٌّ بعد . ولا بيننا من يعرف حتى متى ». وفي تلك الفترة بالذات (ليس قبل القرن الثالث على كل الأحوال)، قام اللاهوتيون اليهود بإجراء « تطهير » فريد من نوعه ، فانتقوا من بين المؤلفات النبوية القديمة التي تجمعت خلال قرون ، تلك التي كانت ـ برايهم ـ تستحق ذلك أكثر من غيرها ، أي التي كانت تنسجم اكثر من غيرها مع الدوغماالأرثوذكسية التي كانت قد توطدت الى حينه . وهكذا ، كان ما يُسمى بـ « قانون الأنبياء » (أي طاقم الكتب النبوية التي تم اعتبارها أسفاراً مقدسة) قد تكون هو أيضاً ، بشكل أساسي ، في أوائل القرن الثاني . لكن ذلك لا يعني أبداً أن تأليف « النبوءات » قد انقطع منذ ذلك الزمان ، بل على العكس ، على الأرجح .

http://www.al-maktabeh.com

بدءاً من القرن الثاني قبل الميلاد انتشر بين اليهوذيين ، على نطاق واسع ، نوع خصوصي من المؤلفات الدينية ، يسميه دارسو التوراة المعاصرون « Pseudoepigraphe » أي « التوقيع الكاذب »، حيث كان مؤلفو تلك الأعمال يستخدمون ، بطيبة خاطر ، الأسلوب الأدبي للأنبياء القدامى المناضلين من أجل ديانة يهوه (الذين كانت أسماؤهم قد أحيطت بهالة من القدسية)، حيث كان اعلان الشخص لنفسه نبياً في ذلك الزمان لم يعد عملاً خالياً من الخطورة ، باعتبار أن اعلاناً كهذا كان من شأنه أن يستدعي الملاحقة من قبل الدوائر اللاهوتية الرسمية . فكان المؤلف الحقيقي للعمل الجديد يفضل نسب مؤلفاته الى أحد «رجال الله » القدامى الذين وُجِدوا فعلاً : ابراهيم أو موسى أو أيوب ، الخ . وربما كان كتاب دانيال الذي درسناه هنا واحداً من أوائل وألمع نماذج تلك الأعمال الـ« pseudographe » ، لكنه الكتاب الوحيد الذي يمكن القول بانه قد « حالفه الحظ »، حيث أدخله اللاهوتيون اليهود لاحقاً في قوام « قانون العهد القديم »، ولأن قانون الأنبياء كان قد أُغلِق ، تم إدراجه في قانون الأسفار ، والكنيسة المسيحية فقط نقلته الى قانون الأنبياء .

لقد فُقِد الكثير من « التوقيعات الكاذبة » الى غير رجعة ، وما نعرف عنها هو ذكرها في الأدبيات المتأخرة ، وفقط قليل منها هو الذي وصلنا كاملاً أو في مقاطع ، ويسمى بالـ« apokryphos » ، أي « السري ». ان أكثرية هذه الأعمال مؤلَّفة على شكل « رؤى » يتلقاها من الإله أحد مختاريه . ومن هنا حصل هذا النوع من الأدبيات على تسمية « الرؤيوي »: « المختار » ـ وهو عادةً أحد « الآباء » أو الأنبياء القدامى ـ يسمع من الإله أو من أحد ملائكته أسرار الماضي منذ « بدء الأزمنة » وأسرار المستقبل حتى « آخر الأيام ». وقيمة هذا الأدب تكمن في أنه يسمح بمتابعة بعض الخصوصيات في تطور اليهودية خلال آخر قرنين قبل الميلاد ، أي قبل ظهور المسيحية .

في هذين القرنين كانت تتوطد في ديانة يهوه فكرة المسؤولية الشخصية للانسان امام الاله على سلوكه التقي أو غير التقي على الأرض ، وهي فكرة كان قد عبر عنها في حينه إرميا . لكن إذا كان سؤال إرميا المطروح على الإله : « لماذا تنجح طريق الأشرار . اطمأنَّ كل الغادرين غدراً » (١٢ : ١) قد بقي بلا

جواب ، واذا كان كتاب دانيال يتنبأ بالقيامة للبعض فقط (ل « الكثيرين »)، فان مؤلفي « الرؤى » اللاحقة في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد يلحون بحزم على حتمية الثواب الفردي والعادل ، ليس فقط لأجل « الكثيرين »، بل ولأجل الجميع ، كلاً حسب أعماله ، لكن بعد الموت .

في هذا الصدد ، كان يزداد بروز العنصر الاسخاتولوجي في الأدبيات الرؤيوية أكثر فأكثر ، حيث يتم تصوير مفصل أكثر فأكثر وساطع أكثر فأكثر للوحات « آخر الأيام » ولقيامة الموتى والدينونة وللرخاء اللاحق للأتقياء في المملكة الإلهية وللآلام المرعبة للخاطئين في نار جهنم .

كما دخلت ، في الأدب الرؤيوي ، سمات جديدة على صورة « الممسوح » (الرسول): اذا كان الممسوح في بعض الرؤى يبدو ، كما في السابق ملكاً دنيوياً ، محارباً ، من نسل داؤود ، فإن ما يسمى بكتاب أخنوخ أو أنوخ (القرن الأول قبل الميلاد) يصوره على نحو آخر . فرغم تسميته ب « ابن آدم »، أي انساناً ، لكنه شبيه بالملائكة من حيث المظهر ويجلس الى جانب « قديم الأيام » أي الإله . . . واسم هذا الممسوح كان محدداً قبل خلق الشمس والنجوم وقبل خلق السماوات وقد اختاره الاله وأخفاه قبل ظهور العالم وعند انتهاء الزمان سيكشفه الإله للبشر ويجلسه على العرش لكي يدين كل الخليقة ، لأنه لأجل ذلك قد خُلق أصلاً . يمكننا أن نجد في هذه الصورة عدداً من السمات التي تقربها من الرسول المسيحي يسوع المسيح ، ولكن كانت تنقصها الفكرة الرئيسية (التي أصبحت أساساً لنشوء المسيحية)، فكرة الرسالة العظيمة المحددة لهذا الرسول الكامنة في تقديمه لنفسه ضحية في سبيل التكفير عن خطايا البشر وعن كل البشرية الخاطئة ، ومن أجل خلاص كل المؤمنين . هذه السمة الأخيرة أدخلتها على صورة « الممسوح » الديانة المسيحية .

كتب إنغلس يقول : « إن أول فكرة ثورية . . . أساسية في المسيحية كانت تكمن ، بالنسبة للمؤمنين ، في أن تضحية عظيمة طوعية واحدة ، قدمها وسيط ، قد كفرت مرة والى الأبد عن آثام كل الأزمنة وكل البشر »(٥٧).

هذه الفكرة لم تكن معروفة في اليهودية .

---

(٥٧) ك. ماركس ف. إنغلس المؤلفات المجلد٢٢ ص٤٧٧ .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

نبوءات العهد الجديد

« الرؤيا »

كان الاعتقاد بأن الخطيئة التي تُرتكَب أمام الإله يجب أن يُكفَّر عنها بتقدمة استرحامية اعتقاداً مميزاً لكل الديانات القديمة . ولم يكن بوسع أي انسان فرد إلا أن يفكر بأنه ليس « بلا خطيئة ». فأيوب التقي كان مضطراً للاتفاق مع مجادليه على أنه ليس في وسع « مولود المرأة » (٢٥ : ٤) أن يكون نقياً تماماً أمام الإله . لكن لنتذكر أن أيوب القى بالمسؤولية عن ذلك على خالق الناس : « أحسنٌ عندك أن تظلم أن ترذل عمل يديك » (١٠ : ٣)، فالإله نفسه مذنب في عدم كمال الناس ، فهو الذي خلقهم . واذا كان الإله لم يبرر نفسه أمام أيوب ، فقد تم تبريره في المسيحية ، لابل انه برر نفسه بنفسه حين قدم ابنه « الوحيد » ضحيةَ غفرانٍ عظيمة لأجل البشرية التي خلقها « غير نقية » وخاطئة . وقد افتدى الاله بهذه التضحية خطايا الناس ، لكنه كفر أيضاً عن ذنبه هو . افتدى الخطايا . . . . أمام من ؟ أمام نفسه ! هل هذا اختلال في المنطق ؟ طبعاً ! لكن إنغلس كان قد لاحظ أن « المسيحية »، من خلال تضحية الموت التي قدمها مؤسسها ، خلقتْ شكلاً مفهوماً للخلاص الداخلي من العالم الفاسد وللعزاء الذي كان الجميع يطمحون إليه بتوق »(٥٨).

إن فعل التبرير الذاتي الفريد الذي مارسه الإله في المسيحية قد أنهى ـ من

(٥٨) ك. ماركس ف. إنغلس المؤلفات المجلد١٩ ص٣١٤ .

حيث الجوهر ـ عملية تبرير الإله . فالإله فتح أمام البشرية التوّاقة « مخرجاً » و « طريقاً الى الخلاص ». ففي ظل الظروف التي وُلدت فيها المسيحية لم يكن هنالك من مخرج آخر . فالمسيحية ، كما يقول أنغلس « أخذت على محمل الجد الثواب والعقاب في الدنيا الآخرة وخلقت السماء وجهنم ، كما تم العثور على مخرج يقود التواقين والمظلومين من عذابنا الأرضي الى الجنة الأبدية »(٥٩) .

كان أوائل المبشرين بالدين الجديد ينبئون من آمن بيسوع حول هذه الآفاق المعزية على الشكل المعتاد لدى القدماء وهو شكل النبوءات ، فظهر لدى المسيحية أنبياؤها .

من الأناجيل نستطيع أن نعرف عن المؤسس الأسطوري للديانة الجديدة (يسوع المسيح) أنه « كان عندهم مثل نبي » (عند الشعب) (مت ١٤ : ٥)، وكان الناس يعتبرونه « انساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب » (لو ٢٤ : ١٠). لابل كان البعض يرون في يسوع النبي إيليا (أو إرميا) وقد قام من بين الأموات (مت ١٦ : ١٤). وبموجب الأناجيل فان يسوع يتكلم بشكل دائم أمام الشعب مطلقاً نبوءاته حول الحلول القريب لنهاية الزمن وقيام مملكة الإله ، مستنداً في ذلك الى كلام الأنبياء القدامى وموردا ، من حين الى حين ، المقاطع المناسبة من الكتب النبوية وخاصة كتابيْ إشعيا ودانيال . لكنه مامن مكان في مصادر العهد الجديد يشير الى أن يسوع قد كتب نبوءاته . بالمقابل ، فإن نبياً آخر من أنبياء المسيحية المبكرة فعل ذلك ، وهو مؤلف « رؤيا يوحنا »، الكتاب الوارد في نهاية « الكتاب المقدس ».

في ١٩ تشرين الثاني من عام ٦٤ ميلادي ، في العام العاشر من حكم الامبراطور نيرون ، اندلع حريق في روما ، واتخذ على الفور أبعاداً مرعبة واستمر سبعة أيام وسبع ليال ملتهماً الأحياء المكتظة بالسكان ، قصور الأغنياء وأكواخ الفقراء ، المعابد والمباني العامة . بين أربع عشر حياً في روما تدمرت نهائياً ثلاثة ، ولم يبق من سبعة أحياء أخرى سوى جدران سوداء ، ومات كثير من البشر في هذا الحريق ولكن أناساً أكثر فقدوا مساكنهم وممتلكاتهم . واستفاد من الحريق

(٥٩) المرجع السابق المجلد٢٢ ص٤٨٣ .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

السارقون . فهاهي شهادة المؤرخ اليوناني تاكيتوس (تاسيتوس) : « كان هنالك ناس يرمون ، على المكشوف ، المشاعل الملتهبة الى البيوت التي لم تصلها النار بعد ، صائحين أنهم ينفذون أوامر ، وذلك إما بقصد ممارسة النهب دون عوائق وإما لأنهم كانوا بالفعل خاضعين لإرادة شخص ما »(٦٠). وانتشرت بين الأهالي شائعات قوية حول أن المدينة قد أُحرِقت فعلاً بأمر من نيرون ذاته ، الذي كان يحلم منذ زمن بالتلذذ بمثل تلك الفرجة العظيمة والمريعة ، وأنه في الوقت الذي كانت فيه روما تتأور في لهيب الحريق ، كان نيرون واقفاً على شرفة قصره الريفي ويقرأ أشعار هوميروس حول حريق طروادة .

من الصعب القول أي جزء من الحقيقة كان يكمن في تلك الشائعات . فمعاصر الحريق بلينيوس والمؤرخان الرومانيان اللاحقان سويتونيوس و ديون كاسيوس(٦١) يعتبرون مسؤولية نيرون عن هذا الحريق حقيقة موثوق بها تماماً . على أية حال ، كانت هنالك أسس لتلك الشائعات ، حيث كان نيرون ـ كما ينقل لنا سويتونيوس ـ في طفولته يحب أن يلعب بالحرائق ، وبعد أن أصبح امبراطوراً كان مشغولاً بخطط إعادة بناء روما ويحلم بأن يطلق على المدينة الجديدة اسم « نيروبوليس ».

كما أن تاكيتوس ذاته ينقل لنا أن نيرون اتخذ بعد الحريق بعض الاجراءات لكي يساعد المتضررين من الحريق ، فجُلِب التموين إلى روما وشُيِّدت مساكن مؤقتة ، « لكن سخاء الرئيس(*) . . . . ماكان بوسعه إيقاف الكلام الذي يفضح سمعته والذي يؤكد أن الحريق قد دُبِّر بأمر منه هو »، علماً أن نيرون كان مهتماً بشعبيته اهتماماً استثنائياً . « وهاهو نيرون ، لأجل التغلب على الشائعات ، يعثر على مذنبين ويعرض لأعمال تعذيب في غاية البراعة أولئك الذين استثاروا الكراهية العامة بخساساتهم ، وكان الحشد يسميهم مسيحيين . أما المسيح ، الذي من اسمه اشتُقت هذه التسمية ، فقد أعدمه الحاكم بيلاطس البنطي على زمن

(٦٠) تاكيتوس الحوليات المجلد الخامس عشر ٣٨ .

(٦١) سويتونيوس حياة ١٢ قيصراً نيرون٣٨ وايضاً : ديون كاسيوس التاريخ الروماني 16,XII,I.

(*) الـ PRINCEPCE لقب نيرون الرسمي . ـ المترجم ـ

http://www.al-maktabeh.com

طيباريوس . وهذا المذهب الضار ، الذي كان قد قُمِع لوقتٍ ما ، عاد مجدداً ليخرج الى العلن ليس فقط في يهوذا وحدها التي منها انتشر هذا البلاء ، بل وفي روما أيضاً . . . . في البداية كان يُلقى القبض على اولئك الذين يعترفون صراحة بانتمائهم الى هذه الطائفة ، ومن ثم جرى إلقاء القبض على عدد كبير من الناس الآخرين الذين أشار إليهم هؤلاء ، وقد أدينوا ليس بتدبير الحرائق الأثم بقدر ما أدينوا على كرههم للجنس البشري . وكانت إماتتهم تقترن بالتهزئة . . . . ورغم أن المسيحيين كانوا مذنبين ويستحقون أقسى العقاب ، كانت كل هذه القساوة تستدعي الشفقة عليهم ، إذ كان يبدو للناس أن هؤلاء يبادون ليس لأجل الفائدة الاجتماعية بل نتيجة التعطش للدم لدى نيرون وحده »(٦٢).

كانت المسيحية قد ظهرت منذ أمد قريب جداً ، قبل ربع قرن من الزمن ، ولكنها كانت قد حصلت على انتشار بالغ حين جاء عهد نيرون . فقد ظهرت الطوائف المسيحية بعيداً عن حدود يهوذا ، في مدن آسيا الصغرى واليونان وايطاليا وروما ذاتها . كان المسيحيون بغالبيتهم ينحدرون من عامة الشعب ، وكان هذا بحد ذاته مثيراً للريبة في أعين السلطات الرومانية ، ولكن المسيحيين كانوا بسلوكهم يعمقون تلك الريبة أكثر . إن أحد تجليات المصداقية التي يتصف بها المواطن في الامبراطورية الرومانية كان الالتزام بتقديم ضحية ، مرة واحدة على الأقل ، سنوياً ، في المعبد ، حيث التماثيل التي تؤله الامبراطور وتمثال روما الإلهة التي تجسد مدينة روما . لكن المسيحيين كانوا يسعون بشتى السبل للتهرب من ذلك ، إذ لم تكن ديانتهم تسمح بالسجود للآلهة الوثنية وتقديم الضحايا ، مهما كان الأمر . حتى أنهم ماكانوا ليرغبوا في الحضور أثناء تقديم التقدمات الوثنية . وكانت ديانتهم تبدو للكثيرين تعصباً بربرياً ، وهم أنفسهم يبدون شريرين قادرين على القيام بأية خساسة (١ بط ٢ : ١٢ ، ١٥ ؛ ٣ : ١٦ ؛ ٢ بط ٢ : ١٢)(٦٣)

وقد انتقلت ملاحقة المسيحيين التي أعلن عنها نيرون الى أطراف الامبراطورية ، فأصبح هؤلاء ، فعلياً ، خارج القانون ، وكانوا يُلاحَقون في كل

---

(٦٢) تاكيتوس الحوليات المجلد الخامس عشر ٤٤ .

(٦٣) المرجع السابق .

http://www.al-maktabeh.com

مكان ويتعرضون للتعذيب والآلام . وكان كثيرون منهم يقدمون على تلك الخطوب من أجل إيمانهم بالمسيح ويتقبلون الموت بلا تذمر .

http://www.al-maktabeh.com

لكنه وُجِد بين المسيحيين ، ولا شك ، أناس مستعدون للتبرؤ من المسيح ، على أن يصونوا حياتهم وممتلكاتهم وكان الكثيرون مترددين . وفي هذه السنوات بالذات ، راح كتاب جديد ينتقل بين أيادي المسيحيين في مدن آسيا الصغرى اليونانية ، وهو مؤلف باللغة اليونانية ، لُقِّب فيما بعد بالكلمة اليونانية « apokalypsis » (أبوكاليبس تعني « الرؤيا »)، لأن الكتاب كان يبدأ بعبارة : « رؤيا(*) يسوع المسيح التي اعطاه اياها الله ليُري عبيده ما لابد أن يكون عن قريب وبيَّنه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا » (رؤ ١ : ١).

ويوحنا ، الذي كُتِب الكتاب عن لسانه ، ينبىء اخوته في الايمان بنبأ عظيم يعزيهم : « طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة ويحفظون ماهو مكتوب فيها لأن الوقت قريب » (رؤ ١ : ٣)، أي يجب الصمود أيضاً لبعض الوقت وعدم الارتداد عن دين المسيح ، فقريباً ستحل نهاية كل الآلام وسيحصل الصامدون على المكافأة . هذا هو السر الذي أُطْلِع عليه يوحنا من قبل يسوع المسيح ذاته ، عبر الملاك ، ثم جاء أمر الإله ليوحنا : « والذي تراه اكتب في كتاب وأرسل الى السبع الكنائس » (١ : ١١). وقد رأى يوحنا في عدد من « التجليات » (هاهنا تكمن « الرؤيا » أصلاً) « ما لابد أن يكون عن قريب »، وتحديداً : ستحل قريباً نهاية العالم ، ولكن قبل ذلك سوف يقع الكثير من الأشياء العجيبة والمرعبة . هذا هو ما « أعلِن » عنه ليوحنا وما اعتبر نقله الى الإخوة في الإيمان ضرورياً .

لقد تصرف يوحنا هنا تماماً كما تصرف قبله بقرنين مؤلف كتاب دانيال ، فألف نبوءة حول نهاية العالم ، لكنه ،خلافاً لسلفه ، لم يفكر بنسب مؤلَّفه الى حكيم قديم أو نبي سابق ، بل كشف ، بصراحة وشجاعة ، عن اسمه الحقيقي ـ يوحنا .

عن نفسه يخبرنا يوحنا أنه كان في جزيرة بطمُس ، وهي جزيرة صغيرة في بحر إيجة ، وذلك « من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح » (١ :

(*) في الترجمة العربية « إعلان » ـ المترجم ـ

٩). وفي يوم أحد كان يوحنا « في الروح » (وهذا تعبير شائع لوصف حالة النشوة أو الانجذاب) فانشقت أمامه السماء وشاهد سبع منابر ذهبية (هذا العدد السحري ٧ وكذلك نصفه ٣,٥ موجودان على الدوام لدى الأنبياء القدامى ، ومؤلف « الرؤيا » أحبهما كثيراً وسوف نلتقي بهما لديه أكثر من مرة)، وبين المنابر « شبه ابن انسان ». وبعد ذلك يتلو وصف خيالي لصورة « ابن الانسان »، يسوع المسيح : « وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار ورجلاه شبه النحاس النقي كانهما محميتان في أتون وصوته كصوت مياه كثيرة ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب . وسيف ماضٍ ذو حدين يخرج من فمه وجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها » (١ : ١٣ — ١٦). وعندما رأى يوحنا « شبه ابن الانسان » هذا ، « سقط عند رجليه كميت »، لكن ذاك هدأ من روع يوحنا : « لا تخف أنا هو الأول والآخر والحي وكنت ميتاً وها أنا حي الى أبد الأبدين ولي مفاتيح الهاوية والموت . فاكتب ما رأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا » (١ : ١٧ — ١٩).

في الاصحاحين ٤ و ٥ يتابع المؤلف رواية رؤاه . فقد كان مجدَّداً « في الروح واذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس »، ومن السرد اللاحق يتبين أن « الجالس » على العرش هو الله ذاته . و « في وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء . والحيوان الأول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر . والأربعة حيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها ومن داخل مملوءة عيوناً ولا تزال نهاراً وليلاً تقول قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شيء الذي كان والكائن والذي يأتي ».

حول عرش الإله أربعة وعشرون شيخاً يجلسون أيضاً على عروش ، وأمام عرش الله سبعة مصابيح نار متقدة « هي سبعة أرواح الله »، وعلى يمينه كتاب كان « مكتوباً من داخل ومن وراء » ومختوماً بسبعة ختوم .

إن التفاصيل في الوصف الذي أوردناه لرؤى يوحنا مقتبسه كلها تقريباً من كتاب حزقيال (الاصحاحان ١ و ١٠) وكتاب دانيال (٧ : ٣ — ٩)، والحيوانات الأربعة « المملوءة عيوناً » في الإصحاح الرابع من « الرؤيا »، انتقلت إليها ، مع

http://www.al-maktabeh.com

بعض التعديلات من كتاب حزقيال ، بينما جاءت الأجنحة الستة والتقاديس من كتاب إشعيا (إش ٦ : ٣)، وكذلك تعريف الإله « أنا هو الأول والآخر » (إش ٤٤ : ٦ ؛ ٤٨ : ١٢)، فمؤلف « الرؤيا » فقط أضاف على التعبير الأخير القول اليوناني « أنا هو الألف و الياء » (١ : ٨).

في تلك الأثناء قال أحد الشيوخ ، الذين يجلسون على العروش حول الإله ، ليوحنا أنْ : « هوذا قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا أصل داؤود ليفتح السفر ويفك ختومه السبعة ». وهنا رأى يوحنا أنه قد اقترب من العرش « خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين هي سبعة أرواح الله المرسلة الى كل الأرض »، والخروف هنا هو تصوير ليسوع المسيح كان محبباً جداً لدى المسيحيين ، وأما القرن فكان يُعتبَر رمزاً للجبروت لدى العبرانيين .

وهكذا ، يأخذ « الخروف ـ المسيح » كتاب المصائر العجيب من يد الإله ، مما يرمز الى استتباب سيادة المسيح ، الذي سيأخذ على عاتقه منذ اللحظة كل السلطة كاملة . ثم راح الشيوخ الأربع والعشرون والحيوانات الأربعة يترنمون ترنيمة على شرف الخروف : « مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذُبِحتَ واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك الأرض ». ثم تردد هذه الكلماتِ « ربواتُ ربوات » من الحيوانات والملائكة والشيوخ ، حيث يتبين أن كلها كانت حول عرش الله . بعدئذ سينزع الخروف الختوم السبعة وتبدأ الدراما العظيمة ، دراما نهاية العالم .

في الاصحاح السادس من « الرؤيا » ينزع الخروف أول الختوم السبعة ، فيظهر حصان أبيض وعليه فارس بيده قوس . ومع نزع الختم الثاني يبدو فارس آخر على حصان أحمر وبيده سيف كبير ، فهو قد « أُعطيَ أن ينزع السلام من الأرض وأن يقتل بعضهم بعضاً ». وينزع المسيح الختم الثالث ، فيخرج فارس على حصان أسود وهو يمسك بيده ميزاناً وجاءه صوت من السماء يأمره : « ثمنية قمح بدينار وثلث ثماني شعير بدينار »(*). ثم يُنزع الختم الرابع ، « واذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه ». إن هذه الخيول ذات الألوان الأربعة ليست ، هي أيضاً ، من استنباط يوحنا ، بل انه قد قرأ عنها في كتاب

(*) هذا ثمن باهظ بمقاييس ذلك الزمان .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

النبي زكريا (زك ١ : ٧ — ١٧ ؛ ٦ : ١ — ٥)، وهناك كانت الخيول ترمز الى الأرواح السماوية الأربعة وهي « خارجة من الوقوف لدى سيد الأرض كلها » (زك ٦ : ٥). أما لدى يوحنا ، فإن الخيول هي النذير على الكوارث العظيمة التي تسبق نهاية العالم إيذاناً بإقتراب حلول تلك النهاية . إن وصف التراجيديا السماوية يستخدم لوحات مؤثرة كان يجب أن تترك انطباعاً عميقاً جداً لدى أولئك الذين قرأوا « الرؤيا » في ستينات القرن الأول بعد الميلاد ، ذلك لأن تلك اللوحات كانت تتناغم تماماً مع المصائب الفعلية التي أصابت الامبراطورية الرومانية في ذلك العقد . لقد كانت السنوات الأخيرة من حكم نيرون سنوات حروب لانهاية لها ، وكانت الانتفاضات تندلع في يهوذا وبلاد الغالة ، والولاة الرومانيون ينتفضون ضد نيرون واحداً تلو الآخر ، طامحين في الاستيلاء على العرش . كما هز الجوع روما مراراً وأصيبت إيطاليا بطاعون مريع في عام ٦٥ ميلادي وجرت هزات أرضية هدامة في ايطاليا واليونان وآسيا الصغرى وفي كل الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . كان الفارس ذو الحصان الأخضر ، اذاً ، يجني محصول الموت وفيراً .

لكن تلك السنوات كانت مريعة خصوصاً بالنسبة للمسيحيين ، نظراً للملاحقات التي تعرضوا لها ، وحيث كان كل واحد فيهم ـ من حيث الجوهر ـ مهدداً بالموت .

ثم نزع الخروف الختم الخامس ، فرأى يوحنا أمام المذبح أرواح الذين ماتوا لأجل دين المسيح ، « وصرخوا بصوتٍ عظيم قائلين حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض . فأُعطُوا كل واحد ثياباً بيضاً وقيل لهم أن يستريحوا زماناً يسيراً أيضاً حتى يكمل العبيد رفقاؤهم واخوتهم أيضاً العتيدون أن يُقتَلوا مثلهم » (٦ : ٨ — ١١).

وينزع الخروف الختم السادس ، فيجري عدد من الكوارث الفلكية : « زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسحٍ من شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت الى الأرض كما تطرح شجرة التين سُقاطها إذا هزتها ريحٌ عظيمة والسماء انفلقت كدرْج ملتف وكل جبل وجزيرة تزحزحا من موضعهما ».

إننا نذكر كيف كان أنبياء اسرائيل القدامى ، عندما يهددون الشعب

http://www.al-maktabeh.com

الخاطيء بغضب يهوه ، يؤكون أيضاً أن دينونة الإله سترافقها ظواهر طبيعية مرعبة : كسوف الشمس وخسوف القمر والهزات الأرضية وغيرها . إن مشاهد السماء التي التفت كلفافة والنجوم الساقطة على الأرض مثل حبات التين غير الناضجة هي تكرار حرفي تقريباً لمقطع من كتاب إشعيا (٣٤–٤) وأما الصور الأخرى فيمكننا العثور عليها دونما جهد ، في كتب يوئيل (٢ – ١٠) وحزقيال (٣٢ : ٧ – ٨) وهوشع وملاخي .

فإذاً ، هاهو يوم دينونة الإله الفظيعة قد حل ، والملائكة ـ الهدامون الأربعة يقفون في أربع زوايا الكون وهم مستعدون للقيام بعملهم الشنيع . لكن الملاك الذي « معه ختم الله الحي » يوقفهم قائلاً : « لا تضروا الأرض ولا البحر ولا الاشجار حتى نختم عبيد الهنا على جباههم ». هكذا يتم « ختم » ١٤٤٠٠٠ شخص ، أي ١٢٠٠٠ من كل سبط من أسباط اسرائيل الاثني عشر . كما يرى يوحنا جمهرة لا حصر لها من البشر من كل الأقوام والشعوب ، يقفون أمام عرش الخروف في ثياب بيضاء وفي أيديهم سعف النخيل يمجدون الخروف . ويشرح أحد الشيوخ للرائي : « هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الخروف . من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله والجالس على العرش يحل فوقهم . لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم الى ينابيع ماء حية ويمسح الله كل دمعة عن عيونهم » ٧- : ١٣ – ١٧).

هكذا ، حصل الذين تلقوا الموت لأجل المسيح على ثوابهم .

أخيراً ، ينزع « الخروف ـ المسيح » الختم السابع ، فيحدث « سكوت في السماء نحو نصف ساعة » ويرى يوحنا كيف يقف أمام الإله سبعة ملائكة يمسكون بأيديهم سبعة أبواق ، وملاك ثامن بيده مبخرة ملأها بنار من المذبح و « القاها على الأرض »، « فحدثت أصوات ورعود وبروق وزلزلة ». عندئذٍ ، يرفع الملاك الأول بوقه و « يبوّق »، وهذا ما يفعله بعده الملائكة الآخرون واحداً تلو الآخر (واضح أن أصوات الأبواق تنبيء بحلول « يوم الرب »، وذلك اقتباس من كتاب يوئيل (٢ : ١ ، ١٥). وتنهال على الدنيا كوارث جديدة أكثر هولاً : بَرَد ونار

مخلوطان بالدم واحتراق الأشجار والعشب وسقوط جبال نارية في البحر وتحول المياه البحرية الى دم وموت ثلث الكائنات الحية التي في البحر وغرق ثلث السفن التي في البحر . وبعد أن يبوق الملاك الثالث يسقط على الأرض كوكب متقد مثل المصباح واسمه « الافسنتين »، وهو يصيب ثلث الأنهار والينابيع ، فتستحيل المياه مُرَّةً وسامة و « مات كثيرون من الناس من المياه » (٨ : ١٠ — ١١).

وبعد بوق الملاك الرابع يُضرَب ثلث الشمس وثلث القمر وثلث النجوم و « النهار لا يضيء ثلثه والليل كذلك ». ثم بوَّق الملاك الخامس ، ورأى يوحنا « كوكبا قد سقط من السماء الى الأرض وأُعطي مفتاح بئر الهاوية »، ففتح الكوكب بذلك المفتاح « بئر الهاوية »، فخرج من هنالك دخان كثيف ومن الدخان خرج جراد شنيع الشكل « شبه خيل مهيأة للحرب وعلى رؤوسها كأكاليل شبه الذهب وجوهها كوجوه الناس . وكان لها شعر كشعر النساء وكانت أسنانها كأسنان الأسود . وكان لها دروع كدروع من حديد وصوت أجنحتها كصوت مركبات خيلٍ كثيرة تجري الى قتال . ولها أذناب شبه العقارب وكانت في أذنابها حُمَات » (٩ : ٧ — ١٠). وقيل ليوحنا أن لهذا الجراد ملكه وهو ملاك الهاوية الذي اسمه بالعبرية أَبَدُّون وباليونانية أبوليون (وفي الحالتين يعني اسمه « المُهلِك ») وأن « سلطان » هذا الجراد أن يؤذي الناس طوال خمسة أشهر (الاصحاح ٩). إن المؤلف لم يختلق ، مرة أخرى ، صورة الجراد المريع ذي الأسنان الشبيهة بأسنان الأسود ، بل استعاره من كتاب النبي يوئيل (يوء ١ : ٦ ؛ ٢ : ٤).

بعد بوق الملاك السادس تبدأ صورة خيالية عن هجوم جيش أجنبي عظيم يأتي من جهة نهر الفرات .

بعدئذٍ يظهر ملاك جبار آخر ، يضع رجْلاً على الأرض والأخرى في البحر وفي يديه كتاب مفتوح ، وشرع يتكلم بصوت مثل « الرعود السبعة » عن أسرار المستقبل ، لكنه يمنع يوحنا من تسجيل كلامه ، ثم يرفع يده نحو السماء ويقسم أنه حين يبوق الملاك السابع « لايكون زمان بعد » و « يتم أيضاً سر الله »، كما بشر به الأنبياء القدماء . ثم يتلقى يوحنا أمراً من صوت في السماء بأن يأخذ الكتاب من يد الملاك ويأكله ، إذ أن الملاك قال : « يجب أنك تتنبأ أيضاً على شعوب وأمم

http://www.al-maktabeh.com

والسنة » (١٠ : ٨ — ١١). لقد سبق أن وصف لنا حزقيال مشهداً مشابهاً فيه التهام للفافة كتاب (حز ٣ : ١ — ٤).

يصف الاصحاح الحادي عشر عدداً آخر من « التجليات » التي تلقاها يوحنا ، بما في ذلك رؤيا حول أن « المدينة المقدسة »، أورشليم ، ستعطى للوثنيين الذين سيدوسونها ٤٢ شهراً (ثلاث سنوات ونصف ، أي نصف « أسبوع »). و أخيراً بوّق الملاك السابع ، فحدثت أصوات هائلة في السماء : « صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك الى الأبد » (١١ : ١٥). أما الأربعة وعشرون شيخاً الجالسون على العروش حول عرش الإله انحنوا أمامه وصرخوا : « أتى غضبك وزمان الأموات ولتُعطى الأجرة لعبيدك الأنبياء والقديسين والخائفين اسمك الصغار والكبار وليهلكَ الذين كانوا يهلكون الأرض » (١١ : ١٨).

هنا يتهيأ للمرء أن الرؤيا انتهت : لقد حصل المؤمنون على نبأ فيه تعزية ، فالدينونة قريبة وموعدها تحدد بعد ثلاث سنوات ونصف ، وهو الزمن المتبقي للانتظار والصبر . ولكن تتلو عدة اصحاحات (١٢ — ٢٢) يصف فيها المؤلف سلسلة كاملة من التجليات والرؤى . هاقد ظهرت على السماء آية عجيبة : « امرأةٌ متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد »، « ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد ». كما تظهر على السماء « آية » أخرى : تنين كبير أحمر ذو سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان ، وهو ينوي ابتلاع الطفل الوليد ، ولكن « اختُطِف ولدها الى الله والى عرشه »، وجرت في السماء حرب كبيرة ، حيث أن الملك ميخائيل على رأس جيش الملائكة دخل في معركة مع التنين وملائكته الأشرار ، وانتصر عليهم وألقى بالتنين من السماء : « فطُرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو ابليس والشيطان الذي يضل العالم كله ». وسمع يوحنا صوتاً ينبيء بسقوط ابليس وبحلول زمن الخلاص وبداية مملكة المسيح وسلطانه . لقد غُلِب التنين « بدم الخروف » وبصمود وإخلاص المسيحيين ، « بكلمة شهادة » اولئك الذين « لم يحبوا حياتهم حتى الموت ». أما الذين يعيشون على الأرض فويل لهم ، لأن الشيطان الذي سقط على الأرض غاضب الآن خصوصاً ، وهو يعرف أنه لم يبق له الكثير ، فلذلك غضب على المرأة وعلى « باقي

نسلها الذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع المسيح » (١٢ : ١٧).

إن كل هذه « التجليات » يمكن تفسيرها بسهولة وهي كانت مفهومة - بلا شك - لقراء الكتاب الأوائل : المرأة المتوجة باثني عشر كوكباً هي ، طبعاً ، شعب اسرائيل بأسباطه الاثني عشر . فاسرائيل هي التي يجب أن يولد منها المخلص ، « الممسوح »، والتنين ذو الرؤوس السبعة والقرون العشرة يرمز الى الامبراطورية الرومانية ، ولونه الأحمر هو أرجوان المشالح الامبراطورية ، ورؤوسه المتوجة السبعة هي رمز الأباطرة السبعة الذين حكموا حتى ذلك الحين : أغسطس وطيباريوس وكاليجولا وكلوديوس ونيرون وجالبا وأوتو . أما القرون العشرة فهي ، على الأرجح ، الولاة العشرة الذين يحكمون المقاطعات (على كلٍّ ، هذا الرمز أيضاً مقتبس من كتاب دانيال (٧ : ٨) كاملاً) . أما الطفل المولود « الممسوح » يسوع فقد توجب عليه أن «يرعى جميع الأمم بعصا من حديد» (هذا التعبير أيضاً مأخوذ بشكل حرفي تقريباً من المزمور الثاني ، عدد ٩)، حيث أن المسيح أُخِذ الى السماء ولم يتسنَّ للتنين أن يهلكه .

بعد أن يشبِّه مؤلف « الرؤيا » الامبراطورية الرومانية بالتنين ، يذهب الى أبعد من ذلك : روما هي الشيطان عينه ، ابليس الجبار ، لكنه لن يستطيع أن يسيء الى الذين بيدهم شهادة المسيح ، أي المسيحيين ، وينتصر عليهم ، لابل سيغلبونه بتقواهم وصمودهم ، بما في ذلك باستعدادهم لملاقاة الموت من أجل الإيمان (هذا ، بالطبع ، تلميح واضح الى ملاحقات المسيحيين بعد عام ٦٤) .

في الاصحاح ١٣ يروي لنا يوحنا رؤاه الجديدة . فهاهو على شاطىء البحر ويرى كيف يخرج من البحر وحش فظيع ، له - كما التنين السابق - سبعة رؤس وعشرة قرون ، لكنه من حيث الشكل « شبه نمر وقوائمه كقوائم دب وفمه كفم أسد وأعطاه التنين قدرته وعرشه وسلطاناً عظيماً » . ورأى يوحنا أن أحد الرؤوس « كأنه مذبوح للموت » لكنه شفي . كل الدنيا خضعت للوحش وكل الناس سجدوا للتنين الذي أعطى سلطانه للوحش ، ما عدا أولئك الذين كانت أسماؤهم « مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حيوة الخروف الذي ذبح »، والذين كشفوا عن صبر وإيمان كصبر وايمان القديسين . « الوحش » يعلن الحرب على القديسين : « أعطي أن يصنع حرباً مع القديسين ويغلبهم »، لكن لم يُعطَ أن يظلمهم فترة

http://www.almaktabeh.com

طويلة، بل ٤٢ شهراً فقط ، أي نصف « أسبوع » (مرة أخرى !).

إن المجاز هنا واضح تماماً . فالوحش الخارج من البحر هو من جديد رمز الامبراطورية الرومانية ، وكل سمات هذا الوحش مستعارة من كتاب دانيال (٧ : ٣). لم يكن هنالك ثمة شك لدى مؤلف الرؤيا واخوانه في الدين في ان جبروت روما وسلطة الأباطرة صادران عن الشيطان ذاته . والراس « المذبوح للميت »، الذي شفي فيما بعد ، هو تلميح مفهوم لدى قارىء ذلك الزمان الى نيرون الذي انتفض ضده في عام ٦٨ عدد من الولاة في المقاطعات فانتحر أخيراً ، لكن الشائعات كانت تقول انه حي وسوف يعود .

وهنا يصف المؤلف رؤيا أخرى : « ثم رأيت وحشاً آخر طالعاً من الأرض وكان له قرنان شبه خروف وكان يتكلم كتنين » (أي يتفوه بكلام شيطاني). وبعد أن يستلم هذا الوحش السلطة من الوحش الأول ، يجبر كل الناس على السجود له هذا الوحش الثاني نبي كذاب يصنع معجزات مدهشة ، مغرياً الناس ودافعاً إياهم لأن « يصنعوا صورة للوحش الذي كان به جرح السيف وعاش »، ومن لا يسجد لصورة الوحش يتوجب إعدامه . عدا عن ذلك ، كان يجب ـ بايحاء من الوحش ـ أن « تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم . . . أو اسم الوحش أو عدد اسمه ». وينتهي الاصحاح ١٣ بكلمات غامضة : « هنا الحكمة . من له فهمٌ فليحسب عدد الوحش فانه عدد انسان . وعدده ست مئة وستة وستون »، لكن كان من غير الصعب أبداً على معاصري يوحنا أن يحلوا هذا اللغز . فلدى العديد من الشعوب القديمة ، بمن فيها اليهوذيون ، كان يُرمَز الى الأرقام بمختلف حروف الأبجدية . واذا عوضنا في « عدد الوحش » ٦٦٦ الحروف العبرية ، يمكننا الحصول على كلمتين « نيرون قيصر »، فاذاً ، الوحش الذي أصيب أحد رؤوسه بجرح مميت لكنه شفي يرمز الى روما ونيرون .

يبدو أن المؤلف كان يقصد بالوحش ذي القرنين واحداً من المستشارين المقربين من نيرون ، ربما ذلك الذي شدد قوانين عبادة الأباطرة ، وقد يكون هذا الشخص فرَض نظاماً يقضي بأن يُمنَح الذي « يسجد للوحش » علامة ما « سمة » تشهد على ذلك .

أصبحت حياة المسيحيين لا تحتمل ، أكثر من ذي قبل . هنا يرسم

http://www.al-maktabeh.com

المؤلف ، من جديد ، لوحة وضاءة ومعزية : « ثم نظرت واذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مئة واربعون ألفاً لهم اسم أبيه مكتوب على جباههم » (١٤ : ١) ـ انهم المسيحيون ، الأتقياء الأبرار العفيفون ، « الذين لم يتنجسوا مع النساء فهم أطهار .... الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب . هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف » . ورأى يوحنا ملاكاً طائراً في السماء ينبىء جميع أهل الأرض بحلول ساعة دينونة الرب ، ولكن لايجدر بالمسيحيين أن يخافوا ، فالملاك يقول للآخرين : « خافوا الله وأعطوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة دينونته » . بعد الملاك الأول يطير ملاك ثانٍ يحمل نبأ مفرحاً حول سقوط روما الوشيك : « سقطت بابل المدينة العظيمة » (كان المسيحيون الأوائل ، مثلهم مثل اليهوذيين ، يقارنون روما ببابل التي أصبحت بالنسبة لهم رمز القسر وانعدام الشرف) ، ثم يأتي ملاك ثالث ، يحذر برهبة : « ان كان أحد يسجد للوحش ولصورته ويقبل سمته على جبهته أو على يده فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله .... ويُعذَّب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف . ويصعد دخان عذابهم الى أبد الأبدين ولا تكون راحة نهاراً وليلاً للذين يسجدون للوحش ولصورته ولكل من يقبل سمة اسمه » . لا شك أن كلمات الملاك هذه كانت موجهة ليس فقط الى الوثنيين ، بل والى البعض من المسيحيين الأوائل ممن اعتراهم الضعف وكانوا مستعدين للخضوع لسلطات روما وممارسة الطقوس الوثنية تحت التهديد بالتعذيب والقتل . لكن يوحنا سمع في الوقت ذاته صوتاً يناديه من السماء : « اكتب طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكي يستريحوا من أتعابهم . وأعمالهم تتبعهم » (١٤ : ١٣) : إن المرتدين والصابرين في الايمان سيحصلون على جزائهم ، كل حسب أفعاله . فالأوائل تنتظرهم الآلام الأبدية والآخرون ، حتى ولو ماتوا ، سيلقون النعمة الأبدية .

في هذه الأثناء ، يظهر على السماء سبعة ملائكة آخرون وهم يحملون بأيديهم كؤوس غضب الله السبعة فيصبونها على الأرض كأساً تلو الأخرى ، فتلحق مصائب فظيعة بالجنس البشري : أجساد الناس الذين كانوا يحملون سمة الوحش تتغطى بقروح نتنة ومياه البحر تتحول الى دم والشمس تحرق الأرض بنارها والعتمة تغطي كل مملكة الوحش . ومن جديد تقع الزلازل ويسقط على

http://www.al-maktabeh.com

الأرض برَد عظيم « نحو ثقل وزنةٍ »(*)، فيخرج من فم الوحش والنبي الكذاب ثلاثة أرواح شيطانية « شبه ضفادع » تذهب الى ملوك كل البلدان وتجمع كل قوى الشر ضد قوى الخير ، « الى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هَرْمجدون » (هنا تحوير لكلمتين عبريتين : هارمجدون = جبل مجدون ، ومجدون أو مجيدو اسم منطقة ومدينة في فلسطين ، حيث جرت معارك كثيرة في القِدم : (قض ٥ : ١٩ ؛ ٢ مل ٢٣ : ٢٩ ؛ زك ١٢ : ١١)). ويخبر أحد الملائكة يوحنا بأن مصير « بابل » قد تقرر ، فهاهي دينونة « الزانية العظيمة »، الجالسة على وحش قرمزي له سبعة رؤوس وعشرة قرون ، أي دينونة روما ، قائمة . وفي هذه المرة يكشف الملاك ليوحنا سر « المرأة الزانية » والوحش بشكل أوضح : « المرأة التي رأيت هي المدينة العظيمة التي لها مُلك على ملوك الأرض » ورؤوس الوحش السبعة « هي سبعة جبال عليها المرأة جالسة (معروف أن روما كانت قد بُنيت على سبع تلال . المؤلف) وسبعة ملوك خمسة سقطوا وواحد موجود والآخر لم يأتِ بعدُ ومتى أتى ينبغي أن يبقى قليلاً . والوحش الذي كان وليس الآن فهو ثامن وهو من السبعة ويمضي الى الهلاك . وعشرة القرون التي رأيت هي عشرة ملوك لم يأخذوا ملكاً بعد لكنهم يأخذون سلطاناً كملوك ساعةً واحدة مع الوحش ... و يعطون الوحش قدرتهم وسلطانهم »، « والمرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع »، و « الوحش » ومعه « الملوك » الذين أعطاهم السلطان (أي الولاة) « هؤلاء سيحاربون الخروف والخروف يغلبهم ...» (الاصحاح ١٧).

وهكذا ، فقد سميت « الزانية البابلية » باسمها تقريباً ، انها روما التي عذبت وأفسدت كل العالم وأسالت نهراً من دم المعذبين المسيحيين . والوحش هونيرون ، الذي يعتبرونه ميتاً ولكنه ـ كما كان يعتقد كثيرون آنذاك ، بمن فيهم مؤلف « الرؤيا » ـ لم يمت بتاتاً . في تلك الأيام كان قد ظهر على جزيرة زيتنه(**) في بحر ايجة رجل مدعٍ هو نيرون الكذاب ، وانتشرت الشائعات حوله انتشاراً واسعاً ، وكان كثيرون ينتظرون مذعورين عودته الى روما ، لكن ذلك لم يحدث

(*) ٣٠ كغ تقريباً .

(**) Centa او Zenta. ـ المترجم ـ

فقد أُلقيَ القبض على المدعي وأعدمه والي آسيا الصغرى كالبورنيوس أسبرناتوس . كان القتيل هو خامس امبراطور روماني : خمسة « سقطوا »، أي ماتوا . بعد موت نيرون اعتلى العرش لفترة قصيرة جالْبا ، السادس من حيث الترتيب (٩ حزيران عام ٦٨ — ١٥ كانون الثاني عام ٦٩)، وعنه يقول المؤلف « واحد موجود »، أما السابع ، الذي « لم يأتِ بعدُ ومتى أتى ينبغي أن يبقى قليلاً »، فهو أوتو الذي ملك من كانون الثاني حتى ١٦ نيسان ٦٩ . وبالتالي فإن « الثامن من السبعة »، « الوحش الذي كان وليس الآن » هو نيرون الذي لم يمت ، بل يختبيء في مكان ما وسيعود ولكن الى الهلاك ، لأنه يقترب يوم العقاب الرباني ل « الزانية البابلية » روما ول « الوحش » نيرون .

إن سقوط روما هذا العدو الرهيب للمسيحيين ،يستدعي فرحاًعظيماً في السماء ، حيث كانت مجموعات من سكان السماء تغني ممجِّدة جبروت الله وقائلةً « هللويا ».

ومن جديد يظهر على مسرح السماء « الخروف » ولكن ـ هذه المرة ـ في هيئة رهيبة تبعث الخوف ، فهو يرتدي ثياباً ملطخةً بالدم . والمسيح هنا يجلس على حصان أبيض وخلفه يسير « الأجناد الذين في السماء » وهم أيضاً على خيول بيض وفي ثياب بيضاء : « ومن فمه يخرج سيف ماضٍ لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصا من حديد .... على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب » (١٩ : ١١ — ١٦). ويجتمع ضده « الوحش » وملوك الأرض الخاضعون له وجيشهم ، لكن المسيح ينتصر . فيتم الامساك بالوحش ومعه النبي الكذاب وكلاهما حي ، فيرميان في بحيرة نارية تحترق بالكبريت ، بينما قتل جيشه بالسيف الذي في فم المسيح ، وهاهي الطيور تأكل الجثث .

لكنٍ الأمر لا ينتهي عند القضاء على الوحش والنبي الكذاب ، بل يتلو ذلك « تجلٍّ » آخر : يهبط ملاك من السماء وفي يده مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة ، فيمسك بالتنين ـ الشيطان ويقيده ويلقي به الى الهاوية ويختم عليه ، حيث سيقبع الشيطان ألف عام (٢٠ : ١ — ٣). هكذا تحل مملكة الله لألف سنة . ولكن قبل ذلك يجب أن تتم الدينونة العظيمة . فهاهو يوحنا يرى « عروشاً فجلسوا عليها وأُعطُوا حكماً »، وتقف أمام هؤلاء القضاة « نفوس الذين قُتِلوا من أجل شهادة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يسوع »، الذين انبعثوا وسيملكون مع المسيح ألف عام . إنها القيامة الأولى التي ستمس المختارين فقط .

ويعلم يوحنا في « رؤياه » أيضاً ما سيجري في المستقبل البعيد ، بعد مرور ألف عام : سيطلق سراح الشيطان وسيبدأ بصنع الشر من جديد و « يخرج ليضلَّ الأمم الذين في اربع زوايا الأرض جوج وماجوج » (ورد ذكر ماجوج في التوراة كتسمية شعب ، مابين تسميتين أخريين هما جومر وماداي (تك ١٠ : ٢ ؛ ١ أي ١ : ٥)، ويرى أغلب الباحثين أن جومر لقب الكيمريين ، وهم شعب قديم سكن سابقاً في الساحل الشمالي للبحر الأسود ، الى أن أزاحهم الأسقوثيون نحو آسيا الصغرى في القرن السابع قبل الميلاد . أما ماداي فيعتبره الباحثون لقباً للميديين . ربما كان شعب « ماجوج » يعيش بين هذين الشعبين . وقد رأى يوسف فلافيوس في الماجوج الاسقوثيين (التواريخ القديمة ١١ ـ ٦ ـ ١). أما معنى « جوج » فغير واضح ، حيث وردت اللفظة في التوراة في كتاب حزقيال (٣٨ و ٣٩) كالآتي : « جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك وتوبال »، وهي عبارة صعبة التفسير) وسيحاصرون « المدينة المحبوبة » أورشليم ، لكن نارا ستسقط من السماء وتلتهمهم ، وسيرمى الشيطان مرة ثانية في تلك البحيرة النارية ، حيث يوجد هذه المرة الوحش والنبي الكذاب و « سيُعَذَّبون نهاراً وليلاً الى أبد الآبدين » (٢٠ : ٧ — ١٠).

عندئذٍ ستجري دينونة جميع الميتين في كل الأزمنة ، « صغاراً وكباراً »، وسوف يدين الناس هذه المرة الإله ذاته جالسا على عرش أبيض كبير . وتمر أمام يوحنا لوحات المستقبل ، ينفتح سفر المصائر وسفر الحيوة « ودِينَ الأموات مما هو مكتوب في الأسفار »، « وسلم البحر الأموات الذي فيه وسلَّم الموتُ والهاوية الأموات الذين فيهما ودِينوا كلُّ واحد بحسب أعماله » (٢٠ : ١١ — ١٣). أما الذين ليسوا مكتوبين في سفر الحيوة فرُمي بهم الى البحيرة النارية ، فذاقوا الموت ثانية . ولكن الى نفس تلك البحيرة ألقي بالموت وبجهنم ، فلا موت بعد الآن . دُحِر الشر ، وحلتْ مملكة الحياة الأبدية والنعمة الأبدية على أرض جديدة ، تحت سماء جديدة ، « لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا » (٢١ : ١ ـ قارنْ مع إشعيا ٦٥ : ١٧ ؛ ٦٦ : ٢٢ !!)، ونزلت من السماء أورشليم الجديدة . وهاهو

الملاك يُري يوحنا المدينة الجديدة التي كُسِيتْ أسوارها بالأحجار الكريمة (وصف أورشليم هنا محاكاة لحزقيال . انظر (حز ٤٠ و ٤٢ و ٤٨) للمقارنة)، وفي تلك الأسوار اثنتا عشرة بوابة ، واحدة منها ضخمة مصنوعة من اللؤلؤ ، الخ ، وعلى البوابات أسماء الأسباط الاسرائيلية الاثني عشر . ويلي بعد ذلك وصف خيالي مماثل للمدينة المقدسة التي لن تحتاج إلى مصابيح ، لأنه لن يكون هنالك ليل . وسيمر عبرها نهر الحياة وستنمو في الشوارع أشجار الحياة العجيبة التي ثمرها وورقها « لشفاء الأمم »، ولن يدخل المدينة « إلا المكتوبون في سفر حيوة الخروف »، أي الذين ظلوا أوفياء للمسيح . وسيُنصَب في المدينة عرشان للاله وللخروف ، أما « عبيده » الذين سيسكنون أورشليم الجديدة هذه (أي المسيحيون) فسوف يخدمونه « وهم سينظرون وجهه واسمه على جباههم » (٢٢ : ٣ - ٢).

في الختام ، ينبيء الملاك يوحنا عن لسان الاله : « هاأنا آتي سريعاً . طوبى لمن يحفظ أقوال نبوة هذا الكتاب . . . لا تختم على أقوال نبوة هذا الكتاب لأن الوقت قريب . مَنْ يظلم فليظلم بعدُ . ومن هو نجس فليتنجس بعدُ . ومن هو بار فليتبرر بعدُ . ومن هو مقدس فليتقدس بعدُ . وهاأنا آتي سريعاً واجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله »

وينتهي الكتاب بنداء حار يطلقه المؤلف : « تعال أيها الرب يسوع »!

أما كلمة الوداع التي قالها الملاك « لا تختم . . هذا الكتاب لأن الوقت قريب » فهي ، من حيث الجوهر ، شرح لسبب إصدار هذا الكتاب من قبل يوحنا .

لا شك أن الكتاب كان يترك انطباعاً قوياً لدى قرائه ، فكثرة التفاصيل التي فيه ، والتي تبدو غير واضحة لقارئنا المعاصر ، كانت مفهومة تماماً لدى معاصري المؤلف . لقد كان يبدو لهؤلاء أن كل الأعراض تؤكد ماهو مكتوب في الرؤيا : ففي ذاكرتهم كانت الهزات الأرضية والكسوف وهجوم الجراد وسنوات المجاعة والحروب الدامية والنزاعات الداخلية . ولم يكن اليهود والمسيحيون وحدهم الذين يرون في كل ذلك آياتٍ تنبيء بمصائب أعظم ، بل وكذلك الوثنيون . لكن اليهود والمسيحيين كانوا يقولون صراحة أن تلك أعراض الحلول القريب ل « يوم يهوه »،

http://www.al-maktabeh.com

أي نهاية العالم ومجيء « الممسوح » (لدى اليهود) أو المجيء الثاني للمسيح « لدى المسيحيين)، وكانوا أثناء ذلك يستشهدون بالنبوءات القديمة ، كوصف « يوم يهوه » لدى يوئيل (٢ : ١٠ – ١١)، مثلاً ، أو إشعيا أو غيرهما من الأنبياء . هذا ، بينما كان المسيحيون ينسبون نبوءات مماثلة الى يسوع المسيح . فهاهو الانجيل يروي لنا كيف كان تلاميذ يسوع يسألونه : « . . . قل لنا . . . ماهي علامة مجيئك وانقضاء الدهر . فأجاب يسوع . . . سوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن . . . حينئذٍ يسلمونكم الى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من كل الأمم لأجل اسمي . وحينئذٍ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضاً ويبغضون بعضهم بعضاً . . .» (مت ٢٤ : ٣ – ١٠).

إذاً ، كان يبدو للمسيحيين من قراء « الرؤيا » المعاصرين لمؤلفها أن كل شيء يؤكد حقيقة النبوءة حول الحلول القريب لمجيء المسيح الثاني وليوم الدينونة العظيمة ، حيث سيكافأون مئة ضعف على آلامهم وعلى إخلاصهم للمسيح ، في حين سيُمنَح معذبوهم لأفظع العذابات الأبدية في بحيرة الكبريت المتقد . ثم من الذي يعرف ، كم من المسيحيين مشى في تلك السنوات الى عذاب الموت وفي نفسه أمل وفرحة بالقيامة القريبة ! لاشك في أن كتاب « الرؤيا » لعب دوراً كبيراً في مصير الدين الجديد .

يمكننا تحديد الزمن الذي كُتِبت فيه « رؤيا » يوحنا بما يكفي من الدقة . فالمؤلف يتحدث عن ستة أباطرة رومانيين ، كان سادسهم يحكم في زمن كتابة الكتاب وهو جالْبا ، السادس من حيث الترتيب . وكما قلنا ، فان جالْبا الذي استلم السلطة بعد موت نيرون بقليل ، في ٩ حزيران ٦٨ وبقي في العرش أقل من سنة ، إذ قُتِل على يد الحرس الامبراطوري ، وبعد ذلك اعتلى العرش أوتو لفترة قصيرة (انتحر في ١٦ نيسان ٦٩)، مما يعني أن الكتاب جرى تأليفه في تلك الأشهر بالذات .

لكن من هو مؤلف الرؤيا ؟ من هو يوحنا ؟

يسمي المؤلف نفسه بنفسه : « أنا يوحنا اخوكم وشريككم في الضيقة وملكوت يسوع المسيح وصبره كنت في الجزيرة التي تدعى بطمُس من أجل كلمة

http://www.al-maktabeh.com

الطائفة المسيحية في سميرنة : إنها تسمع كلاماً سيئاً من « القائلين انهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان » (٢ : ٩).

إن أفكار مؤلف « الرؤيا » عكست أول الأطوار المبكرة في تاريخ المسيحية ، حين كان هذا الدين ، كما يقول إنغلس ، « لازال لم يعِ ذاته وكان يختلف ، كبعد الأرض عن السماء ، عن ذلك الدين العالمي الذي ثبتّه دوغمات مجمع نيقية . . . »(٦٤). في ذلك الزمان لم تكن المسيحية قد طورت بعد دوغماتها الأساسية : فلا أثر لدوغمة الثالوث المقدس ، بل على العكس من ذلك ، يظهر أمامنا دائماً الإله الواحد ، القادر على كل شيء ، أي يهوه اليهوذي نفسه ، . . . . . وفي الدينونة العظيمة الأخيرة يجلس على العرش هذا الإله ذاته وليس المسيح ، كما تصور ذلك الأدبيات المسيحية اللاحقة . فيسوع هنا يظهر بمثابة شخصية أدنى مرتبةً ، وهو الذي « ذُبح » كالخروف بمثابة ضحية للتكفير عن أخطاء العالم .

يلاحظ ف. إنغلس أن مؤلف كتاب « الرؤيا » على ما يبدو ، لم يكن يعي بتاتاً « أنه ممثل طورٍ جديدٍ تماماً في تطور الدين ، طورٍ سوف يشكل أحد العناصر الأكثر ثورية في التاريخ الروحي للبشرية »(٦٥). ويكتب إنغلس في مكان آخر معتبراً المسيحية حركةً ثوريةً كبيرة صنعتها الجماهير(٦٦).

فيمَ يرى إنغلس الطابع الثوري للمسيحية المبكرة ؟

لقد كان نشوء الامبراطورية الرومانية عند حدود العهد الجديد انعطافاً اجتماعياً كبيراً ، بالنسبة لأقوام وشعوب كثيرة دخلت في قوام هذه الامبراطورية . وقد أدى ذلك الى تراص قوى الطبقات المسيطرة في مواجهة العبيد والمظلومين وفي مواجهة الشعوب التي سيطرت عليها روما . في مثل تلك الظروف ، كانت أية مقاومة للدولة الرومانية أمراً لاترجى منه فائدة ، وكان المخرج بالنسبة للكادحين والمظلومين يمكن أن يكون فقط في الدين . والمسيحية فتحت أمامهم ذلك المخرج . لقد كان مخرجاً وهمياً الى « المملكة الالهية »، لكنْ لناخذْ بعين الاعتبار أن هذه المملكة الالهية يأتي تجسيدها عبر صراع ضارٍ مع قوى الشر ، حتى ولو

---

(٦٤) ك. ماركس ف. إنغلس المؤلفات المجلد٢٢ ص٤٧٨ .

(٦٥) المرجع السابق .

(٦٦) المرجع السابق المجلد٢١ ص٨ .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

كانت القوى التي تخوض ذلك الصراع قوى ماوراء طبيعية . وكانت المملكة الالهية تتراءى قائمة في المدينة الخيالية أورشليم ، .... التي تقع على الأرض وليس في السماء ، بل هي تنزل من السماء لكي يعيش فيها ليس أرواح بلا أجساد ، بل نفوس تُبعَث حيةً بجسدها ، نفوس استحقت ذلك بصمودها وإخلاصها للديانة . وسوف يجري ذلك ليس في المستقبل البعيد الغامض ، بل العكس . فيوحنا يصف كتابه ، في البداية ، بأنه « رؤيا » عما « لابد أن يكون عن قريب ... لأن الوقت قريب »، والمسيح نفسه يؤكد في الختام « انا آتي سريعاً » (رؤ ٢٢ : ٧).

لانجد في « الرؤيا » بعدُ ، ولا كلمة واحدة عن دين المحبة : « أحبوا أعداءكم .....». فهنا ، كما يشير انغلس « يتم التبشير بالثأر ، بالثأر السافر ، الشريف ، من معذبي المسيحيين »(٦٧). ولا توجد هنا فكرة حول امكانية المصالحة مع روما والسلطة الامبراطورية ، بل الكتاب كله مصبوغ بالحقد على روما . وكم هي بليغة الشماتة التي يصف بها المؤلف سقوط روما المُتخيَّل .

بالطبع ، فان المسيحية المتأخرة ابتعدت عن أفكار « الرؤيا »، وهي لم تتصالح (في القرن الرابع) مع روما والسلطة الامبراطورية فحسب ، بل وأصبحت ـ علاوة على ذلك ـ ركيزة لتلك السلطة . وليس صدفة أن بعض اللاهوتيين المسيحيين كان يطالب باستثناء هذا الكتاب التمردي من قانون العهد الجديد مقترحاً عدم اعتباره « روحياً إلهياً »، لكن الكنيسة المسيحية لم تتجرأ أن تُقدِم على ذلك ، ويبدو أن اسم المؤلف لعب في ذلك الدور الرئيسي .

ان مؤلف « الرؤيا » الذي سمى نفسه يوحنا ، أشار حتى الى المواعيد الدقيقة التي سيجري فيها كل ما كُشِف له : بعد ١٢٦٠ يوماً ، أي ٤٢ شهراً (١٢ : ٦ ؛ ١٣ : ٥). ولكن نبوءات المؤلف لم تتحقق ، كما لم تحل نهاية العالم ولا قيامة الموتى ولم تتجدد الأرض والسماء .

في مقالة « حول تاريخ المسيحية المبكرة » يقول ف. انغلس عن « رؤيا » يوحنا مايلي : « إن التجليات الرؤيوية ... التي يعرضها أمامنا المؤلف مقتبسة كلها ـ وأغلبها حرفياً ا ـ عن نماذج سابقة ... لقد بيَّن النقد بتفصيل بالغ من أين

(٦٧) المرجع السابق المجلد٢٢ ص٤٨٥ .

الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح ». والكنيسة تفهم ذلك بمعنى ان المؤلف هو يوحنا الرسول ، التلميذ المحبوب ليسوع المسيح ، الذي كتب الانجيل الرابع ورسائل يوحنا الثلاث التي دخلت في قانون العهد الجديد .

لكن منذ القرن الثالث الميلادي ، بينّ عالم اللغات والباحث المسيحي ديونيسيوس الاسكندراني أنه من غير الممكن بتاتاً أن تكون كل المؤلفات المذكورة قد كُتِبت من قبل شخص واحد . فكبير هو الاختلاف في الأسلوب واللغة والأفكار : كل الأعمال المذكورة مكتوبة باليونانية ، لكن لغة « الرؤيا » لاتبدو فقط بأنها أقرب الى الصيغة المتأخرة للغة اليونانية ، المسماة « كُويْني »، بل وتتضمن الكثير من الأخطاء القواعدية والتراكيب العبرية ، ما يميزها جوهرياً عن إنجيل يوحنا وعن رسائل يوحنا ، التي كُتِبت بلغة يونانية أكثر أدبيةً ونقاوةً بما لا يقاس .

بين جملة المحاولات التي بُذِلت لحل المسألة المتعلقة بتأليف « الرؤيا » تستحق الانتباه المحاولة التالية : المؤلف ، الذي يسمي نفسه يوحنا ، كان ولا شك ذا منزلة كبيرة لدى المسيحيين الأوائل . فيكفي التمعن في أول أربعة اصحاحات من الكتاب ، حيث يتوجه المؤلف الى عدد من الطوائف المسيحية في آسيا الصغرى ويعطي تقويماً لإخلاصهم لتعاليم المسيح ، فيمتدح البعض ويؤنب البعض الآخر على ما اعتراه من ضعف وولوع بتعاليم « الأنبياء الكذابين » الذين ظهروا هناك ويسمي بعضاً من أولئك « الأنبياء الكذابين » بالاسم . وهو يعرف الحياة السرية لتلك الطوائف معرفة جيدة ويخاطبها بهيبة وقوة تعطياننا الأسس لأن نرى فيه يوحنا الذي كان واحداً من الرسل .

لكن هنالك أسباباً أخرى تجعلنا نرى أن مؤلف الرؤيا هو يوحنا الرسول . فمعطيات الكتاب المسيحيين الأوائل تفيد بأن يوحنا كان مرتبطاً بالديانة القديمة ، اليهودية أكثر من كل الرسل الآخرين . فخلافاً ، مثلاً ، لبولس المسمى « رسول الوثنيين »، الذي وقف ضد طقوس هامة في اليهودية مثل حفظ السبوت والختان ، والذي أعلن أنه لا فرق لدى الإله بين هيليني ويهوذي وإسقوثي ، نقول خلافاً له ، كان يوحنا أقرب الى أولئك الذين سميوا « يهوداً مسيحيين »، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم ليس مجرد يهود ، بل يهوداً أكثر من اليهود الأصليين . ومؤلف « الرؤيا » يقصد الأخيرين تحديداً حين يورد على لسان الله كلمات تعاطف مع

http://www.al-maktabeh.com

http://www.almaktabah.com

اقتبس يوحنا كل صورة وكل آية مهولة وكل كارثة نازلة على البشرية الكافرة ، أي ، باختصار ، كل مادة الكتاب . بالتالي ، فإن يوحنا . . . يبين بوضوح أنه لم يحس - حتى في الخيال - بتلك الانجذابات الوهمية والتجليات كما يصفها »(٦٨) .

هل كان مؤلف « الرؤيا » ذاته يؤمن أن كل شيء سيجري تماماً كما وصفه في كتابه ؟ مَنْ الذي يعرف ؟ ربما كان يؤمن أنه يؤلف بوحي من الله . وربما كان يعي أنه يخدع ، لكنه كان مقتنعاً بأن ذلك ضروري لأجل إنقاذ دين المسيح ، وكان ذلك يبرره أمام نفسه . على أية حال ، كان المؤلف يتوقع أن الناس الذين يتوجه اليهم ، معاصروه وأخوته في الدين ، مسيحيو القرن الأول ، سوف يصدقونه .

لقد كُتِب هذا الكتاب في « موضوع ساخن »، وربما لم يخطر ببال مؤلفه قط أنه سوف تمر قرون عديدة وتتبدل أجيال كثيرة ، يبحث الناس بعدها عن علائم على « نهاية العالم » ومجيء المسيح الثاني و « الدينونة العظيمة » وحلول « المملكة الالهية » في كتابه ، كتاب « الرؤيا »، وأن بعضهم سوف « يعثر » على تلك العلائم (!) .

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

(٦٨) المرجع السابق ص٤٨٤ .

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

خاتمة*

لقد درسنا عدداً من الأعمال الأدبية التي تندرج في قانون « التوراة »، بما في ذلك كل الكتب النبوية ، تقريباً ، ووجدنا أن شخصيات المؤلفين ترتسم بوضوح كافٍ في بعض هذه الكتب . ففيمَ يكمن جوهر هذه الظاهرة التاريخية الفريدة المتمثلة بأنبياء اسرائيل القديمة ؟ حتى أن الأدبيات العلمية تستخدم أحياناً تعبير « الحركة النبوية ». لكن اذا فهمنا « الحركة » ما يُقصَد بها عادة أي : النشاط الاجتماعي لجماعة بشرية ما ، توحدها المصالح المشتركة والأهداف المشتركة ، فإن هذا التعريف يمكن سحبه على الأنبياء العبرانيين فقط ضمن شروط عدة . ذلك لأن هؤلاء ، إذا ما انطلقنا من شهادة كتبهم ذاتها ، كانوا يتقصون في نشاطهم الاجتماعي أهدافاً ليست واحدة بتاتاً . فلا يوجد ، مثلاً ، أسس كافية لأن نرى في كل « المبشرين الشعبيين » أناساً يعبرون عن مصالح وطموحات عامة الشعب المظلومة في اسرائيل القديمة ، رغم وجود أشخاص من هذا القبيل بين الأنبياء . لكن إذا كنا نستطيع أن نجد في الاتهامات الغاضبة التي يوجهها « النبي الذي بين الرعاة »، عاموس ، الى أغنياء اسرائيل وزوجاتهم ، « بقرات باشان »، ما يحسسنا حقيقة بالتعاطف الصادق مع المظلومين وبالحقد على ظالميهم وبالايمان الساذج بامكانية تخويف الأغنياء والوجهاء (ممثلي النخبة الاجتماعية) بواسطة

(*) تمت ترجمة الخاتمة بشيء من التصرف . ـ المترجم ـ

تهديدات عن لسان يهوه ؛ فإن الأنبياء الآخرين كانت تقلقهم مسائل أخرى . فإرميا ، مثلاً ، يشغله الوضع السياسي في البلد ، بينما يهتم « نبيا المعبد » حجي وزكريا بشؤون الكهنوت المتعثرة في أورشليم ما بعد الأسر البابلي ، وهلم جراً . صحيح أن كلًا منهم كان يحشر في نبوءاته بعض الأقوال ، التي تفضح الشر وعيوب المجتمع المعاصرله ، وكان يدعو الى الخير والعدل ، لكن لذلك تفسيراً خاصاً .

لقد كان من الحتمي بالنسبة لأنبياء اسرائيل القديمة ـ كما بالنسبة لأي رجال دين محترفين ، أياً كان هذا الدين ـ أن يتكون لديهم طاقم معين من الطرائق و « الأصول » التي « يُفترَض » بالنبي معرفتها و التقيد بها في سلوكه الطقوسي ، إنْ كان من حيث شكل النبوءة أم من حيث مضمونها . كان ذلك نوعاً من « آداب » النبوة : فعلى النبي أن يعطي « آيات » ويقيم اتصالاً مباشراً مع الإله ويتلقى منه ، في الحلم أو في اليقظة ، « رؤى » و « تجليات »، يكشف فيها يهوه للنبي خططه المستقبلية : « ان يهوه الرب لايصنع أمراً إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء » (عا ٣ : ٧) . وكان « يجدر » بنبي يهوه ، في تبشير ، أن يمجد إلهه ويسخر بكل السبل من الآلهة الأخرى ويهزئها ويهدد اسرائيل ـ على لسان يهوه ـ بعقاب مريع على خياناتها الدائمة إلهها وعلى خرقها للوصايا الالهية و « العهود »، وأن يَعِد بالخلاص و بالمستقبل السعيد اولئك « الراجعين » الذين يتوبون ، وأيضاً أن يَعِد كل أعداء اسرائيل بالموت على يد يهوه .

وكان « يليق » بالنبي أيضاً أن يشجب الشر ويدعو الى الخير ويفضح انعدام الشرف لدى اسرائيل ، بما في ذلك تجليات انعدام العدالة الاجتماعية ، باعتبارها أشياء كريهة لدى الإله العادل القويم . ونحن نعرف أن أنبياء اسرائيل القديمة كانوا يطبقون كل ذلك بأشكالٍ كرسها التقليد وبتعابير معتادة لدى المستمعين والقراء ، وبواسطة صور ومجازات كانت تنتقل من جيل الى جيل ومن نبي الى آخر . وبالطبع ، كان الكثير في مضمون واسلوب النبوءات يتوقف على الموهبة الخطابية (أو الأدبية) لهذا النبي أو ذاك ، على وهجه الداخلي وخياله .

يمكننا العثور ، لدى أنبياء مختلفين تفصل بينهم قرون كاملة ، على تعابير متشابهة الى أقصى الحدود وتكراراً لمقاطع بحالها من نصوص الأسلاف . ولذلك

http://www.al-maktabeh.com

فإننا ، رغم كون حزقيال وزكريا (الأول في القرن السادس والثاني بعده ، في أورشليم ما بعد الأسر البابلي) يكرران كلمات عاموس ، الذي عاش قبلهما بقرنين ، حول « الأرملة واليتيم والغريب والفقير » (زك ٧ : ١٠)، نقول أننا رغم ذلك لا نملك الأسس لاعتبار هذين النبيَّيْن « مبشرَيْن شعبيَّيْن » . فكل الأنبياء كانوا مبشرين دينيين قبل كل شيء ، وكان واجبهم الرئيسي ووظيفتهم الأساسية توطيد ديانة يهوه لدى شعبهم .

لكن الأنبياء العبرانيين كانوا أيضاً رجال لاهوت وايديولوجيين دينيين لعبوا الدور الرئيسي ـ ربما ـ في صياغة اللاهوت اليهودي المبكر والتعليم حول الإله بأفكاره ودوغماته الأساسية .

معروف أن الدين ، من بين كل أشكال الوعي الاجتماعي الأخرى ، يتميز بسمة محافظة خصوصاً وبتقليدية متينة ، ولكن تجري في الدين تغيرات ـ رغم بطئها ـ وهي مرتبطة بالتحولات الطارئة على شروط الوجود الاجتماعي . وهذه التغيرات ، التي تتم بدايةً في الوعي الديني الجماهيري ، تُصاغ فيما بعد من قبل اللاهوت ، على شكل منظومات « وصايا » ودوغمات وما شابه . يقول د. أوغينوفيتش أن اللاهوت « بغض النظر عن سمته المحافظة وتقليديته وسكونيته (ستاتيكيتية) الظاهرة ، . . . مثله مثل الوعي الديني برمته ، يعكس التحولات الاجتماعية بحساسية »(٦٩). إن هذه الملاحظة تصدق تماماً على لاهوت الأنبياء العبرانيين ، كما هو معكوس في كتبهم .

استمر نشاط « الأنبياء ـ الكتّاب » عدة قرون ، ونحن نعرف أية تحولات جوهرية جرت خلال ذلك الزمن في الوجود الاجتماعي لاسرائيل القديمة . وكان يجب على تلك التحولات أن تنعكس ، حتماً ، انْ كان على الوعي الديني الجماهيري أم على وعي الأنبياء أنفسهم ، . . . . أن تنعكس وتؤدي الى تغيرات في مفاهيمهم عن الآلهة عموماً وعن الاله خصوصاً ، . . . . عن موقف الاله من شعب اسرائيل

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

(٦٩) د . م. أوغرينوفيتش حول خصوصية الوعي الديني . ضمن كتاب « مسائل الالحاد العلمي » موسكو ١٩٦٦ ص٥٤–٥٦ .

ككل وكذلك العلاقات بين الاله وبين شخصية الانسان الفرد ، الواحد .

لقد أكد تحليل كتب الأنبياء أن تلك التغيرات كانت تجري فعلاً في ديانة العبرانيين ، ولكنه تبينّ أيضاً كم كان كبيراً الدور الذي لعبته السمة المحافظة والنزعة التقليدية المشار اليهما كائنتين من خصوصيات الوعي الديني . هكذا ، مرت ديانة يهوه بعدد من الأطوار ، بدءاً بالأشكال البدائية وانتهاءً بالأشكال الأكثر رهافة ، فمن تعدد الآلهة ، عبر وحدانية العبادة الى التوحيد الشمولي ، الأكثر تجريديةً . فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد ، رأى النبي عاموس في يهوه ذلك الإله الذي يقرر ليس فقط مصير اسرائيل ، بل ومصائر الشعوب الأخرى أيضاً . أما لدى إشعيا الثاني ، فإن يهوه ذاته يعلن وحدانيته بمثابة دوغما : « أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري » (إش ٤٤ : ٦). ورغم أن اللاهوت في أية ديانة ينمو على أرضية الوعي الديني الجماهيري ، يستحيل أن تكون دوغمات اللاهوت مطابقة للايمان الديني العادي . لنتذكر الشكاوى المريرة للأنبياء الأوائل حول أن شعبهم لا يفهمهم ويقرب الضحايا أمام أصنام بعل وعشتروت ، وهو إن كان يتعبد ليهوه فإنه يفعل ذلك أمام تمثال « العجل ». وبما أن الأنبياء كانوا عبارة عن ممثلين لشعبهم ورجال عصرهم ، فإن سوية وعيهم الديني لم تكن أعلى بكثير من السوية العامة . لذا نجد لغة الأنبياء غاصةً بالتشابيه البشرية فيما يخص شكل وسلوك يهوه ، كما نلتقي دائماً بتعابير من نوع « أرد يدي عليك » (اش ١ : ٢٥) أو « تقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون . . . » (زك ١٤ : ٤)، ويجب أن نرى في ذلك ليس مجرد تعابير تصويرية ومجازات فحسب . يمكن عدم التشكك في أن الإله ، حتى في خيال النبي ، لم يكن تجريداً بلا شكل ، شبهاً خيالياً للانسان . فهاهو حزقيال ، معاصر إشعيا الثاني في مرحلة الأسر البابلي ، يشاهد يهوه على هذه الهيئة بالذات في « تجلية »: « على شبه العرش شبه كمنظر انسان عليه من فوق » (حز ١ : ٢٦).

طبيعي أن تصورات الأنبياء المتأخرين زمنياً أضافت الى سمات إله اسرائيل القديم ، يهوه تسيباووث (يهوه رب الجنود)، سمات جديدة للإله العالمي ، ملك العالم كله وكل الشعوب ، كما أن نظام البلاط لدى ملوك بابل وفارس العظماء أوحى بصورة البلاط السماوي ليهوه : الإله ذاته جالس على عرش ، تحيط به

http://www.al-maktabeh.com

« زُمَر » الأرواح ، الملحقة بالبلاط والتي تمجد سلطانها ، بينها سبعة أرواح أساسية ، وأحدهما « على جانبه دواة كاتب » (حز ٩ : ٢)، وثمة أرواح خاصة على خيول بأربعة ألوان تجوب الكون كله وتقدم التقارير للإله عن الخلل في مملكته ، بينما أحد الأرواح ينفذ وظيفة خاصة كوظيفة المفتش الملكي السري لدى ملوك فارس ، فالشيطان هو « عين الملك » و « الواشي » (زك ٣ ؛ ٦). ويستعمل يهوه ، لأجل التنقل في مملكته ، مركبة سحرية ، تحملها على أكتافها « الخيروبيم » ـ هكذا يُلمَس التأثير البابلي والفارسي في كل تفاصيل الوصف .

إن يهوه لم يكتسب فقط السمات الخارجية للمستبد الشرقي ، بل ومزايا طبعه أيضاً ، حيث الرأفة تختلط مع القسوة والغضب تتلوه الشفقة والندم ، وحيث بعد العدل تعسف . أما الاهتمام الرئيسي فأصبح الإكثار من المجد الخاص والعظمة الذاتية ، فهاهو إله إشعيا الثاني يصرح بذلك شخصياً ويفخر : « أنا يهوه هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر »! (إش ٤٢ : ٩).

كما نرى فإن القديم كان يختلط بالجديد ، ليس فقط في الوعي الديني الجماهيري ، بل وفي وعي الأنبياء أيضاً ، حيث كانت التصورات الفظة ، الأرضية ، عن الاله تمتزج بمفاهيم أكثر رهافةً وروحانيةً وأخلاقيةً . يقول إنغلس : « ان الدين يحافظ دائماً على احتياطي معين من التصورات الموروثة عن الأزمنة الماضية »(٧٠). أضف الى ذلك أن أنبياء اسرائيل القديمة كانوا رجال عصرهم ، وبالتالي كانوا يوجهون نبوءاتهم الى معاصريهم وأبناء قومهم وليس الى الأجيال القادمة من كل الشعوب . كان وعي الأنبياء ووعي مستمعيهم وقرائهم مشروطاً ومحدوداً بظروف وجودهم الاجتماعي .

عاش « الأنبياء ـ الكتاب » في قرون كانت مملكتا اسرائيل القديمتان تشهدان فيها تفكك العلاقات القبلية الأبوية وكان الفلاحون يعانون من ظلم الوجهاء الأغنياء المستغِلين ويفقدون الأرض ويسقطون في براثن الفقر ، لابل وفي أسر العبودية أحياناً ولا يرون أي مخرج من مصائبهم . وكان الأنبياء يعكسون مشاعر العجز واليأس هذه لدى جماهير الشعب الواسعة وحقدها العاجز على ظالميها ، كما

(٧٠) ك. ماركس ف. انغلس المؤلفات المجلد٢١ ص٣١٥ .

http://www.al-maktabeh.com

يرسمون لمستمعيهم صورة يهوه المريعة ، صورة الاله العادل والقويم الذي يتوجه الى الوجهاء والأغنياء بتحذيرات صارمة : « ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبق موضع . فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض » (اش ٥ : ٨).

لكن الإله ، الذي يطالب بالرأفة تجاه الفقير والأرملة واليتيم ، لا ينبس ببنت شفة ، في أي كتاب من كتب الأنبياء ، حول إدانة العبودية كظاهرة لا أخلاقية وغير منسجمة مع الورع الحقيقي والتقوى . وهو لايدينها بالذات لأن العبودية ، في مجتمع ذلك العصر الذي عاش فيه الأنبياء ، كانت قد أصبحت مؤسسة اجتماعية راسخة ومعترف بها ، وكان الدين موافقاً عليها . وليس صدفة أن تسميه شعب اسرائيل ، في أحاديث الأنبياء ، أصبحت فيما بعد « عبد يهوه ».

كان الأنبياء يبشرون أمام الشعب الذي يعيش في خوف أبدي ، بانتظار الهجمات التي تهدده بالافلاس والموت والعبودية الأبدية ، فكانوا يصورون الاله يهوه لمستمعيهم بالشكل الذي كانوا هم أنفسهم أو مستمعوهم وقراؤهم يريدون رؤيته : إله عالمي ، خالق كل الموجودات ، ملكٌ على كل الشعوب وملوكها ، وفي الوقت ذاته : اله اسرائيل القومي وحاميها ومخلّصها . ولم يكن الاسرائيلي القديم يرى تناقضاً في كون يهوه (الذي يدعو الى عمل الخير فقط والعودة عن الشر والذي سيقيم قريباً مملكة الحق والسلام الأبدي على الأرض) ينوي في الوقت ذاته أن ينتقم بقسوة من الشعوب المعادية لاسرائيل : « لأن ليهوه سخطاً على كل الأمم وحمواً على كل جيشهم . قد حرمهم دفعهم الى الذبح .... ليهوه سيف قد امتلأ دماً .... لأن ليهوه يوم انتقامٍ سَنَة جزاءٍ من أجل دعوى صهيون » (إش ٣٤ : ٢ — ٨). وعندئذٍ ستستولي اسرائيل نفسها على ثروات كل الشعوب التي نهبتها سابقاً وسوف تستعبد الذين استعبدوها .

اذا انطلقنا ، أثناء تناولنا لتاريخ البشرية ، من الموضوعة الماركسية الهامة حول الربط بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، يمكننا رؤية التوازي التالي : خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، كان يجري في اليونان ـ كما في المملكتين العبرانيتين اسرائيل ويهوذا ـ تكوُّن المجتمع الطبقي العبودي ، الذي ترافق ـ كما لدى العبرانيين / مع الافلاس الجماعي وفقدان الفلاحين لأراضيهم

http://www.al-maktabeh.com

وانتشار المزارع الواسعة ومظاهر الظلم والتعسف من جانب النخبة الحاكمة . وفي اليونان تلك ، كان الشاعر هيسيودوس ، وهو من أصل فلاحي « من قرية أسكرا الحزينة » يرى ـ كما يرى معاصره اليهوذي النبي عاموس ـ أن سبب المصائب التي تحل بجماهير الشعب هو الباطل الذي يمارسه حكام الشعب والذي يستدعي غضب الاله على الشعب كله :

. . . . . ويعاني
شعب كامل لأجل باطل الملوك ،
الذين أزاحوا بظلمهم ، عن عمد ،
الحق عن مساره القويم .

أما حنين الفلاحين الى الماضي البطريركي ، الذي أضفيت عليه صفة المثالية ، فقد عكسه هيسيودوس في أسطورته عن « العصر الذهبي »: في الماضي البعيد كان كل الناس يعيشون حياة ناعمة ، في ظل وفرة الثمار التي تعطيها « الأرض واهبة الخبز »، دون أن يعرفوا التقسيم الى أغنياء وفقراء . كذلك كان أنبياء اسرائيل القدامى يعزون مستمعيهم فيرسمون أمامهم لوحات « العصر الذهبي »: ولكن في المستقبل البعيد ، في « مملكة الله » الرسولية .

كان الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو ، معاصر أنبياء اسرائيل المتأخرين (القرن الرابع قبل الميلاد) يعلم أن الناس ينقسمون الى أحرار وعبيد « من حيث الطبيعة »: اليونانيون « بطبيعتهم » أحرار ، وكل « البرابرة » أي غير اليونانيين ، عبيد . إنهم من طبيعة أدنى ولذا فهم مخصّصون للعبودية ، وبالنسبة لهؤلاء « من الفائدة والعدالة بمكان أن يكونوا عبيداً » («السياسة » ١ ، ٢ ، ١٥). من هنا فان الحروب ضد البرابرة ، بقصد الاحتلال والأسر والاستعباد ، هي أمر عادل كصيد الوحوش («السياسة ١ ، ٣ ، ٨).

وكان الأنبياء العبرانيون يبشرون باستثنائية اسرائيل وبحقها في نهب الشعوب الأخرى واستعبادها في « آخر الأيام »، مستندين في ذلك الى موقف يهوه الخاص من العبرانيين ، حيث اسرائيل هي « الشعب المختار » والوحيد الذي عقد الإله معه « عهداً » . أما أرسطو فكان يعلل لحق اليونانيين في أن يكونوا أحراراً وفي أن يصطادوا البرابرة كالوحوش البرية و « يقتنوا » العبيد ، منطلِقاً من تفوق،

http://www.almaktabeh.com

« طبيعة » اليوناني على « طبيعة » « البربري ». ولم يكن لا الأنبياء المتأخرون اليهوذيون ولا أرسطو وأتباعه يعتبرون أن تعاليمهم تتناقض مع مفاهيم التقوى والعدالة ، لأن وعي أولئك وهؤلاء كان يُحدَّد ويُشترَط من قبل ظروف وجودهم الاجتماعي .

كتب العالم السوفيتي المختص في تاريخ شعوب الشرق القديم إ. دياكونوف ، في معرض تقويمه العام للحركة النبوية ، قائلاً : « كانت حركة الأنبياء متناقضة الى أقصى درجة . فقد كانوا يقفون ضد الشرور الاجتماعية الرئيسية في عصرهم ويفضحون الكثير من الغيبيات المنفِّرة ، ولأول مرة حاولوا إدخال تيار أخلاقي الى الديانات البدائية القديمة القائمة على السحر والطقوس .... لكنهم ، في الوقت ذاته ، كانوا يعتبرون تناقض العبيد ومالكي العبيد شيئاً مُعطى مرة والى الأبد ، وكانوا بهيبتهم يدعمون النظام الملكي الذي يميل أكثر نحو الاستبداد ، كما أنهم بشروا ، فعلياً ، بعزل شعبهم عن الثقافات المجاورة ، وكانوا ، تقريباً ، أول أنصار التعصب في الزمن القديم »(٧١).

(٧١) إ. م. دياكونوف . شعر ونثر الشرق القديم ص٥٤١ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الفهرس

- مدخل ٥
- أنبياء اسرائيل القدامى ٢٧
- الأنبياء الكتاب ومشكلة تبرير يهوه ٦٩
- انبياء في الأسر البابلي ١٧٢
- انبياء مرحلة مابعد الأسر ٢٠١
- المخرج من ازمة التبرير - اكتشاف
الثواب الأبدي . كتاب دانيال ٢٤٥
- نبوءات العهد الجديد « الرؤيا » ٢٦٩
- خاتمة ٢٩٣

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

صدر حديثا عن دار الينابيع

١ ـ حكايات ابن العم (سلسلة الأدب الساخر ـ١ـ) .... حسيب كيالي

٢ ـ مختارات من القصة التركية الساخرة (سلسلة الأدب الساخر ـ٢ـ)

اختيار وترجمة : عبد القادر عبد اللي

٣ ـ كيف ينقلب كرسي (سلسلة الأدب الساخر ـ٣ـ) .... عزيز نسن

ترجمـــة : عبد القادر مصطفى

٤ ـ تحت خط المطر (قصص قصيرة) .... وليد معماري

٥ ـ المجتمع المدني والعلمنة .... محمد كامل الخطيب

٦ ـ المرأة العربية السورية بين الواقع والطموح .... ليلى أبو شعر

٧ ـ مبادىء للثوار .... برناردشو

ترجمـــة : عبد المعين الملوحي

٨ ـ بيـن ضفتيـن (روايـة) .... وجـدي مصطفـى

٩ ـ حالنا وحال هذا العبد (قصص قصيرة) .... غالية قباني

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يصـدر قريبـا

ما حدث وما لم يحدث (قصص قصيرة) .... حاتم علي
الأنسة صبحا (سلسلة الأدب الساخر) .... حسن م. يوسف
امرأة تكسر الظهر (سلسلة الأدب الساخر) .... خطيب بدلة
من الأدب الروسي الساخر (سلسلة الأدب الساخر) ترجمة : د. نزار عيون السود
مديح شاسع للقش (شعر) .... عبد السلام حلوم
حياة في الكفاح .... ترجمة : منيـرة مصطفـى

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين